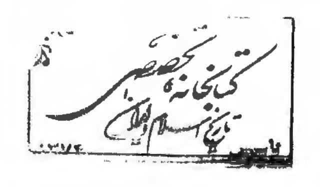


سهيل قاشا

التوراة البابلية



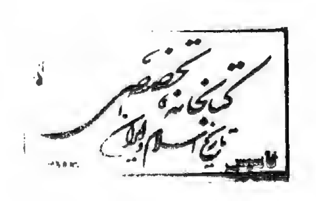
التوراة البابلية

إيضاح

الكتاب في أصله بحث قدّمه المؤلف في المؤتمر العلمي الرابع لكلية التربية/ جامعة الموصل (آذار 1987) وفاز بالمرتبة الأولى. وقدّم الى المؤتمر العلمي الحادي عشر لجامعات العراق الذي أقيم في بغداد (نيسان 1987) وفاز بالمرتبة الأولى أيضاً، وكان البحث بإشراف الدكتور جابر خليل التكريتي أستاذ التاريخ القديم والآثار في جامعة الموصل فله الشكر الجزيل مع عمق الاعجاب والتقدير. واعتبر البحث بحثاً للتخرج.

سهيل قاشا

التوراة البابلية





* التوراة البابلية.

* تأليف: سهيل قاشا.

* الطبعة الأولى: آب 2003 م.

ISBN: 9953-417-25-3

* الناشر:

الفرات للنشر والتوزيع

- ص. ب 113-6435 بيروت - لبنان
- هاتف: 961-1-750054 - فاكس 961-1-750053

* التوزيع عبر الانترنت:

www.alfurat.com

الاهداء

الى روح والديّ

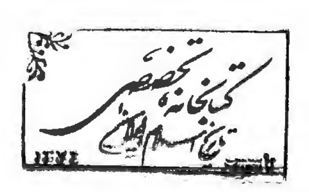
الشماس بطرس متّي قاشا

وسوسن يعقوب عولو

اللّذين أدّباني

واحسنا تأديبي

س. ق.





المقدمة

نشطت في بداية القرن التاسع عشر، الدراسات الكتابية بنشاط التنقيبات الآثارية التي جرت في بلادنا الحبيب، وادي الرافدين العراق، وما استخرجه العلماء المختصون من الواح وكتابات سومرية وأكادية وبابلية وآشورية وكلدانية وغيرها، فراح اليهود يطبّلون لهذه الدراسات ويزمرون كأنها اتت للتأكيد لما ورد في كتابهم (التوراة)؛ إلاّ أن التحليلات العلمية النزيهة بيّنت عكس ذلك، فانقلب السحر على الساحر، وأماطت اللثام عن الفضائح والسرقات وبالبرهان القاطع ان هذه النصوص الأدبية العراقية، والأفكار الفلسفية الأولى للإنسان العراقي القديم، لعبت دوراً كبيراً في الأدب العبراني والعقلية اليهودية المتمثلة في كتابهم التوراة، إذ سطوا عليها، وضمّنوها في نصوصهم المشبوهة، ان لم نقل وظّفوها لغاياتهم المبيّتة المقيتة لطمس تراث الشعب العراقي القديم والشعوب الأخرى المجاورة لهم جغرافياً، وخدمة لأغراضهم الدنيئة.

هذا أولاً؛

والأمر الثاني،

وجدت عدداً من الدراسات تحمل عناوين لفتت انتباهي مثل: التوراة الهيروغليفية، التوراة السامرية، التوراة الكنعانية، التوراة الاوغاريتية، التوراة اليمنية، التوراة آتية من جزيرة العرب وغيرها كثير فانتبهت ووجدت من باب أولى ان تكون «التوراة البابلية.. هي الكتاب الأصح موضوعاً والأدق تعبيراً في واقع الموضوعية العلمية لما هو موجود في التوراة العبرية من نصوص صريحة مسلوخة من أصولها سيما ونحن أمام حملة شعواء لسرقة التراث العراقي الأصيل من قبل اللقيطة اسرائيل وبكل وقاحة، اذ هي تعاني واليهود جميعاً من «عقدة بابل» فتطمع وتطمع لو تقضي على هذا الذي اسمه «بابل وآشور والعراق» لأنه كان بالمرصاد لجميع تحركاتهم المشبوهة وخداعاتهم وحيلهم وتخرصاتهم، فأسقط العراقيون (آشوريون وبابليون) دولهم المزيفة (يهوذا وإسرائيل) وما زال العراق وشعبه كالطود الأشمّ واقفاً أمامهم بكل منعة وشموخ التاريخ والحضارة.

في نيسان 1977، ومن على منبر الندوة الأولى للتراث الشعبي العربي والتي عقدت في

بغداد كنت قد تكلمت عن فضيحة اسرائيل التي سرقت لفظة «الشيقل» واعتبرتها إسماً لعملتها النقدية المزيفة، علماً ان كلمة الشيقل وردت في اقدم نصّ عراقي الا وهو «مسلّة حمورابي» العائدة الى الألف الثاني قبل الميلاد. ويومها أعلنت تصميمي وعزمي على كتابة هذه الدراسة «التوراة البابلية» التي أتت حصيلة مطالعات عديدة لعشرات الكتب والبحوث والدراسات ان لم اقل المئات سندرجها في آخر هذا الكتاب كقائمة للمصادر والمراجع يستفيد منها كل طالب علم وباحث عن الحقيقة.

واليوم، وبعد مسيرة ربع قرن من الزمان يولد هذا الكتاب «التوراة البابلية» كثمرة يانعة إذا اعتكفت طوال هذه المدة على الدرس والتمحيص والتحقيق والتدقيق والمقابلة فكتبت مقالات وبحوث عديدة بهذا الميدان وتوجتها بكتابي «أثر الكتابات البابلية في المدوّنات التوراتية» الذي صدر هنا ببيروت عام 1998. وانا لا ابغي ولا أطمع من ورائها شهرة ولا تقديراً، إنما واجب عليّ خدمة وطني وحضارتي وتراثي وأضع لبنة في صرح الفكر الانساني سيما الفكر العراقي العريق.

قسمت هذه الدراسة وجعلتها على ثلاثة محاور:

الأول: يتناول الأدب القصصي والملحمي بما ورد في أسفار التوراة وألواح سومر وبابل وآشور مثل قصة التكوين والخلقة والطوفان.

الثاني: الشريعة والحكمة وما ورد من مطابقة واقتباس من قانون حمورابي وحكمة أحيقار الآشوري وما جاء في التوراة من تشريع وأمثال وحكمة في أسفار الأمثال والجامعة ويشوع بن سيراخ.

والثالث: التطابق بين الشخصيات في كلا الأدبين العراقي القديم (السومري والبابلي والآشوري) والأدب العبري اليهودي مثل طوبيا واحيقار، سرجون وموسى، آدابا وآدم، وأيوب وقائين وهابيل وغيرها.

اضافة الى المقدمة والتمهيد والملاحق النصية لقصة الخلقة البابلية (انيوماايليش) والطوفان (ملحمة كلكامش، ونشيد الأناشيد وغيرها، ثم الخاتمة وقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها أو استفدت منها.

ومن هنا يحق لنا ان نهتف

«العراق نور لا ينطفىء»

«العراق نبع لا ينضب»

«العراق حضارة لا تموت»

«ففيه ولدت الكلمة، والكلمة كانت نور الناس»

«فيه كانت الحياة، والحياة استمرت فيه بالإنتاج علماً وادباً واصالة».

دير يسوع الملك

1 تشرين الثاني 2001

عيد جميع القديسين

تمهيد تاريخي

قبل ان نتناول بالدراسة والبحث أوجه الشبه والتطابق فما ورد في الألواح المسمارية وأسفار التوراة، نمهّد لذلك بإيراد بعض الملاحظات التوضيحية عن خصائص الأدب العراقي القديم وميزاته العامة، وميزات النص التوراتي وتاريخيته.

قِدَم أدب وادي الرافدين

يُعد أدب حضارة وادي الرافدين أقدم أدب أنتجه الإنسان بما أجمع عليه الباحثون في تاريخ الحضارات القديمة، فكان بذلك أولى المحاولات في تاريخ الانسانية للتعبير عن الحياة وقيمها ومعانيها بأسلوب الفن الأدبي ولكي لا يكون هذا الرأي من قبيل ارسال القول على عواهنه ينبغي الا نكتفي بمجرد الاستشهاد بإجماع الباحثين، بل ندلل على ذلك بانتهاج أسلوب البحث العلمي بأن نقارن ما بين زمن أدب وادي الرافدين وبين أزمان آداب الحضارات القديمة الأخرى. وموجز ما يقال بهذا الصدد أنه على الرغم من أن الزمن الذي دونت فيه أشهر النصوص الأدبية في حضارة وادي الرافدين لا يتجاوز أواخر الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد الا أن تلك النصوص الأدبية قد تمّ إبداعها وإنتاجها في أزمان أقدم من عهد تدوينها، وقد تناقلتها الأجيال المتعاقبة بالرواية الشفهية فوقع فيها الكثير من التطور الى ان بدأ القوم يدونونها في ألواح الطين بأشكالها النهائية الأخيرة التي جاءت فيها الينا منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.

فإذا قارنا قدم هذا الأدب، سواء كان ذلك من ناحية زمن ابداعه أم زمن تدوينه، بأقدم آداب أنتجتها الحضارات القديمة وجدناه يسبق جميع ما أنتجه الفكر البشري بعشرات القرون. فبالمقارنة مع حضارة مصر القديمة مثلاً لم يأتنا شيء من أدبها من عصر ازدهارها في العصر المسمى في تاريخ حضارة وادي النيل بعصر الاهرام (الألف

الثالث قبل الميلاد). أما الكنعانيون الذين كانوا من أشهر وأكبر الأقوام السامية التي استوطنت الأقسام الساحلية من بلاد الشام، فقد خلفوا نتاجاً أدبياً مهماً يرقى في زمنه الى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، كما أظهرت ذلك الاكتشافات الآثارية الحديثة في المستوطن الكنعاني القديم المسمى «أوغاريت»[1]، أي ان زمن هذا الأدب الكنعاني متأخر بالنسبة الى أدب حضارة وادي الرافدين بما لا يقل عن خمسة قرون.

ونأخذ الأدب العبراني على سبيل المقارنة حيث لا يتعدى زمن أقدم نتاج له، ممثلاً بأسفار التوراة، القرن السادس قبل الميلاد، أي أنه متأخر عن عهد أدب العراق القديم بعشرات القرون.

ونسوق للمقارنة أيضاً أقدم أدب أنتجته الحضارة الاغريقية ممثلاً بالأوديسة والإلياذة المنسوبتين الى هوميروس واللتين لا يتجاوز زمن تدوينها القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد على أكثر تقدير. ومثل هذا يقال عن أقدم أدب خلفته الهند القديمة، ونعني نصوص الـ «رِك فيدا Rig Vida».

وسيتضح من الأمثلة التي سنوردها في هذه الدراسة عن النصوص المسمارية في العراق القديم والأسفار التوراتية للمقارنة والمطابقة انه على الرغم من سبق هذا الأدب جميع الآداب العالمية المشهورة التي أشرنا إليها، فإنه لما يثير الدهشة في الباحث الحديث ان يجد ذلك الأدب الموغل في القدم يتميز بالمقومات الأساسية التي تميز الآداب العالمية الشهيرة، سواء كان ذلك من ناحية الأسلوب وطرق التعبير أم من ناحية الموضوع والمحتوى والصور الفنية المعبرة، والأصالة والجرأة وأهمية الموضوعات التي تناولها..

وبالإضافة الى صفة القدم فإن أدب حضارة وادي الرافدين يتميز على الآداب القديمة بخاصة أخرى مهمة، تلك هي أن معظم تلك الآداب القديمة قد طرأ عليها الكثير من التحوير والتبديل والحذف والأضافة على أيدي النساخ والجامعين والشراح، في حين أن الأدب السومري والبابلي قد جاء بهيئته الأصلية غير محوّر كما دوّن بأقلام الكتبة على ألواح الطين قبل نحو (4000) عام[2]. وهي الألواح المدونة بالخط الذي أطلق عليه مصطلح الخط المسماري.

ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أنه مع هذا القدم الموغل في الزمن فإن أدباء

(1) راس الشمرا الآن بالقرب من اللاذقية. راجع ذلك لدى، طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الثاني، بغداد 1956.

(2) عن الخط المسماري وأصله وحلّ رموزه راجع كتاب الاستاذ طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج 1، ط 3، 1973.

العراق القديم عدّوا أنفسهم حديثي العهد في الحضارة وأنهم ورثاء ماضٍ مجيد متقادم العهد، تخيلوه على هيئة «عصر ذهبي» كان السلام والخير يسودان الأرض فيه، فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء ولا حيوانات مفترسة تنازع الإنسان البقاء، وكان «البشر بلسان واحد يمجدون الآله انليل» كما ورد ذلك في احدى الأساطير السومرية[3]. ولا يخفى ان هذه الفكرة التي تصوّر عهداً متخيلاً كان البشر فيه أسعد من عصرهم الراهن قد انتشرت الى كثير من الأقوام على هيئة «الماضي الذهبي» ولم تتمكن فكرة «التقدم» من الانتشار الا في العصور الحديثة، ولا يزال الكثير من أهل العصر الحاضر من يتصور وجود ذلك «الماضي الذهبي».

فإذا كانت مصادرنا عن أدب العراق القديم النصوص الأصلية المدونة بالخط المسماري في ألواح الطين، فما مقدار الألواح التي تتضمن هذه النصوص الأدبية بالنسبة الى عدد ما جاء الينا من مجموع ألواح الطين التي اكتشفت في بقايا المدن القديمة؟ وللإجابة على هذا السؤال بوجه الإيجاز نقول إن ما استخرج من ألواح الطين المختلفة النصوص الى هذا اليوم يبلغ مئات الألوف، وقد يناهز المليون لوح مما هو موزع الآن في المتاحف العالمية المشهورة. على أن هذا العدد، على كثرته، لا يؤلف في الواقع الا نسبة غير كبيرة مما لا يزال مطموراً في الأطلال القديمة المنتشرة في شتى ربوع العراق وفي بعض الأقطار المجاورة التي اقتبست حضارتها القديمة الخط المسماري من وادي الرافدين في تدوين لغاتها ومعه الكثير من التراث الأدبي والفني من حضارة وادي الرافدين مثل العيلاميين في الأجزاء الجنوبية الغربية من إيران، والفرس الاخمينيين والحثيين في بلاد الأناضول وبعض الأقوام في بلاد الشام.

أما تخمين نسبة عدد الألواح المدونة بالنصوص الأدبية الى عدد ما ذكرناه من مجموع ما جاء الينا من ألواح الطين المختلفة فهي نسبة قليلة، لا يتجاوز عددها بضعة آلاف، لعله ما بين ثلاثة الى أربعة آلاف لوح. بيد أنه لا يمكن التكهن عما سيكشف عنه المستقبل من نصوص أدبية أخرى قد تغيّر وتضيف الى معرفتنا الراهنة بأدب العراق القديم اشياء كثيرة. ولكن مع ذلك يمكن القول بوجه عام ان ما كشف عنه وتم درسه ونشره من نصوص أدبية لحد الآن يعبّر عن المعدل أو الصورة العامة لنصوص هذا الأدب من حيث المواضيع التي تناولها وخصائصه ومقوماته العامة المميزة[4].

---

(3) S.N. Kramer, Sumeran Mythology (1944)

(4) طه باقر، مقدمة في آداب العراق القديم، بغداد، 1976ص 35 - 36.

أثر أدب وادي الرافدين

في الآداب القديمة

بالإضافة الى ميزة القدم التي نوهنا بها عن أدب العراق القديم وأنه يسبق أقدم أدب عرفه الإنسان، فإن لهذا الأدب أهمية خاصة في تاريخ تطور الحضارات البشرية والفكر الإنساني، تلك هي أجماع مؤرخي الحضارة والثقافات المعاصرة، فهو على ذلك لا يقتصر على كونه ادباً قديماً مثّل دوره في تطور الفكر البشري ومات، بل أنه لا يزال حيّاً عن طريق التأثيرات التي خلفها في اداب الحضارات الأخرى التالية.

وإذا كان يتعذر الاستشهاد بالعناصر الحضارية الكثيرة التي انتقلت من حضارة العراق القديم الى الحضارات الأخرى ـ ولعل القارىء ـ سيقف على طائفة من هذه التأثيرات في اثناء تصفحه القطع الأدبية التي سنعرضها ـ نقول إذا تعذّر ذلك فنكتفي من الموضوع بإيراد الأسس المعتمدة في منهج البحث التاريخي فيما يتعلق باقتباسات الحضارات بعضها من بعض، وقد استطاع الباحثون بانتهاجها البرهنة على الحقيقة التي ذكرناها، ويمكن إيجازها في الأسس الثلاثة الآتية:

1 ـ اثبات السبق الزمني لأدب حضارة وادي الرافدين، وقد سبق ان برهنا على ذلك.

2 ـ اثبات وجود الاتصالات التاريخية وتحديد الطرق التي انتقل فيها الكثير من العناصر والمقومات من حضارة وادي الرافدين منذ أقدم عهودها الى الحضارات الأخرى. وتأتي في مقدمة الاتصال هذه الاتصالات التجارية والحروب والفتوح والأسفار، فقد ثبتت الاتصالات التاريخية ما بين العراق القديم وبين أقطار كثيرة في الشرق الأدنى وحتى أقطار نائية مثل سواحل الهند، وتشير الأخبار التاريخية والأدلة الآثارية الى امتداد فتوح سرجون الاكدي (2370 - 2316 ق.م) وحفيده «نرام سين (2291 - 2255 ق.م) الى أقاليم نائية مثل الأناضول وكريت وقبرص وأقطار أخرى في حوض البحر المتوسط. وازدادت هذه الفتوح اتساعاً في العصور التي أعقبت العهد الآكدي، ولا سيما الفتوحات الآشورية الواسعة التي نتج عنها اتصالات بعيدة بين أقوام حضارة وادي الرافدين وبين الأقوام القديمة ومنها بعض القبائل اليونانية في سواحل الأناضول الغربية. وكشفت التحريات الآثارية الحديثة عن بقايا مستوطنات واسعة أقامها الآشوريون في عصرهم القديم (مطلع الألف الثاني قبل الميلاد) في الأناضول حيث المركز التجاري الشهير في المدينة القديمة المسماة «كانيش» (وتعرف بقاياها الآن باسم كول تبه بالقرب من قيصرية)(5).

(5) راجع عن تاريخ هذا المستوطن التجاري الاشوري وما وجد فيه من سجلات وشرائع بالخط المسماري واللغة الاشورية القديمة، الجزء الاول من كتاب الاستاذ طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الطبعة الثالثة 1973، الفصل الخامس.

وقد عثر حديثاً في «لارنكا» في قبرص على مواد أثرية من حضارة وادي الرافدين من بينها أختام اسطوانية يرجع عهد بعضها الى العصر الاكدي (أواخر الألف الثالث قبل الميلاد) [6].

3 ـ أما الأساس الثالث فهو اثبات مواطن شبه أساسية في الأحداث والأفكار والأبطال من أدب حضارة وادي الرافدين في أساطير الأمم القديمة وآدابها، ونترك التبسط في هذا الموضوع الى القارىء من بعد وقوفه على النصوص الأدبية وسيجد فيها المواد المتعددة من أوجه الشبه هذه. وسنقتصر فقط على أوجه الشبه والتطابق بين نصوص أدب حضارة وادي الرافدين ونصوص أدب أسفار التوراة بالنقد والمقارنة.

وإلى هذا فإن لأدب العراق القديم أهمية وخطورة خاصتين في فهم مقومات حضارة وادي الرافدين وأوجهها المختلفة والطابع المميز لها. فإن النصوص الأدبية التي وصلت الينا من هذه الحضارة، مثل ملحمة جلجامش الشهيرة وقصص الخليقة والأساطير الخاصة بأصل الوجود والأشياء وغيرها من القطع الأدبية التي سنتناولها، تعد عند الباحثين منجماً زاخراً يستقون منه أسس هذه الحضارة واتجاهاتها وعقائدها الأساسية، فهي أصدق ما ينقل لنا أحوال أقدم المجتمعات الانسانية وعقائده ونظرته الى أصل الاشياء والآلهة ونظام الحكم، كما تصور لنا أحوال البيئة البشرية والطبيعية التي نمت فيها تلك الحضارة. فإن الدارس لنتاج العراقيين القدماء الأدبي يستطيع أن يقف على طبيعة تفكيرهم في الكون والحياة، ذلك التفكير الذي كان نتاجهم الأدبي مظهراً من مظاهره، ووجهاً من أوجهه. وسنرى ان النزعة الغالبة على ذلك التفكير الاتجاه الاسطوري الشعري (methopoetic). ومما يقال بوجه عام أنه، باستثناء مواضيع قليلة، لا يسعنا ان نسمي ما خلفوه فكراً فلسفياً بالمعنى الدقيق لهذا النمط من التفكير الذي يستند الى الاستدلال والنقد والاستنتاج المنطقي والتأمل والنظر في الاشياء نظراً موضوعياً. ومع أنهم عالجوا في أساطيرهم وأنواع كتاباتهم الأخرى قضايا مهمة لا تقل شأناً وخطورة عما كان يشغل الفلسفة اليونانية والفكر الحديث، بيد أن تفكيرهم في مثل هذه القضايا كان، كما قلنا، تفكيراًخيالياً وأسطورياً وشعرياً. وإذا كانت الأساطير والقصص معروفة في الآداب الحديثة الا ان أدباء وادي الرافدين القدامى لم ينظروا الى أساطيرهم على أنها متعة أدبيةفنية حسب بل كانوا يعدون ما فيها من آراء وحقائق معتبرة في تفسير الوجود والاشياء. وعلى هذا ينبغي لنا ان ننظر الى أساطيرهم على أنها تعبر عن حقائق الكون بحسب معتقداتهم بالإضافة الى كونها نتاجاً أدبياً. انها كانت تفسر لهم نفس القضايا الأساسية التي عالجتها الفلسفة

---

(6) C.H. Gordon, Befor the Bible, (1962)

اليونانية بأسلوب أو منهج موضوعي مستند الى الاستدلال المنطقي[7].

وإذا ما وجدنا فيما سنذكر من قطع أدبية تناقضاً في الآراء والمعتقدات عن أصل الكون والأشياء فإن ذلك متوقع في التفكير الاسطوري الشعري لأن التناقض لا يبدو الا للفكر الموضوعي المنطقي الذي يجاوزه ويسمو عليه خيال الشاعر الفنان، ذلك الخيال الذي يكون فيه الحد ما بين الأحلام وبين اليقظة مختلطاً غير واضح المعالم. والواقع ان الرؤى لم تكن أقل نصيباً من الحقيقة في اليقظة فكان القوم يحصلون على التوجيه والإرشاد الآلهي عن طريق اتصالهم بالآلهة في الأحلام. وإذا ما حاولنا العثور في أساليب تفكيرهم على ما نسميه بقانون «العلية» "Law of causality"، الذي هو أساس منهج العلوم الحديثة، فإننا لا نجد له آثاراً واضحة. انهم كانوا ينظرون الى علل الاشياء والحوادث من وجهة نظر من «يحدثها» وليس «كيف تحدث» أو «لماذا تحدث»؟ فمثلاً إذا لم ترتفع مياه دجلة كان السبب في ذلك ان النهر أبى أن يرتفع لغضبه أو لغضب الآلهة التي تحكمه على البشر[8].

وكان حكمهم على الأشياء والحوادث يستند بالدرجة الأولى الى مبدأ التمثيل والقياس، أكثر من استناده الى الاستنتاج والاستدلال. ويظهر هذا واضحاً في السحر وطرق العرافة والكهانة وتصنيفهم للأشياء على أساس التشابه الظاهري، مثل تصورهم للسماء على هيئة الأرض، والأرض على هيئة السماء حتى أنهم اعتبروا السماء وكأنها دولة أو مملكة تحكم فيها الآلهة بمراتب ودرجات متفاوتة ويجتمعون في مجالس للشورى ويتخذون فيها القرارات الخطيرة على غرار المجتمع البشري في بلاد وادي الرافدين، كما أن مبدأ التشبيه[9] الذي تتصف به آلهتهم مشتق من هذا النمط من التفكير.

ومن أنماط التفكير الأخرى التي سيستنتجها القارىء من بعض القطع الأدبية التي سنوردها ما يصح أن نسميه مبدأ «الاسم» الذي بموجبه لا يمكن لأي شيء أن يوجد ما لم يكن له اسم، فتسمية الشيء مرادفة لوجوده أو إيجاده، ويظهر هذا واضحاً في اسطورة الخليقة البابلية التي عبرت عن حالة الكون قبل وجود السماء والأرض بالقول، «لم تسم السماء في العلا وفي الأسفل لم تذكر الأرض باسم». والجدير بالذكر في هذا الصدد ان حضارة وادي الرافدين لم تنفرد بهذا الأمر، إذ نجد عند العبرانيين في رواية التكوين في التوراة[10]. وكان الاسم في حضارة وادي النيل جوهر الشيء وسر وجوده

---

(7) طه باقر، مقدمة في ادب العراق القديم، ص 41 - 42

(8) طه باقر، مقدمة في ادب العراق، القديم، ص 42.

(9) تعزى بموجب مبدأ التشبيه الى الآلهة صفات البشر الروحية والمادية.

(10) انظر سفر التكرين 2: 5 - 5 وانظر سفر الخروج 3: 13 - 14 حين سأل موسى الله عن اسمه لم يبح به بل قال: «انا من انا».

وقوته، فكان للآلهة اسماء سرية تكمن فيها قدرتهم وقوتهم فلا يبوحون بها، وامتدت الفكرة عند المصريين القدماء الى اسماء الأشخاص من البشر، فكانوا يسمون الفرد باسمين، اسم سري وآخر هو الذي يدعى به بين الناس (11).

وسنرى من اسطورة الخليقة البابلية كيف ان الآلهة اجتمعت في مجلس الشورى وانتخبت الآله «مردوخ» كبير آلهة بابل، ملكاً علياً ليحارب قوى العماء والدمار الممثلة بالآلهة العتيقة، ولكي تمكنه من ذلك تنازلت عن اسمائها، فصار هذا الآله يحوز على «خمسين اسماً» كل منها يمثل سرّ القوة والقدرة التي يملكها كل منهم. وكان البشر في بعض الحالات يستطيعون ان يستعينوا بما في اسماء الآلهة من قوة ومناعة مبجرد كتابة اسم الآله، واتسعوا في هذا المبدأ بحيث انهم صاروا يرمزون الى الاسماء بالعدد. فمثلاً يخبرنا الملك الآشوري سرجون الثاني (721 - 705 ق.م.) عن قصره في المدينة التي ابتناها وسماها باسمه «دور ـ شروكين» بقوله: «بنيت جدار سورها بمقدار 16283 ذراعاً وهو رقم اسمي»(12). ولما كان الاسم جوهر الشيء وسرّ وجوده نشأت عندهم فكرة تسمية الأشخاص والأشياء المحببة بأسماء تنطوي على اليمن والفال الحسن(13) ونجد هذا المبدأ أيضاً في قسم من أسفار التوراة وخاصة أسفار الانبياء حيث يستعملون الأرقام للتعبير والتدليل.

كما ونجد هذا المبدأ عاماً تقريباً في اسماء الأعلام التي يغلب عليها أن تكون اسماء مركبة تؤلف جملة كاملة ويدخل فيها اسماء الآلهة. وبالنسبة الى اسماء الأشياء مثل المباني نذكر بعض الأمثلة من اسماء الكثير من محلات مدينة بابل وشوارعها ومبانيها مثل اسم شارع الموكب الذي ورد اسمه في النصوص المسمارية بهيئة «أي ـ يعبر ـ شابو» ومعناه» عسى الاّ يعبر العدو» واسم بوابة عشتار الشهيرة: «عشتار ـ شاكية ـ تبيشا» أي «عشتار قاهرة أعدائها»(14).

وخلاصة ما يقال بهذا الصدد ان المعتقدات الدينية قد أثرت في أدب العراق القديم بوجه خاص وفي أنواع الفنون الأخرى بوجه عام، شأنها في ذلك شأن الحضارات القديمة الأخرى، سواء كان ذلك في اشتراك الآلهة بأحداث الملاحم البطولية والقصص والأساطير أم في المواضيع والأغراض الدينية المتنوعة كالتراتيل والأدعية والابتهالات والصلوات التي كانت تؤلف قسماً مهماً من النتاج الأدبي الشعري،

---

(11) وهذه العادة ما زالت تمارس لدى المسيحيين الشرقيين حيث لكل منهم اسمين واحد كشفيع له والآخر يعرف به.

(12) لعل هذا أصل المبدأ الخاص باعطاء الحروف قيمة عددية.

(13) قارن ذلك بالمثل اللاتيني: «الاسم فال» nomen est omen.

(14) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص 44.

إذ كانت تنظم شعراً. أما النثر، ولا سيما النثر الأدبي، فقد استخدموه في أغراض أدبية أخرى مثل تدوين الحوادث التاريخية والرسائل الملكية وتدوين أعمال الملوك وحملاتهم الحربية والشرائع والحكم والأمثال والمواعظ. وهذه كلها أثرت - كما سنرى - في الأساليب الأدبية لأسفار التوراة من حيث الفكرة والطروحات.

التوراة والتاريخ

قد يكون أمراً غريباً الا يتطرق المرء الى السؤال الآتي وهو: «أتثبت النصوص المسمارية التوراة أم تنكرها؟» وقد يتبادر الى الذهن لأول مرة ان الإجابة عن هذا السؤال «بنعم» أو «لا» قد تستحيل فينبغي علينا اذن ان نطيل التفكير ونحاول أن نفهم بوضوح تام قبل أن نحاول التفكير ولو ببداية الجواب.

ان التوراة ليست كتاباً واحداً بل هي سلسلة من الكتب، كتبها عدد من الكتّاب في أزمان متباينة وأنها لا تقتصر على موضوع واحد أيضاً. وما دامت كتاباً دينياً قبل كل شيء، فهي تتناول أبحاثاً في التاريخ، وقصة خلق العالم، وشعراً وفلسفة وأساليب أخرى للكتابة.

لقد أكدت الوثائق البابلية ان العلوم التاريخية جليلة الفائدة لمعرفة التوراة. وهذا التوكيد أمر جديد ذو أهمية رئيسية. ذلك أنه، لمئة سنة خلت لم يكن أحد يثير المشكلة التاريخية في ما يلامس الأسفار المقدسة. فالمؤمنون كانوا يكتفون بأن يجدوا فيها تعاليم دينية وأخلاقية، واللامؤمنون كانوا ينعتونها بأنها حكايات. أما اليوم فيبذل جهد عظيم لمعرفة مرتكزات التوراة وتحديدها. فأحد الاتجاهين اللذين أصبحا هدف الدروس الكتابيةالحالية هو وضع النص في اطاره، وربط الوقائع الكتابية الكبرى، على هذا النمط، الى الكرونولوجيا (علم الأزمنة والأوقات) وتدعمت بها. فمن جملة الأقوال المأثورة في جامعة فرنسا، ان «الجغرافية والكرونوجيا» هما عكازتا التاريخ» ومنه كذلك التاريخ وتاريخ العلوم الكتابية بأسرها.

والكرونولوجيا - احدى عكازتي التاريخ - كما قلنا - تبطل أن تكون - بقدر كثير أو قليل، صوفية، كما كانت تنعت فيما مضى، وتصبح فصول تاريخ لا يقل وضوحاً ودقة عن تاريخ الاكديين والسومريين، والاشوريين والكلدانيين والفراعنة.

فالتوراة إذاً، قبل كل شيء، تاريخ. انه مذكرات أمم وشعوب، وأدهش مذكرات خلفها للأجيال المقبلة عن كل ما قاموا به من أعمال. انه: «سجل عائلي» لإبراهيم وزرعه، طوال ما يقرب من ألفي سنة.

إن هذا الشعب الدخيل لم يكن بعيداً عن الوقائع التاريخية التي تعاقبت على

مسارح شرقي البحر المتوسط وآسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين. وكل الشعوب التي نعرفها في التاريخ القديم، من كلدانيين وحثيين وفينيقيين ومصريين وآشوريين ويونانيين ورومانيين، كانوا الواحد بعد الآخر على صلة بهذا الشعب.

فإذا عنّ لأحد أن يتساءل: وهذه المذكرات، ما قيمتها التاريخية، وهل يصح اعتبار وثائقها جديّة؟ فمن الممكن اعطاؤه الجواب بالاستناد الى وثائق من خارج التوراة.

التاريخ والنص التوراتي

للدروس التاريخية فائدة كبرى لمعرفة التوراة وتفهمها، فلا نستطيع الا ان نشير اليها بشيء. ففي التوراة بعض تفاصيل وبعض أعمال مسلكية وبعض أعلام، كانت حتى زمن قريب كأنها من عالم الأساطير، فأصبحت اليوم في اطار تاريخي لا جدل فيه. جاء في التوراة، مثلاً ذكر ملك حثي، اشترى منه ابراهيم مغارة المكفيلة، ليدفن فيها زوجته. وكان اوريا، زوج بتشابع التاعس، الذي ذهب ضحية بريئة بشغف الملك داود بزوجته، يلقب بالحثي. فما كان مدلول هذه اللفظة قبل ان توصل العلماء الى الكشف عن تاريخ الشعب الحثي الذي ساد آسيا الصغرى وجوارها طوال خمسة قرون تقريباً. وكان تاريخ الفلسطينيين، الذين قاتلهم شمشون الجبار، غامضاً، فاستنار بما أثبته العلماء المعاصرون من علاقة هذا الشعب بطلائع الغزاة الآريين؛ وبما عثروا عليه في وادي الملوك بمصر من مشاهد مصورة من عهد رعمسيس الثالث، تمثل غزو «شعوب البحر» وهو لقب الآريين؛ وبما اكتشفوا، في مدينتي ميكينا وتيرنت اليونانيتين، من قلاع شبيهة بالقلاع الفلسطينية التي هاجمها يشوع بن نون وخلفاؤه. وهكذا يصبح جليات، وهو آري طويل، أشقر، نسيب هكتور الهوميروسي[15].

وفي التوراة بعض عادات تظهر لنا نابية شاذة. ولكن في مخلفات التاريخ والآثار ما يثبت وجودها عند الأقدمين ويلقي عليها بعض نور. من ذلك ذبيحة اسحق التي تدل على تقريب ضحايا بشرية. فإنها تبدو أقلّ غرابة إذا ما علمنا ان في قبور الكلدانيين وفي مرتفعات فلسطين بقايا أجساد أطفال وعبيد تبدو فيها آثار الذبيحة. وكذلك الكبش الذي وجده ابراهيم الخليل في العليقة فافتدى به وحيده، اطاعة لأمر ملاك الرب، فقد وجد تمثاله في مدينة اور الكلدانية. وهناك نذر «الحرم» أي: تقويض كل مدينة تسقط في يد العدو، بدلاً من نهبها. فمن الغرابة كل الغرابة ان قبائل معدمة تؤثر الحرمان مما غنمته على التلذذ والتنعم به. ولكن هذه الغرابة تزول حتى عرفنا، بفضل الاكتشافات الحديثة ان «الحرم» تقليد طقسي دارج في كل مكان من عهد لا

(15) دانيال رويس، ما هو الكتاب المقدس، تعريب، مخايل الرّجي، دار المكشوف، ط 1، بيروت، 1959.

يُعرف بدؤه، وما وجد من آثار حريقة في أنقاض مدينة اريحا، الا يكون نتيجة لتدمير المدينة على يد يشوع بن نون؟[16].

وبنوع أعمّ، إذا ما أحيطت الوقائع الكتابية الهامة بالقرائن السياسية والسيكولوجية المرافقة لحدوثها، فإنها تتخذ، تحت هذا النور الجديد، لوناً من العمق غير منتظر. من ذلك ان هجرة ابراهيم وقبيلته من أور الكلدانيين نحو فلسطين، قد يسهل فهمها على مستوى سيكولوجي، إذا قابلناها بوقائع قريبة منا: ان قيام طاغية، ما بين النهرين آنذاك، يفرض ارادته في كل الشؤون وينادي بعبارة آلهة كثيرين، بتفاصيل دقيقة مبرمة تظهر آثارها في مجموعة الشرائع البابلية، يجعل من الأمور الطبيعية ان يرغب ابراهيم الموحّد في الهرب من تعنته وظلمه «مختاراً لنفسه الحرية»[17].

وبدون الرجوع الى الوقائع التاريخية، كيف نقدر ان نفسر الانقلاب الغريب الذي حصل في موقف الفراعنة في بدء تاريخ موسى. فمن قبل، كان يوسف وزيراً للحاكم المصري، فأنزل اخوته برضاه أرض جاسان، بالقرب من دلتا النيل. ويدور الزمان فيقع الاضطهاد على العبرانيين ويحكم عليهم بالأشغال الشاقة، وبقتل أبكارهم. فما كان السبب؟.

يفيدنا التاريخ ان الملوك الرعاة (الهيكسوس) اللذين احتلوا بلاد النيل مدة تزيد على قرن، كانوا من أصل سامي، ومنهم الفرعون الذي أقام يوسف وزيراً له، فكان العبرانيون من انسبائهم الادنين، فتعاونوا وإياهم. فلما ثار الشعب عليهم، بتحريض كهنة مدينة طيبة، فطرد من سموهم آنئذ «بَرَص آسيا» عاد الأمر بالوبال على العبرانيين انسبائهم ومعاونيهم. فسامهم رجال الثورة الوطنية ما نعرفه من نوازل ضارية[18].

وإذا ما تابعنا سير الوقائع الكتابية، وصلنا الى سرّ آخر وإلى حلّ غموضه. يخبرنا الكتاب ان يشوع بن نون ورجاله صادفوا صعوبات كلية في هجومهم على أرض كنعان. كيف تسنى لهم وهم الغزاة المعدمين من ان يدوّخوا فلسطين في غضون مئة سنة؟ فالجواب ان هذه الحوادث تقع في أواخر القرن الثاني عشر قبل المسيح؛ وان إجتياح الآريين الجارف للشرق قد حصل في هذه الحقبة؛ فاضطر هجومهم ولاة الأمر في الممالك الكبرى الى سحب جنودهم من البلدان التي كانوا يسيطرون عليها ومنها فلسطين. فخلت من الجنود المصرية والفارسية والحثية ولم يبق سوى اقيال وأمراء من

(16) دانيال رويس، ما هو الكتاب المقدس.
(17) دانيال رويس، ما هو الكتاب المقدس.
(18) سفر الخروج.

شعبها، لا شأن لهم. ولولا هذا الانقلاب السياسي الذي أجرته الظروف لما نجح العبرانيون في مهمة الاستيلاء على فلسطين[19].

نعود الى الفصول التي يبدأ بها الكتاب المقدس، فصول سفر التكوين. فإنها لم تكن مدة طويلة في نظر المتفلسفين سوى محض حكايات، فاقتبست نوراً في أيامنا من الوثائق الأثرية المكتشفة. فصرنا نعرف ان هذه الروايات العريقة في القدم، التي دخلت في تقاليد الشعب الدخيل، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمدينة التي عرفها ابراهيم الخليل؛ وان من الواجب العود الى 3000 سنة على الأقل قبل المسيح لنجد القرائن الثقافية لرواية تكوين العالم؛ وان الطوفان الكتابي هو بالتوكيد رواية موحّدة لقصة الطوفان الواردة في ملحمة كلكامش الوثنية؛ وان اكتشافات مدينة كيش انبأتنا بطوفان جارف هدّام؛ عهد كانت مدنية زاهرة تقوم على ضفاف الفرات من زمن ليس بقصير؛ وان برج بابل يذكرنا بداهة «بالزيقورات» أي: الأبراج ذوات الطوابق المألوفة في ديانة النجوم ما بين النهرين، فكان من الطبيعي ان يرمز بها العبرانيون الموّحدون الى كبرياء الإنسان وخفته بل جنونه، إذ صنع له بيديه أصناماً يعبدها، بدلاً من أن يتجه بكليته الى الله الواحد الحق.

انعكاسات على التوراة

يجابهنا سؤال هنا، هل من انعكاسات على التوراة تأتي من الخارج؟

لا يُقصر التعمق في الدروس التوراتية، من الوجهتين التاريخية والأثرية، على إيضاح النص ودعمه. فنحن لا نخشى الجهر بما قاله علاوة على ذلك، الاسقف فيبر، أي: «ان بين الكتاب المقدس ـ التوراة ـ وآداب البلدان المجاورة شبهاً في الصيغة والكيان». وبعض الأحيان، تقارباً ليس فقط في الصيغة لأدبية، بل في الوقائع والعقائد. من ذلك ان العبراني بعد طول اغترابه في مصر، اختار لنفسه نظاماً كهنوتياً لم يكن له عهد به في حقبة حياته في الصحراء؛ فتمكن من أن يرقبه عن قرب في المملكة الفرعونية التي كانت عريقة في هذه الأنظمة. ومما لا ريب فيه ان أهمية عبادة الملائكة عند العبرانيين مستمدة على قدر ما، من «الكاروبيم» في بلاد ما بين النهرين، وكذلك من الأشخاص العليّين في تقليد أهل فارس، وليس في ذلك ما يثير الاستغراب ولا الشك.

وفي بعض الحالات، يبلغ الشبه بين النص التوراتي «ومصادره» حداً بعيداً، حتى يتساءل المرء عما إذا كان الكاتب قد احتذى مثالاً وثنياً، أو عمّا إذا كان لكليهما مصدر واحد. والأمر لا غموض فيه فيما خص التكوين، وبالأكثر الطوفان، وهو شهير، وكان التقليد في ما بين النهرين معروفاً.

---

(19) دانيال رويس، ما هو الكتاب المقدس.

ان في متحف اللوفر بباريس عموداً أسوداً جميلاً حفر عليه حمورابي الملك البابلي، في مطلع القرن العشرين قبل المسيح، مجموعة شرائعه، ومما تشتمل عليه، مراسيم شبيهة بمثلها في الشريعة الموسوية، كما سنرى في فصل قادم من هذه الدراسة.

الألواح والأسفار

إن القصص المروية التي كتبها العبرانيون ليست بتاريخ... وطيلة عشرين قرناً الماضية تمكن اليهود من تكريس الكثير من المفاهيم المخطوءة القائمة على التحريف والانتساب المزوّر للحوادث والشخصيات التاريخية من أجل أن يجعلوا لشعبهم امتداداً تاريخياً مرتبطاً بحضارات العالم القديم، وعلى الأخص الحضارتين السومرية والبابلية أي العراقية القديمة:

يقول الكاتب الفرنسي جان لوي برنار «وتحسّ بكل تأكيد أن أحبار اليهود قد اقتبسوا من تواريخ الأقطار التي جاسوا خلالها بعض الحكايات، فعبرنوا كل المعلومات التي كان الغرض منها تلفيق اكذب تاريخ للعالم. كل ذلك لاختراع ملفقة الشعب اليهودي المختار».

وفيما يلي أدناه نحاول أن نضع الخطوط العريضة لما اقتبسه اليهود من الأخبار التاريخية والشرائع العراقية القديمة برهاناً على ما قلناه من ان اليهود حاولوا توظيف التاريخ العراقي القديم وحكمة العراقيين القدماء وأمثالهم وقصصهم وشرائعهم لخدمة مآربهم الخبيثة وترويج أفكارهم العنصرية المقيتة وبثّ سمومهم القاتلة لتحريف الحقيقة وتزويرها وتحويرها وما يروق لهم من آمالٍ وغايات.

1 ـ ان شريعة موسى الأصلية لا أحد يعرف عنها، ولا أين هي الآن، لقد ظهر النبي موسى في حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ومعه قوم يتكلمون اللغة المصرية الفرعونية وليست لهم أي صلة ببني اسرائيل. ونزحوا الى أرض (كنعان) وهم غرباء عنها.

ولما دخل (الموسويون) أرض فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان يسكنها أقوام من أصل عربي جزري (سامي) هم الكنعانيون والعموريون والعمالقة، وكانت لهذه الأقوام ثقافتها وحكمها وتقاليدها وحكمها الملكي الذي يرجع الى الألف الثالث قبل الميلاد.

2 ـ ومن المعروف ان اللغة العبرية هي إحدى اللهجات التي اقتبسها اليهود من اللغة الارامية (الجزرية) بعد مرور أكثر من ستمائة عام على دخولهم أرض فلسطين، أي بحدود القرن السابع قبل الميلاد، وبها كتبت التوراة في (بابل) بعد عهد موسى بثمانمائة عام.

3 ـ ويشير سفر (الملوك الثاني) في التوراة[20] بأن الملك الاشوري سنحاريب (705 - 681 ق.م.) عندما حاصر اورشليم وصعد جيشه على أسوارها ودعوا ملكها (حزقيا) للتسليم، قال لهم رسل هذا الأخير (كلمونا باللغة الارامية) لأننا نفهمها[21] وهذه الإشارة توكد سيادة اللغة المذكورة في أقطار الشرق الأدنى بأكمله.

4 ـ وسفر التكوين ذاته، الذي يدوّن بدء التاريخ العبراني مملوء بالمقتبسات ذات الصبغة الارامية وبالمفردات الارامية. وأول ذكر لعبارة آرامية في التوراة، هي العبر (يجرسهدوتا) ومعناها (رجمة الشهادة) أي العمود من الحجارة الذي يثبت في الأرض لتعيين الحدود:

«فأخذ يعقوب حجراً وأوقفه عموداً. وقال يعقوب لإخوانه التقطوا حجارة فأخذوا حجارة وعملوا رجمة... ودعاها لابان يجر سهدوتا. وأما يعقوب فدعاها جلعيد»[22].

5 ـ ظهر تجلات بلاسر الثالث (745 - 727 ق.م) الملك القدير الذي جدد الامبراطورية الاشورية وأخضع لسلطانه دمشق وجلعاد والجليل وسهل صارونه، وحوّلها الى مقاطعات آشورية ليس هذا فحسب، وإنما كرّس سياسة جديدة تقوم على تعيين نوابا للملك لحكم المقاطعات المحررة بدلاً من ابقاء الحكام الوطنيين كتابعين له[23].

6 ـ وعندما رفض (هوشع) ملك اسرائيل دفع الجزية الى (شلمنصر الخامس)، هاجمه هذا الأخير، واستولى خلفه (سرجون الثاني على المملكة في عام 722 - 721 ق.م. وسبى أحسن رجالها الى (ميديا) وأسكن بدلهم قبائل جاء بها من بلاد بابل وعيلام وبلاد العرب[24]. وقد امتزج القادمون الجدد ببني اسرائيل وطبعوا أهلها بتقاليدهم وعاداتهم ولغتهم، وهكذا انتهت اسرائيل الى الأبد.

ومن المعروف أيضاً ان ما أعقب هذا الدور من تاريخ اليهود في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد لا يعدو كونه استيطاناً مؤقتاً في بعض المدن التي خضعت لحكم الامبراطورية الآشورية أو البابلية، والتي توزعوا فيها كأسرى في مدن ملح وخابور ونهر جوزان ومادي وآشور وأسكن بدلهم قوم ارتحلوا من بابل وكوث وعوّا وحماة وسفروايم[25].

(20) سفر الملوك الثاني 18: 37.
(21) سفر الملوك الثاني 18: 37.
(22) سفر التكوين 31: 47.
(23) حسن النجفي، الشيقل، بغداد، 1981 ص 9.
(24) سفر الملوك الثاني 17: 14، 17: 6.
(25) سفر الملوك الثاني 17: 21، 41، 18: 18.

7 ـ وخلال هذا الدور بالذات، القرنين السابع والسادس قبل الميلاد دونت أهم أسفار التوراة باللغة العبرية المعروفة بآرامية التوراة المقتبسة من اللغة الارامية العربية الجزرية. وحتى هذا اليوم لا يزال الخط الذي كتبت به التوراة يطلق عليه اسم (الخط الاشوري المربع)[26].

8 ـ ان مختصر التاريخ العبراني القديم ـ الذي تضمنته (التوراة) ـ وقد وضعه كتّاب عاشوا في بابل بعد وقوع حوادثه بمئات السنين، واستندوا في رواياتهم على قصص مروية تناقلتها أجيال من أسلاف الشعب العبراني الذي كان قد تزاوج مع سكان البلاد الأصليين من كنعانيين وحوريين وحثيين وفقد الكثير من أصوله العرقية الجزرية (السامية) وبالتالي خضعت مرويات هذا الجيل الى التأثيرات التي احتلها مصالح الفئات المتناحرة وإلى ما كان يكنّه اليهود أساساً من نوايا غير نزيهة تجاه الشعوب الجزرية (السامية) حيث استوطنوا أرضهم بالقوة والخداع، أو عاشوا بين ظهرانيهم تحت مظلة الأسر[27].

9 ـ وقد توصل العديد من العلماء الى ما تضمنته أسفار العهد القديم، من قصص وأساطير وشرائع، إنما يرجع أصله الى مثيلات له في المدونات السومرية والبابلية والآشورية. وان اليهود اقتبسوا منها «ما هو جديد بما احتواه تاريخ مؤسسي الجنس اليهودي. وحذفوا بلا هوادة كل ما لم يلق استحسانهم)[28].

(وحتى الوصايا العشر التي يكاد يجمع العلماء على أنها الشيء الوحيد المتبقي من التوراة الأصلية لم تكن بكاملها وعلى هيئتها الحالية كالتي جاء بها موسى. وهناك الكثير من التشابه والتطابق بين قوانين موسى والقوانين البابلية التي سبقتها بأمد بعيد)[29].

10 ـ لقد أسهمت في تأليف كتاب العهد القديم مجموعة متباينة من الأحبار والمعلمين والكتبة. وظهر المشرع الأول للأسفار الخمسة في التوراة بشخص النبي موسى وهو يتكلم بلسان (يهوه)[30] ومن الغريب ان لهذه الأسفار ما يقابلها في قوانين حمورابي التي كانت قد سبقتها بأكثر من ألف عام.

وأسفار (المزامير) و(الأمثال) مشتقه من المصادر الأدبية القديمة، وهي متأثرة

(26) حسن النجفي، المصدر السابق، ص 9.
(27) حسن النجفي، المصدر نفسه، ص 10.
(28) ادوار كييرا، كتبوا على الطين، ترجمة د. محمود الأمين.
(29) A.H. Silver, Moses and oniginal Torath, 1961. p. 76.
H.E.L. Mellersh, Sumer and Babylon.
(30) سفر الخروج 20: 19، 22. انجيل متى 14: 14.

بالثقافات التي اندمج فيها كتبة التوراة، وقد اقتبست من المعتقدات والتقاليد التي عايشها سكان البلاد في بابل وآشور، وأدخلها العبرانيون في كتاباتهم التوراتية، كما سنرى.

11 ـ لقد توصل العلماء الاركيولوجيون (الاثاريون) مؤخراً الى ان (سفر الخروج) نفسه الذي يعتبره الكتبة اليهود واحداً من الأسفار الخمسة التي نزلت على النبي موسى، وقد تضمن قصصاً تشبه تماماً تلك التي جاءت في الحوليات البابلية، ومنها على سبيل المثال قصة (موسى) الذي قاد العبريون الى فلسطين بعد أجيال عديدة قضوها في مصر.

والتشابه بين (قصة الخليقة) البابلية، وبين قصة التكوين (تكوين الأرض) كما وردت في سفر التكوين من التوراة واضحة وتلتقي في أكثر من حدث[31]. ونفس التشابه نلاحظه في قصة (خلق الإنسان) السومرية وتطابقها مع الأحداث التي ترويها التوراة عن أصل الخليقة[32].

وكان لفكرة البعث والنشوء في ملحمة كلكامش الخالدة تأثيراتها الواضحة في التوراة بالرغم من ان التوراة دوّنت بعدها بحوالي ألفي سنة.

ومن بين تلك القصائد الغنّاء التي عثر عليها منقوشة على لوح من الطين قصيدة سومرية تصف (أرض الخلود التي لا يوجد فيها مرض أو موت أو حزن... الخ). هذه القصيدة فيها تطابق مذهل مع وصف التوراة (لجنة عدن)[33].

وقصة (آدم وحواء) التي يفتخر الكتبة بكونها أقدم قصة في التوراة، وجدها المنقبون على نقش سومري يسبق التوراة بعشرين قرناً.

ولقد وردت (قصة الطوفان) في أكثر من موقع في المدونات السومرية والبابلية... وتتفق الروايات ان ثمة طوفان هائل وقع في أرض العراق في أحد مواسم الفيضان الخارقة العادة[34]. بحيث غطى المعمورة ولم ينج من أهلها الا زعيم ديني واحد وأفراد أسرته والحيوانات التي حملها معه في الفلك التي أوحى اليه ببنائها من قبل.

ان (سفر القضاة) أورد (قصة الطوفان) بعد ألفين ونيف من السنوات مما أوردته الحوليات البابلية، ولكن كتبة اليهود، كعادتهم، نسبوا هذه القصة الى مدوناتهم الدينية ولم يذكروا مصدر هذا الاقتباس.

---

(31) سفر التكوين 1: 27.

(32) سفر التكوين 2: 7 - 9.

(33) سفر التكوين 10: 14.

(34) سفر القضاة 9: 8. سفر التكوين 16: 9، 7: 19، 8: 19.

وقصة (سفر أيوب) تكاد تكون نصوصاً مأخوذة من الكتابات البابلية. حتى ان أحد ملوك آدوم (يوباب بن زارح) فقد ورد اسمه في هذه القصة[35].

أما (احيقار) فلحكمته أثر واضح وكبير في سفر الأمثال والحكمة[36] والنبي طوبيّا الذي يعتبره من انسبائه كما سنبين ذلك بشكل واضح في فصلٍ آت.

كل هذه الحقائق أثبتتها التوراة نفسها. ولكن اليهود، في محاولة لخلط الأوراق، تجاوزتها بالأكاذيب والربط المفتعل للأزمان من أجل إيجاد صلة قرابة بين إبراهيم وموسى، بالرغم من وجود فاصل زمني بينهما قدرة حوالي ستة قرون. وبالرغم من تباين منشأ الاثنين. فإبراهيم، مواطن آرامي من اور في أرض العراق. وموسى جاء من مصر مع قومه الذين عاشوا فيها ستمائة عام وبينهم جماعة من الهيكسوس الذين يدينون بديانة التوحيد الموروثة من اخناتون فرعون مصر[37].

فأين هي صلة النسب؟ وما علاقة الحملة المصرية وجنودها من المصريين والهيكسوس بـ (بني اسرائيل)...؟ لقد أرادها كتبة التوراة كذلك من أجل ان يربطوا بين قوم موسى وبين النبيين (يعقوب واسحق وإبراهيم). ومتى كتب أحبار اليهود كل هذه الأخبار...؟ بعد ثمانمائة عام من عهد موسى حتى يسهل افتراءهم عليه.

وبافتراض كل ما قاله الهيود صحيحاً... فأين هي التوراة التي أنزلت على موسى في جبل سيناء المكتوبة «بأصبع الله» على لوحي الحجر[38].

لقد ورد ذكر (شريعة موسى) في أخبار الحملة التي انتصر فيها الفلستينيون على الموسويين واستيلائهم على (تابوت العهد) الذي كان يضم اللوحين المذكورين، ثم ردّوه الى الملك داود ووضعه سليمان في الهيكل... وبعدها لم يعرف مصيره الى يومنا هذا.

إذا، فالتوراة المتداولة حالياً هي غير التوراة الأصلية التي أنزلت أحكامها على النبي موسى.

لقد نزلت توراة موسى بلغة قومه المصريين، وبعد مرور سبعة قرون من عهده كتب الحاخامون في بابل توراة أخرى غير الشريعة الموسوية الأصلية وبلغة عبرية هي (آرامية التوراة) ولا علاقة لها باللغة التي نزلت بها الشريعة المدوّنة على (لوحي الحجر). واستعملوا في كتابته (الخط الاشوري المربع) وضمنوه القصص والأحداث

---

(35) سفر التكوين 36: 33 - 34.
(36) سفر الأمثال 1: 21.
(37) جاء في التوراة ان اقامة بني اسرائيل التي اقاموها في مصر كانت 430 سنة. سفر الخروج 13: 6. ومنها ارتحلوا الى أرض كنعان. (حسن النجفي، المصدر نفسه، ص 16).
(38) سفر الخروج 31: 18، 32: 15 - 16، 19: 34.

التي جرت في العهود الاشورية والبابلية والاغريقية المتأخرة بعد ان أدخلوا عليها ما يعمل لصالح اليهودية. وقد حالفهم النجاح في تزوير الوثائق وحقائق التاريخ ببراعة وخبث لم يسبق لهما نظير في الأدب القديم... وإلا كيف يصدق ان تتحدث التوراة التي نزلت على موسى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد عن أحداث وقعت بعده بسبعة قرون... كيف تتحدث عن حروب اليهود مع تجلات بلاسر الثالث أو سنحاريب، وقد عاش هذين الملكين بعد حوالي ستمائة عام من نزول الشريعة على النبي موسى[39].

ومن هذا يتضح، ان التوراة، توراتين، الأولى التي تضمنت (الشريعة الموسوية) ونزلت على النبي موسى في جبل سيناء في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولا أثر لهذه الشريعة في وقتنا الحاضر.

أما التوراة الثانية، فهي التي كتبها الحاخامون وأحبار اليهود في بابل بعد القرن السادس قبل الميلاد. وعلى مدى أربعمائة عام، أي بعد عهد موسى بأكثر من سبعة قرون، وهي التي تتداول ترجماتها اليوم.

«إننا لا نستطيع ان نؤيد صحة رجوع تاريخ أي قسم من الأسفار الخمسة وحتى الوصايا العشر الى عصر موسى، لأن ما ورد من روايات في هذه الأسفار وقد تعرض بأكثر من بقية أسفار التوراة الى تكرار إعادة التصنيف وإلى تغيير وتوسيع مستمرين على مرّ العصور»[40].

12 ـ إننا نعرف الأثر الكبير الذي تركه (عزرا الكاهن) في الدين اليهودي. لقد كان (عزرا ونحميا) من بين الذين رجعوا من الأسر البابلي الى فلسطين في أعقاب احتلال كورش الاخميني لبلاد بابل، وسماحه لليهود في العراق بالعودة الى (أرض غربتهم) وقد رجع عزرا الى فلسطين بقرار الملك الفارسي (ارتحشستا الأول) سنة 458 ق.م. مع جماعة اليهود[41]، وهو يحمل رسالة و(شريعة آله السماء).. أما الرسالة، فهي التي يأمر فيها الملك الفارسي ببني اسرائيل ان يطيعوا تعاليم الكاهن اليهودي... (كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة آله السماء، فليعمل بسرعة)[42].

وأما الشريعة، فهي قانون موسى الذي اتخذته الجماعات اليهودية دستورها الديني والمدني، ومن خلال كتابات الكاهن (عزرا) لمعظم فصول هذا الدستور،

(39) حسن النجفي، المصدر نفسه، ص 18.
(40) لوس في كتابه (اسرائيل) ص 359.
(41) سفر عزرا 1: 4.
(42) سفر عزرا 7: 21.

وتفسيرات الحاخام (هليل) المولود في بابل، دخل عنصر التصلب الديني في المعتقدات اليهودية ودخلته الكثير من الأفكار الفارسية التي كانت تتضح بالحقد والكراهية على البابليين[43].

ولم يطل به المقام كثيراً في فلسطين.. وعاد (عزرا) مهموماً الى بابل، لقد خانته اسرائيل... (اللهم اني أخجل وأخزى من أن أرفع وجهي نحوك لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤوسنا وآثامنا تعاظمت الى السماء)[44].

لقد مات عزرا في بابل... عجوزاً ومكتئباً[45].

نحن نعرف ان السومريين هم أول شعب أبدع حضارة في العالم القديم وطيلة ثلاثين قرناً قبل الميلاد، كانوا يمثلون جماعة حضارية في غربي آسيا والشرق الأدنى بكامله، وقد أصبحت (الكتابة السومرية) التي اخترعوها مفتاح التقدم للعالم بأسره ومن هذه الكتابة انتشرت العلوم والآداب والفنون والمعتقدات الدينية والروحية التي طورها خلفاؤهم البابليون والاشوريون وأضافوا اليها. وصارت اللغة البابلية برموزها المسمارية لغة التخاطب الدولية والوسيلة الدبلوماسية والتجارية في كل أقطار الشرق الأوسط ومصر وبلاد غربي اسيا. و(رسائل تل العمارنة) - التي عثر عليها قرب مدينة طيبة في مصر - شواهد ماثلة على ما كانت تتمتع به هذه اللغة من حيوية وانتشار. وبهذه الوسيلة أيضاً دخلت قصص وادي الرافدين وأساطيرهم الدينية، ومنها قصة الخليقة والطوفان في الآداب اليهودية عن طريق سوريا والمدن الفينيقية والأقوام المجاورة الأخرى[46].

وبدأت منذ ذلك التاريخ السحيق استعارة الأمثال والألفاظ والعادات السومرية - الاكدية.

وطقوس (الهيكل) ذاته وذبائحه التي اشتهرت بها الديانة اليهودية تظهر الأساليب المتبعة عند العراقيين القدماء مثلما كانت كلمة (الهيكل) من الأصل السومري الاكدي.

وقصة الاقتباس هذه مفصلة أحسن تفصيل في (سفر الملوك الثاني) من التوراة التي تحكي لنا كيف قابل الملك العبري (آحاز) العاهل الاشوري تجلات بلاسر الثالث، وأخذ هذا الملك العبري (هيكل) الاشوريين وأدخله في معبده، لقد قالت التوراة ذلك: (وسار الملك آحاز للقاء ملك آشور في دمشق... ورأى المذبح الذي في دمشق... وأرسل

(43) حسن النجفي، المصدر نفسه، ص 20.
(44) سفر عزرا 9: 6.
(45) لا يزال ضريح الكاهن (عزرا) موجوداً في المدينة التي سميت باسمه (العزير) في جنوب العراق.
(46) حسن النجفي، المصدر نفسه، ص 20.

الملك آحاز الى اوريا الكاهن شبه المذبح وشكله حسب قناعته. فبنى اوريا الكاهن مذبحاً ـ هيكلاً حسب ما أرسل الملك آحاز من دمشق)[47].

و(زوروبابل) زعيم اليهود العائدين من الأسر الى فلسطين، ومن سلالة الملك (يهوياقين) اشتق اسمه من اللغة الاكدية Zeru Babili ومعناها (ذرية بابل).

وان جانباً من ديانة العالم الجزري كانت تقوم على عبادة الطبيعة. وأول ما وجدت آلهة للخصب كانت في بابل تحت اسم (عشتار)، وهذه الالهة الاسطورية وجد لها اسم آخر في أوغاريت وتل العمارنة (1400 ق.م.) باسم عشتارت (Ashtart)وعبدها العبرانيون وسموها عشتوريت (Ashtoreth) وجمعها عشتاروت (Ashtaroth). ويروي (العهد القديم) كما سنرى، ان الملك سليمان كان يتعبد للإله (عشتار) آله الصيدونيين، التي هي بابلية الأصل وتمثل كوكب (الزهرة).

«وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم ـ آله الكنعانيين ـ وتركوا الرب آله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر... تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت»[48].

وأكثر من ذلك، ان الاسرائيليين كانوا يتصورون الههم (يهوه) جالساً على عرشه أو واقفاً إزاؤه[49]، تماماً كما صوّر سكان العراق القدماء آلهتهم وهم يقفون أمامها موقف التعبد والخشوع.

«هناك حقيقة مهمة يجدر التطرق اليها؛ لقد نحتت على قمة الحجر الذي حررت عليه قوانين حمورابي صورة الملك وهو يتسلم السلطة من آله الشمس. وهذا متجانس تماماً مع الحادثة المذكورة في التوراة، وهي تسلّم موسى ألواح قانونه من آله العبريين في جبل سيناء»[50].

وكما تسلّم حمورابي العظيم قوانينه من الآله شمش الذي كان يمثل أعلى سلطة دينية في زمانه، تسلّم موسى، هو الآخر شريعته من الرب (يهوه) أعلى سلطة دينية عند المجتمع العبري آنذاك. وهكذا ترسمت التوراة ذات التقليد الديني الروحاني الذي كان قد درج عليه الملوك البابليون والاشوريون قبل ألف عام ونيف[51].

---

(47) سفر الملوك الثاني 16: 20.
(48) سفر القضاة 2: 20.
(49) سفر صموئيل الثاني 22: 11 وسفر المزامير 8: 10.
(50) H.E.L. Mellersh, Sumer and Babylon.
(51) مجلة سومر، 1984، حكمت بشير، حمورابي والتوراة، عدد 47 ص 291 - 297.

توراة ما قبل التوراة

أكيد ان الكتب الخمسة (التوراة) ليست بنت لحظة عمل واحد، بل هي انتاج تراث ثقافي روحي سابق، مما لم يعد ممكناً أن ننسبه الى شخصية مبدعه (موسى). فقد اكتشف النقد الأدبي، وراء نص الكتب الخمسة، أعمالاً أدبية مختلفة ومؤلفين عدة. بل مجموعات من المؤلفين، ويدلنا النص نفسه على فروع التراث التي انصهرت في هذا العمل الأدبي.

ثمة أدلة مختلفة تكشف عن وجود فروع التراث هذه، منها الأسلوب عامة، واستعمال الألفاظ والمصطلحات والأسماء - مثلاً اسم الله ويهوه وإبراهيم -، والمفاهيم والمناهج اللاهوتية وما الى ذلك. بناء على هذه الأدلة وغيرها، ميّز التحليل الأدبي ثلاثة مصنّفات كبيرة سبق وجودها وضع النص النهائي للتوراة. وقد تمّت عملية وضع النص النهائي في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد، في عصر الحكم الفارسي، بعد العودة من الجلاء (السبي) الى بابل.

أما تلك المصنّفات الثلاثة، فتمثّل بدورها فروعاً من التراث الروحي ومذاهب فقهية في الشريعة والقانون واتجاهات فكرية في اللاهوت، بالإضافة الى خصائصها الأدبية، فكل منها يضمّ تقاليد قديمة، شفهية أو مكتوبة، وقد يوغل بعض تلك التقاليد في القدم.

1. الأسلوب اليهوي

إصطلح علماء العهد القديم على عبارة «الأسلوب اليهوي» تسمية لمجموعة من النصوص وذلك لأنها تطلق على الله اسم «يهوا» الا ان اسم «يهوا» ليس الناظم الوحيد لتحديد معالم هذا العمل الأدبي، بل يتصّف أيضاً باستعمال مفردات وعبارات،

وبأسلوب قصصي حيوي وتصويري، ويحب وصف حياة الإنسان النفسية ويبرع في رسم مشاهد حية، ولا يحترس أن يقتبس رموزاً وصوراً من الآداب البابلية والمصرية.

ومن النصوص اليهوية في التوراة:

خلق الإنسان والخطيئة[1]؛ برج بابل[2]؛ دعوة ابراهيم[3].. تجلي «الثالوث» لإبراهيم[4].. عيسو ويعقوب[5].. يوسف وامرأة فوطيفار[6].. مولد موسى ودعوته[7].. العهد[8]... الخ.

تمكّن هذه النصوص من تكوين فكرة عامة عن أسلوب المؤلّف اليهوي والعالم الروحي والكفري الذي يتحرك فيه.

تعمّ فكرة الله الأوحد، رب السماء والأرض، فكر اليهوي. إلا أنه لا يستطيع أن يعبّر عن هذا المفهوم الراقي لله: ليس هو مفكراً لاهوتياً، بل هو قصّاص بارع، يستعين بالفن القصصي كي يعبّر عن أفكار مجرّدة، فيصوّر الله بصورة الإنسان[9]، بل لا يخشى ان يلتجىء الى الأساطير البابلية في حديثه عن الله[10].

المؤلّف اليهوي هو تاريخ مشروع الله، فاليهوي يبيّن، من خلال روايته. ان الحوادث التاريخية بأسرها وسيلة لتحقيق مشيئة الله: من الخلق الى السقوط، والطوفان، وإبراهيم... الخ.

لقد مكّن هذا المشروع الشامل المؤلّف اليهوي من إبداع نظرة كلية لتاريخ البشر، مما وقاه أن يضيع في التفاصيل. يربط الأحداث التاريخية بعضها ببعض وينظمها في إطار الله بواسطة نظرية: «السببية الدينية» أو بالأحرى «الغائية الدينية» التي تكشف، في كل حدث منفرد، عن القصد الالهي الشامل.

يفترض العلماء أن يكون المؤلَّف اليهوي قد وُضع في عصر سليمان (القرن العاشر قبل الميلاد). وأما الكاتب فقد كان من الأوساط المعارضة لسياسة الملك. جمع ودوّن تراث قبائل جنوب فلسطين.

---

(1) تكوين 2: 4 - 3، 24.
(2) تكوين 11: 1 - 9.
(3) تكوين 11: 1 - 20.
(4) تكوين 18: 1 - 33.
(5) تكوين 25: 29 - 35.
(6) تكوين 39: 1 - 32.
(7) خروج 1: 3، 6.
(8) خروج 24 : 3 - 8.
(9) خروج 18: 1 - 33.
(10) تكوين 2: 4 - 3: 24.

2. الأسلوب الايلوهيمي

أطلق على مجموعة من نصوص «التوراة» اسم «الوثيقة الايلوهيمية» لاستعمالها كلمة «ايلوهيم» وهي تذكرنا بكلمة «اللهم» العربية ـ تسمية لله.

يتميز «الكاتب الايلوهيمي» بأسلوبه القصصي البسيط. لقد جمع تقاليد عريقة في القدم تشكّل تراث القبائل القاطنة في الشمال.

ما يلفت النظر في الأسلوب الايلوهيمي هو «النزعة الاخلاقية». أنه يتمتع بإحساس أدبي رقيق ويركّز اهتمامه على الخطيئة ونتائجها في العلاقات الإنسانية والتاريخ، مما يجعله يشدّد على أهمية الشريعة التي تعلّم الإنسان مشيئة الله. فيورد الكلمات العشر[11]، وكتاب العهد[12] وهما يشكلان القانون الأخلاقي الذي أرشد حياة مجتمع العهد القديم. ويتميّز القانون الأخلاقي باحترامه للقريب، مما يؤكد على احترام المِلْك ودائرة الحياة الشخصية. وذلك يولي أهمية كبرى لاحترام راحة السبت التي تُلزم لا الأحرار فقط، بل العبيد والغرباء أيضاً.

إن القانون الأخلاقي، بما فيه الكلمات العشر، يشكل بنود العهد الذي قطع بين الله والشعب.

يرى المؤلّف الايلوهيمي ان العهد اتفاق حرّ يلتزم الإنسان بواسطته مشيئة الله. وفي العهد تلتقي إرادة الإنسان مشيئة الله: فالإنسان، إذ يقطع العهد مع الله، يتحد معه. فإذا نقض التزامه، انفصل عن الله. فالخطيئة انفصال عن الله وانصراف الى خدمة أصنام مصنوعة[13]، ويتمثّل هذا الانفصال في صورة كسر لوحي الشريعة[14].

يُضمر في هذه النزعة الأخلاقية مفهوم لله خاص بالمؤلّف الايلوهيمي. أنه يلّح الحاحاً شديداً على كون الله روحاً إلا يُرى ولا يصوّر، ويطالب الإنسان بالعبادة الروحية. فلا يقترب من الله إلا الإنسان الروحاني.

يؤثر هذا المفهوم الروحاني لله في أسلوب المؤلّف الايلوهيمي في الفن القصصي. فقد كفّ عن انتاج الأسلوب التصويري في الحديث عن الله وعن الاستعانة بالأساطير في وصف أعماله.

ومن النصوص الايلوهيمية في التوراة:

---

(11) خروج 20: 1 - 17.
(12) خروج 20: 18 - 23، 33.
(13) خروج 32: 1 - 6.
(14) خروج 32: 15 - 24.

العهد مع ابراهيم[15].. اختيار يعقوب[16].. صراع يعقوب مع الملاك[17].. يوسف في السجن[18].. «كلمات العهد العشر»[19].. عبادة العجل[20].. وجه موسى[21].

وضع المؤلَّف الايلوهيمي في القرن الثامن قبل الميلاد. ولكنه يضم نصوصاً عريقة في القدم، منها مثلاً «الكلمات العشر» و«كتاب العهد» فمن المحتمل أن يعود هذان النصّان الى عصر موسى نفسه (نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد).

في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، دُمج التراثان اليهوي والايلوهيمي في مؤلَّف واحد. قصة ذبح اسحق[22] (النص الثاني) تمثل نصاً من النصوص التي نتجت عن عملية الدمج هذه.

3. الأسلوب الكهنوتي

يُطلق اسم المؤلَّف الكهنوتي على مجموعة من النصوص تمثل تراث الفئة الكهنوتية التي عاشت في السبي البابلي (586 - 538 ق.م). كانت هذه الفئة الكهنوتية تتصرف الى إعادة صياغة التقاليد القديمة، وغاية هذا العمل هي مساعدة المسبيين على ممارسة الحياة الروحية والمحافظة على الإيمان.

تعمّ روح المحافظة هذه المؤلَّف الكهنوتي بأسره، وهو يشدد على أهمية الطقوس الموروثة والتراث القديم بصفته كفيلاً بالحياة الروحية وعلى بقاء جماعة المؤمنين ومقاومة تأثير العادات الوثنية.

يعتمد الكاتب الكهنوتي مفهوماً لله مختلفاً جداً عما كان عليه سفر تثنية الاشتراع. فإن الكاتب الكهنوتي يُبرز كون الله متعالياً بعيداً عن الإنسان ومطالباً المؤمن بان «يكون قديساً لأنه هو قدوس».

تنتظم الرؤية الكهنوتية الى التاريخ حول فكرة العهد. ولقد قطع الله مع الناس ثلاثة عهود:

تم العهد الأول بين الله وجميع البشر عن يد نوح، ومضمونه احترام الحياة الإنسانية.

---

(15) تكوين 15.
(16) تكوين 25: 28 - 34.
(17) تكوين 32: 24 - 30.
(18) تكوين 40: 1 - 11.
(19) خروج 20: 1 - 17.
(20) خروج 32: 1 - 6.
(21) خروج 34: 29 - 35.
(22) تكوين 22.

من ثم قطع الله العهد الثاني مع ابراهيم الذي اصطفاه ليكون أباً لجميع المؤمنين.

وتمّ العهد الثالث عن يد موسى، ومضمونه شريعة القداسة. وردت هذه الشريعة في سفر الأحبار (17 - 26).

تنجم هذه النظرة الى التاريخ عن تأمل لاهوتي متعمّق في التراث القديم والطقوس. ويرى الكاتب الكهنوتي ان المحافظة على التراث وترجمتها في الحياة اليومية تتكفلاّن للجماعة بأن تستمر في الاتحاد مع الله.

ومن أهم النصوص الكهنوتية:

كلمات الخلق العشر[23].. العهد الأول مع نوح[24].. مواليد نوح[25].. العهد الثاني مع ابراهيم[26].. رحلة يعقوب الى مصر[27].. الفصح[28].. موت موسى[29].

(23) تكوين 1: 1 - 2، 4.
(24) تكوين 9: 1 - 17.
(25) تكوين 10.
(26) تكوين 17.
(27) تكوين 46: 5 - 26.
(28) خروج 12: 1 - 30.
(29) تثنية الاشتراع 34.

تاريخ البدايات

في التراث والتوراة

اكتشف دارسو التوراة والعهد القديم، منذ قرن ونيف ان أسفار هذا العهد تضمّ نصوصاً شتى تتسّم بصفات أساطير الشرق القديم، بل وأكثر من ذلك، فقد استعان مؤلفو روائعها بنصوص اسطورية. من هنا تطرح تساؤلات عدة منها:

كيف دخلت هذه النصوص الاسطورية في أسفار الكتاب المقدس؟

وما هي الوظيفة الأدبية والفكرية ـ التي تؤديها في صقل عبارته وصياغة أفكاره؟

وكيف نقوّم ـ لاهوتياً ـ وجود الأساطير في الكتاب المقدس؟

وما دور الخطاب الاسطوري في الخطاب الكتابي؟.

رأينا ان العهد القديم لم يتحرك في الفراغ اللاهوتي، بل عاش في إطار تاريخ الشرق القديم وتفاعل مع ثقافاته، لا بل هو جزء منها. والتفاعل يعني دوماً التأثير والتأثر. ودراسة الأساطير في العهد القديم تتناول إذا ناحية من نواحي التفاعل الثقافي بين دائرة العهد القديم ودائرة الأديان الزراعية في عصر التحضّر والاستقرار.

درجت علوم الكتاب المقدس على التمييز بين ثلاثة أطوار في الحقبة الزمنية التي تغطيها كتب الشريعة الخمسة (التوراة) وهي على التوالي: «تاريخ البدايات»[1] و«تاريخ الآباء»[2]، و«تاريخ الشعب»[3]. ويمكن تاريخ اثنين من هذه الأطوار الثلاثة على وجه دقيق فيوضع «تاريخ الآباء» في الحقبة التاريخية بين القرون 19 - 13 قبل الميلاد، ويحدد «تاريخ الشعب» في النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد. ثم ان هذين الطورين يندرجان في إطار تاريخ الشرق القديم المعروف، فيمكن ربط أخباره

(1) تكوين 1 - 11.
(2) تكوين 12 - 50 .
(3) خروج واحبار وعدد وتثنية الاشتراع.

الواردة في الكتب الخمسة بالمعلومات التي نجدها في مصادر تاريخ سومر وبابل وكنعان ومصر. وأخيراً يمكن تتبع هذين الطورين الى ما سبقهما من القرون الغابرة بواسطة آثار الثقافة المادية التي نقب عنها علماء الآثار في بلاد الرافدين وبلاد الشام ووادي النيل. فيتمثل إذاً في هذين الطورين تاريخ موضوعي حقيقي بالمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة إذ أنه في متناول البحث والتنقيب.

أما (تاريخ البدايات)، فخلافاً عن ذلك لا يقبل التاريخ الدقيق، ولا يحتوي معلومات موضوعية يمكننا التحقق منها بواسطة أدوات علم التاريخ النقدي. ثم انه لا يتناسق وأحداث تاريخ الشرق القديم المعروفة. وكذلك لم يكتشف عالم آثاره في بلد من البلدان. فقد اصطلح على هذا الطور بتسميته «تاريخ البدايات» لإعتبارين:

تتناول أخباره من جهة أحداثاً تخرج عن دائرة التاريخ الموضوعي المألوف لدينا. ومن جهة أخرى لا تتعلق أحداثه بشعب معيّن ولا ترتبط ببلد من البلدان، بل تشمل الانسانية جمعاء وتتناول مصير الإنسان بصفته إنساناً. وهذه الملاحظة تحدو بنا الى طرح مسألة الوظيفة التي يؤديها «تاريخ البدايات» في بناء الاسفارة الخمسة (التوراة).

يبدو ان عنوان «تاريخ البدايات» لا يلائم نوعية ومغزى هذا القسم من سفر التكوين، ذلك بأنه يوحي الى القارىء بأن روايات هذه المجموعة القصصية تنوي سرد معلومات علمية موضوعية حول ما جرى في حقبة من حقبات التاريخ، هي حقبة «البدايات» ان هذا المفهوم «لتاريخ البدايات» لم يصمد أمام العلوم النقدية، والتمسك بهذا المفهوم يحملنا على تشويه مغزى «تاريخ البدايات» ومعناه اللاهوتي.

لا يتوخى سفر التكوين في هذا القسم عرض معلومات موضوعية عن «بدايات» الكون والتاريخ، بل يؤدي وظيفة مهمة في بناء التراث المدوّن في الكتب الخمسة.

يحوي هذا التراث تصوراً لاهوتياً عن مسار الإنسان في التاريخ ومصيره المستقبلي، وبالتالي يتمحور حول مقولات لاهوتية. فقد استنبط التراث الكتابي هذه المقولات وبلورها في قسم «تاريخ البدايات». وبناء على ذلك يمثّل هذا القسم، من حيث أنه مقدمة لتاريخ الآباء وتاريخ الشعب، البعد التاويلي اللاهوتي في التراث التاريخي. وبالتالي يضفي على التاريخ طابع «تاريخ الخلاص».

التراث الإنساني والتراث الكتابي

يتسم «تاريخ البدايات» بطابع انساني شامل إذ إنّ هذا «التاريخ» يشمل البشرية برمّتها والقضايا التي يطرحها تهمّ الإنسان بصفته إنساناً، بغضّ النظر عن انتماءاته المختلفة. ونظر الى هذا الطابع الشمولي العامّ، لا يستغرب أن يكون الخطاب الذي

ينتهجه التراث الكتابي في تأمله في تلك القضايا غير منحصر في دائرة التراث الخاص بدين العهد القديم، بل مستنداً الى شتى فروع التراث الروحي الثقافي الذي أنتجته البشرية.

ويتضح ويصبح من باب المعقول ان هذا الخطاب يستعين بعناصر لغوية وقصصية وفكرية اقتُبست من ثقافات الشرق القديم الراقية[4]، (لا سيما ثقافة وادي الرافدين).

إن لون الملحمة والأسطورة يخصّ ثقافات الشرق القديم. أما لون الحكاية، فقد يعود الى مرحلة أقدم من تاريخ الثقافة الإنسانية. لقد دمج الخطاب الذي يحوي التأمل القصصي في تكوين 1 - 11 كل هذه الألوان الأدبية المختلفة في وحدة متماسكة لا تقبل التذويب الى جزئيات منعزلة، وإلاّ فقد، لا محالة، قوامه ومخزاه.

من هذا المنطلق، يمكن طرح مسألتين أساسيتين:

تتعلق المسألة الأولى بنوعية العلاقة التي أقامها تراث العهد القديم مع ما سبقه وما عاصره من التراث الديني الثقافي الإنساني.

أما المسألة الثانية فتتناول مفهوم «الالوهة» في التراث الكتابي وتطرح السؤال لماذا ولأي اعتبار ينظر هذا التراث الى «الاله المخلّص»[5] على أنه «الاله الخالق»[6].

يستخرج التحليل الدقيق عناصر الجواب على هاتين المسألتين من النصوص نفسها.

رواية الخلق

ينتمي التراث اليهوي الكهنوتي الوارد في سفر التكوين، 1 - 3 الى تراث ديني ثقافي واسع الانتشار في الثقافات المختلفة، عبر الزمان والمكان. ثم انّ الخطاب الذي يحوي التراث المتعلق بالخلق يتصف بحيوية وقوة، فإنه لا يزال يثبّت وجوده في الأوساط الثقافية التي هجرت المعتقدات الدينية وكل الأنواع الأخرى من الخطاب الديني. ان ذلك لدليل على أمر ذي مغزى، وهو ان موضوع «الخلق والاله الخالق» يتخطى التراث الكتابي الى التراث الانساني على اختلاف فروعه الدينية وغير الدينية: انه لموضوع يتعلق بمعنى وجود الانسان. وبالتالي فإن الخطاب الذي يحويه يتعدى أيضاً دائرة دين العهد القديم الى الأديان الأخرى، بل وإلى الثقافات غير الدينية: إنه لخطاب التأمل في الإنسان ومصيره.

(4) روبير بندكتي، التراث الانساني في التراث الكتابي، ص 27.
(5) هذه هي المقولة المحورية في الكتب الخمسة (التوراة).
(6) وهذه هي محور تاريخ البدايات.

من هذا المنطلق يجب أن نتطرق الى البحث في نص سفر التكوين 1 - 3 وعلاقته بمحيطه الثقافي الديني المباشر وغير المباشر.

يضم نص التكوين 1 - 3 روايتين عن الخلق:

فيورد التراث الكهنوتي (تك 1) رواية خلق الكون بأسره. في حين ان الرواية اليهوية (تك) تقتصر على خلق الإنسان.

إن هذا التمييز بين نموذجي رواية الخلق وارد في أديان الشرق القديم التي تعرف أساطير تروي خلق الإنسان أو شخص من الأشخاص المشاهير (مثلاً: خلق «انكيدو» عن يد الالهة «أرورو» في ملحمة كلكامش)، إضافة الى الملحمات الكبرى التي تروي خلق الكون برمته (مثلاً: الملحمة البابلية «اينوما ايليش»). ثم يمكن الاهتداء الى خط التطور الفكري الأدبي من نموذج رواية خلق الإنسان الى نموذج رواية خلق الكون: فهذه هي متأخرة عن تلك في التراث الكتابي وفي الأساطير البابلية على حد سواء[7].

ثمة عنصر آخر لا يقل أهمية عن العنصر الأول، إذ أنه يدلّ على فعالية العلاقة التي أقامها التراث الكتابي بمحيطه الثقافي الديني. فقد درجت الأديان الشرقية القديمة على انتهاج مفهومين للخلق، وهما «الخلق عن يد إله خالق» و«الخلق عن طريق النشأة التلقائية». وكثيراً ما يتداخل المفهومان في أحبوكة قصصية واحدة (مثلاً في ملحمة «اينوما إيليش»).

لقد انتهجت الأساطير والملحمات الشرقية القديمة مفهوم «الخلق بالنشأة في روايات «مواليد الآلهة» («اينوماايليش»: الألواح الأولى)، حيث تطبق هذه الروايات مفهوم «الخلق» على مفهوم «الالوهة» مما حدا بها الى تصوّر «بدايات الآلهة» وبالتالي الى دمج الالوهة في الكون المخلوق.

أما التراث الكتابي فقد تخلى عن مفهوم «الخلق بالنشأة البحتة» فخصص موضوع «الخلق» بالاله الخالق وموضوع «المخلوقية» بالكون والإنسان. في هذه النقطة أثبت التراث الكتابي استقلاله عن محيطه الديني الثقافي، فإنه، إذ نزّه مفهوم الالوهة من صفات «النشأة» و«المخلوقية» و«الولادة» أعاد تأويل موضوع «الخلق» في ضوء مفهوم «الالوهة» التوحيدي الذي تصوّر مقولة «الوجود الذي لا بدء له».

---

(7) روبير بندكتي، المصدر نفسه، ص 28 - 29، 34.

(8) كذلك تورد الاساطير الكنعانية رواية المعركة التي قامت بين الاله «بعل» واله الفوضى المائية «يمّ» في سياق رواية «الخلق». أما أساطير اوغاريت فتجهل موضوع «عراك الاله الخالق للفوضى البدئية» كل الجهل، مما يدل على ان موضوع «العراك الالهي» كان أصلاً موضوعاً مستقلاً عن موضوع «الخلق» فتم القرن بينهما في الاساطير البابلية.

نرى في هذه النقطة علمية فكرية ضخمة ذات أبعاد حضارية، ألا وهي الاختلاف بين الخطاب اللاهوتي والخطاب الاسطوري. وجدير بالذكر أنه يمكن الاهتداء الى بعض إرهاصات هذه العملية الفكرية في التراث الثقافي في سومر وبابل: ذلك بأنّ فكرة «الخلق» عبر تعاقب السلالات الالهية تتغلب على الأساطير السومرية، في حين ان هذه الفكرة قد تراجعت في الأساطير البابلية، أمام فكرة «الاله الخالق».

إن موضوع «الخلق عن طريق عراك الخالق للفوضى» عنصر آخر يكشف عن عملية إعادة التأويل. وهذا الموضوع شائع في أساطير وملحمات الشرق القديم. تروي ملحمة «اينوماايليش» المعركة الضارية التي قامت بين الاله «مردوخ» (وهو الخالق)، والتنين «تيامات» (عنصر الماء المالح)، وهو يمثل قوى الفوضى البدئية التي تعارض عملية النظم الخالقة، فلا بد للإله الخالق (مردوخ) من الانتصار عليه وقتله لإطلاق عملية الخلق[8].

فصل التراث الكتابي في سفر التكوين (1 - 3)، عمداً وعن وعي، موضوع «الخلق» عن موضوع «العراك الالهي»، وذلك على الرغم من أن هذا الموضوع كثير الورود في الفروع المختلفة من التراث الكتابي التي تعرف الوحوش البدئية المختلفة مثل «رهب»[9] و«يمّ»[10] و«لاوياتان»[11] و«بهيموت»[12] وأخيراً «تنين»[13].

يظهر من التحليل الدقيق للنصوص ان التراث الكتابي على اختلاف فروعه الحكمي والطقسي (المزامير) والنبوي قرن موضوع «عراك يهوه مع الوحش المائي بموضوع «الخلاص»، إذ ان موضوع «العراك» غدا رمزاً لنشاط يهوه الخلاصي.

لقد استبدل التراث الكتابي سياق الموضوع الاسطوري، وهو موضوع «الخلق» بسياق لاهوتي وهو موضوع «الخلاص» ذلك بأن موضوع «الخلق عن طريق عراك الفوضى المائية» يختلف عن موضوع «الخلق من العدم في البدء» اختلافاً جوهرياً، فهو ليس «خلقاً» بالمعنى الكتابي لهذا اللفظ، بل يقتصر على إدخال النظام في الهيولي الفوضوية البدئية. وقد أدت عملية الفصل بين الموضوعين الى تنزيه موضوع «الخلق» من التصوّرات الاسطورية.

أما القرن بين موضوعي «الخلاص» و«العراك الالهي»، فقد أضفى على هذا الأخير طابعاً رمزياً واضحاً، فأضحى صورة رمزية لقوة يهوه وقدرته على انقاذ المسكين

---

(9) راجع إشعيا 51: 9 - 10. مزمور 89: 10 - 15.

(10) انظر اشعيا 51: 9 - 10 ومزمور 74: 12 - 17. وايوب 3: 8.

(11) اشعيا 27: 1- 2. مزمور 104: 25 - 27. ايوب 40 - 25.

(12) ايوب 40: 15.

(13) اشعيا 51: 10، دانيال 7: 2 - 7.

الضعيف من أعدائه. ومما تجدر الاشارة اليه ان موضوع «العراك الالهي» عادة ما يرد في اطار الصلاة الطقسية (المزامير) أو في نصوص ذات طابع شعري (الحكمة والنبوة)، الأمر الذي يُبرز طابعه الرمزي بوضوح.

إن هذا التعامل التأويلي مع موضوعي «الخلق» و«العراك الالهي» وهما عنصران من عناصر التراث الثقافي الديني للبشرية. إنما يبرز أمراً في غاية الأهمية. وهو ان التراث الكتابي قد أخذ الكثير من تراث محيطه الثقافي الشرقي. إلا أنه لم يقلّده تقليداً حرفياً، بل غربل ما اقتبس من عناصره اللغوية والقصصية والموضوعاتية، فطبعه بطابعه، فغدا جزءاً لا يتجزأ منه.

لقد اصطُلِح في علم الانتروبولوجيا الثقافية على هذا المنحى المبدع في التعامل مع الثقافات الأخرى بتسمية اعادة التأويل.

يدل منهج اعادة التأويل على كون الكاتب يعي وعياً واضحاً أنه يقتبس من الثقافة الأخرى عنصراً من عناصرها، بل وهو يتوخى اقتباسه واستخدامه في مؤلَّفه.

لا ينفرد تراث العهد القديم بمنهج اعادة التأويل، بل إنه ظاهرة ثقافية واسعة الانتشار كانت الشعوب القديمة والحديثة تمارسها في نطاق واسع، وهو معروف جيداً في تاريخ ثقافات الشرق القديم.

رواية الخلق والتراث الكهنوتي

وردت في «تاريخ البدايات» روايتان للخلق، إلاّ أنهما لا تكرران سرد الحدث نفسه في نسختين. بل تدور كل منهما حول محور فكري خاص بها. فبينما يركّز النص اليهوي اهتمامه على خلق الإنسان رجلاً وإمرأة، ينظر النص الكهنوتي الى الخلق في أبعاد كونية، فيسرد «مواليد السماء والأرض» يتوارى وراء المنظورَين القصصيين تصوّران لله والإنسان والكون يبرزهما كل من المؤلفين بأدواته التعبيرية الخاصة.

اللون الأدبي الخاص بنصّ الفصل الأول من سفر التكوين

يمتاز نصّ الفصل الأول من سفر التكوين بلونين أدبيين؛ من جهة يبدو هذا النص رواية حقيقية، إذ أنها تسرد أعمال بطل من البداية الى النهاية وتنظمها في احبوكة قصصية متسقة وذات مغزى، فتندرج هذه الرواية في تراث روايات الخلق البابلية. ففي نص الرواية إشارات الى أن المؤلف الكهنوتي يستند، عمداً وعن وعي، الى ذلك التراث الروائي البابلي. إلا أن النصّ يتسّم، من جهة أخرى بصفات الأسلوب التعدادي، إذ أنه يسرد أعمال البطل سرداً رتيباً، وهو يستعين بصيغ لغوية مقنَّنة. شأنه في ذلك شأن سرد الحسب والنسب في لون السلالة. فيندرج نص سفر التكوين الفصل الأول والثاني

والرابع في تراث «المواليد» السومرية والمصرية والبدوية. أضف الى ذلك أن النص نفسه يصطلح على تسميته بمصطلح «مواليد السماء والأرض» (تك ٢/٤) استناداً مقصوداً الى التراث الشرقي القديم الذي درج على عرض أخبار نشأة الكون في إطار «مواليد الآلهة».

فالملحمة البابلية «انومااليليش» مثلاً تروي الأطوار الأولى لنشأة العالم عبر تتابع الأجيال الالهية وصراعها. وتبنّى المؤلف الكهنوتي مصطلح «المواليد» تسمية لرواية أخبار الخلق. فعمد الى إعادة تأويلات التصورات الاسطورية المتعلقة بهذا المصطلح في الإطار الفكري المنتظم حول فكرة «الكلمة الخالقة» والجدير بالذكر في هذا السياق ان التراث الكهنوتي نفسه يستعمل مصطلح «المواليد» بمعنى «السلالة» (تك 1/5 و27/11).

أ: ملحمة الخلق البابلية والتأمل القصصي الكهنوتي

أصبح من باب البديهيات الرأي القائل بأن النص الكهنوتي تأثر بالملحمة البابلية «انوما إيليش» (أي: عندما في الأعالي لم يكن»).

وردت الملحمة البابلية في سبع لوحات مسمارية، وتروي تكوين العالم والإنسان من خلال عراك الأجيال الالهية المتتالية:

الجيل الأول: «أبسو» المياه العذبة (ذكر)، و«تعامة»: المياه المالحة. (أنثى) و«حمو»: الضباب المنبعث منهما والمنتشر فوقهما. (النص5).

الجيل الثاني: ولد، من زواج أبسو وتعامة، جيل من الآلهة الشباب الذين أبادو أبسو في معركة ضارية، منهم «آنو» آله السماء و«أيا» اله لماء.

وفي الجيل الثالث: وُلد الاله «مردوخ» الذي بدوره تمرّد على تعامة وقتلها في معركة. دموية وشق جسمها الى شطرين ليصنع منها السماء والأرض (النص 6).

وأخيراً صنع «مردوخ». الإنسان ليكون خادماً للآلهة الذين بدورهم «يخلدون الى الراحة» (النص 7). كذلك نظّم مردوخ مهام الالهة وأوكل الى كل منهم السيادة على جزء من العالم المخلوق. ثم عقد الآلهة احتفالاً كبيراً أكرموا فيه الاله مردوخ الذي هزّم تعامة ـ مبدأ الفوضى البدئية ـ فخلق منظومة الكون. وبنوا مدينة بابل مقراً مقدساً لمردوخ يستريح فيها والآلهة راحة خالدة. وفي ذلك المقر المقدس تدعى أسماء مردوخ الخمسون.

وفي النص الكهنوتي تلفت النظر العناصر التالية التي وردت في الملحمة البابلية:

- الإطار السباعي الأقسام بصفته ناظماً بنائياً في تنظيم ظهور الاشياء المخلوقة: فالأيام السبعة تقابل الألواح السبعة في الملحمة.

■ تنظيم الكون عن طريق عملية الفصل: خلق مردوخ السماء والأرض من جثة تعامة المشطورة وفصلهما وباعد بينهما، وكذلك يقوم بعمليات فصل أخرى، وأما في النص الكهنوتي فعمليات الفصل تقوم بدور هام.

ب: إعادة تأويل المواضيع الاسطورية في النص الكهنوتي

تدلّ هذه العناصر المشتركة بين النص الكهنوتي والملحمة على وجود اتصالات بين التراثين إلا أنّه يستعصي علينا أن نحدّد بدقة كيفية هذه الاتصالات الثقافية والظروف والفترة التاريخية التي شهدتها. ولكن مقارنة النصين تمكّننا أن ندرس المنحى الذي ينحوه العهد القديم في استعمال العناصر الأدبية والدينية والفكرية التي يقتبسها من محيطه الثقافي. يمكننا ان نصف منحى تعامل العهد القديم مع محيطه بأنه اعادة تأويل المواضيع والعناصر المقتبسة في ضوء التوحيد.

■ رأينا كيف رجح النص الكهنوتي إطار الأيام السبعة في إطار «كلمات الخلق العشر»: هذا يعني ان الإطار الملحمي - الاسطوري - صار جزءاً من أجزاء نظرة لاهوتية توحيدية الى الالوهة، وبالتالي إطاراً لعمل الكلام الالهي في الكون.

■ ثم غيّر التراث الكهنوتي معنى الزمن ووظيفته. فقد كانت الملحمة - وبصورة عامة الاسطورة - تجري في زمن اسطوري، فتقبل الارتداد والعودة والترداد. انه زمن الخلق الأول الذي لا يزال يبتدىء مجدداً ويعود الى نقطة البدء والانطلاق في الاحتفال الاسطوري. أما العهد القديم فقد كسر عودة الزمن الدائمة، إذ وضع الخلق في البدء مقابل الزمن التاريخي المتمثل في الأيام السبعة: فقد أصبح الخلق بدءاً ومنطلقاً في سلسلة أحداث أخرى تجري في زمن خطّي لا يقبل الارتداد ولا العودة الى المنطلق. ان فكرة البدء تستدعي فكرة النهاية وبالتالي فكرة التقدم الخطّي من البدء الى النهاية. في النصّ الكهنوتي تقدّر فكرة المستقبل بصفته محور الحياة الإنسانية.

■ الخلق الدوري مقابل الخلق «في البدء» ليست ملحمة «انوما إيليش» عملاً أدبياً مبتوراً من حياة المجتمع البابلي، بل تكونت وصيغت في إطار طقوس دينية. فقد كانت البيئة الحياتية، أو القاعدة الاجتماعية، التي صاغتها صياغتها الملحمية، في احتفال عيد رأس السنة البابلي، الأمر الذي يُضفي عليها معنى خاصاً. فقد تلاها بل مثّلها، كهنة مردوخ في إطار الاحتفالات، وتمّت هذه الاحتفالات في كل سنة إعادة لعملية الخلق الأولى، إذ أن الإله مردوخ يصنع - في اعتقاد الدين البابلي - الكون باستمرار، معيداً انتصاره على أعدائه. وهذا الاعتقاد بالتناوب الدوري في الخلق هو من صميم الأديان الطبيعية التي تعدّ دورة الحياة الطبيعية حدثاً إلهياً. تأخذ الملحمة البابلية معناها الكامل في هذا الإطار، فإن تلاوة الأسطورة في العيد تنجز عملية الخلق الأولى.

أما التأمل القصصي الكهنوتي، فقد أزال موضوع التناوب الدوري من مفهوم الخلق، إذ إن الله خلق في البدء «كل شيء» فإذا هو «حسن جداً». ثم أعطاه للإنسان ليستعمله ويطوّره. يقدِّر الكتاب المقدس فكرة التطور، في حين أن صورة الكون تُبنى في الاسطورة على فكرة العودة الأبدية. فكم بالأحرى أن كان النص الكهنوتي، بابتداعه فكرة «الخلق في البدء» قد أدخل الكون والإنسان في آفاق الحدث التاريخي. أما الأسطورة فقد قعدت بالكون والإنسان في ثبات الحركة الدورية. نكتشف إذاً عملية إعادة تأويل العناصر الاسطورية في النص الكهنوتي الذي خرج من إطار الكون اللاحركي ـ الاستاتيكي ودخل في آفاق العالم التطوري المتحرك. فقد صار «الخلق في البدء» جزءاً من التاريخ الكوني والإنساني، ومنطلقاً للتاريخ المقدس، أي تاريخ الله مع الإنسان وتاريخ صراع الإنسان مع الشرّ ورواية الخلق أنشودة تتغنّى بهذا البدء، معبّرة عن شكر الإنسان الذي، إذا تأمّل هذا الكون المتحرك المتطور، ذكر «البدء»، وهو مع ذلك يتطلع الى المستقبل.

■ فكرة «كلمة الخلق» هي، من جهة، الناظم البنائي الرئيس في رواية الخلق الكهنوتية، وهي، من جهة أخرى، محورها الموضوعاتي. وهذه الصورة هي موضوع شائع ومعروف في تراث العهد القديم، إذ إنّه وارد في معظم فروعه (اش 26/40 و25/24 و13/48 و2/50 و10/55 ـ 11 وحزقيال 4/37 ومزمور 6/33 - 9 و7/104 147 /15 - 18 و 13/148)، ويدلّ على تدخّل يهوه في الأحداث الطبيعية. ثمّ إن «كلمة الخلق» موضوع شائع في تراث الانسانية الديني الثقافي على اختلاف فروعه.

عرف التراث البابلي موضوع «كلمة الخلق» فقد ذكرت ملحمة الخلق «أنوما إيليش» (في اللوحة 4) كلمة الاله «مردوخ» التي تقضي باضمحلال الاشياء وعودتها الى الوجود. يظهر من هذا العرض الوجيز ان الفصل الأول من سفر التكوين يندرج في التراث الديني الثقافي المتعلق بموضوع «كلمة الخلق» وفي ضوء هذا التراث صار بوسعنا ان نوضح السمات التي تمتاز بها رواية الخلق الكهنوتية.

وفي موضوع «كلمة الخلق» الكهنوتي، من جهة أخرى، تكمن فكرة «الخلق من العدم» إذ ان هذه الكلمة توجد «السماء والأرض» من لا شيء، من العدم البدئي، ثم تنظم الكون المتمثل في «السماء والأرض» وهي تفصل عناصره بعضها عن البعض الآخر.

ان فكرة «الخلق من العدم» غير واردة في التراث البابلي ـ بين ملحمة «أنوما ايليش» والأناشيد الطقسية ـ، وكذلك تجهلها الفروع الأخرى من التراث الديني الشرقي القديم؛ فالملحمة البابلية تتصوّر عملية الخلق انطلاقاً من المياه البدئية المتمثلة في الشخصيتين

الالهيتين «آبو» و«تعامة». في هذا المنظور الاسطوري، يكون منطلق فعل الصنع الالهي نوعاً من الهيّولي المؤلّهة. وبالنتيجة، تنحصر عملية الصنع الالهية في أعمال الفصل. وأما أعمال الصنع والفصل، التي تجري من خلال صراع الالهة، فهي ليست إلاّ انتصار النظام على الفوضى وتنظيم الكون. ولا يخفى أن فكرة «الصنع من فوضى المياه» هي من العناصر الاسطورية الشائعة. يبدو واضحاً ان النص الكهنوتي قد اقتبس - بطريقة من الطرق لا نعرفها - موضوع المياه، ثم أعاد تأويله، فجعل من المياه الالهية جزءاً من أجزاء الكون المادي المخلوق - الذي يتمثل في السماء والأرض - أي صنفها بين المخلوقات. كذلك أعاد صياغة مواضيع اسطورية أخرى: مثل الكواكب وقوى الطبيعة الحية، التي عُدت بين الآلهة في الأديان الزراعية. أما النص الكهنوتي فيصفها بين المخلوقات. ويمكننا ان نقول باختصار بأن التأمل القصصي الكهنوتي يعيد تأويل المواضيع الاسطورية المقتبسة وينزهّها من طابعها الاسطوري في ضوء التوحيد.

■ أعاد التأمل القصصي الكهنوتي تأويل مفهوم الالوهة المقدَّرة في المواضيع الاسطورية. فبينما يظهر مردوخ إلهاً قد وُلد من الماء - مبدأ الكون ومادة نشاطه المبدع - ويتمثل في صورة ملك يبيد منافسيه وأعداءه - وقد تستوحي الاسطورة البلاط البابلي في وصف حياة الآلهة -، لا نرى «الله»، بل نسمع كلمته الخالقة، ونستشف قوته الخالقة وراء السماء والأرض الناشئتين في «البدء» أما الله فقد كان قبل هذا «البدء» ان النص الكهنوتي ينزّه مفهوم الآلوهة من كل مظاهر التشبيه ويعرّي صورة الخالق من الطابع الاسطوري، فيجعل «كلمة الخلق» التجلي الوحيد له.

■ كذلك أعاد النص الكهنوتي تأويل صورة الإنسان. فالملحمة البابلية تتصوّر الإنسان خادماً. بل وعبداً للآلهة. يقوم عنهم بالأعمال الشاقة «ليخلدوا الى الراحة والنعيم» (النص 7). نستشف وراء هذا التصور، العلاقات الاجتماعية السائدة في بابل: فيتمثل في صورة مردوخ والآلهة الملك ووزراءه، «خالدين الى الراحة». أما الناس فيمثلون جمهور الشعب والعبيد الذين يخدمون طبقة القصر الملكي هذه.

تختلف صورة الإنسان في النصّ الكهنوتي عن صورته في الملحمة: فقد سلّطه الخالق على الكون الذي خُلق من أجله وأعطاه كل شيء ليستعمله. ويسري هذا القول على رواية الخلق اليهوية أيضاً، وقد تأثرت تأثراً عميقاً بمواضيع اسطورية: خلق الإنسان من الطين من جهة، ومن دم إله آخر من جهة ثانية. إلاّ أنها تعرض صورة مختلفة للإنسان: إلا وهو الإنسان الحرّ... تتطابق هذه النظرة الى الإنسان مع مبدأ المركزية الذي يحكم تصور الرواية الكهنوتية للكون: وهذا المبدأ المنهجي في وصف الكون يصاغ صياغة لاهوتية مريحة في موضوع «خلق الإنسان على صورة الله».

تحمل الملحمة نظرة للكون متكاملة ومتماسكة وتقف موقفاً من الإنسان وعلاقاته بالألوهة. وتعبّر عن هذه النظرة للكون والإنسان في صور شعرية. أما التراث الكهنوتي، فقد استعان ببعض الصور الشعرية، إلاّ أنه دمجها في نظرة مختلفة تماماً عن النظرة الاسطورية: ها هي ذي إعادة تأويل الاسطورة في النص الكهنوتي.

هذا وقد غدا في وسعنا إيضاح المنهج الذي تمشّى عليه الكاتب الكهنوتي في تعامله التأويلي مع التراث الثقافي الروحي البابلي، فيمكننا ان نبيّن الخطوات الاجرائية التي اتخذها وهو يستعين بملحمة الخلق في صياغة روايته. ذلك أنه لا يرقى الشك الى أن الكاتب الكهنوتي قد توخى الاستناد الى التراث البابلي واستعان به أداة من أدواته التعبيرية في صياغة أفكار لاهوتية جديدة. ويظهر هذا الموقف الواعي في اعتماده عبارة «مواليد السماء والأرض» عنواناً لروايته، إذ أن ذلك يدلّ على النيّة الواعية لانتهاج اعادة التأويل منحىً في التعامل مع التراث البابلي. لم يتخّذ الكاتب الكهنوتي ملحمة «أنوما إيليش» مؤلّفاً أدبياً كلياً، بل انتقى العناصر الروائية والموضوعاتية التي تناسب تصوره الكفري اللاهوتي. فاقتبس الإطار الزمني السباعي والأسلوب التعدادي وشتّى العناصر الموضوعية التي كانت المقوّمات الأساسية للخطاب عن الخلق والذي طوّره وبلوره التراث الثقافي الإنساني في بابل، وفيما قبل بابل. ومن الواضح ان عملية الانتقاء فعل صادر عن النيّة الواعية. ويتضح كذلك ان هذا الكاتب قد تصرّف في العناصر المقتبسة تصرّف مفكر وفنّان مستقل يعرف ماذا يريد ان يقول وماذا لا يريد ذلك بأنّه غيّر وظيفة العناصر الأدبية الشكلية (كالإطار الزمني السباعي) فأصبحت نواظم بنائة في الاحبوكة القصصية. وصوّر كذلك دلائل الموضوعات الأسطورية، مضيفاً عليها معاني رمزية. أدّت هذه الاجراءات المنهجية، من جهة، الى إعادة تأويل العناصر الموضوعاتية الاسطورية في سياق التصور اللاهوتي، الكهنوتي، ومن جهة أخرى، أفضت الى تغيير اللون الأدبي إذ ان الكاتب الكهنوتي لم يولّف «ملحمة»، بل «تأملاً قصصياً» يتسّم أيضاً ببعض صفات «التعداد السلالي» والشعر.

فيمكننا ان نجمل نتائج التحليل في القول بأن التراث الكهنوتي والتراث البابلي يلتقيان ويتوافقان على صعيد البنية الخطابية السطحية، ولكنهما يتباينان على صعيد البنية الذهنية العميقة. فتندرج الرواية الكهنوتية، من جهة، في تراث الخطاب الديني في نشأة الكون، وهي جزء لا يتجزّأ عنه، إلا أنها من جهة أخرى خرجت منه لتبدع تراثاً جديداً.

خلق السماء والأرض

أنوما ايليش (اللوحة (؟)) **النص 6**

عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء
وفي الأسفل لم يكن هناك أرض
لم يكن إلاّ أبسو أبوهم
وممّو وتعامة التي حملت بهم جميعاً
يمزجون أمواههم معاً
قبل ان تظهر المراعي وتتشكّل غياض القصب
قبل ان يظهر للوجود أي من الآلهة الآخرين
قبل أن تُمنح اسماؤهم وتُرسم أقدارهم
في ذلك الزمن خُلق الآلهة في داخلهم

(اللوحة 4) **النص 7**

أما الرب فقد اتكأ يتفحص جثتها المسجاة،
ليصنع من جسدها أشياء رائعة
شقها نصفين فانفتحت كالصدفة.
رفع نصفها الأول وشكّل منه السماء سقفاً.
وضع تحته العوارض وأقام الحرس
وأمرهم بحراسة مائها فلا يتسرب
ثم جال في انحاء السماء فاحصاً ارجاءها،
استقام في مقابل الـ «أبسو» مسكن نُودِ يمود
قاس الرب أبعاد الابسو
وأقام لنفسه نظيراً له بناء هائلاً أسماه عشتار
ثم أقام آنو وانليل وايا في مسكنهم

(اللوحة 6) **النص 7**

عندما استمع مردوخ لحديث الآلهة
حفزه قلبه لخلق اشياء مبدعة
فاسرّ لـ «ايا» ما يجيش به جنانه،
واطلعه على عقد العزم عليه

«سأخلق دماء وعظاما
أصوغ منها «لا للو» وسيكون اسمه الإنسان.
نعم لسوف أخلق «لا للو»: الإنسان
وسنفرض عليه خدمة الآلهة فيخلدوا للراحة
ثم إني سأنظم مهام الآلهة.
كلهم عظيم ولكني سأجعلهم في فريقين»
فتوجه إيأ اليه بكلمة
في موضوع إراحة الآلهة
«ليقوموا بتسليم أحدهم
فيقتل ومنه تصنع الإنسان
ليجتمع كبار الآلهة ههنا
وليسلم الينا الاله المذنب فيستقر الباقون»
فقام مردوخ بدعوة كبار الآلهة،
أمرهم بلطف وأعطاهم التعليمات
سمع الآلهة كلماته وانتبهوا اليها،
لما توجه بحديث الانوناكي قائلاً:
«حقاً لقد صدق ما وعدناكم به
أقول لكم الحق وأقسم بذاتي على ذلك،
أخبروني عن خلق النزاع»
فأجاب الا يجيجي الالهة الكبار
أجابوا سيدهم مردوخ ملك السماء والأرض.
«إنه كينجو الذي خلق النزاع
ودفع تعامة للثورة وأعدّ القتال»
ثم قيدوه ووضعوه أمام أيا
وأنزلوا به الحكم فقطعوا شرايين دمائه
ومن دمه خلقوا البشر
ففرض عليهم أيا العمل وحرر الآلهة
بعد ان قام أيا الحكيم بخلق البشر
وفرض عليهم خدمة الآلهة
ذلك العمل الذي يسمو عن الافهام
والذي نفذه وفقاً لمخططات مردوخ المبدعة...

ملحمة الخلق

اينوما ايليش

كيف خلق هذا العالم ومن خلقه؟؟

لقد طرح هذا السؤال في بلاد سومر منذ ما ينيف عن ستة آلاف سنة، يوم كانت بلاد الرافدين غير موحدة، تعيش نظام الدولة المدينة؛ وهذه المدن كانت مستقلة كل منها عن الأخرى، إحداها تهيمن على الأخرى حسب القوة مثل كيش ولكش واور واوروك واريدو ولارسا وايسن وسوبار والوركاء... وغيرها، كل لها تقاليدها وعاداتها الخاصة بها. فهذه شفيعها الشمس (اوتو)، وتلك القمر (نانا) او الزهرة (إنانا) كما ان مدينة نيبور (نفر) كانت مركزاً دينياً مشتركا إذ تركت فيها عبادة (انليل) (الأب انليل)، (الجبل العظيم).

وأما بابل فلم تكن سوى مدينة صغيرة بين عديد من المدن حتى اتخذها حمورابي عاصمة لامبراطوريته الواسعة نحو (1800ق.م). وما ان ارتفعت (باب الله) بابل بين المدن حتى ارتفع الهها مردوخ الى المقام الأول بين الآلهة، وأخذ يمتص ويحتكر صفات الآلهة الأخرى حتى أصبح هو الخالق بدل آلاف الآلهة السومرية وأصبح رئيساً لمجمع الآلهة، وساحق قوى الشر الذي يرى كل شيء ويسمع كل شيء.

ظهرت بذلك مرحلة جديدة بين تعدد الآلهة أو البوليثية، والتوحيد أو المونوتية وهي الهينوتية.

إن الهينوتية لا تنكر الآلهة وتعددها، لكنها تختار إلهاً سيداً من بينها هو الاله الرئيسي والبقية ثانويون في مراتبهم ومهامهم السماوية والأرضية، وقد دام المعتقد الهينوتي ممثلاً في مردوخ البابلي، وآشور الاشوري، ويهوه العبراني، حتى بلغ الإنسان طور التوحيد مع موسى (1500 ق.م) وعاموس (750 ق.م).

لقد عبد سكان بلاد الرافدين قوى الطبيعة مؤنسنة في آلهة عديدة. كل قوة تمثل إحدى الإرادات السماوية. هذه القوى والأحداث الطبيعية كانوا يرونها ضرورية لبقائهم وبقاء قطعانهم وزرعهم وتربتهم ومياههم. وكي يعشر الإنسان بوجود دائم لتلك القوى أوجد الصور المقدسة والمعابد والطقوس والدراما الدينية. ومثلوا الآلهة بصور مركبة خيالية ثم أعطوها أشكالاً بشرية.

ومن الأشكال الخيالية الممثلة للآلهة. آلهة الغيوم الممطرة (امدوغود) التي مثّلوها طائراً أسوداً ضخماً له رأس أسد يزأر وصوته الرعد، يطير بأجنحة ممدودة هائلة الحجم في الجو. كما كان (ننغرسو) إله الحرب يمثل طيراً له رأس أسد، يزمجر كالمياه ويندفع نحو البلد المعادي وكأنه العاصفة. ومثّل (اوتو) إله الشمس بقرص الشمس. ثم أصبح له شكل انسان يشّع من جسده الضياء و(باو) إلهة الكلاب والشقاء كانت تتميز برأس كلب ولم تعط الآلهة الهيئة البشرية بوجه عام حتى بدأ عصر السلالات الحاكمة وأصبحت الآلهة تقف وراء الأحداث الطبيعية دون أن تكون فيها أو منها أو بشكلها وأعطيت القاباً شبيهة بألقاب الحكام والملوك فكلمة (إن) (En) تعني (رب أو سيد) أي القوة الموجهة والموجدة للحدث الطبيعي مثل (إنليل) السيد الهواء أي محدثه. ودخلت (إن) هذه في اسماء عدة آلهة منها إنليل، إنكي، أناماش، انفارا، اندوكو... الخ.

كلمة لوجال تعني الرجل العظيم أي ملك وخاصة القائد في الحرب، وقد دخلت في عدة اسماء مثل لوجال بندا، لوجال غيرا، لوجال كيشا، ولوجال زاكيزي ثم صار الآلهة، ملاكاً لأرض واسعة، وإقطاعات تعود لمعابدها، يديرها كهنوت وعوام كالأوقاف الدينية في العصر الحاضر. وكحكام للمدن أصبحت الآلهة مسؤولة عن مصالحها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، كما كان للآلهة المهتمين بالسياسة والمجتمع «ديمقراطيتهم البدائية» يجتمعون في نيبور برئاسة آنو وانليل لينتقوا الامراء والملوك ويقرروا مصائر المدن والحكام ومن سيسقط ومن سيرتفع.

هكذا اذن، بعد ان كانت الآلهة قوى طبيعية أصبحت قوى تاريخية، ووزعت مهامها الاجتماعية.

فربة الولادة نينتو، أعطاها إنكي مهمة زيادة التناسل، ودموزي (تموز) القوة الغريبة في الاغنام التي تصنع الحليب وتضعه في الاثداء أصبح الاله الراعي مهمته العناية بالقطعان والسهر على الحظائر.

وآخر شكل في الديانة البابلية كان الآلهة القومية متمثلة في مردوخ البابلي، وآشور الآشوري، يرأسان مجمع الآلهة في كل منهما، ويمثلان النزاع على السلطة بين مملكتي بابل وآشور بقيادة الملكية المطلقة.

لقد بقيت الآلهة القديمة ولم يتغير البانثيون[1]، إنما انحصرت الزعامة في مردوخ أو في آشور وأصبحت باقي الآلهة أدوات في يد الإله الأكبر:

انليل هو مردوخ	القائد في المجالس
نبو هو مردوخ	إله الحسابات
سين هو مردوخ	ينير الليل
شمش هو مردوخ	يقيم العدل...
هدد هو مردوخ	... اله العواصف والأمطار

وبحصر الزعامة وجدت الصفة السياسية للدين وصار الاله مسؤولاً عن السياسة الخارجية والحرب والقضايا الداخلية والأخلاق والعادات والتقاليد.

وقد أوجد مفهوم الاله الحاكم نوعاً من الورع والخضوع والاتكالية «لا تهتم بمشاكل القوة والسلطة، أوكل أمرك الى نبو ومردوخ واجعلهما يفتكان بأعدائك»[2].

وحتى في الصلوات نرى التائب يزحف مترحماً أمام الآلهة طالباً غفران الخطايا التي ارتكبها دون علمه.

وأخيراً أعتقد الناس ان لكل انسان «الهة الراعي» أو الملاك الحارس القادر على طرد الشياطين وقوى الشر. فإذا مرض انسان فهذا يعني انه قد أخطأ نحو الآلهة فلم يدافع عنه إلهه الشخصي أو آلهة الراعي ليمنع عنه شيطان المرض. لذا ألفت المزامير والتسابيح لاستعادة رضى الآلهة. ومن هذا الأدب نما الاهتمام بمشكلة الاتقياء الذين تأتيهم المصائب دون سبب ظاهر. فلا يجدون السبب الا في قلّه فهم الإنسان لإرادة الخالق، لأن الإنسان لا يمكنه أن يرى ما تراه الالهة الخالدة، ولا يفهم مقاصدها، كما أنه «لم يولد طفل لأم بلا خطيئة»[3].

(1) البانثيون أي مجمع الآلهة الموسع، فالبانثيون السومري كان يضم بين 3000 - 4000 إلهاً مبتدئاً بالبحر الأول «نمو» أم الخليقة، ويضم آنو أبو الالهلة ورئيسهم، وانليل اله الهواء والرياح وانكي اله المياه العذبة. وهذا هو الثالوث السومري: آنو - انليل - انكي... والبانثيون الاكدي المتمثل في شمش (اله الشمس) وسين اله القمر (نانا) وعشتار آلهة الزهرة ورئيس الالهة ايل. والبانثيون الاشوري البابلي كان يتمثل في مردوخ واشور وإيا وهو إنكي السومري رب الحكمة والمياه العذبة العميقة (أبو) وهو أبو مردوخ وشريكه في عملية الخلق.

(2) هذه كانت نصيحة نبو بولاصر لخلفائه.

(3) هذا ما سنجده في قصة «أيوب السومري» في فصل لاحق.

اينوما ايليش لأنبو شما مو

أول شيء حاوله الإنسان القديم أو المعاصر، هو تفسير الكون المحيط به، فكانت قصص التكوين والخليقة التي عبّرت بصورة عامة عمّا أحاط به من عظمة الكون اللامتناهي. ثم اتجه الإنسان بفكرة ليفسر كل شيء شغله في عالمه وأثّر في حياته، فأضاف ميتوس الأصول ليكمل به ميتوس التكوين. وكانت فكرة الخلق من العدم فوق طاقة العقل البدائي، فتراه يفترض ان كل الأشياء قد خلقت مما هو موجود سلفاً كالبحر، وان الحياة قد خرجت من المياه.

لقد تصور كتّاب أساطير ما بين النهرين، العالم كما يرون جنوب العراق في منطقة شط العرب (حالياً) هناك بعد ان تمر مياه الرافدين العذبة في سهول العراق تختلط بمياه الخليج العربي المالحة (أو النهر المر) وتخيّم الغيوم المنخفضة على الأفق.

كانت الأرض بالنسبة لهم قرصاً مسطحاً محاطاً بسوار من الجبال. سلسلة زاغروس من الشرق وطوروس من الشمال ولبنون (لبنان) من الغرب، وعلى هذه السلاسل الجبلية الثلاث ترتكز قبة السماء وكأنها غطاء للأرض وفيها تجول الاجرام السماوية.

هذه الأرض كانت عالم الاحياء وتحتها عالم آخر هو «العالم السفلي» أو «أرض اللاعودة» حيث يسكن الأموات، تكتنفهم الظلمة وتحيط بهم الاقذار والوحول المرة. وكل هذا الكون تصوروه قائماً في محيط كوني مالح. كل الأرض لم تكن سوى الهلال الخصيب ومركزه بابل عند البابليين أو نيبور عند السومريين. والأرض والسماء والبحر قد التقوا في البدء في عماء كوني من الفوضى ينقصه الكثير من التنظيم. وهذا ما صنعته الآلهة.

***

في أساطير الخلق ببلاد الرافدين انبثقت الحياة من المياه، ووجد العالم والبشرية نتيجة الصراع بين الأجيال السابقة واللاحقة من الآلهة.

كانت القصة الأولى للخق هي السومرية نحو (3500 ق.م) ثم تبعتها نصوص بابلية في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. وكان آخر نص هو ملحمة الخلق البابلية (اينوما ايليش) التي أخذت شكلها النهائي في القرن الثامن ـ السابع قبل الميلاد.

وقصص الخلق المتعددة لا تختلف في جوهرها الفكري، إنما كانت تعدّل جزئياً مع تبديل في اسماء الآلهة، حسب الهيمنة السياسية لكل مدينة. لأن لكل مدينة الهها الرئيسي. فبعد ان كان (انليل) هو الخالق في القصة السومرية أصبح (مردوخ) في البابلية واستعيض عن (إنكي) بـ (ايا). وبوجه عام استعملت الاسماء السامية لنفس الالهة.

وفي القصص السومرية ـ البابلية تكون الآلهة جزءاً من العالم وجزءاً من قوة الخلق فيه. فـ «انليل» اله الهواء فصل بين «آنو» السماء و«كي» الأرض. و«انكي» خلق الإنسان ليخدم الآلهة وعلمه أساليب العمل والحياة.

أما مردوخ فقد قتل تنين الشر والفوضى الكونية «تيامات» (تهامة) في معركة ضارية وشق جسمها الى نصفين، جعل منهما الأرض والسماء. ثم خضعت له الآلهة وَرَأسَتْهُ عليها بعد ان أنقذها من التنين المخيف. ثم خلق الإنسان ليخدم الآلهة ويغذيها بذبائحه كما فعل انكي عند السومريين. ولا نجد آلهاً واحداً مسؤولاً عن خلق كل شيء، بل توزعت الأدوار والأعمال وكان العمل الكبير للإله الكبير.

***

لقد وجدت الـ «اينوما ايليش» مكتوبة على سبعة ألواح، وقد نظمت أصلاً في بدء الألف الثاني قبل الميلاد. لكن النصوص الموجودة تعود الى الألف الأول قبل الميلاد، وفي كل النسخ يلعب مردوخ الدور الرئيسي. وقد بقيت هذه الملحمة تتلى في اليوم الرابع من احتفالات راس السنة الـ «اكيتو» من شهر نيسان ولمدة ألفي عام في بابل، تذكّر الناس بسيادة النظام على الفوضى.

وسفر التكوين في التوراة قد ثبّت في خمسين اصحاحاً تتألف من (1542) عدداً (آية ومقطعاً) لم يصب منها التكوين والخليقة وفكرة «كمال البدء» سوى (80) عدداً. وقد دوّنت في ثلاثة اصحاحات.

كما لم يُصب فكرة «نهاية العالم» وتجديده بطوفان تقليدي سوى (68) عدداً وردت في ثلاثة اصحاحات أيضاً.

فيكون المجموع (148) عدداً فقط من أصل (1542) عدداً لكامل سفر التكوين.

ونجد في سفر التكوين قصتين للخلق:

1 ـ اصحاح (1 - 2 :2- 4) من جمع الكهنة في القرن الخامس قبل الميلاد، وهي ترتكز بشكل رئيسي على الاينوما ايليش البابلية مع مفاهيم سومرية وتسلسل عملية الخلق في ستة أيام يتبع تسلسل الاينوما ايليش منتهياً بخلق الإنسان، يتبع ذلك راحة في اليوم السابع (السبت).

2 ـ اصحاح (4:2 - 25) وهي قصة فلسطينية مع تشابه كبير بالقصة البابلية: خلق فيها آدم من الطين (آدما) أو الاديم.

وفي ترجمات قصة التكوين العبرية في مختلف اللغات نجد الله وحده الخالق (خالق السموات والأرض) وكل ما فيها تأكيداً لعقيدة التوحيد. بينما النص العبري ينسب الخلق لـ «ايلوهيم» (Elohim) أي الآلهة في البدء خلقت الآلهة السماء والأرض» أي أننا نجد في النص العبري تعدد الآلهة كما في النصوص السومرية والبابلية. ونرى مما تقدم ان معظم سفر التكوين يختص بـ «ميتوس الأصول» وليس بـ «ميتوس الخلق» وفيه الإنسان الأول هو «آدم» ثم تحدّر منه الآباء حتى ابراهيم وإسحق ويعقوب والاسباط الاسرائليين.

«وبما ان قصة التكوين التوراتية قد دونت في مراحل سياسية واجتماعية متأخرة، بالاعتماد على أفكار ميتية بابلية وسومرية، لم تكن على ما يبدو من معتقدات اليهود القدماء الأساسية الايلوهيمية أو اليهوهية. لذلك فإن سرد ميتوس الأصول القبلية المشار اليه لم يخل من اتجاهات عنصرية عدائية مثل سياسة القبيلة وموقفها من غيرها من الأقوام والشعوب»[4].

ملخص الملحمة البابلية

1 ـ صراع بين الآلهة وفوضى وعماء كوني.

2 ـ انتصار الآلهة بقتل تيامات وخلق مردوح للكون السماء والأرض والنجوم والكواكب والقوانين التي تسيّرها.

3 ـ خلق النبات على الأرض.

4 ـ خلق الحيوانات، الأبقار والوحوش... الخ.

5 ـ خلق الإنسان من دم وعظام، وقد عارض بعض الالهة مردوخ خوفاً من منافسة الانسان لهم.

6 ـ تمجيد مردوخ من قبل كل الآلهة والبشر.

---

(4) د. وديع بشور، الميثولوجيا السورية، ط .2 ص 42, 43, 44, 193, 194, 195 وطالع للتفاصيل كتابنا اثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية (بيروت. 1998).

ملخص سفر التكوين

1 ـ خلق الله النور وفصل بين النور والظلمة فصار نهار وليل.

2 ـ خلق الجلد أو السماء فاصلاً بين المياه التي تحت والمياه التي فوق.

3 ـ خلق اليابسة الأرض وفصلها عن البحار وخلق عشباً وشجراً.

4 ـ خلق الشمس لتنير النهار والقمر ليحكم الليل.

5 ـ خلق الزحافات والطيور.

6 ـ خلق الحيوانات وخلق الإنسان على صورة الله وشبهه وسلّطه عليها.

7 ـ استراح الله في اليوم السابع بعد ان فرغ من عمله.

وبعد ان انتهى انكى (أياً) من تعليم البشر اختارت الآلهة بابليا ليكون راعياً للشعب.

القصة البابلية ملوك ما قبل الطوفان		القصة التوراتية آباء ما قبل الطوفان	
1. الوليم في اريدو	حكم 28000 سنة	آدم	حكم 130 سنة
2. الألمار في اريدو	حكم 36000 سنة	شيت	حكم 105 سنة
3. امندورانا في بيت كركار	حكم 43000 سنة	انوش	حكم 90 سنة
4. كيشوتا في لارسا	حكم 43000 سنة	فيتان	حكم 70 سنة
5. انمنغلانا في بيت كركار	حكم 28000 سنة	مهلئيل	حكم 65 سنة
6. دوموزي في بيت كركار	حكم 36000 سنة	يارد	حكم 162 سنة
7. سبزيانا في لاراك	حكم 28000 سنة	اختوخ	حكم 65 سنة
8. امندورانا في سيبار	حكم 21000 سنة	متوشالح	حكم 187 سنة
9. اوب. اوراتوم في شوروباك	حكم 18000 سنة	لامك	حكم 182 سنة
10. اوتنابشتايم بطل الطوفان	حكم 64000 سنة	نوح بطل الطوفان	حكم 600 سنة
المجموع	345000 سنة	المجموع	1656 سنة

وردت هذه الأسماء في ثبت ملوك ما قبل الطوفان[5]. وقد أورد (برعوشا) (بيبروسوس) ان اسم الملك الأول هو «آلوروس» وأنه حكم (36000 سنة) ولم يعرف عن هؤلاء الملوك الا القليل ما عدا عدد السنين الخيالي الذي حكموا خلاله ومجموع هذه السنين (3450) قرناً.

(5) د. وديع بشور، المصدر السابق، ص 195 - 198.

وفي محاولة تفسير أرقام برعوشا يعتقد العلماء المعاصرون ان السنة الأسطورية لم تكن سوى أسبوع واحد أو يوم واحد. ولا ندري إذا كان واضعوا هذه الأرقام أنفسهم قد وعوا ما كانوا يقولون لأن أرقامهم فلكية دون أن يكون لها علاقة بالهندسة الكونية.

والملك السابع المدعو عند برعوشا «ايفيدوراخوس» الذي اسمه في النصوص البابلية «ايفيدورانكي» (سبزيانا) له أهمية خاصة، وهو أنه تلقى علماً خاصاً من الالهين شمس وادد (هدد) لم يعلمه «ايا» للبشر وهو نفسه كان يجهله، إلا وهو «علم العرافة».

خلق البشر ليخدموا الالهة. والآلهة طغاة يعاقبون بشدة حتى من أجل الاخطاء التافهة. لذا يجب على البشر أن يطيعوا بدقة، وعليهم ان يطابقوا تصرفاتهم مع ارادة الالهة. فما العمل من أجل تجنب الاخطاء؟ ان الآلهة تبين ما تريد مباشرة عن طريق الأحلام. إلا أن تفسير الأحلام مهمة صعبة والأصعب من ذلك ألاّ يكون هناك أحلام للتفسير. إذن يجب اللجوء الى التخمين والتنبوء بالمستقبل.

كما أعطى البابليون أهمية عاطفية كبيرة بنظرة ملؤها الخوف لتبدلات القمر وأشكال الغيوم وحتى لكل حركة من حركات الزحافات بين الأعشاب، أو تحركات الكواكب السيارة. كل شيء اعتبروه علامة لإرادة الآلهة الحسنة أو السيئة، ومهمة الفن والعلم هو معرفة هل العلامة سيئة أم حسنة. هنا بدأ دور السحر والتنجيم في تعجيل الحسن وأبعاد السيء الذي يهدد حياة الملك والتي يتوقف عليها مصير الملك خاصة والبلاد عامة كما في قصة الملك آشور بانيبال[6].

والملك الذي اطلعته الآلهة على هذا العلم هو الملك السابع ايفيدور انكي (سبزيانا) من ملوك ما قبل الطوفان والذي يعادل أخنوخ بين الآباء في التوراة، ورغم تباين الاسماء فإن دورهما متشابه جداً. وقد قالت التوراة في سفر التكوين: «سار اخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه»[7].

وقبل بدء العصر المسيحي حيكت عدة قصص حول اخنوخ فقيل انه اخترع الكتابة وألف أول كتاب وألف علم التنجيم، وهكذا أصبح ايفيدور انكي آخر. وليست الأساطير العبرانية المتأخرة سوى اقتباس وتطوير وتحريف للأساطير البابلية القديمة.

والملاحم البابلية تختلف اختلافاً ملحوظاً في الصورة والمادة عن آداب الساميين الآخرين. والجزء الأكبر من الأساطير ليس إلا نسخة جديدة من الروايات السومرية

---

(6) في أيام اشور بانيبال ملك اشور (668 - 631 ق.م)، تنبأ له العرافون بسوء الطالع فكان عليه ان يتهرب من الموت باختيار «ملك بديل» وكأنه يخدع الآلهة بموت البديل، فاختارت نبية ما شابا يدعى «دمقي» وزوجوه بإحدى وصيفات القصر وعينوهما ملكا وملكة لفترة وجيزة ثم قتلوهما. وهكذا (نجا اشور بانيبال) من الموت، حسب معتقدات سكان الرافدين وذلك بموت بديل عنه.

(7) سفر التكوين.

التي تعدّ الأساس الحقيقي لأدب أرض الرافدين. ومن الطريف ان نلاحظ ان المؤلفين لم يكونوا يترددون في أن يكرروا مرات عدة خلال العمل الأدبي الواحد صورة أو فقرة ترضي نفوسهم. ومبدأ التكرار هو أيضاً أساس القالب الشعري، فهو لا يتميز بالقافية أو يقاس بالوزن إنما يقوم على تتابع العبارات المتوازية، سواء أكان هذا التوازي عن مساواة ومشابهة أو عن تضاد. وهذا التكرار من صفات الشعر السومري.

ومن أجل تكامل قصة التكوين لا بد من إضافة نصوص من ملحمة الخلق السومرية الى النصوص البابلية، لأن المهم هو ابراز الأدب القديم ككل. وفي القصتين حدث الطوفان أيام الملك العاشر زيو سودرا السومري او أوتنابشتايم البابلي أو نوح التوراة.

اينوما ايليش لأنبو شمامو

الألواح 1 - 3 تحكي قصة ولادة الآلهة من مياه البدء الابو وتيامات، واختيار مردوخ بطل الجيل اللاحق من الآلهة ليخوض المعركة مع تيامات.

«عندما في الأعالي لم يطلق على السماء اسم،
واليابسة من تحت لم تدع باسمها،
لم يكن شيء سوى «أبسو» البدء التي أوجدتهما،
و«مومو» و«تيامات» التي ولدتهما،
وكانت مياههما تتمازج في هوة واحدة،
لم تبن الأكواخ ولا ظهرت المستنقعات بعد،
عندما لم يكن أي من الآلهة قد ولد،
ولا دعيت باسمائها ولا قدرت مصائرها
عندها تكونت الآلهة في تلك المياه».

هكذا كانت الفوضى تعمّ الكون. وكانت هوّة سحيقة تختلط فيها المياه العذبة «أبسو» مع المياه المالحة «تيامات» (البحر) والغيوم «مومو» وقد سمي تنين الشر تيامات «كور» عند السومريين و«رهب» عند العبرانيين.

وأول الهين خرجا من فوضى البدء هما «لحمو» و«لحامو» يمثلان الطمى الرسوبي في ملتقى النهر والبحر. ثم خرج آنشار» و«كيشار» حيث يلتقي أفق الأرض بأفق السماء.

ثم ولد لـ «آنشار» و«كيشار» «آنو» (السماء) وهذا بدوره ولد «ايا» (انكي اله الحكمة

ومياه العمق) وبنفس الوقت تكون لأبسو وتيامات بضعة آلهة مثيرة للضجة والصخب في بطن تيامات فتشاور أبسو وممو وقررا قتل هذه الآلهة الصاخبة، لكن تيامات ترددت في قتل أطفالها.

علمت الآلهة الكبرى بالمخطط لحمو ولحامو، آنشار وكيشار، آنو وآيا جميعاً دهشوا، وقفوا مشدوهين صامتين، لكن آيا الحكيم وجد السبيل لاجهاض الجريمة، فقد رقي مومو فأصيب بالشلل، ورقي ابسو فغرق في النوم ثم ذبحه. بعد هذا النصر عاد آيا الى معبده في أعماق المياه العذبة ولقي زوجته «دامكينا» فولدا الاله مردوخ بصفاته الرائعة:

«كاملة هي اعضاؤه، تفوق كل وصف،
لا يمكن فهمه، بل يصعب ادراكه،
أربع كانت عيونه، وأربع كانت آذانه،
إذا تحركت شفتاه ينفث من بنيها لها،
واسعة كانت اعضاء سمعه الأربعة،
كذلك أعينه الاربعة ترى كل شيء،
كان أسمى الآلهة وأعظمهم بقامته
اعضاؤه هائلة وقامته فارعة طولاً».

كانت تيامات الشريرة لا تزال حرة طليقة:
«تيامات تزار، غضبتها مخيف،
تنوي الشرّ بقلبها، تخلق الأفاعي الهائلة،
أسنانها حادة، ولا تشفق في الحرب،
بالسّم لا بالدم تملأ جسدها،
وتنانين هائلة تلبسها ثوب الارهاب،
عينت كنجو ابنها على رأس جيش الشر،
وأعلنت الحرب على الآلهة...»».

اللوح 4 ـ جزعت الآلهة وضرب آنشار جبينه وعض شفتيه، يجب التخلص من كنجو ولكن أين من ينازله. لقدتهرّب الالهة من مواجهته واحداً تلو الآخر إلا مردوخ العظيم الذي قبل المهمة بشرط أن يصبح ملك الآلهة «ينظّم مجمعهم، يسيّر أقدارهم وأقدار الآخرين». اجتمع الآلهة في وليمة، أكلوا وشربوا، ثم سلّموا مردوخ شارات الملك

والسلطة فاختار أسلحة المعركة «القوق والبرق والعاصفة والرياح الأربعة والشبكة» لبس أسلحة الحرب وحول رأسه هالة الخوف، ركب عربة العاصفة وسار ليحارب تيامات وقوى الشر والفوضى، رآه جيش التنانين فتشتتوا وأسر قائدهم كنجو، ألقى شبكته على تيامات وما ان فتحت شدقيها حتى نفخ الرياح الأربعة في جوفها ثم طعن قلبها بأحد نباله وحطم راسها بصولجانه، ثم شقّ جسدها الى نصفين، جعل من أحد النصفين جَلَداً يغطي الأرض ووضع النصف الآخر في أسفل من تحت الأرض، وانتزع لوحات القدر من كنجو وثبتها على صدره:

«أقاموا لمردوخ عرش الامارة،
جلس عليه، واجه آباءه وترأس،
«أنت المعظم بين الآلهة، أنت المبجل،
لا منازع لأحكامك، أوامرك عليا مثل آنو
أنت يا مردوخ أمجد كبار الآلهة
لا مردّ لحكمك، كلمتك هي العليا
منذ اليوم لا تتبدّل مشيئتك،
ترفع وتدني كما تشاء...[8]
أقوالك حق وأوامرك نافذة
لن يجروء أي من الآلهة على امتيازاتك.
ولتحفظ مزارات الآلهة بالقرب من مزارك.
والحق يا مردوخ انك انتقمت لنا
لذا منحناك ملك الكون أجمع
وفي المجمع المقدس كلمتك هي العليا
أسلحتك لن تخيب بل ستسحق أعداءك
أيها السيد امنح الحياة لمن يؤمن بك
وأبِدْ الاله الذي يضمر الشر...
«وضعوا قطعة من قماش في وسطهم[9]

(8) الرب يُفقِر ويغني. يضع ويرفع (1 صموئيل 2: 7).

(9) وقال جدعون لله: ان كنت تخلص بيدي اسرائيل كما تكلمت فها اني واضع جزّة الصوف في البيدر فإن كان طلّ على الجزّة وحدها وجفاف على الأرض كلها علمت انك تخلّص بيدي اسرائيل كما تكلّمت. وكان كذلك. فبكر في الغد وضغط الجزّة وعصر طلاً من الجزّة ملء قصعةِ ماءً. فقال جدعون لله لا يحم غضبك عليّ فأتكلم هذه المرّة فقط. امتحن هذه المرّة فقط بالجزّة فليكن جفاف في الجزّة وحدها وعلى كل الارض ليكن الطلّ ففعل كذلك في تلك الليلة. فكان جفاف في الجزّة وحدها وعلى الأرض كلها كان طلّ. (قضاة 6: 36 - 40).

وتوجهوا الى مردوخ، بكر الآلهة:
أيها السيد، حقاً ان أحكامك هي الأولى
قل كلمة فناء أو كلمة خلق وسكيون
قل كلمة فيختفي النسيج
أعد كلمة وسيعود كما كان
وبكلمة أخفاه وبكلمة أعاده
تهللوا وبايعوه «مردوخ ملكاً».
«منحوه صولجاناً وعرشاً وحلّة
أعطوه أسلحة لا تضاهي تدمر الأعداء
«انهض وستبيد تيامات
ولتحمل الرياح دمها الى المجهول»
وما أن ثبت الالهة قدر «بيل»
حتى أرسلوه في دروب النصر والسؤدد».
«صنع قوساً جعلها سلاحه
ركّب عليها سهماً وثبّت الوتر»
رفع الصولجان وقد أمسكه بيمناه
وعلى جنبه علق السهام والكنانة
أقام البرق أمامه
وبنار لاهبة ملأ جسده
ثم صنع شبكة ليُطَوّق بها تيامات
وأقام الرياح الأربعة كي لا يفلت منها شيء
ريح الجنوب، ريح الشمال، ريح الشرق، وريح الغرب
وإلى جنبه جعل الشبكة، منحة من أبيه آنو»،
«خلق ايمهوللو» الريح الشريرة، الريح الدوّارة، الأعصار
الريح المضاعفة أربع مرات، وسبع مرات، والتي لا تضاهى
وأطلق الرياح التي خلقها، الرياح السبعة
تبعته لتثير جوف تيامات وتحركه
ورفع الرب عاصفة الطوفان، سلاحه القوي
اعتلى عربة العاصفة، الرهيبة التي لا تقاوم

وربط بالنير اليها أربعة
القاتل، والقاسي، والدائس والسريع
حادة أسنانهم، يحملون السمّ فيها
دربّوا على التخريب واتقنوا التدمير
على يمينه وضع «الضارب» مرعب في المعركة
وعلى يساره وضع «الصراع» يدفع المغَيّر
ومن أسلحة الرعب جعل رداءه
وأحط راسه بهالة «الخوف»
ومضى الرب قدماً وتابع مسيره
نحو تيامات الهائجة وجّه خطاه
بين شفتيه ما كان يحمل نميمه،
وبيده أمسك عشبة تفسر السّم
وسار الآلهة آباؤه من حوله
«اقترب الرب ليتفحص جوف تيامات
وكنجو قرينها ليفهم خططه
وبينما يراقب تزعزع خط سيره،
تاهت ارادته وارتبكت أعماله
وعندما رأى الآلهة من حوله
البطل الصنديد بهرت أبصارهم».
«زأرت تيامات دون ان تلتفت
وفي شفتيها الاحتراس والتوحش
«يا سيد الآلهة، أتظن ان مكانتك تمنعني من مقارعتك؟
هل في ديارهم اجتمعوا أم في ديارك؟»
فرفع السيد عاصفة الطوفان سلاحه القوي
وإلى تيامات الهائجة وجه كلماته:
لماذا تنهضين تشمخين وتتكبرين
وفي قلبك تحملين اثارة القلاقل
حتى ابناؤكِ ينبذون أباءهم

وأنت التي ولدتهم تتكرين عليهم الحب
جعلت من كنجو قريناً لك
وخلعت عليه رتبة انو دونما استحقاق
ضد انشار، ملك الآلهة، تبحثين عن الأذى،
وضد الالهة، آبائي، تثبتين شرورك
قواك معدّة وسلاحك جاهز
فانهضي لنتصارع منفردين».
ما ان سمعت تيامات هذا،
حتى فقدت صوابها وحواسها كالـ «مسكون»
بغضب صاحت تيامات عالياً
وارتعشت ساقاها من جذورهما
وتلت تعويذة وأخذت تنفث سحرها
بينما أخذت آلهة الحرب تشحذ أسلحتها
واشتبكت تيامات مع مردوخ أحكم الآلهة
التحما في المعركة منفردين وتعاركا
نشر السيد شبكته وطوّقها
وأطلق ريح الأذى التي تبعته في وجهها
ولما فتحت تيامات شدقيها لتلتهمه
أرسل بينهما ريح الأذى كي لا تطبق الشفتين
فملأت الرياح الهائجة بطنها
وانتفخ جسمها واتسع فوها
أطلق سهماً مزّق بطنها
اخترق الأحشاء وشق فؤادها،
هكذا غلبها و«أطفأ» حياتها؛
طرح جثتها ووثب فوقها».
«وبعد ان ذبح تيامات القائدة
تشتت عصابتها وتدّمر جيشها
والآلهة الذين ساندوها ومشوا بجوارها

هزّهم الرعب فولوا الأدبار
هربوا لينجو بأنفسهم ويحيوا
طوّقهم بأحكام فلم يجدوا مهربا
جعلهم أسراه وحطّم أسلحتهم
سقطوا في الشبكة وأصبحوا محاصرين
وضعوا في زنزانات وامتلأت قلوبهم نواحا
تحملوا سخطه فأضحوا سجناء
والمخلوقات الأحد عشر الذين حملتهم بالويلات
وجمهرة الشياطين التي سارت أمامها
من أجل مقاومتهم داسهم بالاقدام
وكنجو الذي جعل رئيساً عليهم
قيّده ودفعه ال «اوجي» اله الموت
وانتزع منه «لوحات القدر» وهي ليست من استحقاقه
ختمها بختمه وثبتها على صدره».
«ولما قهر مردوخ وأخضع أخصامه
ولما داس اعداءه المتعجرفين،
وثبت نصر أنشار على أعدائه
وحقق أماني نوديمود (آيا)
شدّد مردوخ الصنديد قبضته على الآلهة المغلوبين
والتفت الى تيامات التي قيدها»
داس الرب على ساقي تيامات
بصولجانه الذي لا يرحم، حطّم جمجمتها
قطع أوعيتها وانزف دمها
فحملته ريح الشمال الى أماكن مجهولة»
«رأى آباؤه ما حدث ففرحوا وتهللوا
قدموا له هدايا العرفان والطاعة.
توقف الرب يتفحص جثتها الهامدة،
ليشق الوحش ويقوم بأعمال الابداع
شقها فلقتين كما يشق الصدفة،

رفع نصفها وجعله سقف الجلد،

أغلق النوافذ وأقام الحراس عليها

أمرهم أن يمنعوا مياهها من التسرّب

عبر السماوات وتفحص الاصقاع

حدد مياه «الابسو» مسكن ايا

«المسكن العظيم» ثبته في «اي - شارا»

«المسكن العظيم»، «أي شارا» الذي جعله جلَدا

وعين لانو وانليل وأيا أماكنهم».

اللوح 5 - بعد ان اصبح مردوخ ملك الآلهة المطلق بدا في تنظيم الكون. فصنع منازل الآلهة وثبّت الأبراج ووضع النجوم في اماكنها، وحدد الأزمنة وفصول السنة والأشهر الاثني عشر، وأوكل لاله القمر، سين، ان يقيس مرور الزمن:

«صنع مردوخ منازل لكبار الآلهة

ثبت نجومهم في مجموعات

حدد السنة وجعل لها فصولاً،

لكل شهر من الاثني عشر أقام ثلاثة أبراج

بعد تحديد أيام السنة برموز سماوية

أقام مسكناً لـ (نبيرو) (جوبيتر) ليحدد مجموعاتهم السماوية

كي لا يتخطى أحد حدوده أو ينقص عنها

وبجانبه أقام مسكني (انليل) و(آيا)

وبعد أن فتح بوابة في كلا الجانبين

دعم الاقفال على اليسار وعلى اليمين»

«وفي جوف تيامات ثبت السمت

جعل القمر نيراً وسلطه على الليل

عينه مخلوق الليل به تحدد الأيام

«في كل شهر بلا انقطاع تبدل أشكالك

في بدء الشهر تطل على الأرض

وسيكون لك قرنان نيران لستة أيام

في اليوم السابع تصبح نصف دائرة

في منتصف الشهر تصبح بدراً وتواجه الشمس
وعندما ينحسر عنك ضوء الشمس في قاعدة السماء
انقص من دائرتك وانقص من نورك
عند اختفائك اقترب من مدار الشمس
وفي التاسع والعشرين تعود تواجه الشمس»
بعد المحاق تعود ثانية الى الأرض».

اللوح 6 ـ بعد تنظيم الكون قرر مردوخ ان يخلق الإنسان ليخدم الالهة، يخدمها في معابدها ويطعمها من ذبائحه وقرابينه كي تنصرف الى مهامها الالهية. وترتاح من عنائها. فاستشار اباه آيا، فنصحه ان يذبح كنجو قائد الجيش قائد جيش تيامات ليخلط دمه بالعظام والطين، ومن الجبلة يصنع الإنسان، أول انسان. الإنسان المتوحش (لولو).

عندما سمع مردوخ كلام الآلهة
تحرك قلبه ليخلق ما هو حسن
حدث ايا بما يجول في خاطره قائلاً:
«اني جامع دما اني خالق عظماً
سأخلق متوحشاً وسيكون اسمه (الانسان)
حقاً سأخلق الإنسان المتوحش (لولو)
سأفرض عليه خدمة الآلهة كي تستريح
سأبدل طرق الآلهة لما هو أفضل
سأقسمهم مجموعتين تعبدان بالتساوي
أجاب أيا مخاطباً مردوخ
وقدم خطة أخرى لتحرير الآلهة:
«ليقبض على واحد من اخوتهم
وليقض عليه من أجل خلق البشر،
فادع كبار الآلهة الى المجمع
يقبض على المذنب كي يبقى الآخرون
دعا مردوخ الالهة الى المجمع المقدس
ترأس بجلال ووزع التعليمات
لكلماته يصغي الآلهة بانتباه

فالملك يوجه كلمته (للانوناكي)
«ان كانت أقوالكم السابقة حقه
اقسموا بي بأن تعلنوا الصدق أمامي
مَن من الالهة خطط للشغب؟
مَن حرّض تيامات على التمرد وحارب الى جانبها؟
فليسلم من خطط للشغب
سأحمّله وزر جريمته وتبقون أنتم بسلام»
«لوجال ديمرانيكيا» سيدهم (ملك الهة السماء والأرض)
انه كنجو من خطط للشغب
حرّض تيامات على التمرد وشاركها المعركة»
«قيّدوه وأمسكوه أمام آيا
أدانوه بالجرم وانزفوا دمه
ومن دمه صنعوا الإنسان
فرض عليه آيا الخدمة ليحرر الآلهة
أيا الحكيم خلق البشر لتخدم الآلهة
انه عمل يفوق الادراك
وكما صممه مردوخ هكذا خلقه أيا»
«مردوخ ملك الآلهة قسمها
أوكل الانوناكي في الأعلى وفي الأسفل
وأوكل الى آنوكي يحافظ على تعليماته
ثلاثمئة أقام في السماء حراسا
ثلاثمئة يسكنون الأرض بين الناس
ستمئة أقام في السماء وعلى الأرض
وبعد ان أمر بكل تعليماته
عين لانوناكي السماء والأرض مهامهم
«حدث الانوناكي سيدهم مردوخ:
«أيها الرب يا من حررتنا
كيف نعبّر عن ولائنا لك؟

تعالوا نبني له مقاماً وسنعين له إسماً

تعالوا نبني له عرشاً ومسكناً

نستريح فيه حين نصل يوم رأس السنة»

«سمع مردوخ كلامهم

فرح وأشرق وجهه كالنهار

«لتكن بابل الشامخة التي ستبنون

اصنعوا قرميدها وادعوا اسمها «مقدساً».

«أخذ الانوناكي عدة العمل

ولمدة سنة كاملة صنعوا الأجر

ولما حلّت السنة الثانية

رفعوا رأس اي ـ ساجيلا بعمق الأبسو

بنوا زيقورة ارتفعت بعمق الأبسو

أقاموا فيها مسكناً لمردوخ وانليل وأيا

وبحضورهم زيّنها بعظمة وجلال

وقرناها ينظران الى أسفل الى أسس أي ـ شارا

وبعد ان اتموا بناء أي ـ ساجيلا

بنى الانوناكي مقاماتهم بأنفسهم

لقد تجمعوا كلهم وبنوا «بابل» له مسكناً

«أولم مردوخ لآبائه الآلهة

«هذه بابل التي صارت لكم موطناً

افرحوا بمعابدها واملأوا ساحاتها

جلس الآلهة، احتفلوا وشربوا

في أي ـ ساجيلا أقاموا طقوسهم وثبتوها

وتقاسم الآلهة منازل السماء والأرض

الآلهة الخمسون الكبار أخذوا أماكنهم

وآلهة القدر السبعة وضعوا ثلاثمائة في السماء».

«رفع انليل قوسه ووضعها أمامهم

رأى الآلهة الشبكة التي صنعها

وأعجبوا بالقوس وبمهارة صنعها
فمجّد آباؤه ما صنعت يداه،
وعين آنو قدر القوس
ووضع العرش المجيد أمام الآلهة
جعله آنو في مجمع الآلهة
«ولما اجتمع الآلهة ليمجدوا مردوخ
أطلقوا فيما بينهم لعنة
لقد أقسموا بالماء والزيت ان يجعلوا الحياة مهددة
ولما منحوه الملك على الآلهة
أكدوا سلطانه على آلهة السماء والأرض
آنشار قال «لنصغي بخشوع عند ذكر اسمه»
وإذا تلكم ستصغي الآلهة اليه
ولتكن أوامره العليا في الأعلى وفي الأسفل
ليتمجد الابن الذي انتقم لنا
ولتعم سيادته بدون مزاحم
وليرعى ذوي الرؤوس السود خلائقه
وإلى الأبد لا ينسون أتباع سبله.
وليقم لآبائه الذبائح والقرابين
وليقدموا لهم الغذاء وليرعوا معبادهم
وليجعل رائحة البخور تتصاعد ليستنشقوها
وليكن على الأرض شبه ما عمل في السماء
وليأمر ذوي الرؤوس السود ان يقدسوه
وليفكر رعاياه أبداً باللهم
وبأمر منه يصغون الى الالهة
وليقدموا القرابين لآلهتهم وآلهاتهم
وإلا يتقاعسوا في تغذية الهتهم
وليحسنوا أرضهم ويبنوا مزاراتهم
وليكن ذوي الرؤوس السود بأمر آلهتهم

ونحن مهما تلفظنا بأسماء فهو الهنا

فلنعلن إذن اسماءه الخمسين....»[12]

تعليم الانسان[13]

كان مردوخ (انليل) يجلس على عرشه الطاهر، يدلّ بأصبعه على البحار واليابسة، يرسل أشعة الشمس على السهول، ومياه الينابيع من التلال الى الصحاري الجرداء فيملأها خصباً. ثم ينظر الى خليقته متمنياً لها الخير والرخاء. وفي جلال القادر على كل شيء أوكل ايا (انكي) ان يرعى أراضي بابل العظيمة (سومر) ويعلّم البشر.

كان لـ (ايا) جسم سمكة برأسين. تحت راس السمكة كان له رأس انسان، وعند الذنب يخرج له ساقا انسان. كان صوته صوت انسان وقضى النهار بين الناس دون طعام.

عظيمة هي أعمال آيا، كانت كلها هبات للبشر. فآيا هو أحكم الالهة وسيد كل علم والقادر أن يحرم الناس الفهم. علّم الإنسان فنّ الكتابة والعلوم وكل أنواع الفنون، من طين الأنهر جبل القرميد وعلّم الحرفيين ذوي الرؤوس السود كيف يبنون الجدران والمدن مدماكاً فوق مدماك، مزينة بخشب الارز، فأسسوا المدن والمعابد وعلّمهم مبادىء التشريع والهندسة، وبنى حول كل مدينة سدوداً ليروي السهول في فصل الجفاف فلا يفلح القمح بشمس الظهيرة.

كذلك علّم الإنسان الزراعة والحصاد. وكمعلم صالح كَدَن الثيران بالنير لتحرث الأرض في الفصل المناسب. وأرى الإنسان كيف ينبت الحبوب كالجواهر في الحقول المشمسة. ومن التلال ساق الأغنام الى المروج تتبعها صغارها، وبنى لها الحظائر. وعلّم الأسماك في النهرين العظميين ان تبيض بين أعشاب النهر لتتوالد وتغذي شعب بابل (سومر).

ولما انحنت أعواد الشعير بثقل السنابل بنى ايأ الصوامع وملأها بإنتاج الحقول وثمار البساتين، الدراق والتوت والرمان والموز والمشمش. وزين الحدائق الغنّاء بأشجار النخيل. وكان يوشوش بنسمات الجنوب. انه قد أعطى الإنسان كل ما يبهج الحياة، ومنذ ذلك الحين لم يخترع شيء جديد قط.

عند المغيب كان آيا يغطس في البحر ويقضي طوال الليل تحت الأمواج. لأنه كان برمائياً. وأخيراً ألّف كتاباً عن أصول الاشياء وعن الحضارة وَوَهَبَهُ للبشر.

(12) لم يذكر شيئاً عن خلق المراة.

(13) عن السومرية مع تغيير اسماء الآلهة.

بعد ان انتهى أيا من تعليم الإنسان سبل الحياة اختفى.

فاختارت الآلهة بابليا «راعيا للشعب، وكان اسم الملك الأول «الوليم» وسماه برعوشا «الوروس» ولم يترك هذا الملك ذكراً سوى أنه حكم (36000) عاماً. والملك السابع سبيزيانا (ايفيدورانكي) تعلم ما لم يعلمه أيا للبشر وهو علم العرافة على يدي شمش وهدد (اخنوخ). لقد خلق الإنسان لخدمة الآلهة، وبدأ الإنسان كاملاً بفعل مشيئة الآلهة فكان عصره الذهبي.

الفردوس وكمال البدء

في البدء كان العصر الذهبي، عصر السعادة الكاملة؛ يوم كان البشر يعيشون بلا كدّ ولا كفاح وقبل «سقوط الانسان».

تصف احدى اللوحات السومرية تلك الفترة من الرخاء والسعادة في واحد وعشرين خطأ (سطراً) تقول:

«في غابر الزمان لم يكن حية ولا عقرب
لم يكن ضبع ولا أسد
لم يكن كلب متوحش ولا كان ذئب
لم يكن هناك خوف ولا ارهاب
ولم يكن للإنسان منافس...».
«في غابر الزمان كانت بلاد «شوبور» و«همازي» وبلاد «سومر» المتعددة الألسن.
البلاد العظيمة ذات النواميس الالهية الخاصة بالامارة
وبلاد «اوري»[14] التي حوت كل ما هو لائق
وبلاد «مارتو»[15] كانت آمنة مطمئنة
وجميع الكون والبشر في وحدة وإلفة،
يمجدون الله[16] بلسان واحد».

ولما تشكلت البلدان لم يقم حرب ولا تناحر بل سلام وإلفة. وكان الإنسان يسكن في جنة أرضية اسمها «دلمون»[17] بلد طاهر ومشع، انه «أرض الاحياء» الخالدين حيث لا مرض ولا موت، لا ألم ولا شيخوخة:

---

(14) المقصود بها بلاد اكاد جنوب العراق.
(15) المقصود بها سورية غرب العراق.
(16) المقصود به هو انليل.
(17) دلمون هي البحرين في وسط العراق بمنطقة تكريت.

«في دلمون لا ينعق الغراب الاسود،
وطير «الاتيدو» لا يصيح ولا يصرخ،
الأسد لا يفترس، والذئب لا يخطف الحَمَل،
لم يعرف الكلب المتوحش الذي يلتهم الجدي،
ولم يعرفوا (الكوارث) التي تدّمر الغلّة».

«لم توجد الارملة
والطير في الأعالي لا يسقط،
والحمامة لا تحني راسها
ما من أرمد يقول «عيني مريضة»
ولا مصدوع يقول «في راسي صداع»
«عجوز دلمون لا تقول «أنا عجوز»
وشيخها لا يقول «أنا طاعن في السن»
العذراء لا تستحم ولا يهدر الماء الرائق في المدينة
من يعبر نهر (الموت) لا يتفوه (بالموت)
والكهنة النائحون لا يدورون حوله
المنشد لا يعوّل بالرقاء
وفي طرف المدينة لا ينوح ويندب».

تعقيب وتعليق

تعتبر اسطورة الخليقة البابلية اينوما إيليش، أندر وأعرق وأوسع اسطورة خليقة أو تكوين في العالم القديم، وهي بسبب عراقتها هذه كانت مصدراً أساسياً لأغلب أساطير التكوين في ذلك الوقت وعنهاومنها اقتبست اسطورة التكوين التوراتية.

تبدأ الأسطورة بذكر (الاسم) باعتبار ان إطلاق الكلمة هو فعل الخلق الأساسي في العقيدة الدينية البابلية.

ويبدو ان العماء الكوني الأول كان مكوناً من ثالوث الهي هو تيامات، أبسو، حُمُّو.

وبدأ فعل الخلق عندما تحركت هذه الآلهة وظهر من حركتها آلهة جدد هم آلهة (الطمى، الأفق، السماء). ثم أنجبت السماء الماء الذي هو (ايا) ويلاحظ اختفاء الاله انليل من هذه المنظومة الكونية البابلية، لأنه الاله القومي لسومر، ولذلك عبّر عليه

الكهنة البابليون عندما دوّنوا هذه الأسطورة وأصبحت قدراته كلها في الاله مردوخ الذي سيتحول الى الاله القومي لبابل[18].

إذا كانت تيامات تمثل مياه البحار المالحة، وأبسو يمثل ماء الأنهار العذبة، فإن مُمُّو الذي يوصف بأنه حاجب أو وزير أو ابن أبسو يمثل الضباب الذي يخيّم على اختلاطهما.

وواضح ان هذه الفكرة مأخوذة من مصبي دجلة والفرات (آنذاك) في الخليج العربي وربما في الأهوار كما يُلمح النص لذلك.

إن قتل (أيا) لأبيه (أبسو) هي أول إشارة لفكرة قتل الأب التي ستكرر صداها في أساطير الخليقة ونشوء الآلهة.

وتشير الاسطورة الى أن تيامات تنجب الأحد عشر سلاحاً أو الكائنات المسخ الرهيبة دون حاجة الى ذكر وقد يوحي هذا بأن هذه الكائنات هي باطن المليء بالشرور والمسوخ.

ومعروف ان الاسطورة عندما تعم الإلهة الأم البابلية الأولى بالشرور هكذا فإنها تشير الى ماضٍ أمومي مقيت بالنسبة لمؤلفيها ويكتمل هذا الانقلاب الذكوري تماماً عندما سيقوم مردوخ بقتل تيامات وتفسيخ جسدها.

هذه النظرة للأم والماضي الأمومي غير موجودة عند السومريين، ولذلك فهي صنع كهنة يعكسون طبيعة العقل السامي المتميز بالذكورية والمركزية وحب السلطة.

ويبدو ان خوف وتراجع الآلهة الجدد كان مقدمة لجعل مردوخ بطلاً، ويوضح هذا أيضاً جعله آله بابل القومي حيث تصبح الآلهة في المحيط، بينما يصبح مردوخ في المركز وهذا ما يسميه علم الأديان بالتفريد، وهو مرحلة دون التوحيد وفوق التعدد. ويمثلها هنا مردوخ خير تمثيل.

ان ألواح القدر التي يذكرها النص هي حسب التصور الاكدي ألواح مكتوب عليها مصير وحياة البشر والعالم، ومن يستطيع امتلاكها فإنه يستطيع حكم العالم والكون.

وعند السومريين كان الاله إنليل هو الذي يملكها. أما عند البابليين فقد كانت أولا ملكاً للإلهة تيامات ثم تسلمها وزيرها كنجو، ثم أصبحت ملك مردوخ واستلمها (نبو) ابن مردوخ الذي سيظهر فيما بعد وكأنه هو الذي كتبها.

وهناك ألواح قدر خاصة بالعالم السفلي مؤلفتها والمسؤولة عنها الالهة (بلت

(18) راجع المصادر التالية:

1. Heidel, A: The Babylonian Gensis, 1963.

2. Dally: Myths from Mesopotamia, 1989.

3. لايت، رينيه: المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين (1988) (٢ 74 - 132) ترجمة الاب البير ابونا ووليد الجادر.

4. السواح، فراس، مغامرة العقل الاولى (1981)، ص 51 - 97.

صيري) ويمكن ان تكون حاوية على اسماء الموتى ومصائرهم[19].

كان الأصل السومري للإله مردوخ هو (أمار ـ أوتوك) ويعني (عجل اله الشمس) أو (ثوير الشمس). وهناك من يرى انه (مار ـ دوكو) أي (ابن الاله دوكو).

وقدر ورد ذكر له في نص تدشين وحيد في عصر الملك ميسليم حوالي 2600 ق.م، وعرف كإله لمدينة بابل في عصر أور الثالث. وقد تمت مساواته مع الإله (اسارلوحي) ابن الاله (انكي) وهو اله سومري كان مسؤولاً عن التعاويذ. وكان آله الغيوم. ولكن اسم مردوخ يشير الى قربه من إله الشمس، أي أنه كان الهاً شمسياً[20].

***

تذكر مقدمة حمورابي في مسلّته القانونية ان مردوخ هو ابن الإله (إنكي)، وهي أقدم وثيقة ثقافية معروفة تتحدث عنه، وتقول ان الإله (آن) والإله (انليل) حمّلاه الانليلية ليحكم بواسطتها البشر. ويفهم من هذا الكلام ان مردوخ هو الوريث القومي البابلي في الصفات للاله انليل الذي كان الاله القومي للسومريين. ويعتقد ان هذه (الانليلية) هي ألواح القدر التي انت بحوزة إنليل، رغم ان الإله مردوخ يظهر هنا فائزاً بألواح القدر بقوته من (كنجو) حاجب تيامات الذي كان يحملها.

زوجته هي (صربنيتو) التي تطابق صفاتها الالهة (نانايا) التي ذكرتها وثائق اور الثالثة، وقد سكنت معه معبد الـ (ايساجيل) في بابل وأنجبت منه آله الحكمة نبو[21].

وإذا بحثنا في أسلحة مردوخ فسنجد ان الرياح أو العواصف هي التي تسيطر عليها، وقد تنوعت هذه الأسلحة تنوعاً فاق أسلحة تيامات كمّاً ونوعاً، فأسلحته من الرياح هي:

الرياح الرباعية، الرياح السباعية، الرياح الشريرة، الرياح العاصفة، الرياح الأعصار، الرياح الداهمة، مركبة العاصفة الرهيبة التي تجرّها أربع كائنات.

إذن هناك سبعة أنواع من الرياح. أما أسلحته الأخرى فهي: القوس والنبال، البرق، الشبكة، الطوفان المتجهم، القاتل، المقاتل، الدرع، الهالة، الرقية الحمراء في يده، العشبة السحرية في فمه.

هذه الأسلحة العشرة كانت معه اضافة لأنواع الرياح.

يتضح لنا ان مردوخ سيستعمل السحر ضد تيامات، بالإضافة الى الأسلحة، سيتقي سحرها الأسود بالرقي والأعشاب[21].

(19) راجع المصادر الاربعة السابقة. (Heide L, A.) (Dally) ورينيه لايت، وفراس السواح، اضافة الى آذزارد: معجم الآلهة والاساطير (1987) ص 49.

(20) انظر المراجع السابقة بأجمعها.

(21) راجع المصادر السابقة بعينها.

أما عن الصراع بين البطل والتنين فهو موضوع أثير في عموم أساطير العالم وملاحمه.

ومن أجل تمجيد مردوخ كانت الآلهة الأولى (عصر البدء)، وعلى رأسهم تيامات، مثقلين بالقيم الشيطانية.

إن تيامات ليست فقط المجموعة العمائية البدائية التي تسبق كل نشكونية Cosmogony، بل ظهر أيضاً أنها صانعة الغيلان التي لا حصر لها. ان إبداعيتها سلبية تماماً. ذلك هو ما تثيره الاينوما ايليش فالتقدم الخلاق تعرض في وقت مبكر جداً للخطر برغبة ابسو إعدام الآلهة الشباب، أي باختصار لوقف الكون في بذرته engerme.

صارت تيامات المصدر الأول للسحر الأسود عند البابليين بسبب جيشها العفاريتي وأسلحتها الشيطانية وسمومها، ويتضح لنا من الاسطورة انها استعملت السحر في أول وهلة للصراع بينها وبين تيامات، ويبدو ان قتال مردوخ حصل بالدرجة الأساس مع تيامات، وما ان صرعها حتى هرب جندها فأسرهم ثم أسر قائدهم كنجو الذي سيكون الاله المذبوح.. مادة جسد الإنسان عندما تقرر الآلهة خلق الإنسان[22].

يبدو ان الكون البدئي قد انتهى دوره الآن بعد ان أظهر لنا الآلهة، وها هو الاله الشاب مردوخ يصنع الكون من جديد، ان مادة صنع الكون هذه المرة لم تكن من المادة الهيولية الكاؤسية الأولى، بل من جسد تيامات، ولذلك تكون مادة الكون مادة شريرة قابلة لقذف الشرّ في أية لحظة.

لكن مردوخ لا يصنع السماء والأرض. فقد تكوّنا قبله بل يصنع من جسد تيامات (شقها العلوي) السحاب، ومن شقها السفلي البحار، والسحاب والبحار يتناسبان مع الطبيعة المائية لتيامات.

ويقرر موقع الآلهة: فالسماء لآنو والأرض لإنليل ومياه الأعماق لآيا ونراه بعد ان نظم النجوم والكواكب يتجه لتنظيم الزمن من خلال القمر الذي يعتبر مصدر تنظيم الزمن في العراق القديم بسبب من طبيعته المتغيّرة التي تؤشر تغير الزمن.

إن الكون ينقسم إذن الى طبيعة مزدوجة: مادة شيطانية، ومادة الهية، والقبة السماوية مشكّله من نصف جسد تيامات، ولكن النجوم والأفلاك تصبح مقرات أو صوراً للآلهة. وان الأرض ذاتها تضم النصف الثاني من تيامات، وأعضاؤها المختلفة، ولكنها تقدست بالمدن والمعابد وبنتيجة الحساب فإن العالم يظهر حصيلة لخلط من

(22) راجع المصادر السابقة.

(أولية) عمائية وشيطانية من جهة، وإبداعية حضور وحكمة إلهية، من الجهة الأخرى. وهذه قد تكون الصيغة النشكونية الأكثر تعقيداً التي توصل اليها التفكير والتأمل البابلي[23].

يواصل مردوخ صناعة وتنظيم الطبيعة من جسد تيامات، وأصبحنا نعرف ان نهري دجلة والفرات ينبعان من عينيها وان كل جزء من جسدها له علاقة بالطبيعة، ولنلاحظ ان الاله (إنكي) أو (أيا) هو الذي ينظم الطبيعة في سومر، أما الاله انليل فيعتني بالكواكب والظلام والانواء.

وستصبح استعادة لحظة أو حادثة الخلق هذه من خلال العيد البابلي (اكيتو) هي عماد هذا العيد حيث يتضمن هذا السيناريو الأسطوري ـ الشعائري التمجيد للملك وأسر مردوخ (ويرمز هذا الى ارتداد العالم للعماء من قبل (الكوني). وفي مقبرة مردوخ كان الكاهن الأكبر يجرد الملك من شاراته (الصولجان والخاتم، والسيف والتاج). وكان خروج مردوخ الى العالم هو بدء خلق الكون من جديد[24].

ويرى الباحثون ان صعود الاله مردوخ الى قمة الهرم الالهي في مجمع الالهة البالية يعود الى أسباب سياسية محضة، فبعد ان كان الهاً هامشياً يكاد لا يذكر أصبح الاله القومي للشعب البابلي الذي استطاع أن يمدّ أطراف الدولة البابلية في عهد حمورابي منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن السابع عشر الى أقاصي حدود عالم الشرق القديم، وأصبحت بابل عاصمة للدولة الفتية ويركز إشعاعها الحضاري.

وعبارة (ملك الآلهة) هي الافصاح الدقيق عن مذهب التفريد الذي خطّه الكهنوت البابلي متأثراً بتفريد إنليل عند السومريين ولفظ (لوكال. دمر. أن. كي. أ (Lugal Dimmerki. A) تعني حرفياً (ملك الهة الماء فوق والماء تحت) وهو لقب التفريد كما نرى[25].

ويعطي مردوخ أهمية استثنائي لسلاح القوس، ويصفه بأنه ابنه ويعطيه ثلاثة ألقاب، لأهميته في قتل تيامات.

ولا بد ان ننوه هنا أن أساطير قصيرة عن خلق الكون كان بطلها مردوخ ومنها تلك المقدمة الخاصة برقية لتطهير معبد بابلي تروي انه في البدء لم يكن شيئاً، لا قصبة ولا شجرة ولا حجرة ولا بيتاً ولا معبداً ولا مدينة ولا أحياء وان (الأراضي كلها كانت بحراً) ثم خلقت الآلهة وأنشئت بابل، وبعد ذلك خلق مردوخ إطاراً من قصب فوق سطح

---

(23) راجع المصادر السابقة.

(24) إلياد مرسيا: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية (1986) ص 98.

(25) انظر المراجع السابقة كافة.

المياه، وخلق الناس بعون آلام الآلهة أرورا، ثم خلق حيوان السهل ونهري دجلة والفرات والحشائش واليراع والقصب وأعشاب الحقل الخضراء والمنافع وأجام القصب والبقرة وصغيرها من الشاة وحملها وغنم السياج، وبذلك كانت تلك الأرض اليابسة وأنشئت المدن مثل نيبور واوروك مع معابدها وبيوتها من اللبن المشكّل في القوالب[26].

***

تأتي فكرة الاسماء الخمسين للإله مردوخ من أن الرقم الرمزي أو السري لهذا الاله هو (50) ومن المعروف أيضاً أن الرقم السري للإله إنليل هو (50) وبذلك يتأكد لنا من أن مردوخ ورث صفات إنليل السومري وكان الاله إنليل يترأس مجلساً إلهياً يسمى (الأنونا) أي مجلس الخمسين آله. ويبدو أن استبدال مردوخ بالاله انليل عند البابليين وإمعاناً في تفريد مردوخ جعلهم ينسبون لمردوخ اسماء هؤلاء الآلهة، بدليل ان اسماءهم في هذه الفقرة ترد باللغة السومرية، ولها معاني خاصة.

ان اعطاء الإله مردوخ هذه الأسماء هو نوع من سلب صفات هذه الآلهة وتهشيمها وجعلها في مردوخ.

وتظهر لنا اسماء مردوخ وكأنها مقسّمة الى مجاميع كبيرة وصغيرة، فالمجموعة الكبيرة الأولى تضم (35) اسماً، مقسمة الى عشرة تتراوح عدد الأسماء في كل واحدة بين (2 - 6) اسماء.

والمجموعة الكبيرة الثانية. فتشمل (14) اسماً، وهي اسماء منوعة تشمل آلهة وألقاباً معروفة في البانثيون السومري.

وبذلك يبدو الاله مردوخ وكأنه ملتهم الآلهة السومرية، وهذا هو المقصود من منحه هذه الاسماء ليتم الانتصار النهائي لبابل على سومر وإرثها.

ولا شك ان هذا التقسيم وهذه الاسماء ومعانيها تتضمن أسراراً لاهوتية عميقة لا تتسع الفرصة هنا لدراستها تفصيلياً لكننا نكتفي بالإشارة الى ذلك.

وتعتبر أسطورة الاينوما إيليش مادة خصبة للكثير من التحليلات والأفكار عن العالم القديم ومعتقداته فهي تتضمن صراع مفاهيم عقلية وفلسفية كثيرة معبر عنها بأسماء الآلهة. ونجد صداها التكويني في أكثر الأديان وفي أعرق الفلسفات كما أنها تعتبر تاريخاً روحياً مكتنزاً لأنها تعبّر عن العصر الأمومي الذي أفل وكيفية حصول الانقلاب الذكوري.

بل ونحصل منها على الكيفية التي وصم بها الرجل التاريخ العريق للمرأة ودورها الرائد في الزراعة والحضارة.

(26) المراجع السابقة اضافة اليها: كريمر، صموئيل نوح: أساطير العالم القديم (1974) ص 99.

كما يمكن لهذه الاسطورة ان تشكل مدوّنة نفسية جامعة لا واعية يتم تحليلها وفق رموز الأعماق التي تضج بها.

وهي وثيقة سياسية نادرة تفصح عن صعود مدينة بابل وسلطتها وإخضاعها للدول والمماليك التي حولها. بل إنها توضح مركزية وجبروت وسلطان الملك البابلي من خلال مركزية مردوخ نفسها.

هذه الأسطورة لا تشير مطلقاً الى مرحلة اكدية، بل هي حصراً ضمن المرحلة البابلية منذ بداياتها الامورية وحتى أفولها على يد الاشوريين، حيث احتل الاله آشور مكانة مردوخ وبنفس الصفات والقوى.

وقد حاول مردوخ منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد نشر مراكز عبادته داخل الدولة الأشورية مزاحماً آشور إلاّ ان آشور أخذ مكانته، وزحف الى آشور اله عبده الناس بحب هو ابن مردوخ (نبو) اله الحكمة[27].

لم يكتف كهنة بابل بإذابة خمسين إله في صلب مردوخ، بل أنهم أخذوا من انليل (المهمش في الأسطورة) اسماً لمردوخ، ومن أيا اسم أيا نفسه وبذلك أصبح عدد اسماء مردوخ (52) وبذلك تكتمل حلقات التفريد، فيصبح (آنو) الهاً كونياً عالمياً يمثل التوحيد وقد مثله عند السومريين في صيغة (آن) ويصبح (مردوخ) الذي يليه الهاً قومياً لبابل ومن يقع تحت سلطانه. وهذا برأينا أقدم وأوضح حالة تفريد (توحيد) سبقت كثيراً تفريد (يهوه) أمام (إيل) بل ان هناك توضيحاً مفرطاً لذلك يشرحه النص بالتفصيل[28]. وإننا سوف نفرد فصلاً خاصاً من هذا الموضوع في هذا الكتاب.

---

(27) راجع المصادر السابقة مضافا اليها:

Lamnberts, S: The Bablonian Epic of Ceration (1923).

(28) المراجع السابقة مضافا اليها:

Birth, E. The Bible and the Ancient Near East. 1961.

جنة عدن

في أرض الرافدين

«وكان نهر يجري في عدن ليسقي الجنة، وما يلبث أن ينقسم من هناك الى أربعة أنهر. الأول منها يُدعى فيشون، الذي يلتف حول كل الحويلة حيث يوجد الذهب. وذهب تلك الأرض جيّد، وفيها أيضاً المُقل وحجر الجزع. والنهر الثاني يدعى جيحون الذي يحيط بجميع أرض كوش. والنهر الثالث يدعى حِداقل وهو الجاري في شرقي آشور والنهر الرابع هو الفرات».

(تكوين 2- 10 - 14)

لو تتبعنا آثار الأنهر الأربعة التي ورد ذكرها في الفصول الأولى من سفر التكوين مبتدئين من البقعة التي ذكرت التقاليد التوراتية (اليهودية) أنها كانت (أبواب الجنة) ومستعينين بالخرائط والمستويات التي توضح طوبوغرافية البلاد، لظهر لنا ان الفرات يدخل دلتاه من نقطة تقع على بعد بضعة أميال جنوب بلدة هيت عند «أبواب بابل».

والحوادث التي ورد ذكرها في الفصول الأولى من سفر التكوين وقعت في أرض لا تجود سماؤها بالأمطار فكانت تعتمد كل أنواع الحياة فيها على الري الذي هو أقدم علم عرفه الإنسان (الرب الاله لم يكن قد أمطر على الأرض الا أنه كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض)[1].

ومن البديهي أنه لا يمكن أن يؤمّن الضباب المذكور، مهما كانت الحالة أولية، نمو الاشجار وبقاء الحدائق، فلا شك إذن في أن المراد بالكلمة الأصلية التي ترجمت بالضباب (الارواء السيحي) المقابل للارواء برجل المرء[2] أو الارواء بالواسطة.

---

(1) «ولم يكن قد نبت بعد في الارض شجر بري ولا عشب بري لأن الرب الاله لم يكن قد أرسل مطراً على الأرض. ولم يكن هناك انسان ليفلحها. الا ان ضباباً كان يتصاعد من الارض فيسقي سطحها كله» (تكوين 2: 5 - 6).

(2) «لان الارض التي توشكون الدخول اليها لامتلاكها لا تماثل أرض مصر التي خرجتم منها، حيث كنتم تزرعون زرعكم وتروونه (بفتح شدود القنوات الصغيرة) بأرجلكم، وكأنه بستان بقول». (سفر التثنية 11: 10).

يقول الدكتور السر ويليام برسي ولكوكس في كتابه «جنة عدن»: «سألت الأستاذ المحترم سايس عن هذا الموضوع، فأخبرني بان هذه الكلمة (الضباب)، لم ترد في أي مكان آخر في العهد القديم ومن المعقول أن يكون المقصود بها هنا هو (الري السيحي)»[3].

ظهور الجنس البشري

كان ظهور الجنس البشري على وجه الأرض أول مرة في مناطق حبتها الطبيعة بنعمة الغيث الوفير الذي يكفي لتغطية وجه الأرض بالعشب والغابات. وهذه الغابات هي التي كفلت بقاء الجنس البشري وحافظت عليه من خطر الوحوش الضارية المحدقة به، إذ كانت بمثابة الملاجىء الطبيعية التي تقيه عدوان الوحوش وشرّها. وكانت تنازع الإنسان البقاء المستمر في مثل هذه البيئة القاسية بالغاً أشده، فلم يكن لدى الإنسان الأول متسع من الوقت ليقوم بعمل أساسي في تقدّم الحضارة. على أن الحالة تغيّرت كثيراً عندما نزح الإنسان الى الواحات الكائنة في الصحاري أو الى السهول الواقعة على ضفاف الأنهار كالسهل الواقع بين مدينة عانه[4] وهيت[5]، في أعالي الفرات[6]، إذ أصبح في مقدور الإنسان في البيئة الجديدة إبادة هذه الوحوش الضارية التي أخذ عددها يتناقص نتيجة كفاح الإنسان لها بينما انعدم المورد الذي كانت تأتي منه في الصحراء. وكان القضاء على هذه الوحوش سبباً في أن يكون لدى الإنسان متسع من الوقت ليعمل في سبيل تمدنه وتقدمه العمراني. ويقصد (عماليق أول الشعوب) الذين هم في نظر كاتب العهد القديم العرب الذين كانت مساكنهم تمتد من مصب النيل الى هيت الواقعة على الفرات. وقد فاه بهذه العبارة الكاهن الوثني الذي كان يسكن الفرات والذي كان استعراضه لأحوال العالم الاسيوي الغربي وديانته مصدر وحي لبني اسرائيل[7].

لم يترك لنا العرب القدماء الذين سكنوا الخيام واتخذوا آنيتهم من الطين من الآثار ما تركه لنا المصريون والبابليون. ولكن بلاد العرب قذفت من أعماقها المحرقة بأبنائها الذين كانوا أول من أخضع سهول النيل والفرات. ومن السهل معرفة السبب الذي من أجله تفوّق سكان سهول الفرات على منافسيهم سكان سهول النيل وذلك لأن كل شيء في مصر سهل يمكن الحصول عليه بدون جهد وعناء. فالنيل (ملك الأنهر)

---

(3) ويلكوكس، جنة عدن، المقدمة، ص 8.

(4) عانه، مدينة عراقية قديمة، صارت قاعدة لابرشية سريانية لفترة طويلة تقع على نهر الفرات وتشتهر بالنواعير المقامة عليه.

(5) هيت، مدينة عراقية على نهر الفرات الأعلى. مركز قضاء بمحافظة الانبار (10,000 نسمة) حوض نفطي هام.

(6) المقصود بأعالي الفرات القسم الاعلى منه بالنسبة لجريانه في ارض العراق. وليس اعاليه بأراضي تركيا اليوم.

(7) راجع سفر ميخا 6: 5 و8.

كان ولا يزال يجري ويفيض على غاية من الانتظام، والوقار، وهو يحمل في كل عام كميات معتدلة من الترسبات ولأجل هذا فإنه لا يخلق للذين يسكنون ضفافه مشاكل صعبة. وأرض مصر، خصبة جداً، وذات مناخ رائق في الشتاء ومعتدل في الصيف، لهذا كله فإن مصر لم تنتج إفكاراً عالمية ولم يكن بين ابنائها من اتصف بالنظرة الواسعة بحيث تكون له عيون تحدّق من السماء الى الأرض ومن الأرض الى السماء.

أما الحالة في العراق فتختلف عن مصر كثيراً، فالسيول الجارفة التي تملأ حوض دجلة والفرات في موسم الفيضان يحتاج التغلب عليها وضبطها الى قوة خارقة. ثم ان أراضي العراق خصبة جداً (جنة الله) إلا أن شتاءه قاسٍ جداً، في حين ان الصيف شديد الحرارة فيه، وطويل الأمد، ونسبة الفرق في درجة الحرارة في الظل كنسبة الفرق بين 20 درجة و120 فهذه المدرسة القاسية التي نشأ فيها سكان بابل هي التي أوجدت فيهم هذا الارهاف في الحسّ والقابلية الفكرية العظيمة.

الأكديّون

عندما اتجه الاكديون الى الفرات تاركين وطنهم الأصلي (الجزيرة) الذي تتوفر فيه الأمطار الموسمية المنتظمة ودخلوا السهوب الواقعة في شمال بلاد العرب، كانت الواحة الأولى التي واجهوها في طريقهم هي البقعة الكائنة بين عانة وهيت. والفرات في هذه المنطقة يمرّ اليوم بسلسلة من الشلالات غير المنتظمة فيستخدم التيار المتكون منها في تدوير النواعير الكبيرة التي ترفع المياه فتسقي الوادي الضيّق الذي ينتهي بالصحراء.

وقد كانت هذه البقعة ولا تزال ملأى بالحدائق والبساتين تتخللها حقول الذرة أو القطن. وليس هذا بالأمر الغريب، فالحياة والرخاء يتوافران حيث تتوفر المياه. واليوم بعد هبوط تلك الشلالات ـ ذلك الهبوط الذي لاحظ نموه المطرّد كتّاب عصر اوغسطين ـ أصبح من الضروري الاستعانة بالنواعير في ارواء تلك البساتين والحدائق. وتدل الطبقات الرسوبية التي نلاحظها في النهر فوق منسوب أعلى الفيضانات الحالية. ان المياه كانت منذ زمن غير بعيد توخذ بالطريقة السيحية من مقدم الشلالات فتروي بها البساتين التي كانت واقعة جنوب هذه الشلالات والتي كانت بعيدة عن أخطار الفيضان.

هكذا كانت جنة عدن الوارد ذكرها في العهد القديم (التوراة).

واليوم عندما ننحدر في اتجاه الفرات فأول شيء نواجهه في هذه البقعة هو النخيل، ذلك الشجر الذي يعتبره العالم العربي بأجمعه حتى أيامنا هذه، رمزاً للحياة[8].

(8) من الجدير بالملاحظة ان العادة المتبعة في جميع بلاد العرب هي ان من يغرس نخلة فإنه يكون مالكها حتى لو كان هذه الغرس في أرض تعود الى غيره حتى لو في أرض ملكيتها عامة.

وكانت هذه البقعة الممتدة من الفرات الى دمشق ملأى بحقول الحنطة الكثيفة التي كانت تنمو بطبيعتها.

***

لو قمنا بدراسة مجرى نهر الفرات من منبعه الى مصبه لنصل الى الجنة التي يمكن تأمين وصول المياه السيحية اليها خلال الاثني عشر شهراً من السنة[9]، لظهر لنا أنه لا يوجد في المنطقة الواقعة جنوب هيت مكان يمكن أن تتوفر فيه الشروط المذكورة سوى الأراضي المستصلحة في منطقة الأهوار قرب الخليج العربي، جنوب الناصرية، بجوار مدينة «أريدو»[10] حيث كانت عدن السومريين التي سنتكلم عنها بعد قليل. والدليل على ذلك أن الأراضي الواقعة بين هيت وبني منطقة الأهوار التي تبدأ بمدينة الناصرية شمال مدينة اور الكلدانية، لا يمكن ان تؤمن لها الحياة الزراعية المستديمة طول السنة في ذلك الوقت، لأن القسم المنخفض منها كان يسقى سيحا في فصل الصيف بسبب هبوط مستواه بالنسبة الى منسوب ماء النهر. أما في فصل الشتاء فإنه يصبح معرضاً لخطر الفيضان. والقسم الذي لا تصله المياه الا في موسم الفيضان بالنظر لارتفاع مستواه بالنسبة الى مستوى النهر فإنه لا يمكن أن تؤمّن له المياه المطلوبة للزراعة في فصل الصيف. وعلى هذا فإننا إذا سرنا جنوب هيت فإننا لا نجد منطقة تصلح للأرواء المستديم طول العام حتى نصل الى منطقة الأهوار المذكورة في جميع الكتب والمصادر.

جنة عدن السومرية

«وكان نهر يجري في عدن ليسقي الجنة، وما يلبث ان ينقسم من هناك الى أربعة أنهر»[11].

وكانت هذه الجنة حديقة غنّاء مليئة بالنخيل الذي لا يزال يعتبر حتى يومنا هذا شجر الحياة كما أنها كانت مليئة بأشجار الكروم، أشجار المعرفة التي حرّم أكل ثمرها[12]. والتربة والمناخ هنا يصلحان بطبيعتهما لنمو الأشجار المثمرة على اختلاف أنواعها، كالنخيل وشجر البرتقال والخوخ والإجاص. غير ان النخيل يعتبر من أهم ما تنبته هذه الأرض وذلك لأن زراعته لا تحتاج الى جهد كبير كما يقول المثل «اغرسه في الماء فهو ينمو بطبيعته».

---

(9) «الا ان ضبابا كان يتصاعد من الارض فيسقي سطحها كله» (سفر التكوين 2: 6).

(10) اريدو (ابو شهرين) موقع اثري في جنوب العراق قرب مدينة اور عاصمة السومريين.

(11) سفر التكوين 2: 10.

(12) «ولكن اياك ان تاكل من شجرة معرفة الخير والشر لانك حين تاكل منها حتماً تموت» (تكوين 2: 17).

وينقسم النهر جنوب جنة عدن الى أربعة فروع رئيسية، يسمى الأول «فيشون»[13] ويشمل هذا منخفض الحبانية وأبي دبس الواقعتين بين الرمادي وكربلاء، واللذين تغمرهما مياه الفيضان. وكان الاعتقاد السائد قديماً ان هذين المنخفضين متصلان، ولكن المسح والتسوية اللتين أجريا أخيراً أثبتا خلاف ذلك[14].

وكان البابليون يعتقدون ان نهر «فيشون» هذا يشمل كل «أرض الحويلة» وهي المنطقة الواسعة التي تمتد من حدود مصر الى بلاد آشور، وذلك لأنهم شاهدوا في جوار هذه المنخفضات مئات من الأميال المربعة من الصحراء وهي مغطاة بالماء فظنوا ان هذه المياه تمتد الى مسافات طويلة في جزيرة العرب[15].

والنهر الثاني «جيحون»[16] - نهر الهندية الحالي - وهو «نهر خابور» الذي دفن النبي حزقيال[17] في احدى ضفتيه. وقد أطلق عليه في سفر عزرا[18] اسم (اهورا) أما في زمن الاسكندر فكان يسمى (بالاكوباس). وكان يسمى في أوائل عهد الخلافة الاسلامية نهر الكوفة. وهذا النهر يشمل كل منطقة كوش أبي نمرود[19]، الذي تبدأ مملكته في بابل وأرك وأكد وكالته الواقعة في سهل شنعار. وكان يطلق اسم (كوش) في زمن موسى على بابل[20]. ولا شك ان «جيحون» كان يشمل كل أراضي «كوش» في زمن موسى وقد حكم الكوشيون هذه الأراضي مئات من السنين.

والنهر الثالث كان يعرف باسم «حداقل»[21] و«دقل» و«دجلة» وهو فرع الصقلاوية الحالي، ويبلغ عرض هذا النهر 250 قدماً أما عمقه فيبلغ 25 قدماً. وهو يشبه في جريه وضع القناة التي تدير الطاحونة. أما اتجاه جريه فإنه ينحدر أولاً نحو منخفض عقرقوف. ثم يمر من هناك فيصب في دجلة قرب بغداد. وهذا النهر لو ترك وطبيعته فإن في امكانه أن يزوّد دجلة بأكثر من نصف مياه الفرات. ولا شك ان الأقدمين كانوا

(13) «الاول منها يدعى فيشون، الذي يلتف حول كل الحويلة حيث يوجد الذهب» (تكوين 2: 11).

(14) وضع السر ولكوكس تصميماً لربط هذين المنخفضين واستخدامهما كمخرج لسحب المياه الزائدة اثناء الفيضان وتخليص البلاد من اخطار الغرق. وبمقتضى هذا التصميم يمكن أيضاً خزن هذه المياه الزائدة للاستفادة منها لأغراض الري. وقد بوشر بتنفيذ هذا المشروع واستخدامه للغاية التي وضع من اجلها.

(15) يرى الناظر اليوم في هذه المنطقة طبقات كثيفة من المحار «الصدف الفراتي» تعطي وجه الارض من حدود النهر الى مسافة تبلغ خمسين ميلاً داخل الصحراء.

(16) «والنهر الثاني يدعى جيحون الذي يحيط بجميع أرض كوش» (تكوين 2: 13).

(17) انظر سفر حزقيال (1: 1 ,3).

(18) عزرا 8: 15.

(19) «وانجب كوش نمرود الذي ما لبث ان اصبح عاتيا في الارض...» (تكوين 10: 8 ,9 ,10 ,11 ,12 ,13 ,14).

(20) أما في عصر الانبياء فكان يطلق هذا الاسم على (إثيوبيا).

(21) «والنهر الثالث يدعى حِداقِل وهو الجاري في شرقي آشور» (سفر التكوين 2: 14).

يعتبرونه المنبع القديم لدجلة. أما اعتقاد البابليين «بأنه الجاري شرقي اشور» فهو في الحقيقة وصف مطابق للواقع تماماً.

والنهر الرابع الفرات. وهذا النهر غني عن التعريف، فهو نهر بابل نفسه[22].

وكما نقل البابليون اسم دجلة البابلي معهم الى نينوى[23] كذلك أطلقوا بلا شك بعد مضي أزمنة طويلة اسم نهر بابل على المجرى العظيم الذي كانت ضفافه مهداً للجنس البشري ـ فكان هناك اسمان لنهرين احدهما الفرات والآخر دجلة.

سبق وذكرنا ان مستوى الماء في المنطقة الواقعة بين عانه وهيت قد هبط في الستة الآلاف أو السبعة الآلاف سنة الأخيرة حتى أصبح من المتعذّر ارواء الجنائن الواقعة في تلك السهول بطريقة الري السيحي كما كان الحال سابقاً، وغدا من الضروري استخدام النواعير لتأمين ارواء تلك الأراضي القديمة.

أما الهبوط الذي حصل في مستوى الماء في دجلة فكان عظيماً وفجائياً. فقد بلغ في شمال سامراء أربعين قدماً في الخمسمئة سنة الأخيرة، وبذلك تحولت الجنائن الخضراء التي كانت تروى في هذه المنطقة الى صحاري قاحلة.

***

ويرمز بآدم الى الذكور من البشر، ويرمز بحواء الى الاناث منهم، كما يرمز بقائين الى طبقة الفلاحين وهابيل الى طبقة الرعاة. وهذه هي الطريقة الشرقية في تسجيل الحقائق أو سرد الحوادث، فقولهم مثلاً: «كوش ولد نمرود»[24] معناه ان الأسرة البابلية، أعقبت الأسرة الكوشية، أو أن نهر بابل أعقب نهر كوشا المتشعب من الفرات.

وكان أول السكان العراقيين المتحضرين الذين استوطنوا البقعة المحصورة بين عانة وهيت، يعتمدون في حياتهم على الري. ولكن هبوط الشلالات في تلك المنطقة حرمهم من المياه التي كانت تروي جنائنهم واستحالت أراضيهم الزراعية الى صحاري قاحلة فاضطروا الى مغادرة ديارهم والاتجاه شرقاً. غير أنهم لم يجدوا سوى منطقة مليئة بمنابع القار والنفط (منطقة كركوك) وهي منطقة محرقة وموحشة تقع شرق هيت، وقد تراءت لهم هذه المنطقة كأنها أصيبت بلهيب سيوف الكروبّيم المغاظ[25].

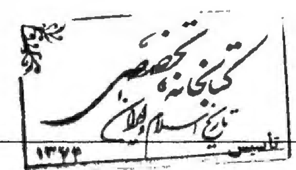
(22) «والنهر الرابع هو الفرات» (تكوين 2: 14).

(23) «ومن تلك الارض خرج (نمرود) الى اشور وبنى مدن نينوى ورَحبوت عيْر وكالح ورَسن الواقعة بين نينوى وكالح، وهي المدينة الكبيرة» (تكوين 10: 11).

(23) تكوين 10: 11.

(24) تكوين 10: 8.

(25) «وهكذا طرد الله الانسان من جنة عدن، وأقام ملائكة الكروبيم وسيفاً نارياً متقلباً شرقي الجنة لحراسة الطريق المفضية الى شجرة الحياة» (تكوين 3: 24).



والعراقيون القدماء كجميع الشعوب القديمة يسمون أنفسهم ابناء الآلهة[26]، وقد اصطدموا في رحلتهم هذه بأبناء الإنسان الذين كانوا قد استوطنوا دلتا الرافدين السفلى، وكان في جملة ابناء الإنسان هؤلاء بعض أفراد قد تلوثت أيديهم بالدم بحيث لم يكن يسمح لهم بالبقاء في خيام قبيلتهم وقد اتخذ ابناء الإنسان وهم المعروفون بالسومريين أول موطن لهم في منطقة الأهوار قرب خليج العرب ثم نزحوا الى الشمال في الوقت الذي بدأ فيه الساميون ينزحون الى الجنوب.

ولما انحدر الساميون الى أسفل نهر الفرات، احتل الفلاحون منهم الذين يرمز اليهم بقائين الأراضي القريبة من النهر وأنشأوا لحمايتها من الغرب سدوداً موازية له. وأخذوا يزرعون الحنطة والشعير كما يفعل الفلاحون اليوم. أما الرعاة منهم الذين يرمز اليهم بهابيل[27]، فقد انتشروا في السهول البعيدة عن النهر وأخذوا يغذون ماشيتهم بالأعشاب والحشائش الطبيعية التي تنبتها تلك السهول. فكان حدوث أية ثغرة في السدود يسبب كارثة عظيمة لقايين لأنها تؤدي الى إغمار مزارعه بالمياه. في حين ان هذه الثغرة تعود على هابيل بالفائدة لأنها تؤدي الى ارواء المراعي التي يرعى بها ماشيته. ولهذا استمر النزاع بين الأخوين مدة أجيال. ففي سني المحل والقحط الشديد كانت نفس هابيل تغريه بكسر السدود وذلك لتأمين العشب لأغنامه. بينما كان هذا العمل يؤدي الى تخريب حقول أخيه قايين. ويدل على استمرار تلك الخصومة بين العراقيين بسبب تخريب السدود من حين الى آخر.

بينما ما ورد في العهد القديم من ان الله كان يقبل قرابين هابيل ويزدري بقايين وقرابينه[28] هو محض تبرير موقف ليس إلاّ.

ويظهر ان ذلك النضال بين الأخوين بلغ شدته فظن قايين مرة ان أخاه قام بكسر السدود فاعتدى عليه ودنّس يده فقتله. وقد غضب الرب لهذا الجرم غضباً عظيماً بدليل انه وضعت علامة لقايين وذلك لئلا يثأر منه أولياء هابيل[29]. وكانت هذه العلامة، على وجه العموم سمة، ولكنها كانت سمة مباركة في بلد كانت التقاليد المألوفة فيه بأن تقضي بأن يتتبع أولياء القتيل في الظروف الاعتيادية القاتل فيذبحونه، وقد

(26) انجذبت انظار ابناء الله الى بنات الناس فراوا انهن جميلات فاتخذوا لأنفسهم منهن زوجات حسب ما طاب لهم» (تكوين 6: 2).

(27) وعاشر آدم حواء زوجته فحبلت وولدت قايين اذ قالت: «اقتنيت رجلا من عند الرب» ثم عادت فولدت أخاه هابيل وكان هابيل راعيا للغنم. (تكوين 4: 2).

(28) «وقدّم هابيل أيضاً من خيرة ابكار غنمه واسمنها. فتقبّل الرب قربان هابيل ورضي عنه، لكنه لم يتقبّل قربان قايين ولم يرض عنه فاغتاظ قايين جداً وتجهّم وجه كمداً». (تكوين 4: 4و5).

(29) «فقال الرب له: «سأعاقب كل من يقتلك بسبعة أضعاف العقوبة التي عاقبتك بها. ووسم الرب قايين بعلامة تحظُر على من يلقاه اغتياله» (تكوين 4: 15).

اتجه الفلاحون بقيادة زعيمهم قايين الى جهة الشرق نحو مضارب السومريين حيث كان لهم هناك مجال في الزراعة أوسع من ذي قبل.

والري هو الذي علّم الناس النظام واحترام القوانين، فلا غرابة اذن ان تكون السهول الزراعية الواقعة على ضفاف الأنهار الكبرى للعالم القديم مهداً لجميع الحضارات القديمة للعالم ذلك لأنه يستطيع الإنسان غير المتمدن ان يعيش في الغابات، ويستطيع الإنسان الذي لم يأخذ بحظ كبير من المدينة ان يعيش في الواحات الصحراوية، ولكن الإنسان الذي يعيش في أرض يتوقف نظام الحياة فيها على الري، عليه أن يخضع للنظام وان ينقاد للقوانين والأوامر. ولهذا لم تظهر المدينة الحقيقية الى الوجود إلا بعد ان أرغمت مئات وألوف من الأسر على أن تتعلم لأول مرة قوانين الطبيعة وترعي تطبيقها ويتضامن الأفراد فيما بينهم بحيث يتعاون كل فرد مع الآخر ليضمنوا الري والمبازل لأراضيهم، والنتيجة الطبيعية لعدم خضوع الأفراد للقانون والأوامر في بلد زراعي، تظهر بجلاء ووضوح كما وصفها سفر التكوين: «فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلماً. فها أنا مهلككم مع الأرض. أصنع لنفسك فُلكا من خشب جفر»[30].

ومن هنا يبدأ وصف أول طوفان عظيم حدث في وادي الفرات. ولا شك ان أقدم سكان وادي النيل قد شاهدوا طوفانات عديدة، ولكن النيل لا يندفع في طغيانه ذلك الاندفاع الذي نجده في نهر الفرات. ولهذا لم يعلّم سكانه دروساً قاسية بالصورة التي أعطتها الأنهر التي تقطع سهل شنعار.

***

وكان السومريون ـ كما رأينا ـ أول من سعى في احياء الأراضي التي تتألف من السهل المنخفض الواقع في الجنوب قرب ملتقى النهرين. وقد أدت هجرة الساميين من الشمال الى انشاء وطن لهم في القسم الشمالي أو الأعلى من الوادي، كما كانت سبباً في حصول تضارب شديد بين مصالح الطرفين. وبهذا صار العالم حسب لغة سفر التكوين[31] مملوءاً بالعدوان والظلم.

والآن أخذت مياه الفيضان في الفرات ودجلة تنحدر من المنبع بقوة خارقة فتملأ حوضيهما، ثم أخذت تغمر الضفاف بشكل لا يعرفه سكان وادي النيل ولهذا كانت المجاعة التي وقعت في وادي النيل في عصر يوسف غير ممكن حدوثها في دلتا الرافدين. كما ان طوفان نوح لا يمكن وقوعه في مصر. والسبب في مضاعفة أخطار

(30) سفر التكوين 6: 13.
(31) تكوين 6: 13.

الفيضان في نهري الفرات ودجلة راجع الى شدة انحدار الأراضي في العراق بالنسبة الى انحدارها في وادي النيل إذ يبلغ انحدار الأرض في وادي النيل قدماً واحداً في كل ميل، بينما نراه في أرض الرافدين يبلغ خمسة أقدام في الميل الواحد. وهذا الانحدار الشديد في أراضي العراق ترك انطباعاً في ذهنية النبي حزقيال الذي كان أسيراً في بابل مدة طويلة فقال في وصفه ما يلي:

«وبعد ان خرج الرجل نحو المشرق شرع يقيس ألف ذراع[32] بخيط قياس كان بيده. واجتاز بي المياه التي بلغ عمقها الى الكعبين. ثم قاس ألف ذراع أخرى واجتاز بي المياه التي بلغ عمقها الركبتين. وعاد فقاس ألف ذراع ثالثة واجتاز بي المياه التي بلغ عمقها الى الحقوين. ثم قاس ألف ذراع رابعة وإذا بنهر لم أستطع خوضه لأن المياه كانت طاغية عميقة مياه سباحة لنهر يتعذر عبوره»[33].

فهذا وصف لانحدار خمسة أقدام في الميل الواحد. أما ما امتازت به هذه البقعة من وجود أشجار كثيرة مرصوفة على حافة النهر ووجود أسماك كثيرة في المياه والبقعة الملآنة بالعظام اليابسة فكل هذه الأمور إنما هي من خصائص وادي الفرات في البقعة المجاورة لقبر النبي حزقيال[34].

***

وفي الوقت الذي كانت فيه عملية احياء الأراضي تتقدم من الشمال كانت الجماعات العراقية الجنوبية قد بدأت أعمالها الجريئة لتنظيم حالة الري هناك فقامت بإنشاء السدود الترابية في بعض فروع الأنهر لقطع المياه عنها. وإذا حكّمنا أنفسنا مسترشدين في ضوء التصاريف والمستويات أمكننا ان نقول إن أول سد ظهر من هذا النوع هو السدّ الذي أقيم في صدر نهر حداقل أو نهر الصقلاوية الحالي[35].

والصراع بين الجماعات المختلفة والنتائج المريعة التي يمكن ان تترتب عليه هي التي ألقت الرعب في نفوس بعض المفكرين الذين كان نوح أحدهم[36] فقد خاف نوح عاقبة الأمر فتهيأ لمجابهة الحدث الرهيب الذي ينتظره، فصنع لنفسه فلكاً من خشب

(32) حوالي خمسمئة متر.

(33) حزقيال 47: 3 - 5.

(34) «وكانت يد الرب عليّ فأحضرني بالروح الى وسط وادٍ مليء بالعظام، وجعلني اجتاز بينها وحولها وإذا بها كثيرة جداً تغطي سطح ارض الوادي كما كانت شديدة اليبوسة» (حزقيال 37: 1 - 2).

(35) فهذا السد هو الذي عبرت عليه بعد سنين عديدة جيوش كورش الصغير ومنه تقدمت لمقابلة جيش ارتاكسر كيس في معركة، كوناكسا على ان ارتاكسركيس هذا قام بتخريب السد المذكور بعد ان عبرت عليه جيوش كورش وهكذا انقطع طريق الرجعة عن جيوش كورش وزينفون المنكسرة فاضطرت الى عبور نهر دجلة والانسحاب شمالا الى البحر الاسود.

(36) «ابن لك فلكا من خشب السرو، واجعل فيه غرفا تطليها بالزفت من الداخل والخارج» (تكوين 6: 14).

الحور الذي تكثر أشجاره على ضفاف الفرات وطلا كلا الوجهين (وجهيها) الداخلي والخارجي بإلقار المستخرج من هيت على الطريقة التي تطلى بها «القفة» اليوم في الفرات. ويشعر سكان الأقسام الواطئة من الدلتا بقوة الفيضان في صورة ظاهرة وذلك لهبوط مستوى الأرض الصحراوية هناك وخاصة بعد ان أقيم السدّ الترابي في صدر الصقلاوية، ذلك السدّ الذي ضاعف من تصريف مجرى الفرات، يضاف الى ذلك كثرة مياه الأمطار التي تسقط في الوادي نفسه[37]. وبعد ان أقيم هذا السدّ أخذ مستوى الماء يرتفع الى أربعة عشر قدماً بعد ان كان لا يزيد على ستة عشر قدماً في الفيضانات العالية الاعتيادية[38].

ولم يقتصر أثر هذا الفيضان على أغمار الأراضي الزراعية فحسب لكنه شمل الأراضي الصحراوية أيضاً. ومما يجب الانتباه له أنه لم يكن يفهم سكان وادي الفرات ولا سكان وادي النيل من لفظة (كورة) القديمة (التل). كما أنه لا يفهم هذا المعنى من لفظة (جبل) فكلا هاتين اللفظتين تدلان على الصحراء لا الجبل بمعناه الحقيقي وذلك لأنه لا يمكن ان يغمر الماء البالغ ارتفاعه أربعة وعشرين قدماً، أرضاً عالية أو جبلاً بالمعنى الصحيح.

نعم يمكن ان يغمر هذا القدر من الماء السهول الصحراوية فقط. فالمقصود على هذا من عبارة: «وتعاظمت المياه جداً فوق الأرض حتى أغرقت جميع الجبال العالية التي تحت السماء كلها. وبلغ ارتفاعها خمس عشرة ذراعاً[39]. من أعلى الجبال»[40] فيكون المعنى الصحيح هو «خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الأراضي الصحراوية» وهذا الخطأ ناشىء من أن المترجمين العبريين الذين نقلوا العهد القديم الى اللغة العربية لم يفهموا المعنى المقصود من هذه الكلمة «الكورة» شأنهم في هذا شأن المترجمين المحدثين اليوم.

ألواح الخليقة والطوفان

ظهرت فُلْكُ نوح عائمة على سطح الماء أول مرة في احدى المدن التي كانت موجودة في تلك الأيام في الفرات الأدنى (في فرع نهر كوش المندرس اليوم) فسارت الى جهة الجنوب الشرقي مدفوعة بقوتي تيار الماء والرياح المندفعتين من الشمال والشمال

(37) «ففي سنة ست مئة من عمر نوح في الشهر الثاني، في اليوم السابع عشر منه تفجّرت المياه من اللجج العميقة في باطن الارض. وهطلت امطار السماء الغزيرة» (تكوين 7: 11).

(38) «وبلغ ارتفاعها خمس عشرة ذراعاً عن أعلى الجبال» (تكوين 7: 20).

(39) نحو ستة أمتار.

(40) (سفر التكوين 7: 19 - 20).

الغربي. وكانت مياه دجلة تأتي من الشمال مدفوعة بقوة التيار فتلتقي بمياه الفرات عند اور الكلدانيين[41]. فلا بد أن يكون التيار قد جرف الفلك بعد ان وصلت الى هذا المكان فدفعها الى المنطقة الصحراوية الواقعة جنوب مدينة اور القديمة. وهنا نجد تارح أبا ابراهيم ونجد معه نظام الأسرة ذلك النظام الذي يوكل فيه الحكم الى أكبر الأفراد. فتستقر الأسرة وتتوطن في مكان خاص. غير ان ولع ابراهيم بالأسفار والتنقل، ذلك الولع الذي أكسبه لقب (عبري) جعله يشذّ عن هذا النظام.

ويدعى الجبل الذي رست عليه السفينة (آرارات) وعندما نزح أحفاد تلك الأسر العراقية الى الشمال وأسسوا وطناً جديداً هناك أطلقوا عليه اسم (آرارات) على أعلى جبل رأوه في تلك المنطقة. كذكرى للبقعة التي كانت قد رست عليها السفينة. فالجبل الذي في بلاد ارمينية اليوم والذي يطلق عليه اسم آرارات، لا صلة له بجبل آرارات القديم، الذي رست عليه السفينة أكثر من صلة بغداد وبغديدي، نيويورك ويورك.

والذي جعل الأقوام البدائية القديمة الذين نقرأ أخبارهم في سفر التكوين يعتقدون ان الطوفان لم يكن مقصوراً على أراضي دجلة والفرات ودلتاهما، وأنه كان طوفاناً عاما شمل كل العالم، هو أنهم رأوا ان كتلاً كبيرة من الناس الذين يسكنون في البلاد المجاورة للوادي أخذوا يهجرون أماكنهم ويلتجئون الى هذا الوادي بعد ان أعيد اليه النظام والاستقرار من جديد فلم تكن لديهم وسيلة لتفسير ذلك غير غرق العالم، ثم أنه لم يكن لديهم تعليل لاختلاف لغات سكان هذا الوادي، ذلك الاختلاف الذي ظهر فجأة سوى أنه الهام من الله أراد ان يحقق به مطامح البشر في الحياة: «فقال الرب: «ان كانوا، كشعب واحد ينطقون بلغة واحدة، قد عملوا هذا منذ أول الأمر، فلن يمتنع إذا عليهم أي شيء عزموا على فعله، هيا ننزل اليهم ونبلبل لسانهم حتى لا يفهم بعضهم كلام بعض» وهكذا شتتهم الرب من هناك على سطح الأرض كلها، فكفوا عن بناء المدينة»[42].

والصورة التي رسمها العهد القديم للطوفان مأخوذة بحذافيرها من القصص السومرية القديمة والبابلية الحديثة، ولكن هذه القصص العراقية تمتاز عن التوراة في وصفها للظواهر الطبيعية، في حين ان العهد القديم (التوراة) يمتاز عن الألواح البابلية في تصويره لفكرة الاله كما يمتاز تمثال الملك عن تمثال أحد أفراد شعبه أو عائلته.

لقد سئم سكان دلتا الفرات من الفوضى والاضطراب اللذين سادا في البلاد وأصبحوا في وضع يرحبون فيه بأي شخص قوي يستطيع ان يعيد الزمن والنظام الى

(41) قد لوحظ انه في اور الكلدانيين، ان العرب يطلقون على المرتفعات الواقعة جنوبي اور كلمة «نواس» في حين ان كلمة نوه في العربية تطابق كلمة (نوح) العبرية. (راجع كتاب جنةعدن للسير وليم ولكوكس، ص 23).

(42) سفر التكوين 11: 6.

نصابهما في بلد لا تستطيع أن تحيا بدون الأمن والنظام. وأخيراً وجدوا ضالتهم المنشودة في شخص (نمرود الجبار)[43].

وما دامت أراضي الدلتا في العراق معرضة لأخطار فيضانات الأنهر وليس فيها مشاريع ري منظمه فإن سكانها الحاليين سيظلون محتفظين بكثير من خصائص ذلك الشعب الذي اندفع من الشمال ودخل تائهاً سهل شنعار، حيث فرضت ـ على الأرجح ـ عليه الزراعة ليسدّ به حاجات أفراده الكثيري العدد.

موقع جنة عدن

يقول السير وليم ويلكوكس: «عندما كنت في العراق قمت بدراسة دقيقة لنهر الفرات مبتدئاً من عانه وهيت الى خليج (فارس) وذلك لأتوصل الى معرفة البقعة التي يمكن ان تكون فيما مضى موطناً للجنائن بحيث يمكن ارواؤها ارواء سيحيا طول الاثني عشر شهراً من السنة، وإني عثرت على مكانين يتوفر فيهما الشرط المذكور:

احدهما منطقة الشلالات الواقعة بين عانه وهيت وقد قررت ان هذه المنطقة كانت محلاً لجنة عدن الساميين أو الأكديين، كما كانوا يسمون أنفسهم.

وثانيهما منطقة الأهوار التي تبدأ قرب خرائب اور الكلدانيين، وقد ذهبت الى أنها كانت بعد ان أصلحت، محلاً لجنة عدن السومريين. وقد توصلت الى تعيين مكان هذه الجنة الأخيرة بعد تجوال طويل في تلك المنطقة مسترشداً بالألواح البابلية للخليقة والخرائط التي تبيّن مستويات الأراضي هناك» (انتهى كلام السِير ويلكوكس)[44].

بيد ان الأستاذ سايس يرى ان هذه الجنة كانت في سهل بابل، بدليل ان كلمة (عدن) كانت تطلق في عرف سكان بابل على السهل البابلي، وأنها تعني في اللغة البابلية الأصلية السهل.

وكيفما كان الأمر فإن الدكتور كنغ الموظف في المتحف البريطاني يقول: «توجد في المتحف البريطاني قطعة حجرية ترجع الى العهد البابلي. وهذه القطعة تحدد مساحة من الأرض كانت واقعة في جنة عدن على قناة عدن نفسها. وهي تنبئنا بأنه كانت هناك بقعة تسمى عدن. وان هذه البقعة تقع على قناة عدن التي كانت معروفة للناس منذ سنين. ويوجد على هذه القطعة الحجرية كتابة تشير الى ان تلك البقعة كانت محددة من احدى جهاتها بالقسم الساحلي من البحر. ومعنى هذا أنها كانت تقع على راس خليج فارس»[45].

---

(43) سفر التكوين 10: 8.

(44) راجع كتابه «جنة عدن» ص 24 وما بعدها.

(45) ويلكوكس، جنة عدن، ص 27. غير اني اعتقد ان المقصود بكلمة القسم الساحلي من البحر، هو حدود منطقة الاهوار.

والألواح البابلية التي بأيدينا اليوم، قد دونت فيها، باللغة البابلية أو الاكدية الأشعار والقصص السومرية الأصل، وتدل هذه الألواح على ان نهاية الفوضى كانت على يد مردوخ آله البابليين لا على يد يهوا (إيا) آله السومريين.

ولم يكن ماء النهر يصلح وحده حسب فهم هؤلاء الأقدمين للطبيعة لأن يكون مصدراً للحياة ما لم تختلط مياهه بمياه الأهوار العذبة. ومن اختلاط هذين المائين بدأت الحياة على الأرض بتأثير عملية المدّ والجزر. ولم تصل المياه المالحة قط الى الأهوار نظراً الى وجود دلتا نهري كارون وكرخا التي تفصل منطقة الأهوار عن منطقة البحر. وقد كان ـ ولا يزال ـ أثر ارتفاع المياه في خليج العرب في حالة المدّ، ذلك الارتفاع الذي يبلغ عشرة أقدام والذي يمتد الى مسافة نحو مئة ميل، مقصوراً على أحواض الأنهر فقط. فيرتفع منسوب المياه العذبة فيها دون أن يكون ثمة مجال لدخول مياه البحر المالحة الى الأهوار. فالذي قصده الكتّاب الأصليون لهذه القصص من كلمة «عمق» هو «عمق المياه العذبة».

ولما كان التوصل الى حلّ قضية المياه المالحة أو المياه العذبة أمراً ضرورياً لفهم كثير من الحوادث التاريخية الواردة في التوراة. رأيت ان أرسم للقارىء صورة لوضع مجاري دجلة والفرات وكارون وكرخا، وذلك لأن هذا التصوير سيجلي الموقف جلاء تاماً.

يدخل دجلة دلتاه في بَلَد الواقعة جنوب سامراء حيث توجد هناك آثار لمشروع عظيم من أهم مشاريع الريّ القديمة. وفي الأيام القديمة ظهر رجل جبّار وتدعوه التقاليد المحلية نمرود، فسدّ قناة دجلة بإنشاء سدّ ترابي في عرض مجرى النهر وحوّل مياهه الى منطقة من الأراضي الصلبة فارتفع منسوب هذه المياه وصارت صالحة لارواء كل أراضي البلاد. وقد ظهرت في وسط المجرى الجديد شلالات أدت الى انحصار الملاحة في النهر في القسم الذي يبدأ بمدينة اوبيس ويمر ببغداد، فكوت الامارة حيث كان النهر يجري في حوضه الحالي على طول هذه المسافة، ثم يسير في اتجاه شط الحيّ أو فرع الغرّاف الحالي فيمر بمدينة لكش وهي تلّو الحالية حتى يصل الى أور الكلدانيين.

أما المنطقة الواقعة على مجرى دجلة الحالي التي تمتد في اتجاه العمارة والقرنة فقد كانت بحيرة واسعة من المياه العذبة تعرف باسم «بحيرة سوزيانا» وتدل مستويات الأراضي في هذه المنطقة على ذلك دلالة واضحة لا تقبل الشك. كما أن الفرق بين مستوى قعر النهر شمالي مدينة الكوت وجنوبها يؤيد هذا أيضاً.

ويرى الأستاذ سايس أنه وان تعذّر اليوم دخول مياه البحر في منطقة الأهوار الا أن الحالة في الأزمنة القديمة كانت على خلاف هذا، وذلك لثلاثة أسباب: أولها ما

يظهـر من أن الكتّاب البـابليين كانوا يستعملون كلمة واحدة للدلالة على البحـر وعلى الأهوار.

وثانيـها: ان مـدينة اريدو كـانت ميناء بحرياً للمملكة وكانت مشيدة على حـافة البحر.

وثالثها: ما يعتقد من أن أول انسان ظهر على الأرض كان يسكن مدينة أريدو وأنه كان يصيد السمك في البحر، وأنه كان يقوم في كل يوم بتقديم سمكة كبيرة قرباناً لآلهته.

والجواب على ذلك، ان أولئك القدماء كانوا كأحفادهم عراقيي الجنوب حتى اليوم يطلقون كلمة بحر على النهر المستديم، والبحيرة العذبة والبحر المالح. كما كانوا يطلقون كلمة صحراء على السهل والجبل بالنظر الى أن كلاً منها لا تصل اليه المياه في أوقات الفيضان. وعلى هذا الأساس يمكن معرفة معنى عبور بني اسرائيل البحر الأحمر أيضاً.

إن الظواهر الجغرافية لهذه البلاد كما كانت دائماً وكما هي اليوم تدل على ان مياه البحر لا يمكن أن تدخل وتختلط بمياه الأهوار في أي زمن من الأزمان، لأن دلتا نهر كارون المرتفعة تفصل بين البحر ودلتا نهري دجلة والفرات المنخفضة؛ فلا بد لمياه نهري دجلة والفرات ان تشق لها طريقاً في دلتا نهر كارون لكي تصل الى خليج العرب.

وبهذا يظهر ان دخول ماء البحر في منطقة الأهوار كان أمراً بعيد الوقوع في تلك الأزمنة السيحقة ويمكنني ان أؤكد أننا كلما ابتعدنا من منطقة الأهوار وصعدنا الى الشمال كان نفوذ ماء البحر واختلاطه بالأهوار أقلّ احتمالاً، وذلك لأنه كلما قلّت المياه التي تؤخذ من دجلة والفرات وكرخا وكارون لغرض الري، شق على مياه البحر الصعود شمالاً. ثم ان ماء البحر لم يكن يصل منطقة الأهوار حتى في أعظم أيام رخاء البابليين عندما كانت كل مياه دجلة والفرات تستهلك لغرض الري وذلك لأن مجرى دجلة والفرات الموّحد لم يكن خالياً من المياه إذ ذاك، وإنما كان يتموّن من نهري كارون وكرخا اللذين كانت مياههما لم تستغل بعد في الارواء كما ان خزانات الرافدين كانت تمدّ المجرى بالمياه أيضاً، ولما بدأ بالاستفادة من مياه نهري كارون وكرخا في الارواء فيما بعد، انحطت مشاريع الري التي كانت على نهري دجلة والفرات.

أما ان مدينة أريدو كانت ميناء بحرياً لهذه المملكة فليس فيه ما يدلّ على ذلك، بدليل ان البصرة اليوم ميناء مع أنها تبعد عن البحر ستين ميلاً وتصل اليها السفن البحرية التي تحتاج الى عمق يتراوح بين 16 و18 قدماً من الماء، في حين ان المياه التي أمامها عذبة ومستعملة لارواء ملايين النخيل هناك.

وأما ما قيل عن أول من سكن مدينة أريدو الواقعة على ملتقى الأنهر كان يصيد سمكة كبيرة في كل يوم، فإنه يدلّ دلالة قاطعة على ما ذهبنا اليه وهي ان تلك المدينة كانت واقعة على المياه العذبة وذلك لأننا نشاهد اليوم في دلتا دجلة والفرات في ملتقى النهرين مركزاً لصيد الأسماك الكبيرة.

وتقع أطلال أقدم مدن العراق قرب ملتقى الفرات بمجرى دجلة القديم في أور الكلدانيين. والسبب في ذلك ان المياه لم تكن تصل هذا الملتقى إلا بعد ان تفقد المواد الغرينية في المسافات الشاسعة التي انتشرت فيها مع احتفاظها بالمواد الكيمياوية التي هي ضرورية للزراعة.

ومن الواضح ان استعمال المياه ذات الطمى الكثير يتطلب كثيراً من الأيدي العاملة لتقوم بكري وتطهير القنوات، وهو أمر لم يكن متوفراً لدى أقدم سكان العراق. لهذا رأينا الجماعات القليلة العدد في الأصل تتجه الى الأماكن السفلى من النهر فتبدأ بالزراعة وتستمر في احياء الأراضي مدة حتى إذا كثر عدد أفرادها بحيث يستطيعون القيام بأعمال الحفر والتطهير اللازمة، عندئذ ينزحون الى الأقسام العالية من النهر ويستخدمون المياه الغرينية في زراعة الأراضي وأعمارها.

إن أقدم موطن للجنس البشري ـ لا شك ـ هو في الأراضي المستصلحة من منطقة الأهوار الواسعة ذات المياه العذبة البالغة مساحتها حوالي ثلاثة ملايين ايكر والواقعة بين نهري دجلة والفرات، وبين دلتا نهري كرخا وكارون.

وقد سار الفرات ودجلة في هذا الامتداد الواسع من الماء المرتفعة التي كونتها ترسبات نهري كارون وكرخا والتي كانت تفصل منطقة الأهوار عن منطقة البحر، شقا لهما قناة ضيقة، وهكذا وجدا طريقهما الى البحر.

عود على بدء

يجدر بنا بعد ان أتينا الى هذا الوصف للبلاد ان نبحث في بعض منتخبات من قصة الخليقة، وبعض قصائد أخرى قديمة[46].

1 ـ «حينما في العلى لم تكن سماء،

2 ـ والأرض في الدنى لم تكن شيئاً مذكورا،

3 ـ والأب أبسو الذي خلقهما،

4 ـ اله الفوضى (تيامه) أم لكليهما،

(46) نقلها الى الانكليزية الدكتور ال. دبليو، كنغ في كتابه: «الالواح السبعة للخليقة».

5 ـ وكان ماءهما ممتزجين معاً،

6 ـ ولم تكن يابسة ولا أهوار ترى،

7 ـ حينما لم يكن أحد من الآلهة قد ولد بعد».

*****

8 ـ «أنت أيها النهر الذي خلقت كل الاشياء،

9 ـ حينما حفرتك الآلهة العظام،

10 ـ البسوا ضفتيك حلة الرخاء،

11 ـ في طيات غمرك بنى أيا (ملك الغمر) مسكن».

*****

12 «لم يكن قد بني بعد بيت المقدس، بيت الآلهة في الموضع المقدس،

13 ـ لم يكن قد نبت قصب ولا خلقت شجرة،

14 ـ لم يكن القمر قد خلق، ولم تكن أريدو قد بنيت،

15 ـ كانت جميع الارضين بحراً،

16 ـ آنذاك كانت حركة في البحر،

17 ـ ثم بنيت أريدو وشيدت ايساكل،

18 ـ واتخذ الاله (لوكال ـ دول ـ ازاكا) ايساكِل الواقعة في وسط الغمر مسكنا،

19 ـ ووضع مردوخ قصباً على وجه الماء،

20 ـ وضع التراب وثرّه على القصب،

21 ـ لكيما يجعل الآلهة تسكن في المقر الذي تهواه افئدتهم...»

لقد ترجمت كلمة (أبسو) الواردة في البيت الثالث بكلمة (غمر) وكذلك في البيت الحادي عشر والرابع عشر والثامن عشر، وأعني به المساحات الواسعة من الأراضي المغمورة بالمياه العذبة التي ذكرناها ـ قبل قليل ـ والتي يصل اليها تأثير مدّ خليج العرب البالغ ارتفاعه عشرة أقدام.

أما «الغمر» الذي أشار اليه السومريون في ألواحهم، فإنما هو غمر المياه العذبة.

وأما (تيامة)، (تيامات)[47] فهو أم كل شيء (البيت الرابع) وقد عبر عنه في البيت الثامن بكلمة نهر الذي هو أصل كل الأنواع، أنواع الحياة (الخلائق كلها).

(47) يتلفظه العرب سيما عرب الاهوار تهومات.

ويقول لنا البيت الرابع والتاسع والعاشر، ان النهر الذي كان يشار به في أول الأمر الى الفوضى، صار مصدراً لكل أنواع الرخاء عندما سيطرت عليه الآلهة وجعلته يجري في قناة واحدة.

أما الأبيات الحادي عشر والسادس عشر والسابع عشر فتنبئنا بأن أول مدينة وأول معبد بُنيا في وسط الأهوار الواسعة العذبة، عندما فاض النهر وغطى مساحات واسعة كالبحر وعبر الأهوار الواسعة، وان نشوء الحياة كان مصحوباً بنمو القصب في تلك الأهوار، وبظهور المستنقعات، بحسب البيت السادس والثالث عشر.

ويصف لنا البيت التاسع عشر والعشرون والحادي والعشرون عملية احياء الأراضي التي بُدِىء بها في تلك المنخفضات وذلك باستخدام القصب والتراب لإنشاء ضفاف حول مساحات معينة من الأراضي المغطاة بالمياه ثم زرعها بعد جفافها بطريقة الارواء السيحي. ففي داخل هذه الأراضي المسيجة أقيمت معابد الآلهة أو المساجن التي يهواها افئدتهم.

وبعد مضي آلاف من السنين، غيّر الفرات مجراه في هذه الأهوار الواسعة مرة أخرى فقد ترك مجراه القديم وأخذ يجري في السهول ويغمر مساحة طولها سبعون ميلاً وعرضها اثنا عشر ميلاً، وفي عمق قدمين أو ثلاثة أقدام. وقد شاهدت العرب ـ في أوائل الستينات ـ وهم يستخدمون القصب والتراب في اقامة السدود أيام الصيهود فيسيجون بها قطعاً من أرض الأهوار لإعدادها لسكناهم وزراعتهم، وجعلها في مأمن من خطر فيضان الفرات.

لا شك ان حرف (إي) الذي تبدأ به اسماء المعابد والآلهة ـ أحياناً ـ هو حرف (يا) نفسه الذي يستعمله العرب أداة للنداء عندما يضاف الى أحد اسماء الجلالة البالغ عددها تسعة وتسعين اسماً (اسماء الله الحسنى) فيقال: ياستّار، ياكريم، ياالله، يارحمن... الخ ثم ان الاله (أيا) الذي يعبر عنه بكلمة (يهوا) يرادف كلمة (جيهوفه) بالانكليزية. كما ان كلمة (تيامة، تيامات) التي حرّفت فصارت «تيهومات»، تشبه كثيراً كلمة (تيهوم) العبرية التي تدل على الغمر.

وإذا أرادت احدى القبائل العربية الساكنة في منطقة الأهوار (جنوب العراق) ان تهاجم قبيلة أخرى، فإن أفراد القبيلة المهاجمة يتكتلون على صورة حلقات يبلغ أفراد كل منها من 25 الى 40 رجلاً فيدورون وبأيديهم البنادق وهم يضربون الأرض بأرجلهم وينادون كما يخيل اليّ «تيهيام، تيهام» مع تأكيد شديد على الحرف الأول. وفي مثل هذه الحالات لا يرتدي المتحاربون لباساً غير المئزر الذي يستر الحقوين.

***

وقد اتخذ السومريون أقدم موطن لهم داخل السهل الذي تصل اليه المياه طوال أيام السنة، فأقاموا هناك من السدود المحكمة ما يحميهم من خطر الفيضانات التي لا يتجاوز ارتفاع الماء فيها ثلاثة أقدام على مستوى سطح الأرض. وقد شيدوا مدنهم ومعابدهم في الأماكن التي يأمنون فيها من شر الوحوش الضارية ومن عدوان عرب الصحراء. وكانوا يتعاطون مهنة الزراعة ويروون أراضيهم بأحداث فتحات في تلك السدود حتى تصل المياه السيحية الى أراضيهم. وهناك في تلك الأهوار المحيطة بمساكنهم نازلوا «تيهومات» (تيامات) الجبار المخيف الذي ورد ذكره في اللوح الأول من ألواح الخليقة.

لقد كانت كلاب البحر التي تأتي من خليج العرب فتصعد في نهر دجلة وتسير حتى تصل الى سامراء الواقعة شمال بغداد مصدر رعب للذين يعومون في هذا النهر في ذلك الوقت.

أما الحيوانات التي نعتها المترجمون بأنها كلاب صيد متهيّجة والكباش فأغلب الظن انها أسود وخنازير وحشية، وقد كانت الأسود مألوفة في القسم الجنوبي من بابل وشمالي آشور.

والأسطورة القائلة الى أن جنة عدن السومريين ومدينة أريدو ومعبدها (اياساكل) كانت في القرية في نقطة ملتقى دجلة، بالفرات سابقاً، وهي موقع ملتقى النهرين قبل ان يتحول الى الملتقى الحالي في كرمة علي لا تخلو من أساس منطقي[48].

في أريدو نما عنب أسود غرس في مكان جميل محاط بالأنهر حيث يلتقي النهران دجلة والفرات[49].

وفي هذه البقعة شبكة متصلة من أشجار النخيل التي تقي المزارع بظلها الكثيف من برد الشتاء القارس ومن حرّ الصيف المحرق. ويتخلل النخيل هذه أغصان الكروم التي تتدلى منها عناقيد العنب الارجواني. فهنا كان موطن العنب الاسود لمدينة أريدو الذي غرس في مكان جميل. وهنا كانت جنّة السومريين[50].

لقد كانت اشجار الحياة تحمي الجنّة هناك، كما كان ثمر العنب شراب الآلهة الذي حُرّم أكله، غير ان حواء ذلك المخلوق الغريب شاءت ان تنهمك في أكل هذا الثمر فكانت عاقبتها خسران ذلك النعيم.

---

(48) يوجد في هذه المنطقة شجرة قديمة يطلق عليها اسم شجرة آدم.

(49) ترى اليوم في القسم الجنوبي من الفرات بقعة واسعة مغطاة بنبات البرسيم تؤلف أخصب جزء من الاراضي المزروعة في هذا القسم.

(50) في هذا المكان نفسه انشأ العرب الفاتحون في القرن السابع احدى جنائنهم الارضية الاربع. اما الثلاث الاخرى فهي دمشق وشيراز وسمرقند.

لكن بعد مرور السنين أخذت ضفتا نهر الكوشيين أو نهر كوثي القديم المتفرع من نهر الفرات الذي بنيت عليه مدينة أريدو تعلو في صورة مستمرة بسبب كميات الطمى التي كانت تحملها المياه. وقد صادف في أحد الفيضانات العالية جداً ان شق النهر له مجرى جديداً في الأقسام العالية منه وانحدر الى إحدى السهول الواسعة المنخفضة الواقعة في الدلتا وأصبح نهر كوثي والنهر الجديد عاليين وجافين، وصار من المتعذر إرجاع المياه اليهما بدون اجراء أعمال تطهيرية. وكان على نفر (نيبور) والوركاء[51] ولارسا تروي من فرع آخر يستمد مياهه من مجرى الفرات البابلي الجديد. كما ان مدينتا شورباك وأريدو أصبحتا مغمورتين بالمياه بالنظر الى انخفاض أراضيهما. وهكذا حوّل الفرات مجراه مرة أخرى وأخذ ينساب في أهوار واسعة كالتي كان فيها من قبل. ووضعت أسس لمدينة جديدة ولمعبد جديد وراء الضفاف المحكمة السدود الواقعة في منطقة الأهوار المحصنة، وقد نقل الى معبد مردوخ في بابل، مركز منطقة الرخاء الجديدة اسم «اياساكيل» المعبد المقدس في مهد الشعب السومري. ثم امتلك الأكديون أراضي سومر.

وعندما يجفّ نهر بابل جفافاً تاماً، فإن جميع المعابد المشيدة الآن على ضفافه ستنتقل الى ضفاف فرع الهندية، كما جرى لمعبد «أياساكل» حيث تحوّل من مدينة أريدو الى مدينة بابل؛ وكان على مدينة أريدو ان تقنع في أيام بؤسها بمعبد «آيا ابسو» أو الغمر، وهكذا لقيت حتفها.

وقد رسمت تقلبات مجاري النهر وتأثيراتها صوراً مختلفة في نفوس أولئك الأقدمين. فكان السومريون يرون النهر في أول الأمر عنصراً يخرّب ويدمّر كل شيء فتصوروهُ في صورة «تهومات» أو (تيامات). ثم لما تمّ التغلّب على مياهه تدريجياً واستغلت هذه المياه في ارواء الأراضي فدّبت الحياة على وجه الأرض وبرزت تلك الجنائن الغنّاء والغابات والأحراش، رجع السومريون بذاكرتهم الى الماضي وتصوروا آله الفوضى ذا السلطة المطلقة التي تعتبر بدء وأصل الاشياء، كما اعتبروا الدمار الذي يرافق الفيضانات، والخراب والفقر اللذين يعقبانها مظهراً لهذا الاله. ثم تخيلوا بين هذين الالهين آلهة أخرى مخيفة ولكنها كانت أقلّ هولاً منهما. ومن اتحاد تهومات بالاله ابسو ولد «لخمو» و«لخامو». وبمرور الأجيال ظهر «انسار» و«كيسار» واستمرت الايام فظهرت آلهة شريرة. ثم بعد مرور وقت طويل ظهرت آلهة الخير. وكانت كل طبقة متأخرة من هذه الآلهة أحسن من سابقتها حتى ظهر الاله «يهوا» الذي حلّ محل الاله «مردوخ» اله البابليين الأكبر.

---

(51) الوركاء (أرك) مدينة سومرية جنوبي العراق. موطن البطل كلكامش اجريت فيها التنقيبات الالمانية (1927 - 1939).

وقد تضرع «ابسو» آله البحار العذبة (البحيرة) المحدودة الخاضعة للمدّ والجزر الى «تهومات» الاله المطلق الذي يمثل الفيضان الدائم، وطلب منه ان يساعده على تحطيم الأعمال العمرانية التي أنشأها «مردوخ» الاله الذي كان منهمكاً في تنظيم العوالم. وكان ان أجاب «تهومات» ما أراده «ابسو» فخسر العالم الهدوء والراحة، وكان آله الفوضى في جملة من حرم الهدوء. بهذا تبدأ قصة الخليقة التي تبيّن كيف سيطر الاله «إيا» (يهوا) والآلهة القدماء على «آبسو» وعلى الأهوار، وكيف تمكن «مردوخ» آخر آله ولد، من التغلب على «تيامات» (تهومات) وذلك بإنشاء شبكة من القنوات والسدود فمزّق جسمها وصيّره قطعتين ممتدتين من القطب الى القطب وسيطر على الأمطار السماوية والفيضانات الأرضية.

ويعرف «مردوخ» هذا باسم «نمرود» عند العرب وقد كان نموذجاً للبطولة لديهم. وكان يعتبر عند السومريين مخترع النبال والحَبْر الأعظم للالهة. ويعتقد أولئك القدماء ان النهار أروع من الليل وان الأول ولد من الثاني. ولهذا كان المساء والصباح أول اليوم. وقد توصلوا الى الأسباب التي جعلت الإنسان أدنى مرتبة من آلهة الخير مع أنه ظهر الى الوجود في فترة متأخرة عنها. وقد رسموا في قصائدهم الشعرية صوراً حيّة للفيضانات التي دمّرت الجيل البشري الذي كان يسكن مدين «شوروباك» الواقعة على الفرات وقد واجهوا فيضانات نهريم المتدفقة بشجاعة، ذات الشجاعة التي واجهوا بها كل مشكلة من مشكلات الحياة التي اصطدمت بهم.

ومن المحقق ان ابراهيم الذي كان يسكن في اور الكلدانيين كان يعرف الأساطير السومرية المتعلقة بالخليقة والطوفان، كما ان موسى الذي مكث بين المديانيين مدة أربعين سنة لا بد وان يكون قد رحل الى اور نفسها مراراً عديدة، وزار بابل، وربما درس فيها على أيدي كهنتها وقرأ أساطيرهم في مكتباتهم وذلك لأن خيام المديانيين كانت تمتد من خليج العقبة الى جنوب دلتا الفرات.

وهكذا نجد من المقدمات العديدة التي ذكرناها سابقاً والتي رغبنا في رسم لوحة واضحة المعالم حول الخلقة والجنّة نقول:

ان موقع جنة عدن الساميين الوارد ذكرها في العهد القديم، وموقع جنة عدن السومريين وجنة البابليين التي ورد ذكرها في قصة الخلقة (اينوما ايليش) فهناك مجال واسع لاختلاف الآراء.

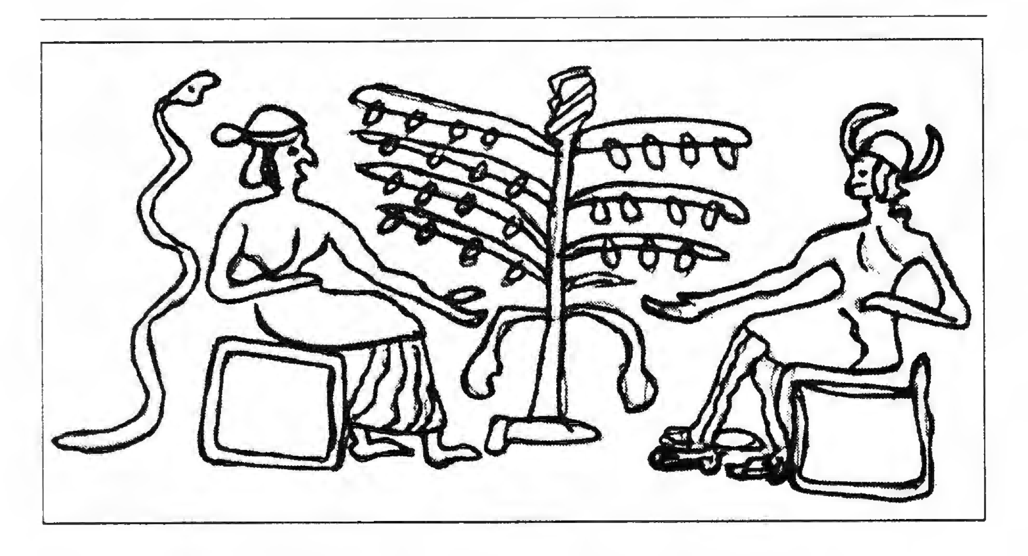
أما أنا فلا يخامرني أي شك في ان موقع جنة عدن السومريين انما هو المكان الذي افترضه الأستاذ سايس قبل مدة طويلة أي في الملتقى القديم لدجلة والفرات في منطقة الأهوار شمال اور الكلدانيين. ولقد أوضح لنا الدكتور كينغ الموظف في المتحف

البريطاني - كما سبق وأشرنا - بأنه عثر على قطعة حجرية تحدد مساحة من الارض كانت تقع في جنة عدن على قناة عدن نفسها، وان منطقة الأهوار كانت تحدّ جهة واحدة من جهات هذه الأرض.

أما تعيين موقع جنة عدن الوارد ذكرها في العهد القديم فهو أكثر صعوبة. فالأستاذ سايس يرى أنها كانت في ملتقى دجلة والفرات أيضاً حيث كان نهر كرخا وكارون يصبان في المجرى الذي يتكون من مياه الرافدين جنوب الملتقى.

ولكننا إذا عرفنا ان الشعوب السامية كانت قد استوطنت في الشمال الغربي من نهر الفرات، وأنها هاجرت منه الى جنوبه، وان العهد القديم قد نص صراحة على ان النهر بعد ان يخترق الجنة ينقسم الى أربعة فروع، عندئذ يتحتم علينا ان نلتمس مكاناً آخر للجنة، يقع في شمال هذه الفروع الأربعة: فيشون، وجيحون وحداقل والفرات بين عانه وهيت، كما ذكرنا ذلك في مقدمة كلامنا هنا.

فلا بد ان يكون مهد الساميين في أعالي الفرات، وذلك لأنهم خرجوا من الجنة في الاتجاه الشرقي حيث وقفت ملائكة الكاروبيم في طريقهم لمنعهم من الرجوع اليها، هذا وليس في الجهة الشرقية لجنة عدن السومريين سوى منطقة البحيرات والأهوار التي تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين ايكر.



قصة آدم وحواء في تصوير السومريين

مما يثير الدهشة والغرابة ان المكتشفات الأخيرة قد دلّت على أن قصة آدم وحواء بما فيها قصة جنة عدن التي وردت في التوراة، قصة قديمة ترجع جذورها الى عهود ما قبل التوراة.

فقصة آدم وحواء التي تشير الى اغراء الحية لحواء وتناول حواء وآدم من ثمر شجرة معرفة الخير والشر بالرغم من منعهما من الأكل منها، ان هذه القصة ذاتها، نجدها مصورة على نقش سومري، يشاهد فيه رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين وإمرأة حاسرة الرأس جالسين الواحد مقابل الآخر، وقد نبتت بينهما شجرة تشبه شجرة النخيل تدلى عذقان من الثمر من طرفيها، ويشاهد الرجل ماداً يده اليمنى نحو العذق أمامه ليقطف من ثمره، كما تشاهد المرأة وهي مادة يدها اليسرى نحو العذق الذي أمامها لتقطف من ثمره أيضاً، ثم تشاهد الحية وهي منتصبة على ذنبها خلف المرأة تغريها في الأكل من هذه الثمرة المحرم عليها أكلها.

وهذا دليل على أن شجرة النخيل وجد على تربة جنوب العراق منذ أقدم الأزمنة، وان شجرة معرفة الخير والشر هي شجرة النخيل بالنسبة للسومريين (أنظر التصوير).

ومما يذكر ان هذا النقش التاريخي وضع قبل التوراة بزهاء ألفي عام، ومع العلم ان البعض يشك في كون هذه الصورة تمثل قصة آدم وحواء من غير ان يعطي هؤلاء تفسير آخر. ونحن نميل الى ضم صوتنا الى أصوات القائلين بأنها تمثل القصة لأن الصورة تتكلم عن نفسها دونما حاجة الى شرح.

قايين وهابيل

يتضمن كتاب التوراة قصة الأخوين قايين وهابيل ـ الفلاح والراعي ـ ولقد عثر بين الرقم السومرية المكتشفة على مجموعة من الوثائق الأدبية في الحكمة والارشادات الأخلاقية والأقوال المأثورة. وكانت المناظرة عند الكتّاب السومريين، من الضروب الأدبية المحببة على غرار «شعر المجادلة» الذي كان شائعاً في العصور القديمة والعصور الوسطى.

ولقد كشفت التنقيبات عن سبع مناظرات رئيسية هي:

1 ـ المناظرة بين الصيف والشتاء.

2 ـ المناظرة بين الماشية والغلّة.

3 ـ المناظرة بين الطير والسمك.

4 ـ المناظرة بين الشجرة والقصبة.

5 ـ المناظرة بين الفضة والنحاس الجبار.

6 ـ المناظرة بين الناس والمحراث.

7 ـ المناظرة بين الرحى وحجرة الجوجال.

وأطول مناظرتين وأحسنهما حفظهما «المناظرة بين الصيف والشتاء» و«المناظرة بين الماشية والغلّة».

وسنضع هاتين المناظرتين أمام القارىء الكريم مقابل المناظرة التوراتية بين قايين وهابيل حتى يتلمس القارىء أصول القصة التوراتية. فيرى بوضوح ان أصل القصة التوراتية يعود الى هاتين المناظرتين مع تعديل في النتيجة كما أراد كتبة التوراة.

المناظرة التوراتية

بين قايين الفلاح وهابيل الراعي

«وعرف آدم حواء إمرأته فحبلت وولدت قايين. وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب. ثم عادت فولدت أخاه هابيل راعياً للغنم. وكان قايين عاملاً في الأرض. وحدث من بعد أيام ان قايين قدّم من أثمار الأرض قرباناً للرب. وقدم هابيل أيضاً من ابكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب الى هابيل وقربانه ولكن الى قايين وقربانه لم ينظر فاغتاط قايين جداً وسقط وجهه. فقال الرب لقايين، لما اغتظت ولماذا سقط وجهك. ان أحسنت وان لم تحسن فعند الرب خطية رابضة وإليك اشتياطها وأنت تسود عليها.

وكلّم قايين هابيل أخاه. وحدث إذ كانا في الحقل ان قايين قام على هابيل أخيه وقتله ـ فقال الرب لقايين: أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم أحارس أنا لأخي. فقال، ماذا فعلت. صوت دم أخيك صارخ اليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتك، تائهاً وهارباً تكون في الأرض. قال قايين للرب، ذنبي للرب، ذنبي أعظم من أن يحتمل. انك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك اختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض. فيكون كل من وجدني يقتلني. فقال له الرب. بذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده. فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض تود شرقي عدن»[1].

المناظرتان السومريتان

المناظرة بين الصيف والشتاء

المناظرة بين (اينميش وايتين) أو بين الراعي والفلاح..

تبدأ المناظرة بمقدمة تفيد ان الإله «انليل» رئيس مجمع الآلهة. السومري، عزم على خلق جميع أصناف الأشجار والحبوب ليعمّ في البلاد. ومن أجل ذلك خلق الاخوين «إينمش» أي الصيف و«ايتين» أي الشتاء. ثم حدد انليل وظائف كل منهما فكانت على الوجه التالي:

«لقد جعل «ايتين» جعل النعجة تلدُ الحمل، والعنزة تلد الجدي.

«وجعل البقرة والعجل تتضاعف أعدادها وكثر السمن واللبن.

(1) راجع القصة بالتفصيل في سفر التكوين من التوراة.

«وفي السهل أفرح قلب المعز البري والغنم والحمار،
«وطيور السماء - جعلها تبني أعشاشها في الأرض الواسعة،
«وجعل اسماك البحر - جعلها تضع بيضها في أحراش القصب،
«وفي بساتين النخيل والكروم والعسل والخمر،
«والأشجار، أينما غرست جعلها تحمل الثمر،
«وزين البساتين بالخضرة وجعل نباتها وفيرا،
«وكثرت الغلّة في الحقول
«ومثل «اشنان» (إلهة الغلة) العذراء الرحيمة، جعلها تنمو بوفرة،
«أما اينميش» فإنه خلق الأشجار والحقول ووسع الاسطبلات
«وحظائر الغنم
«وضاعف في الحقول النتائج وزين الأرض...
«وجعل الحصاد الوفير يجلب الى البيوت وتعلو اكدسة في الصوامع
«وجعل المدن ومواطني السكن تشاد والبيوت تبنى في البلاد.
«وترتفع المعابد كالجبال».

بعد ان أنجز كل من الأخوين، مهمته قررا الذهاب الى «نفر» الى «بيت الحياة» ومعهما قرابين الشكر الى أبيهما «انليل» فجلب «اينميش» أنواعاً عديدة من الحيوانات البرية والمدجنة والطيور والنباتات كهدية منه الى «انليل» في حين ان «اينتن» اختار المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والأشجار والأسماك كقربان الى «انليل». وبعد ان وصلا الى «بيت الحياة» اشتدت المناظرة بين الأخوين الى حدّ التحدي والخصومة فرفع كل منهما شكواه الى انليل فقال إينتن «فلاح الآلهة» كما وصفه أخوه اينميش:

«يا ابني انليل قد عهدت اليّ بشؤون القنوات
«فجلبت مياه الخير
«وجعلت الحقل تلو الحقل - وملأت صوامع الحبوب
«وأكثرت الغلّة في المزارع
«ومثل «اشنان» العذراء الرحيمة، جعلتها تنمو بغزارة
«ولكن «اينميش»... الذي لا يفهم شيئاً في زراعة الحقول
«قد زاحمني... بالمرفق... والمنكب
«وفي قصر الملك...

وبعد هذا الدفاع انبرى إينميش يطري على «انليل» وعلى أثر ذلك، أجاب «انليل»

الأخوين اينميش (الراعي) وآيتين (الفلاح) قائلاً:

«مياه كل البلدان المنتجة للحياة (ايتين) موكل بها

«انه فلاح الالهة، انه ينتج كل شيء،

«وهذه هي كلمة انليل السامية بمعناها العميق

«انليل الذي حكمه لا يبدل، فمن يجرؤ على تخطيه؟

«فثنى اينميش ركبته أمام ايتين وصلى له

«وإلى بيته جلب رحيقاً ونبيذاً وجعه

«وأشبعا نفسيهما بالرحيق والنبيذ والجعة المفحة للقلب

«وأهدى اينميش إيتين الذهب والفضة وحجر اللازورد

«وسكبا سكائب مفرحة وهما على أتمّ ما تكون الأخوّة والمودة...

«وفي الجدل بين اينميش وآيتين

«انتصر آيتين فلاح الآلهة الامين على اينميش الراعي

«... الأب «انليل» حمدا له.

ب ـ المناظرة بين الماشية والغلّة

أي بين إلهة الماشية «لهار» وأختها «أشنان» إلهة الغلة والمناظرة بين الماشية والغلّة تدور على لسان الالهة «لهار» التي هي الرعي وأختها الإلهة «اشنان» وتمثل الفلاح.

وهاتان الإلهتان خلقتا في صالة الخلق الخاصة بالالهة لكي يحصل «الانوناكي» مجموعة الآلهة السماوية ـ ابناء إله السماء: «آن» على طعام يأكلونه ولباس يرتدونه. ولكن «الانوناكي» لم يتمكنوا من الاستفادة الكافية من الماشية والغلّة الا بعد ان خلق الإنسان.

وهذه الحالة الأولى للآلهة جاءت في مقدمة اسطورة خلق «لهار» و«اشنان» ومن ثم بدأت المناظرة بين الالهتين كما يلي:

«في تلك الأيام قال «انكي» لـ «انليل»

«يا ابني «انليل» ان «لهار» و«اشنان»

«وهما اللتان خلقتا في الـ «دوكو»

«لتدعهما تهبطان من الـ «دوكو»

وبكلمة «انكي» و«انليل» الطاهرة

«هبطت «لهار» و«اشنان» من الـ «دوكو»

«وشيدا ـ أي انليل وانكي ـ لـ «لهار» حظيرة الغنم
«وقدما لها النباتات و الأعشاب الوفيرة
«وأقاما لـ «اشنان» بيتاً
«وقدما لها المحراث والنير
«وتقف لهار في حظيرة غنمها
«فهي راعية تزيد محصول حظيرة الغنم
«وتقف اشنان بين الغلاّت
«فهي عذراء رحيمة وسخية
«ان الخير الوفير الذي يأتي من السماء
«وكانت لهار اشنان تظهرانه ـ في الأرض ـ
«وكانتا تجلبان الخير الوفير في المجمع
«وفي البلاد أحلتا نفس الحياة
«ووجهتا «ميات» أي نواميس ـ الاله وضاعفتا محتويات المستودعات وملأتا المخازن
وفي بيت الفقير، الذي يعانق التراب
دخلتا وجلبتا الخير الصميم
كلتاهما حيثما وقفتا
تجلبان الى البيت الخير الوفير
وتشبعان المكان الذي تقفان فيه،
وتزودان المكان الذي تجلسان فيه بالغذاء

ولكن بعد ذلك، شربت «لهار» و«اشنان» كثيراً من الخمر وبدأ النزاع بينهما في المزارع والحقول. وكانت كل آلهة تتباهى على أختها بما أنجزته وأخيراً تدخل «انليل» و«انكي» بينهما وحكما للآلهة «اشنان» أي إلهة الغلّة بالنصر.

مقابلة وتحليل

إن المناظرتين السومريتين إي «إينتن واينميش» و«لهار واشنان» تتناول كل واحدة منهما نفس الموضوع أي الرعي والزراعة. فالرعي يمثله «اينميش» و«لهار» في المناظرتين والزراعة يمثلها كل من «اينتن» و«اشنان» وهما في الأسطورة الأولى اخوان وفي الاسطورة الثانية أختان. وبنتيجة المناظرة كان حكم الاله الى جانب الزراعة الممثلة بالفلاح مما أنهى الخصام بين المتناظرين وأدى الى الوئام بين الأخوين أو الأختين.

إن القصة السومرية تحكي لنا أول ظهور الأعمال الزراعية في وادي الرافدين، في الوقت الذي كان فيه الانتاج يتمركز حول تربية الماشية والرعي. فالاتحاد الجديد في حياة تلك الشعوب حاول الانتقال من حياة الوبر الى حياة المدر سعياً وراء الاستقرار في الأرض والانتقال الى مرحلة حضارية جديدة فيها كل الخير. ولا بد لأي خطوة تطورية تقدمية من تصطدم بالفكر الرجعي التقليدي وهذا ما حدث في هذه المرحلة التي تميزت بالخصام بين الرعاة والفلاحين، بين الحلّ والترحال، شأن البدو في أيامنا هذه وبين التمركز في المستعمرات الزراعية، وكما يحدث في أيامنا هذه فإن الرعاة الرعاة كانوا يعتدون على المزارع طلباً للكلأ وسرعان ما تنشأ الخصومة بينهم. ولكن على مرّ الأيام تحت عناد أصحاب المزارع وبموجب الخير الوفير الناتج عن الزراعة، تمت النقلة الحضارية السومرية من حياة الرعي الى حياة الزراعة، علماً بأن السومري هو أول من اخترع المحراث واستعمله في حرث الأرض وزرعها. والمحراث السومري هو نفسه الذي لا نزال نستعمله في الأرياف دون أي تغيير فيه أو تطوير.

وعندما كتب السومري قصة هذا الانتقال الحضاري، من الرعي الى الزراعة، بما فيه من عنف وصراع، تمثله قد حدث على أيدي أخوين أو أختين وهو أمر طبيعي ما دام الرعاة والفلاحون الجدد على السواء هم بمثابة أخوة بالقبيلة ينتمون الى ارومة واحدة. كما أدخل السومري الآلهة وهم دون شك العقلاء الناطقون بلسان الآلهة.

وبعد المناظرة بين الأخوين، نرى الاله ينتصر في القصتين للزراعة الممثلة بالفلاح، وعلى أثر هذا الحكم تنتهي المناظرة والخصومة ويخضع الراعي للفلاح ويسود الوئام بينهما.

وهذه النتيجة تعني انتصار فكرة الزراعة واستقرارها بعيداً عن اعتداءات الرعاة.

وبالمقارنة بين هاتين القصتين ذات المضمون الواحد، مع القصة التوراتية، نرى ان مصدر القصة التوراتية مأخوذ عن القصة السومرية مع تحوير في النتائج كما يلي: ان شخوص القصة التوراتية هي الراعي هابيل والفلاح قايين وأما الحكم فهو الرب.

■ يقع الخصام بين قايين وهابيل على غرار الخصام الوارد في القصة السومرية.

■ بفعل هذا الخصام، يحتكم الاخوان الى الرب.

■ الرب ينصر لهابيل الراعي خلافاً لحكم الآلهة كما ورد في القصة السومرية أي الانتصار الى الفلاح.

■ يخرج قايين من لدن الرب مكرهاً وغاضباً على أخيه وكأنه لم يقبل بحكم الرب.

■ يغتنم قايين الفرصة ويقتل أخاه هابيل خلافاً للنتيجة التي توصل اليها

السومري وهي الاذعان الى حكم الاله والتسليم بأفضلية الزراعة على الرعي. وبذلك تحمل الاسطورة التوراتية فكرة النزاع المستمر بين الرعي والزراعة أي بين أهل الوبر وأهل المدر والآن بعد ان وضحت لنا جذور هذه القصة لا بد من التساؤل لماذا كتبة التوراة حوروا مضامينها ونتائجها؟

جرت المناظرة بين راع وفلاح كما رأينا وهي رمز الصراع بين أعمال الرعي والزراعة. والشعب العبري (اليهودي) عندما بدأ في اجتياح بعض المناطق في سورية الجنوبية (فلسطين) لم تكن قائمة معيشته الا على الماشية وانتاجها فهو يمثل الراعي بينما الشعب الكنعاني في جنوبي سورية كانت له حضارة متعددة الاتجاهات من زراعية وفنية ومعمارية وتجارية وأدبية، انه تخلى منذ أمد بعيد عن حياة الرعي ليدخل في حضارة جديدة قوامها الزراعة والاستقرار وما ينتج عن ذلك من ضروب الرقي والازدهار.

والبرهان على وجود هذه الحضارة في أرض كنعان هو ما جاء في الاصحاح الثالث عشر من سفر العدد، حين أرسل موسى رجالاً يتجسسون أرض كنعان. وبعد انجاز مهمتهم عادوا الى موسى وقدموا له التقرير التالي: (عدد 13 :26 - 28).

«فساروا حتى أتوا الى موسى وهرون وكل جماعة بني اسرائيل الى برية حاران الى قادش وردوا اليهما خبرا وإلى كل الجماعة واروهم ثمر الأرض وأخبروه وقالوا قد ذهبنا الى الأرض التي أرسلتنا اليها وحقاً أنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها. غير ان الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جداً. وأيضاً رأينا بني عناق هناك. العمالقة ساكنون في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والاموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الاردن».

يتضح من هذه الفقرة ان شعب سورية الجنوبية كان يتعاطى الزراعة فهو إذن يمثل الفلاح في المناظرة السومرية والتوراتية. ففي حال تبني مضمون القصة السومرية، يجب ان ينتصر الاله الى الفلاح - قايين - هذا يعين بكل وضوح الى كنعان المزارع لا هابيل الراعي الممثل للشعب العبري. وبموجب ذلك تسقط قيمة الشعب العبري (اليهودي) أمام الشعب الكنعاني وهذا يتضارب مع مصالح اليهود ومدوناتهم للأيام المستقبلية. وأمام هذا القلق في نقل الاسطورة عمدوا الى تحويرها وجعل نصرة الله لـ «هابيل» دون «قايين» ثم إمعاناً في الروح العدائية نحو شعب كنعان جعلوا قايين يقتل هابيل وبذلك انقلب مفهوم الاسطورة التي هي بالأساس صراع بين حضارتين ينتهي بالوئام والخير الى قصة قاتل أخيه دون مبرر، تحدياً لقرار الاله وللعرف الانساني.

ان هذه القصة توصم الشعب الكنعاني بالكفر والجريمة وتجعل الشعب اليهودي مضطهداً قبل الكنعانيين، ومدعوا الى محاربة ومطاردة هؤلاء «المجرمين».

انها قصة طريفة في باب الانتحال والتزوير وكتابة أحداث التاريخ وفق المصالح الخاصة دون أي اعتبار لأي وجه من وجوه الحقيقة. فليقرأ المؤمنون بوعي كل ما تنطوي عليه التوراة.

تعليق وتعقيب

كما أشرنا في تلك المناسبة بأن قصائد المنافسة، لم تكن أدباً مجانياً، بل كانت أسلوب بحث ومحاكمة عقلية، ونضيف هنا بأن لتلك المحاكمات التنافسية دورها التعليمي والتربوي في آن واحد، وبشكل خاص حين تتدخل حكمة الإله بين المتنافسين لتقول كلمتها: كلمة الفصل.

ومن المفيد الإشارة الى أن السومريين أطلقوا هم أنفسهم على هذا الإنتاج الفكري تسمية معبّرة وهي آدامان ـ دوجار[1] وفي هذه باستعمال الرمز المعبِّر عن (رجل) مضاف اليه الرمز نفسه بشكل معكوس، وهذا ما يوحي فعلاً بخطاب المواجهة الكلامية بين كائنين.

نحن بصدد ايراد نص المنافسة بين الراعي والفلاح، أي بين دوموزي الراعي، وانكيمدو الفلاح كمدخل لأناشيد الحب بين دوموزي وآلهة الخصب إنانا. وبين أخوين هما: ايميش (الصيف) وابنتين (الشتاء) قامت منافسة، ومنافسة بين شجرتين: شجرة النخيل وشجرة الطرفاء..

نصّ قصيدة
المنافسة بين الصيف والشتاء

وصلنا هذا النص، الذي يعود الى بداية الألف الثاني لما قبل الميلاد، في اثني عشرة نسخة مختلفة ومتفاوتة التشويه، وقد أمكن من مجمل محتوى هذه النسخ، التعرّف على أنه يبدأ بإعلامنا كيف عمد الإله انليل[2] الى خلق الزمن الملائم معدّاً بذلك لدورة تتالي الشتاء الرطب والمخصب والصيف المنضج والجاف. وهكذا وبما ان ذلك تمّ في أزمنة البدء، فقد تمّ ذلك في حين لقّح انليل المنطقة الجبلية وأخصبها فولدت التوأمين «الصيف والشتاء» ثروة البلاد. وحدّد لكل منهما دوره في كل من مجالي الإنتاج الحيواني والزراعي وذلك لتأمين الوفرة في البلاد.

(1) Adanar - Dougar

(2) Enlil سيد مجمع الآلهة في سومر وهو سيد الهواء والامطار.

وبعد أن قام كل منهما بدوره، توجها معاً نحو انليل في نفّر[3] حاملين اليه قرابينهما واختلفا اثناء الرحلة لمعرفة أيهما أفضل[4]، فيقدم كل منهما حججه للدفاع عن رأيه الى أن يصلا أمام انليل الذي يفصل بينهما ويتخذ قراره بصددهما. «فسكبا معاً القربان المقدس وتعاهدا على أن يعملا معاً[5] بحكمة وطيب».

برنامج إنليل الخلق الزمن الملائم وتنفيذه

جعل نونّا منير[6] نفسه في حالةٍ
تخوله خلق الزمن الملائم
وفي ما يتعلق بالعالم[7] الذي سيكوّنه
أعدّ (انليل) برنامجاً، سوف
تستفيد منه جموع البشر
ثم مثل ثور شامخ، وضع على الأرض رجله
إذ قرر سيد الكون
أن يخلق اليوم ـ الملائم ـ الفائق الخصوبة
والليل ـ الملائم ـ الجزيل الوفرة
ولكي يجعل الكتان ينمو كثيفاً وينشر
الشعير في كل مكان
لكي يضمن حدوث الفيض على جميع الضفاف
وينشر الخصب (....)
بحيث يحبس الصيف الأمطار
وبحيث يزوّد الشتاء الضفاف بالماء المخصب
لذلك عمد (انليل) الى غرس قضيبه
في المنطقة الجبلية الرحبة
وقدّم لقمة الجبل «هديته»[8]

(3) نفر (نيبور) مدينة انليل وهي العاصمة الدينية القديمة لبلاد سومر تقع الى الجنوب الشرقي من بابل على بعد 80 كم.
(4) في هذه المنافسة وكذلك في المنافسة بين الراعي والفلاح أساس قصة قائين وهابيل.
(5) النص السومري تبنّى الوفاق بين الاخوين، بينما في التوراة الى الجريمة الاولى.
(6) Nunnamnir لقب الاله انليل.
(7) المقصود هنا بلاد ما بين النهرين.
(8) أي هدية العرس.

حبلت قمّة الجبل بالصيف والشتاء ثروة البلاد
والمكان الذي غرس فيه انليل قضيبه
جعله مثل الثور، يخور لذّة
على الجبل، ودونما حركة، قضى، نهاراً بكامله
وركب القمّة أيضاً ليلة كاملة،
وهكذا وكما يُستخرج الزيت الناعم
جعل قمة الجبل تتمخّض بالصيف والشتاء
وقد تركهما مثل عجلين أرخُصَيْن
يقضمان عشب الجبال
حتى أنهما ازداد سمنة، وأصبحا قويين
بغذاء المراعي الجبلية
(......)

(نتابع هذا النص عن نسخة أخرى تشير الى كل من الصيف والشتاء باسميهما إيميش[9] وإينتين[10] وتصف مهمة كل منهما).

«إينتين كان يجعل النعاج والماعز تلد صغارها
كثّر البقرات والعجول ووفّر بسخاء السمن واللبن
وفي السهوب، جعل البهجة تعمّ العنز البرّي والارويّات
والحُمُر الوحشية
ووزّع أعشاش الطيور على كامل الأرض الفسيحة
وجعل الأسماك تضع بيوضها في (هور) القصب
وفي مزارع النخيل والكروم، ضاعف الحلاوة والخمرة
غطى بالخضرة البساتين، وجعل زروعها تتكاثر
كما ضاعف عشر مرات الحبّ في الاثلام
وجعل اشنان[11] تنمو بشكل رائع كفتاة جذّابة

(9) Emesh الصيف.
(10) Enten الشتاء
(11) Ashnan إلهة الحبوب وهنا بمعنى الحبوب.

ما حققه الصيف

أما إيميش، فقد نمّى الأشجار والزروع ووسّع المذاود والحضائر
وضاعف إنتاج المزارع وغطى الأرض بالـ (....)،
كما أتى بحصاد «غني» ليكدس في العنابر،
ودفع الى بناء المساكن والتجمعات السكنية وإلى
إشادة البيوت في كل مكان[12]،
وإلى إقامة معابد تضاهي الجبال في شموخها...».

توجه الاخوان ايميش وإينتين نحو مدينة نفّر وكل منهما يحمل لإنليل تقدمات من انتاجه ولكنهما اختلفا اثناء الطريق.

(......)
وعامل الصيف الشتاء وكأنه عدو
ورفض السير الى جانبه
الشتاء... فقد
ويدأ بالشجار مع الصيف
وأخذ كل منهما يشير بميزاته وفضائله كدليل على تفوقه.

فيقول الشتاء:

عندما الملك (....) إيبي ـ سين[13]
الالهي (....)
(....) مرتديا ثوبه الملكي بزينته الاحتفالية،
لإقامة الطقوس في عيد الآلهة (...)
عند ذلك، أنا هو المكلّف بإعداد الزبدة اللذيذة

ولكن الصيف يردّ منتقداً الازعاج وعدم الراحة اللذين يسببهما الشتاء:

(....) فأجاب الصيف الشتاء:

شتاء يا أخي ومن فضلِك
تلتفّ الغيوم الكثيفة (....)

---

(12) اعمال البناء التي كانت تنجز خلال فصل الصيف.

(13) Ibbi - sin حكم خلال ملكية اور الثالثة حوالي (2029 - 2006 ق.م) وبذلك تتحدد فترة تأليف هذا الجزء من النص.

وفي قلب المدينة تصطك الأسنان،
حتى في وسط النهار لا يجرؤ أحد
على الخروج الى الشارع

وفي النهاية يصل المتنافسان أمام انليل، ويحتكمان اليه، يتوجه الصيف الى الإله انليل مادحاً وكان توجُّه الشتاء اليه أكثر مباشرة. ويتخذ انليل قراره بصدد الخلاف على هذا الشكل.

انليل أجاب الأخوين الصيف والشتاء (قائلاً):

الشتاء يسهر على المياه التي تمنح للبلاد الحياة
انه فلاّح الآلهة الذي يجعل الشعير ينمو بكثرة،
أيها الصيف، يا بنيّ، كيف يمكنك
أن تقارن نفسك بأخيك الشتاء؟

وقَبِل الاخوان قرار انليل وتمت المصالحة[14]

فكانت كلمة إنليل المجدة
ذات المغزى العميق
وقُبلَ القضاء الذي لا يُبدّل
فمن ذا الذي يغيّره؟
فركع ايميش إزاء ايتين (.....)
وسكبا معا القربان المقدّس
بأخوّة وصداقة
وتعاهدا بأن يعملا معاً
بحكمة وطيب (.....)
فسبحانك أيها الأب انليل..

(14) نقتطف هذه الخاتمة عن مجلة سومر ج 2، المجلد الخامس لعام 1949.

التكوين وخلق الإنسان

«في تلك الأزمان الأولى. لم يكن سوى المياه»

(أسطورة بابلية)

«في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه»

(التوراة. تكوين 1)

لقد كانت مسألة بدء العالم والحياة والإنسان، من أولى المسائل التي ألحَّتْ على العقل البشري، والتي تصدى لمعالجتها منذ فجر طفولته. فلا نكاد نجد شعباً من الشعوب إلا ولديه أسطورة أو مجموعة أساطير في الخلق والتكوين وأصول الاشياء. نزولاً الى العصر الحديث، حيث احتلت هذه المسألة الجانب الأكبر من ميتافيزيقيا جميع الفلسفات، وشغلت حيزاً هاماً في العلوم الحديثة، فحلت النظريات العلمية محل الأسطورة، ومحل التأمل الفلسفي المجرد.

وقد عثر علماء الآثار على كثير من النصوص من الأدب العراقي القديم التي تعبّر عن اعتقادات الأقوام السومرية والبابلية والآشورية في الخليقة وأصل الوجود، أكثرها يتفق مع المآثر اليهودية في التوراة مع الفارق في صبغة الشرك، أي تعدد الآلهة، في الأديان القديمة مقابل صفة الاله الواحد الخاص باليهود في الديانة اليهودية.

"1" التكوين السومري

لم تصلنا عن السومريين أسطورة متكاملة في الخلق والتكوين وأصول الأشياء، وان كان العلماء لا يستبعدون العثور على مثل هذه الأسطورة، سواء في الألواح الفخارية المبعثرة في معظم متاحف العالم. أو في باطن أرض سومر حيث ما زلنا نتوقع مزيداً من الكشف عن التاريخ المطمور. إلا أن النصوص المتفرقة التي تم العثور عليها، والمتعلقة بأمور الخلق والتكوين، تكاد تعطي صورة واضحة عن أفكار السومريين بهذا الشأن ونظرتهم اليه. وان دراسة متعمقة لتلك النصوص وربطها ببعضها في سلسلة منطقية، لتدلنا على أن الأسطورة ليست بالسذاجة التي تبدو عليها في نظر القارىء العادي. وان الرموز الأسطورية التي استخدمها الإنسان القديم ليست إلا وسيلة ايصال وقالب تعبير. انها لغة متميزة، تحاول من خلال مفرداتها وتعابيرها ومصطلحاتها

ايصال حقائق معينة، وهي منهج له من المشروعية ما لبقية المناهج التي ابتكرها فكر الإنسان، لاحقاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار، العلمية التطورية البطيئة والصاعدة، التي سار بها عقل الإنسان منذ فجر التاريخ.

لم تكن أفكار السومريين عن الخلق والتكوين، أفكاراً بدائية، بل أفكاراً ناضجة بالدرجة التي تتيحها معارف تلك الفترة من بداية حضارة الإنسان. فلقد أثبت السومريون مقدرة فائقة على الملاحظة الذكية والربط، واستخلاص النتائج المنطقية من المقدمات المنطقية والحقائق والوقائع المشاهدة. وان دراسة النصوص الأسطورية المتفرقة تعطينا التسلسل الأسطوري التالي لعملية خلق العالم والأكوان...

1) في البدء كانت الآلهة «نمو» ولا أحد معها. وهي المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء.

2) أنجبت الآلهة نمو ولداً وبنتاً. الأول «آن» اله السماء المذكر، والثاني «كي» الهة الأرض المؤنثة وكانا ملتصقين مع بعضهما. وغير منفصلين عن أمهما نمو.

3) ثم ان «آن» تزوج «كي» فأنجبا بكرهما «انليل» اله الهواء الذي بينهما في مساحة ضيقة لا تسمح له بالحركة.

4) انليل الاله الشاب النشيط، لم يطق ذلك السجن، فقام بقوته الخارقة بأبعاد أبيه آن عن أمه كي. رفع الأول فصار في السماء، وبسط الثانية فصارت أرضاً، ومضى يرتع بينهما.

5) ولكن انليل كان يعيش في ظلام دامس، فأنجب انليل ابنه نانا آله القمر، فيبدد الظلام في السماء وينير الأرض.

6) «نانا» آله القمر أنجب بعد ذلك «اوتو» آله الشمس الذي بزه في الضياء.

7) بعد ان أبعدت السماء عن الأرض، وصدر ضوء القمر الخافت، وضوء الشمس الدافىء، قام انليل مع بقية الآلهة بخلق مظاهر الحياة الأخرى.

والآن لنأت الى استعراض أهم النصوص التي وصلت الينا، والتي تلقي ضوءاً على أفكار السومريين في موضوع البدء والتكوين.

فصل السماء عن الأرض

في مطلع أسطورة تحكي عن خلق الإنسان، نعثر على إشارة لجبل السماء والأرض.

في جبل السماء والأرض

أنجبت «آن» أتباعها الانوناكي[1].

---

(1) S.N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper and Row, Newyork, 1961.

وهذا الجبل لم يكن أزلياً، بل مخلوقاً. فمن لوح آخر، مخصص لتعداد أسماء الانوناكي، آلهة سومر، نعرف ان الإلهة «نمو» وهي المياه البدئية التي انجبت السماء والأرض اللتين انفصلتا عن بعضهما. ويشير مطلع أسطورة أخرى عرضا الى هذا الانفصال، فيقول:

بعد ان أبعدت السماء عن الأرض

وفصلت الأرض عن السماء

وتم خلق الإنسان

وأخذ «آن» السماء

وانفرد انليل بالأرض

أخذ الاله «كور» الالهة «اريشكيجال» غنيمه[2].

والإله كور في الميثولوجيا السومرية، هو رب العالم الأسفل، عالم الموتى الذي تمضي اليه الأرواح. أما اريشيكجال فقد كانت آلهة أرضية تزوجها كور بعد ان اختطفها الى عالمه الأسفل لتغدو إلهة ذلك العالم، وسيدته المطلقة، تماماً كالآلهة سيغوني في الميثولوجيا الاغريقية[3].

وفي مطلع أسطورة ثالثة نعرف مزيداً من المعلومات عن فصل السماء عن الأرض، والآله الذي قام بتلك العملية الجبارة.

ان الآله الذي أخرج كل شيء نافع

الاله الذي لا مبدل لكلماته

انليل الذي أثبت الحب والمرعى

أبعد السماء عن الأرض

وأبعد الأرض عن السماء[4]

تثبت لنا هذه الأساطير السومرية، تقاليد بقيت سائدة في الفكر الأسطوري لحضارات المنطقة والحضارات الأخرى المجاورة. ففكرة الميلاد المائي تتكرر فيما بعد في الأساطير البابلية التي تحكي عن ولادة الكون من المياه الأولى «تعامه» المقابلة لـ

---

(2) Ibid.

(3) تقول الاسطورة ان الالهة بيرسيفوني، اختطفها آله العالم السفلي هاديس، من أمها الهة الخصب ديمتر، فصارت ربة للعالم الاسفل وزوجة لسيد عالم الموتى ومما يثبت الرابطة بين الاسطورتين، ان اسم «كور» الذي بقي في اللغة السومرية دلالة على العالم الاسفل حتى الفترات المتأخرة، وزوال ذكرى ذلك الاله القديم واسطورته، هو أيضاً اسم ربة العالم الاسفل الاغريقية، التي تشير اليها الاساطير أحياناً باسم بيرسفوني وأحياناً أخرى باسم «كور».

(4) S.N. Karmer, Ibid.

«نمو» السومرية(5). وفي التوراة العبرانية أيضاً نجد أيضاً المياه الأولى وروح الرب فوقها قبل التكوين «وكانت الأرض خربة وخالية، وروح الرب يرف فوق وجه الماء»(6).

وكذلك الأمر فيما يتعلق بفكرة لقاح السماء والأرض المتحدتين، والفصل بينهما فيما بعد(7). ففي الأسطورة البابلية يقوم الاله مردوخ بشطر جسد الالهة تعامة (تيامات)، المياه الأولى الى نصفين، فيرفع الأول سماء، ويبسط الثاني أرضاً(8). وفي الأسطورة التوراتية، يقوم آله العبرانيين يهوه أيضاً، بفصل المياه الأولى الى شطرين، رفع الأول الى السماء وبسط الثاني الذي تجمع ماؤه في جانب، وبرزت منه اليابسة في جانب آخر(9).

تنظيم الكون

بعد ان فصل انليل بين السماء والأرض، وأعطاهما شكلهما الذي نعرفه اليوم، إنصرف الى خلق بقية عناصر الكون. وهنا أيضاً، يأتي الخلق نتيجة الحركة المادية والفعالية الحياتية للآلهة، لا نتيجة الكلمة الخالقة والأمر الالهي. فظهور القمر والشمس الى الوجود، وبعض الآلهة الأخرى، يأتي نتيجة الفعالية الجنسية للإله انليل الذي ضاجع الآلهة ننليل فولدت له القمر. والقمر بدوره أنجب الشمس بفعل جنسي آخر. تحدثنا أسطورة سومرية عن سلسلة الخلق هذه في نص شعري جميل مؤلف من مائة واثنين وخمسين سطراً، معظمها في حالة سليمة تسمح بقراءة واضحة للألواح الموزعة عليها(10).

---

(5) Alexander Hiedel, The Babyonian Genesis phoenix Books - Chicago, 1969.
وفي الاسطورة السورية نجد «يم» المياه الاولى وقد انتصر عليه الاله بعل وشرع بعد انتصاره بتنظيم العالم. وفي الاسطورة المصرية كان رع اول آله يخرج من المياه الاولى، وهو الذي أنجب فيما بعد بقية الالهة. وفي الاسطورة الاغريقية نجد «اوقيانوس» هو المياه الاولى، والاله البدئي الذي نشأ عنه الكون. (راجع فراس السواح، مغامرة العقل الاولى، ط 2، 1981 بيروت، ص 29.

(6) سفر التكوين 1:1.

(7) ففي الاسطورة المصرية نجد «جيب» آله الارض المذكر، و«نوت» الهة السماء المؤنثة في حالة اتحاد. وقد تزوجا بعضهما سراً دون اذن الآله رع. فلما علم كبير الالهة بذلك أرسل آله الهواء «شو» الذي ابعدهما عن بعض عنوة. ومنذ ذلك الوقت والاله شو يطأ بقدميه جيب الصريع، ويرفع بذراعيه القويتين السماء نوت. وفي الاسطورة الاغريقية نجد «جيا» الارض، الام الاولى، التي كانت أول آله يخرج من العماء المائي البدئي، تلد نظيرها اورانوس آله السماء الذي يغطيها من كل الجوانب، وتتحد به لتلد بقية الالهة. كما اثبت لنا القرآن الكريم اذ قال: «وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء» وقال: «وجعلنا من الماء كل شيء حي». وأخيراً أثبت لنا القرآن واقعة فصل السماء عن الارض بقوله: لو لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما». سورة هود الآية 6، سورة الانبياء الآية 30.

(8) ذات الحاشية رقم "5".

(9) سفر التكوين، الاصحاح الاول.

(10) فراس السواح، مغامرة العقل الاولى، ط 2، بيروت، 1981، ص 31.

تبدأ الأسطورة بمقدمة وصفية لمدينة نيبور التي وجدت قبل ظهور الإنسان، وكانت تسكنها الآلهة:

أنظر (إلى نيبور) عماد السماء والأرض (هي) (...)

أنظر الى نيبور المدينة (...)

ترى نهرها الرقراق أيد سالا

ترى رصيفها كاركورانا، حيث ترسو السفن

ترى بولال نبعها الصافي

ترى ادنو نبردو، جدولها العذب

هناك انليل فتاها الغض

هناك ننليل فتاتها الشابة

هناك ننبار شيكونو سيدتها العجوز

بعد هذه المقدمة، تبدأ القصة، فنجد سيدة نيبور العجوز وهي تحدّث بنتها ننليل في كيفية استمالة انليل:

في تلك الأيام قامت الأم بإرشاد ابنتها

قامت ننبار شيكونو بنصح أبنتها

عند النهر الصافي يا فتاتي، عند النهر الصافي اغتسلي

،على ضفة نهر النبردو، السيد ذو العينين البراقتين

الجبل العظيم، انليل الأب، ذو العينين البراقتين سيراك

الراعي، سيد المصائر، ذو العينين البراقتين سيراك

حيث (....) وحيث يقبلك

نفذت ننليل مشورة أمها. وأبصرها انليل فحاول غوايتها، ولكنها تمنّعت. فتحايل عليها وحملها بمعونة وزيره نسكو الى قارب، وهناك اغتصبها وتركها حبلى بالاله القمر. إلا أن الآلهة تغضب لفعلة انليل. ويقرر المجمع نفيه الى العالم الأسفل. يرضخ انليل لمشيئة الالهة ويبدأ رحلته نحو العالم الأسفل. ولكن ننليل التي تمكن منها حب الآله الشاب تلحق به وتدركه عند بوابة الجحيم. ولكن انليل يطلب من حارس البوابة، ولسبب لا ندريه تضليل ننليل، ويتخذ هو نفسه هيئة الحارس ويقبع في انتظارها. وعندما تصل وتسأله عن حبيبها، يجيبها وهو في هيئة الحارس مضللاً، ثم يجامعها ويتركها حبلى بنرجال آله العالم الأسفل:

انليل (.....) غادر المدينة.

نونا منير غادر المدينة

انطلق انليل، والفتاة اقتفت أثره

انطلق نونا منير والفتاة اقتفت أثره

قال انليل لحارس البوابة

يا حارس البوابة يا صاحب القفل

يا رجل المزلاج يا صاحب القفل المقدس

ننليل الملكة آتية

ننليل الملكة آتية

فإن توجهت لك بالسؤال عني

لا تكشف لها عن مكان وجودي

اقربت ننليل من حارس البوابة قائلة.

يا حارس البوابة. يا صاحب القفل

يا رجل المزلاج. يا صاحب القفل المقدس

انليل مليكك أين مضى

فأجابها انليل عن حارس البوابة

لقد أمرني انليل سيد كل البلاد.

يلي ذلك أربعة أسطر تحتوي مضمون الأمر الا أن معناها غامض ثم الحوار التالي:

- ان انليل، حقاً، مليكك، ولكني أيضاً مليكتك

- إذا كنت حقاً مليكتي، فدعيني ألمس (....)

- آن ماء مليكك في داخلي «انا»[11] أنه في داخلي

- ليذهب ماء مليكي الى السماء، ليذهب «نانا» الى السماء

- واتركي مائي يمضي الى الأرض

- انليل في هيئة حارس البوابة اضطجع

فقبلها وجامعها

وسكب في داخلها ماء «ميسلاميتا»

مشى انليل وننليل اقتفت أثره

(11) نانا آله القمر.

نونا مشى والفتاة اقتفت أثره

قال انليل لصاحب نهر العالم الأسفل:

ياصاحب نهر العالم الأسفل

ننليل الملكة آتية.

ننليل الملكة آتية

فإن توجهت لك بالسؤال عني

لا تكشف لها مكان وجودي

اقتربت ننليل من صاحب النهر قائلة:

يا صاحب نهر العالم الأسفل،

انليل مليكك، أين مضى؟

فأجابها انليل عن صاحب النهر:

لقد أمرني انليل سيد كل البلاد

يتكرر ثانية المضمون غير المفهوم للأمر، ثم يليه الحوار التالي، بين انليل في هيئة صاحب النهر، والفتاة ننليل:

ـ ان انليل حقاً مليكك، ولكني أيضاً مليكتك

ـ إذا كنت حقاً مليكتي، فدعيني ألمس...

ـ ان ماء مليكك في داخلي، الماء الملتمع في جوفي

ماء نانا الملتمع في جوفي،

ـ ليذهب ماء مليكي الى السماء، واتركي مائي يمضي الى الأرض

انليل في هيئة ملاح النهر اضجع

فقبلها وجامعها

وسكب في جوفها ماء ننازو[12]

وتتابع الأسطورة على نفس الوتيرة، فتصف مولد آله ثالث من الآلهة السفلى هو الآله «اليجيبيل» وهنا يتخذ انليل هيئة ملاح العالم الأسفل الذي ينقل بقاربه عبر النهر[13]. وتنتهي الأسطورة بترتيلة حمد لانليل:

انليل هو السيد والملك

(12) ننازو من آلهة العالم الاسفل.

(13) وين الجدير بالذكر ان الاساطير اليونانية اللاحقة قد نسخت بعد الفي سنة حرفياً، وصف العالم الاسفل السومري، فنجد بوابات العالم الاسفل، ونهره، وملامحه وملكه، ومليكته.

انليل لا مبدل لكلماته

كلماته الصادرة لا تتبدل

الحمد لامنا ننليل

الحمد لأبينا انليل

ولعل مما يلفت النظر في هذه الأسطورة، ظهور القمر للوجود قبل الشمس، وكونه فيما بعد أبا للشمس. ويرجع ذلك، في اعتقادي، الى أسبقيه عبادة القمر على عبادة الشمس في المجتمعات البدائية السابقة لظهور الحضارات، مجتمعات الثقافة التي قدست القمر واعتبرته رمزاً للأم الكبرى إلهة المجتمع الأمومي، وقدمته على الشمس التي كانت رمزاً للذكر، والتي قدسها المجتمعات الأبوية بعد ذلك باعتبارها رمزاً للإله الذكر، آله السماء الأعلى. ومن ناحية أخرى فإن فكرة الآله الابن الذي يتفوق على أبيه، ويأخذ سلطاته، هي فكرة شائعة في ميثولوجيا المنطقة وميثولوجيا الشعوب الأخرى. فانليل نفسه قد صار الآله في مجمع آلهة سومر، ومردوخ فيما بعد تفوق على أبيه، وصار سيد آلهة بابل[14].

«انكي» ينظم العالم

لم يكن الخلق مهمة تولاها آله واحد في سومر، فها هو الاله انكي، يتابع ما بدأه انليل، ويضع اللمسات الأخيرة على صورة الكون، فتخرج حية نضرة. وانكي هو آله الماء العذب عند السومريين وآله الحكمة أيضاً. ومن غير آله الماء العذب يستطيع ان يبعث الحياة في كون جامد لا حركة فيه، ومن غير آله الحكمة يستطيع أن يدفع الحياة نحو غايتها، ويحدد أغراضها ومراميها؟

حول هذا الموضوع وصلتنا أسطورة سومرية، تتحدث عن نشاط الاله انكي الخاص بتنظيم العالم، وتيسير أسباب الحياة والحضارة. ولكن الجزء الأول من النص، هو الجزء الأساسي، مشوه بشكل لا نستطيع معه تعيين معنى واضح.

وعندما يصبح اللوح الفخاري قابلاً للقراءة، نلتقي بالاله انكي وقد وصل في تطوافه الكوني الى بلاد سومر، فيتوقف هناك، ويعين لتلك البلاد مصائرها[15]:

سومر، يا أعظم بلدان العالم

أيها المغمور بالنور الدائم، والشرائع المطاعة

(14) وعند الكنعانيين نجد الالهل الاكبر «ايل» وقد تخلى عن مكانه للاله «بعل» الذي تفوّق على ابيه «داجون».

(15) Philip Freund, Myths pf Creation. W.H. Allen London 1964.

أقدارك عظيمة لا تتبدل

وقلبك واسع عميق، لا يسبر له غور،

و(....) كالسماء، لا يمكن مسّها

الملك الذي تنجبه، مزين أبداً بحلي دائمة

السيد الذي تنجبه، على رأسه تاج لا يميل

سيدك، سيد معظم، يجلس مع «آن» في العرش السماوي

مليكك، هو الجبل العظيم، الأب انليل

وكمثل (....) هو أب لكل البلاد

أما الانوناكي، الآلهة العظيمة،

ففي وسطك قد أقامت مساكنها

وفي غاباتك الواسعة تتناول طعامها،

سومر، لتتضاع اصطبلاتك وتتكاثر أبقارك

لتتضاعف زرائبك، وبالآلاف فلتتكاثر أغنامك

لتكن (....) باقية

الا فلترجع (...) الراسخة يدها الى السماء

الا فليقرر الانوناكي، في وسطك، المصائر

وبعد ذلك يمضي الى مدينة أور وكانت عاصمة سومر، في ذلك الوقت المبكر من تاريخه، فيقرر لها مصائرها:

الى اور أتى

انكي، سيد الأعماق، أتى، يقرر مصائرها

أيتها المدينة الموفورة، يا مدينة الماء الثر، والثيران القوية

يا مصدر رزق البلاد، أيتها الخضراء.. يا متباعدة الركبتين أبداً[16]

يا غابة الظل الوارف (....)

أقدارك الكاملة، هو الذي قدرها

انليل، الجبل العظيم، قد نطق اسمك المقدس

(16) لم يشر مترجم النص السيد كريمر بشيء، الى تعبير متباعدة الركبتين، واعتقد ان في التعبير اشارة لخصب الارض. فقديماً كانت المماثلة قائمة أبداً بين خصب المراة وخصب الارض. وفي بعض الاعمال الفنية التي وصلتنا من تلك الفترة، نجد الهة الخصب عشتار وقد جلست على الارض عارية مباعدة ساقيها وعضو التناسل بارز بكل تفاصيله.

انليل، الجبل العظيم، قد نطق اسمك المقدس في الآفاق
أيتها المدينة التي رسم مصائرها انكي
أي اور، أيها الهيكل المقدس، لترفعي هامتك نحو السماء

ثم يذهب انكي الى بلاد ملوخا فيباركها أيضاً وإلى دجلة والفرات فيملأها بماء نقي ويخلق فيهما السمك، وعلى شاطئيهما ينثر القصب، ثم يوكّل بهما الاله انبيلولو. ثم يلتفت الى البحر فينظم شؤونه ويوكّل به الهة اسمها سيرارا[17]. ثم الى الرياح فيستلم قيادتها ويوكلها الى الاله اشكور، صاحب القفل الفضي، الذي ينظم من خلاله الأمطار، ثم الى شؤون الزراعة، وما يتصل بها من أدوات، حيث يخلق النير والمحراث، ويوكّل الاله انكمدو بالقنوات والسواقي. وفي المدن يهتم بالعمران فيقيم للأجر الهاً خاصاً، ويحفر الأساسات وينشىء الجدران، ويعين الآله شداما للإشراف على أعمال البناء. ثم يملأ السهول بالأعشاب والمراعي وينثر فيها القطعان، ويعين لأمورها الاله سوموقان. ثم الحظائر يملؤها بالمنتجات الحيوانية، ويعين عليها الاله الراعي دمومزي.

الى هنا ينتهي النص المفهوم، حيث يعود اللوح للتشوه مرة أخرى.

خلق الإنسان

بعد أن أخذ الكون شكله، واستقرت السماء في موضعها، وكذلك الأرض بعد ان انتظمت دورة النهار والليل، وحركة الفصول. بعد ان أخرجت الأرض زرعها وشجرها، تفجرت ينابيعها. بعد أن ظهرت الحيوانات بأنواعها وامتلأت البحار بأسماكها. بعد ذلك كله صار المسرح مهيئاً لظهور الإنسان.

والأسطورة السومرية المتعلقة بخلق الإنسان، هي أول أسطورة خطتها يد الإنسان عن هذا الموضوع، وعلى منوالها جرت أساطير المنطقة، والمناطق المجاورة، التي استمدت منها عناصرها الأساسية، وخصوصاً فكرة تكوين الإنسان من طين، وفكرة تصوير الإنسان على صورة الآلهة.

أما لماذا خلق الإنسان؟ فإن الأسطورة السومرية لا تتردد في الإجابة على هذا السؤال ولا توارب. فالإنسان خلق عبداً للآلهة، يقدم لها طعامها وشرابها، ويزرع أرضها ويرعى قطعانها. خلق الإنسان لحمل عبء العمل ورفعه عن كاهل الآلهة. فمنذ البدء كان الآلهة يقومون بكل الأعمال التي تقيم أودهم وتحفظ حياتهم. ولكنهم تعبوا من ذلك فراحوا يشتكون لانكي الحكيم، ليجد لهم مخرجاً. ولكنه، وهو المضطجع بعيداً في الأغوار المائية، لم يسمع شكاتهم. فمضوا الى أمه الآلهة «نمو» المياه البدئية التي أنجبت

(17) ويذكرنا اسمها بالسيرين الاغريقيات، حوريات البحر الوارد ذكرهن في ملاحم هوميروس.

الجيل الأول من الآلهة لتكون واسطتهم إليه، فمضت إليه قائلة[18]:

أي بني، انهض من مضجعك، انهض من (...) واصنع أمراً حكيماً
اجعل للآلهة خدماً، يصنعون (لهم معاشهم)
فتأمل انكي ملياً في الأمر، ثم دعا الصناع الالهيين المهرة وقال لأمه نمو:
إن الكائنات التي ارتأيت خلقها، ستظهر للوجود
ولسوف نعلق عليها صورة للآلهة[19]
امزجي حفنة طين، من فوق مياه الأعماق
وسيقوم الصناع الالهيون المهرة بتكثيف الطين (وعجنه)
ثم كوّني أنت له اعضاءه
وستعمل معك ننماخ[20] يداً بيد
وتقف الى جانبك، عند التكوين، ربات الولادة
ولسوف تقدرين للمولود الجديد، يا أماه مصيره
وتعلق ننماخ عليه صورة الآلهة
(....) في هيئة الإنسان (....)

بعد ذلك يتشوه اللوح الفخاري، حامل النص. ثم نجد أنفسنا، بعد وضوح الكتابة، مع انكي يحتفل بإنجازه المبدع في وليمة يدعو اليها الآلهة.

وفي أسطورة سومرية أخرى تحكي خلق الماشية والحبوب، نجد رواية أخرى لقصة خلق الإنسان[21]:

كالبشر، عندما خلقوا أول مرة،
لم يعرف الانوناكي أكل الخبز
لا ولم يعرفوا لبس الثياب
بل أكلوا النباتات بأفواههم
وشربوا الماء من الينابيع والجداول
في تلك الأيام، وفي حجرة الخلق

---

(18) S.N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper and Rw, Newyork, 1961.

(19) إذا اتبعنا ترجمة كريمر، تكون ترجمة هذين البيتين على الوجه التالي: ان المخلوقات التي نطقت باسمها موجودة. فعلقي عليها صورة الآلهة.

(20) ننماخ هي الارض الام في الاسطورة السومرية.

(21) لهار آله الماشية، واشنان آلهة الحبوب.

في «دلكوج» بيت الآلهة، خلق «لهار» و«اشنان»[22]

ومما أنتج لهار وأشنان

أكل الانوناكي ولم يكتفوا

ومن حظائرها المقدسة شربوا اللبن

شربوا ولكنهم لم يرتووا

لذا ومن أجل العناية بطيبات حظائرها

تم خلق الإنسان.

تسربت العناصر الرئيسية لهذه الأسطورة، الى معظم أساطير الشعوب المجاورة. ففي الأساطير البابلية اللاحقة يتم خلق الإنسان من الطين، ويفرض عليه حمل عبء العمل. وفي سفر التكوين العبراني، نجد آله اليهود يهوه، يقوم بخلق الإنسان من طين، بعد انتهائه من خلق العالم، وبجعله على شاكلته: «وجبل الاله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة الحياة، فصار آدم نفساً حية»[23]. ورغم أن الهدف الذي يقدمه النص التوراتي لخلق الإنسان، هو السيطرة على «سمك البحر»، وطير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدّابات التي تدب على الأرض»[24]. إلا أنه يعود فيفرض عليه عبء العمل، تماماً كالنص السومري: «لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة، التي أوصيتك قائلاً لا تاكل منها. ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تاكل منها كل أيام حياتك.... بعرق وجهك تاكل خبزاً حتى تعود الى الأرض التي أخذت منها. لأنك من تراب وإلى التراب تعود»[25].

استراحة الخالق

بعد الانتهاء من عناء الخلق، يخلد انكي للراحة والسكينة، ويشرع في بناء بيت له في الأعماق المائية. وتحدثنا أسطورة سومرية عن بناء بيت الرب، الذي يبدو هنا آلهاً للأعماق بشكل عام، أكثر منه آلهاً للمياه العذبة الباطنية، فالأسطورة ترسم انكي في صورة تذكرنا بالآله بوسيدون آله البحار عند الاغريق، أو نبتون عند الرومان. تقول الأسطورة[26]:

بعد أن تفرقت مياه التكوين

---

(22) صموئيل نوح كريمر، المصدر نفسه.

(23) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الثاني.

(24) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الاول.

(25) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الثالث.

(26) صموئيل نوح كريمر، المصدر نفسه.

وعمت البركة أقطار السماء

وغطى الزرع والعشب وجه الأرض

انكي، آله الغمر، انكي، الملك

انكي، الرب الذي يقرر المصائر

بنى بتيه من فضة ولازورد

فضة ولازورد كأنها النور الخاطف

حيث استقر هناك في الأعماق

وبعد أن انتهى من بناء بيته، كان لا بد له، ككل الآلهة العظام، من مدينة أيضاً فرفع من أعماق البحر مدينة أريدو[27]، وغطاها شجراً وخضرة ونباتاً، وملأ مياهها سمكاً. ثم قرر السفر الى أبيه انليل ليحصل على بركته. فارتفع من الأعماق المائية في مشهد مهيب مروع:

عندما ارتفع انكي، ارتفعت معه كل الأسماء

واضطرب الغمر واصطخب

زال عن البحر وجه المرح

وساد الرعب في الأعماق

واستبد الهلع بالانهار العالية

ورفعت ريح الجنوب الفرات على مدّ من الأمواج

وعندما يصل انكي في مركبته الى نيبور مدينة انليل، يقيم مأدبة للآلهة، يقدم لهم فيها الطعام والخمر. وفي نهايتها يقف انليل فيثني على ما فعله انكي من بناء للبيت ويمنحه بركاته ورضاه.

ويبدو ان بناء البيت للآلهة، هو أمر ضروري بعد ارتفاع شأنه وعلو مقامه. وبعد البيت يأتي بناء مدينة للإله أيضاً. فهذا مردوخ آله بابل، يبني له الآلهة بيتاً يناطح برجه المدرّج عنان السماء، بعد انتهائه من فعل الخلق. وحول الهيكل المقدس يبني الآلهة أيضاً مدينة بابل. وها هو آله اليهود يقلّده إذ يطالب ببناء بيت له بعد ان تعب من التجوال في خيمة بني اسرائيل. نقرأ في سفر صموئيل الثاني[28]: وفي تلك الليلة كان كلام الرب الى ناثان قائلاً. اذهب وقل لعبدي داود، هكذا قال الرب، أأنت تبني لي بيتاً لسكناي؟ لأنني لم أسكن في بيت منذ اصعدت بني اسرائيل من مصر الى هذا اليوم. بل كنت أسير في خيمة».

(27) ويعتبرها علماء الاثار من اقدم مدن سومر. وما زال معظمها مطموراً تحت الارض.

(28) العهد القديم، صموئيل الثاني 7: 3.

"2" التكوين البابلي

أقام الأكاديون الساميون الى جانب جيرانهم السومريين ردحاً طويلاً، وما لبثوا أن استوعبوهم، وبسطوا سلطانهم السياسي والثقافي على بلاد الرافدين، في امبراطورية بلغت أوجهاً في عهد الملك الكبير حمورابي. وإذا كان السومريون قد وضعوا بذرة الثقافة في وادي الرافدين، فإن الأكاديين هم الذين استنبتوها لتعطي أكلها، وتهب العالم حضارة تعدّ، الى جانب الحضارة المصرية، من أقدم وأهم الحضارات الإنسانية. ولم يكن تعاقب الشعوب السامية الأخرى على الهيمنة السياسية في وادي الرافدين (كالكلدانيين، والآشوريين) إلا تنويعاً على أرضية واحدة مشتركة.

تتوضح أفكار البابليين في الخلق والتكوين، بشكلها الأكمل، في ملحمة التكوين البابلية المعروفة باسم «الاينوما ايليش» وتعتبر هذه الملحمة، الى جانب ملحمة كلكامش، من أقدم وأجمل الملاحم في العالم القديم. فتاريخ كتابتها يعود الى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. أي قبل ألف وخمسمئة سنة تقريباً من كتابة الياذة هوميروس، وتدوين أسفار التوراة العبرانية. وقد لقيت الملحمة كثيراً من الاهتمام والدراسة. من قبل علماء المسماريات والانتروبولوجيا والميثولوجيا والثيولوجيا. فإلى جانب الشكل الشعري الجميل الذي صيغت فيه الملحمة، والذي يعطينا نموذجاً لأدب انساني متطور، فإنها تقدم لنا وثيقة هامة عن معتقدات البابليين، ونشأة الهتهم ووظائفها وعلاقاتها. كما أنها تقدم لدارسي الديانات القديمة المقارنة، مادة غنية بسبب المشابهات الواضحة مع الاصحاحين الأول والثاني من كتاب التوراة.

اسم الملحمة مأخوذ، كما هي عادة السومريين والبابليين، من الكلمات الافتتاحية للنص. فإينوماايليش، تعني: عندما في الأعالي. فعندما في الأعالي لم يكن هناك سماء، وفي الأسفل لم يكن هناك أرض. لم يكن في الوجود سوى المياه الأولى ممثلة في ثلاثة آلهة: «ابسو» و«تيامات» و«ممو» فأبسو هو الماء العذب، وتيامات زوجته كانت الماء المالح، أما ممو، فيعتقد البعض بأنه الأمواج المتلاطمة الناشئة عن المياه الأولى، ولكنني أؤيد الرأي القائل بأنه الضباب المنتشر فوق تلك المياه والناشيء عنها. هذه الكتلة المائية الأولى كانت تملأ الكون وهي العماء الأول الذي انبثقت منه فيما بعد بقية الالهة والموجودات، وكانت الهتها الثلاثة تعيش في حالة سرمدية من السكون والصمت المطلق، ممتزجة ببعضها البعض في حالة هيولية، لا تمايز فيها ولا تشكل. ثم أخذت هذه الالهة بالتناسل فولد لأبسو وتيامات الهان جديدان هما «لخمو» و«لخامو» وهذان بدورهما أنجبا «انشار» و«كيشار» اللذين فاقا أبويهما قوة ومنعة. وبعد سنوات مديدة ولد لأنشار وكيشار ابن اسمياه «آنو» وهو الذي صار فيما بعد الها للسماء. وآنو بدوره

أنجب انكي أو آيا؛ وهو آله الحكمة والفطنة، والذي غدا فيما بعد آله المياه العذبة الباطنية. ولقد بلغ آيا حداً من القوة والهيبة، جعله يسود حتى على آبائه.

وهكذا امتلأت أعماق الإلهة تيامات بالآلهة الجديدة، المليئة بالشباب والحيوية. والتي كانت في فعالية دائمة وحركة دائبة، مما غيّر الحالة السابقة وأحدث وضعاً جديداً، لم تألفه آلهة السكون البدئية، والتي عكرت صفوها الحركة، وأقلقت سكونها الأزلي. حاولت الآلهة البدئية السيطرة على الموقف واستيعاب نشاط الآلهة الجديدة ولكن عبثاً، الأمر الذي دفعها الى اللجوء للعنف. فقام آبو بوضع خطة لإبادة النسل الجديد والعودة للنوم مرة أخرى، وباشر بتنفيذ خطته، رغم معارضة تيامات التي ما زالت تكنّ بعض عواطف الأمومة.

لدى سماعهم بمخططات أبسو، خاف الآلهة الشباب واضطربوا. ولم يخلصهم من حيرتهم سوى أشدهم وأعقلهم، الاله آيا، الذي ضرب حلقة سحرية حول رفاقه، تحميهم من بطش آبائهم، ثم صنع تعويذة سحرية ألقاها على أبسو الذي راح في سبات عميق. وفيما هو نائم، قام آيا بنزع العمامة الملكية عن راس أبسو، ووضعها على رأسه رمزاً لسلطانه الجديد، كما نزع عن أبسو أيضاً الفقه الالهي وأسبغه على نفسه، ثم ذبحه وبنى فوقه مسكناً لنفسه. كما انقضّ على ممو (الضباب المنتشر فوق المياه الأولى) المعاضد لأبسو فسحقه وخرم أنفه بحبل يجره وراءه أينما ذهب. ومنذ ذلك الوقت صار آيا آله الماء العذب يدفع به الى سطح الأرض. بمقدار، ويتحكم به بمقدار، وهو الذي يعطي الأنهار والجداول والبحيرات ماءها العذب. وهو الذي يفجّر الأرض عيوناً من مسكنه الباطني. ومنذ ذلك الوقت أيضاً، يشاهد ممو فوق مياه الأنهار والبحيرات لأن آيا قد ربطه بحبل فهو موثوق به الى الأبد.

بعد هذه الأحداث الجسام، ولد الآله مردوخ أعظم آلهة بابل، الذي أنقذهم مرة أخرى من بطش الآلهة القديمة، ورفع نفسه سيداً للمجمع المقدس. وكيف لا وهو ابن آيا (انكي) الذي فاق أباه قوة وحكمة وبطشاً. وكما كان الانقاذ الأول على يد الأب انكي، كذلك كان الانقاذ الثاني على يد الابن الشاب مردوخ. فتيامات التي تركت زوجها أبسو لمصيره المحزن دون ان تهرع لمساعدته وهو يذبح على يد الآلهة الصغيرة تجد نفسها الآن مقتنعة بضرورة السير على نفس الطريق لأن الآلهة الصغيرة لم تغيّر مسلكها، بل زادها انتصارها ثقة وتصميماً على أسلوبها في الحياة. وهنا اجتمعت الآلهة القديمة الى تيامات وحرضتها على حرب اولئك المتمردين على التقاليد الكونية فوافقت وشرعت بتجهيز جيش عرمرم قوامه أحد عشرة نوعاً من الكائنات الغريبة التي أنجبتها خصيصاً لساعة الصدام، أفاعٍ وزواحف وتنانين هائلة وحشرات عملاقة، جعلت عليها الاله «كينغو» قائداً، بعد ان اختارته زوجاً لها، وعلقت على صدره ألواح الأقدار.

علم الفريق الآخر بما تخطط له تيامات وصحبها فاجتمعوا خائفين قلقين، وأرسلوا الاله آيا الذي أنقذهم في المرة الأولى، عسى ينقذهم في المرة الثانية. ولكن آيا عاد مذعوراً مما رأى، فأرسلوا آنو الذي مضى في المرة الثانية. ولكن آيا عاد مذعوراً مما رأى، فأرسلوا آنو الذي مضى وعاد في حالة هلع شديد. أسقط في يد الجميع وأطرقوا حائرين كل يفكر في مصيره الأسود القريب. وهنا خطر لكبيرهم انشار خاطرجعل أساريره تتهلل، إذ تذكر مردوخ، الفتى القوي العتي، فأرسل في طلبه حالاً. وعندما مثل بين يديه وعلم سبب دعوته، أعلن عن استعداده للقاء تيامات وجيشها بشرط الموافقة على اعطائه امتيازات وسلطات استثنائية. فكان له ما أراد. وجلسوا جميعاً حول مائدة الشراب وقد اطمأنت قلوبهم لقيادة الآله الشاب.

أعطى الآلهة مردوخ، قوة تقرير المصائر، بدلاً من إنشار، وأعطوه قوة الكلمة الخالقة. ولكي يمتحنوا قوة كلمته الخالقة، أتوا بثوب وضعوه في وسطهم وطلبوا من مردوخ أن يأمر بفناء الثوب، فزال الثوب بكلمة آمرة من مردوخ، ثم عاد الى الوجود بكلمة أخرى. هنا تأكد الآلهة من أن مردوخ إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. فأقاموا له عرشاً يليق بألوهيته، وأعلنوه سيداً عليهم جميعاً، ثم أسلموه الطريق الى تيامات، وقبل أن يمضي صنع لنفسه قوساً وجعبة وسهاماً وهراوة، كما صنع شبكة هائلة، أمر الرياح الأربعة أن تمسكها من أطرافها. ملأ جسمه باللهب الحارق، وأرسل البرق أمامه، يشق له الطريق. دفع أمامه الأعاصير العاتية وأطلق طوفان المياه. وانقض طائراً بعربته الالهية وهي العاصفة الرهيبة التي لا تصد، منطلقاً نحو تيامات، والآلهة تتدافع من حوله تشهد مشهداً عجيباً.

عندما التقى الجمعان، طلب مردوخ قتالاً منفرداً مع تيامات، فوافقت عليه. ودخل الاثنان حالاً في صراع مميت. وبعد فاصل قصير نشر مردوخ شبكته ورماها فوق تيامات محمولة على الرياح، وعندما فتحت فمها لالتهامه دفع في بطنها الرياح الشيطانية الصاخبة فانتفخت وامتنع عليها الحراك. وهنا أطلق الرب من سهامه واحداً تغلغل في حشاها وشطر قلبها. وعندما تهاوت على الأرض أجهز على حياتها، ثم التفت الى زوجها وقائد جيشها كينغو فرماه في الاصفاد، وسلبه ألواح الأقدار وعلقها على صدره. وهنا تمزق جيش تيامات شر تمزيق، وفرّ معظمه يطلب نجاة لنفسه، ولكن مردوخ طاردهم، فقتل من قتل وأسر من أسر.

بعد هذا الانتصار المؤزر على قوة السكون والسلب والفوضى، التفت مردوخ الى بناء الكون وتنظيمه وإخراجه من حالة الهيولية الأولى الى حالة النظام والترتيب حالة الحركة والفعالية و.... الحضارة. عاد مردوخ الى جثة تيامات يتأملها، ثم أمسك بها

وشقها شقين، رفع النصف الأول فصار سماء وسوى النصف الثاني فصار أرضاً. ثم التفت بعد ذلك الى باقي عمليات الخلق فخلق النجوم ومحطات راحة للآلهة: وصنع الشمس والقمر وجدد لهما مساريهما. ثم خلق الإنسان من دماء الاله السجين كنغو، حيث قتله، وأفرج عن بقية الأسرى بعد ان اعترفوا بأن المحرض الأول هو كنغو.كما خلق الحيوان والنبات. ونظم الالهة في فريقين، جعل الفريق الأول في السماء وهم الانوناكي. والثاني جعله في الأرض وما تحتها وهو الالجيجي[29].

بعد الانتهاء من عملية الخلق، يجتمع الاله مردوخ بجميع الآلهة ويحتفلون بتتويجه سيداً للكون، بنوا مدينة هي بابل، ورفعوا له في وسطها معبداً تناطح ذروته السحاب هو معبد الايزاجيلا. وفي الاحتفال المهيب أعلنوا اسماء مردوخ الخمسين.

هذه هي الخطوط العريضة للملحمة البابلية الكبيرة، عرضتها في عجالة لا تغني عن النص الشعري الكامل الذي يعتبر مع ملحمة كلكامش أجمل نصين من نصوص الأدب السامي، ومن أجمل نتاجات الأدب القديم. ـ انظر الملحق رقم "1"حيث النص الكامل للألواح السبعة للملحمة.

الى جانب ملحمة التكوين الأساسية، قدمت لنا الأسطورة البابلية، نصوصاً أخرى تدور حول نفس الموضوع الا ان معظم هذه النصوص ناقص، بسبب الحالة التي وصلتنا عليها الألواح الفخارية التي احتوت عليها. إضافة الى ان النصوص نفسها لا ترقى الى مستوى الاينومايليش من الناحية الجمالية ومنها نص سيبار ويعود تاريخه الى الدولة البابلية الجديدة في القرن السادس قبل الميلاد[29]. ونص «آدم وحواء» ويحكي هذا النص[30] قصة خلق الكائنات الحية[31]. ونص ثالث يتكلم «في الطين حيث يتحد الإنسان بالاله»[32] ونص «آدم وحواء بدون طين»[33] ونص «السوس ووجع الأسنان»[34].

---

(29) ولكن النصوص القديمة لا تلتزم دوماً هاتين التسميتين. فالالجيجي والانوناكي غالما ما تستعملان تبادليا للدلالة على جميع الالهة.

(30) Alexander Heidel, The Bablyonian Genesis Phoenix Books, Chicago, 1970, P. 16.

(31) انظر عنه فراس السواح، المصدر السابق ص 80-81.

(32) فراس السواح، المصدر نفسه ص 81-82.

(33) فراس السواح، المصدر نفسه ص 82-83.

(34) فراس السواح، المصدر نفسه ص 83-84.

راجع عن أساطير وادي الرافدين القديمة الكتب التالية:

1. صموئيل نوح كريمر، الأساطير السومرية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، 1971.
2. صموئيل هنري هوك، الأساطير في بلاد ما بين النهرين، ترجمة يوسف داود عبد القادر، بغداد 1968.
3. سلمان التكريتي، الاساطير البابكية، بغداد 1972.
4. جوستاف لوبون، حضارة بابل وأشور، ترجمة محمود خيرت، 1947.

3 ـ التكوين التوراتي

لنقرأ الآن اسطورة التكوين التوراتية، كما وردت في مطلع كتاب التوراة: سفر التكوين، الاصحاحات الأول والثاني:

الاصحاح الأول

في البدء خلق الرب السماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الرب يرفّ فوق وجه الماء. وقال الرب ليكن نور فكان نور. ورأى الرب النور أنه حسن، وفصل الرب بين النور والظلمة، ودعا الرب النور نهاراً والظلمة ليلاً، وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً. وقال الرب ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فعمل الرب الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان ذلك. ودعا الرب الجلد سماء. وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً. وقال الرب لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحداً ولتظهر اليابسة، وكان كذلك. ودعا الرب اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحراً، ورأى الرب ذلك أنه حسن. وقال الرب لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الأرض، وكان كذلك فأخرجت الأرض بقلاً وعشباً يبزر كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه، ورأى الرب ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً. وقال الرب لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك، فعمل الرب النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار والنورالأصغر لحكم الليل، والنجوم، جعلها الرب في جلد السماء لتنير على الأرض. ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الرب ذلك حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً. وقال الرب لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء. فخلق الرب التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها، وكل طائر في جناح كجنسه ورأى الرب ذلك أنه حسن. وباركها الرب قائلاً اثمري واكثري واملأي المياه في البحار. وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً. وقال الرب لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها؛ ورأى الرب ذلك حسن. وقال الرب نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدّب على الأرض. فخلق الرب الإنسان على صورته، وعلى صورة الرب خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الرب وقال لهم اثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدبّ على

الأرض. وقال الرب اني أعطيتكم كل بقل يبزر بزراً على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزراً. لكم يكون طعاماً. ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيهانفس حية أعطيت عشباً أخضر طعاماً، وكان كذلك. ورأى الرب كل ما عمله فإذا هو حسن جداً وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً.

الاصحاح الثاني

فأكملت السماوات والأرض وكل جندها. وفرغ الرب في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الرب اليوم السابع وقدسّه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الرب خالقاً. هذه مبادىء السموات والأرض حين خلقت، يوم عمل الرب الاله الأرض والسموات، كل شجر البرية ولم يكن يعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لأن الرب الاله، لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان انسان ليعمل على الأرض، ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض. وجبل الرب آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة الحياة فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الاله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر. وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس، اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد. هناك المقلُ وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض الحبشة. واسم النهر الثالث حِداَقل وهو الجاري في شرقي آشور. والنهر الرابع هو الفرات. وأخذ الرب الاله الإنسان وجعله في جنّة عدن ليفلحها ويحرسها. وأمر الرب الاله الإنسان قائلاً من جميع شجر الجنة تاكل وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تاكل منها فإنك يوم تاكل منها تموت موتاً. وقال الرب الاله لا يحسن أن يكون الإنسان وحده فاصنع له عوناً بازائه. وجبل الرب الاله من الأرض جميع حيوانات البرية وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها فكل ما سماه به آدم من نفس حية فهو اسمه. فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء وجميع وحش الصحراء باسماء. وأما آدم فلم يوجد له عون بازائه. فأوقع الرب الاله سباتاً على آدم فنام فاستل احدى أضلاعه وسَدّ مكانها بلحم. وبنى الرب الاله الضلع التي أخذها من آدم امرأة فأتى بها آدم. فقال آدم هاهذه المرة عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تسمى امرأة لأنها من امرىء أخذت. ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً. وكانا كلاهما عريانين آدم وأمرأته وهما لا يخجلان.

****

يقتفي التكوين التوراتي أثر أساطير التكوين السومرية والبابلية، في خطوطه العامة وفي تفاصيله. فالحالة البدائية السابقة للخلق حالة عماء مائي وظلمة سرمدية. ومن هذه المياه تم التكوين، حيث قام يهوه بتقسيم المياه الى قسمين رفع الأول الى السماء، وترك الثاني في الأسفل فصار بحاراً منها برزت اليابسة، وعلى هذه اليابسة تابع يهوه أفعاله الخلاقة، فأخرج النبت والمرعى والشجر المثمر، وخلق الحيوان. وفي السماء خلق الشمس والقمر والنجوم، وفي البحر خلق الحيوانات المائية، وفي الجو خلق الطير، وأخيراً خلق الإنسان.

وإذا كان صراع يهوه مع التنين البدئي لم يظهر في هذه الأسطورة كمقدمة للخلق، كما هو الشأن في اسطورة التكوين البابلية، فإن مثل هذا الصراع يظهر في نصوص أخرى تتحدث عن أفعال يهوه الخلاقة، وفيها نجده قبل الخلق وقد إنهمك في الصراع مع تنينه لوياتان. من ذلك مثلاً المزمور الرابع والسبعون: «أنت شققت البحر بقوتك، كسرت رؤوس التنانين على المياه، أنت رضضت رؤوس لوياتان، جعلته طعاماً للشعب، لأهل البرية. أنت فجرت عينا وسيلا، أنت يبست أنهاراً دائمة الجريان، لك النهار ولك الليل أيضاً. أنت هيأت النور والشمس. أنت نصبت كل تخوم الأرض. الصيف والشتاء أنت خلقتهما»[35].

على أن القراءة المتأنية لنص التكوين التوراتي، تظهر لنا تناقضاً واضحاً في أحداثه. ففي البدء خلق الرب السماوات والأرض. ثم نجده يخلقهما مرة ثانية بفصل المياه عن بعضها. ومرة نجده يخلق البشر دفعة واحدة «ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الرب وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض». وفي المرة الأخرى يخلق الرب الإنسان بدءاً من زوجين أوليين مقتفياً بذلك أثر الأساطير البابلية والسومرية.

وفي الواقع فإن هذا النص، ونصوصاً أخرى كذلك في التوراة قد كتبت بعد التوفيق بين زوايتين توراتيتين. دعا علماء التوراة الرواية الأولى بالرواية اليهوية، والثانية بالرواية الالوهيمية. وفي الرواية الأولى يظهر الاله تحت اسم يهوه وفي الثانية تحت اسم ايلوهيم[36]. وقد جرى المزج بين الروايتين بعد العودة من الاسر البابلي عام 538 ق.م عندما قام كهنة اليهود بصياغة موحدة لأسفار التوراة. فإذا حللنا رواية التكوين الى مكوناتهما. استطعنا تمييز الروايتين عن بعضهما وفق التالي[37]:

---

(35) من مزامير داود.

(36) ويذكرنا اسم ايلوهيم بلفظ الجلالة اللهم.

(37) S.H. Hooke, Middle eastern Mythology, pelican book. London 1966.

النص اليهوي

1 ـ الحالة الأولى للكون، عماء مائي

2 ـ يعزى الخلق الى ايلوهيم الذي قام به في ستة أيام مفصلة، في كل يوم عمل.

3 ـ تتسلسل مراحل الخلق وفق التالي:

النور، السماء، اليابسة، الزرع، الاجرام السماوية، الأسماك والطيور، الحيوانات والبشر رجالاً ونساء.

النص الايلوهيمي

1ـ الحالة الأولى للكون قفر خرب لا حياة فيه ولا زرع ولا ماء.

2 ـ يعزى الخلق الى يهوه، دون أي تقسيم زمني.

3 ـ تتسلسل مراحل الخلق وفق التالي:

الانسان، آدم من تراب، جنة في شرقي عدن، الأشجار من كل نوع بما فيها شجرة المعرفة، الحيوانات والوحوش والطيور (لا ذكر للأسماك) المرأة تخلق من الرجل.

قصة الطوفان

الطوفان السومري:

تؤسس لنا الأسطورة السومرية لأقاصيص الطوفان التي شاعت في المنطقة، كما أسست من قبل لأقاصيص التكوين. فنص الطوفان الذي تمّ العثور عليه في خرائب مدينة «نفر» السومرية، يقدم لنا الخطوط العريضة لكل أساطير الطوفان اللاحقة في بابل وسورية وبلاد الاغريق، وفي كتاب التوراة. وذلك رغم الحالة السيئة التي وجد عليها اللوح الفخاري الحاوي على الاسطورة، ورغم تشوه النص ونقصه في معظم مواضعه. وتتلخص الخطوط العريضة للأسطورة في أربع نقاط تتكرر كلها، مع بعض التنويعات، في بقية الأساطير اللاحقة.

1) قرار الهي بدمار الأرض بواسطة طوفان شامل.

2) اختيار واحد من البشر لإنقاذ مجموعة صغيرة من البشر وعدد محدود من الحيوانات.

3) حدوث الطوفان ونجاة المجموعة المختارة في قارب.

4) انتهاء الطوفان واستمرار الحياة من جديد بواسطة من نجا من الإنسان والحيوان.

يبدأ الحديث عن خلق الإنسان، وظهور خمس مدن الى الوجود هي اريدو، باديتيرا، لاراك، شروباك. وهي من أوائل المراكز السومرية؛ بعد توزيع هذه المدن على مجموعة من الأبطال والملوك، نجد الآلهة وقد قررت افناء البشر بواسطة طوفان يغمر الأرض. إلا أن بعض الآلهة تظهر عدم رضائها عن ذلك القرار. فهذه «أنانا» الهة الحب والخصب تنوح وتبكي مصير البشر المفجع، وهذا انكي آله الحكمة يخرج عن اجماع

الآلهة وياخذ على عاتقه انقاذ بذرة الحياة على الأرض. يتصل انكي بالملك زيوسودرا، وكان انساناً تقياً صالحاً فيحدثه من وراء حجاب، كاشفاً له نوايا الالهة، شارحاً له خطته لإنقاذ الحياة، والتي تتلخص في قيام زيوسودر ببناء سفينة كبيرة لحمل الزمرة الصالحة من البشر، وبعض الحيوانات. ويقوم زيوسودرا بذبح ثور وكبش قرباناً للآلهة بعد نجاته. وهذا يدل على أنه حمل معه في السفينة بعض الحيوانات. وبعد انتهاء الطوفان يكافأ زيوسودرا على عمله باعطائه نعمة الخلود وإسكانه في أرض دلمون، جنة السومريين. وهذه ترجمة لبعض مقاطع الأسطورة[1]:

في ذلك الحين بكت «ننتو» كامرأة في المخاض
وأنانا المقدسة ناحت على شعبها
انكي فكّر مليا، وقلب الأمر على وجوهه
آنو وانليل وانكي وننخرساج[2] (....)
آلهة الأرض وآلهة السماء دعوا باسم آنو وانليل
في تلك الأيام زيوسودرا كان ملكاً وقيما على المعبد
قام بتقديم (قربان) عظيم.
وجعل يسجد بخضوع (ويركع) بخشوع
ودونما كلل توجه الآلهة (في المعبد)
فرأى في أحد الأيام حلماً لم ير له مثيلاً،
الاله (....) جدار (....)
وعندما وقف زيوسودرا قرب الجدار سمع صوتاً:
«قف قرب الجدار على يساري واسمع
سأقول كلاماً فاتبع كلامي.
أعط أذناً صاغية لوصاياي
أنا مرسلون طوفانا من المطر
فتقضي على بني الإنسان
ذلك حكم وقضاء من مجمع الآلهة
أمر آنو وانليل

---

(1) S. N. Kramer, Sumerian Mythology Harper. Newyork, 1961.
A Heidel, the Gilgamish Epic. Phoenis. Phoenis Books. Chicago, 1976.

(2) ننخرساج: الالهة الام.

فنضع حداً لملكوت البشر»

ثم يصف النص تعلميات الاله حول بناء السفينة ومواصفاتها ونوعية ركابها، ثم قيام زيوسودرا ببنائها. وعندما يصل الكاتب الى حادثة الطوفان، فإنه يضع أنفسنا في وسطه:

هبت العاصفة كلها دفعة واحدة

ومعها انداحت سيول الطوفان فوق (وجه الأرض)

ولسبعة أيام وسبع ليال

غمرت سيول الأمطار وجه الأرض

ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه العظيمة

ثم ظهر «أوتو»[3] ناشراً ضوءه في السماء على الأرض

فتح زيوسودرا كوة في المركب الكبير

تاركاً أشعة البطل اوتو تدخل منه

زيوسودرا الملك

خرّ ساجداً أمام أوتو

ونحر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم

ثم يتحدث النص عن جفاف المياه وهبوط السفينة على الأرض الجافة وحضور بقية الآلهة وسرورهم بنجاة الحياة من الدمار الكامل، والأنعام على بطل الطوفان بالحياة السرمدية في أرض دلمون:

زيوسودرا الملك،

سجد امام آنو وانليل،

ومثل آله وهباه حياة أبدية

ومثل آله وهباه روحاً خالدة

عند ذلك زيوسودرا، الملك

دعي باسم حافظ بذرة الحياة

وفي أرض (....) أرض دلمون

حيث تشرق الشمس، اسكناه

ودلمون، جنة السومريين، ليست مكاناً لأرواح الصالحين، لأن الحياة الأخرى لم تكن

(3) اوتو: آله الشمس.

معروفة لدى السومريين، وحالة الموت هي حالة أبدية يدخلها كل البشر بصرف النظر عما قدمت أيديهم في الحياة الدنيا، حيث يدلفون الى العالم الأسفل، عالم الظلمة الأبدية، في استمرارية ليست بالحياة وليست بفقدان الحواس والشعور والادراك. أما الجنة فهي مرتع الآلهة، وقلّة قليلة من البشر الذين أنعم عليهم بالخلود. نقرأ عنها في لوح آخر وصفاً حياً، فهي مكان طاهر نظيف ومضيء، حيث لا تنعق الغربان ولا تصرخ الشوحة، ولا يفترس الأسد ولا الذئب. وحيث لا تلتهم الحيوانات الزرع، ولا يعرف أحد الآلام والمرضى والعجز والشيخوخة، حيث لا مكان للحزن والبكاء.

الطوفان البابلي

كما فعل البابليون في رائعتهم الأولى «الاينوما ايليش» كذلك فعلوا في رائعتهم الثانية «ملحمة جلجامش» فملحمة جلجامش هي تأليف أدبي رائع، بين مجموعة نصوص سومرية قديمة تتحدث عن بطل سومري حكم الفترة النضرة الأولى التالية للطوفان. فكانت تلك الأقاصيص السومرية نواة بنت عليها العبقرية الأدبية البابلية درّة من درر الأدب القديم، وحمّلتها الكثير من تصورات الثقافة البابلية، الفكرية والدينية والفلسفية. وإلى جانب نصوص جلجامش السومرية، استفاد البابليون من نص الطوفان السومري فأدخلوه في سياق الملحمة التي جاءت نسيجاً متميزاً في معانيها ومراميها.

كان نص الطوفان، هو أول ما تم اكتشافه من ملحمة جلجامش. ففي عام 1872 أعلن عالم الآثار البريطاني جورج سميث عن توصله لحلّ رموز أحد ألواح مكتبة بانيبال الحاوي على نص عن الطوفان مشابه للنص التوراتي. وقد أثار هذا الاعلان الكثير من الحماس، فتتابعت البعثات الأثرية على المنطقة، الى ان تم الكشف عن ألواح ملحمة جلجامش الاثني عشر، والتي تغطي اسطورة الطوفان معظم اللوح الحادي عشر منها. ورغم ان قصة الطوفان تبدو للوهلة الأولى وقد أقحمت على أحداث الملحمة، إلا أنها في الواقع، قد جاءت في انسجام تام مع الايقاع المأساوي للملحمة، وأضافت اليها أبعاداً ومعاني خاصة، مؤكدة ان الخلود سراب لن يناله أحد من البشر.

جلجامش، بطل مدينة أوروك وملكها، ثلثه آله، وثلثاه بشر قضى حياته في الصيد واللهو والبطش بالناس، منتشياً بقوته الخرافية وطاقته المتفجرة. ثم يتعرف على انكيدو، ندّه، وتغيّر الصداقة العميقة التي ربطت بينهما مجرى حياته، فيقرر تحويل قواه وطاقاته للعمل المجدي الذي ينفع الناس، يقوم الصديقان بمغامرات. وهنا يصحو جلجامش على المأساة الحقيقية في حياة البشر. ويهيم على وجهه في الصحاري والبراري تاركاً عرشه ومملكته باحثاً عن سرّ الخلود واكسير الحياة، يدفع به قدر الإنسان الفاني. فهو رغم ثلثه الالهي، فإن نسبه البشري يشدّه الى القدر المشترك لبني

الإنسان. وبعد صعاب ومشاق لا يقدر عليها بشر، وصل جلجامش الى اوتنا بشتيم، الانسان الذي منّت عليه الالهة بالحياة الخالدة، يسأله عن سرّ الخلود، وكيف الحصول عليه، فيقص عليه اوتنا بشتيم قصته مؤكداً ان ما حصل له هو أمر فريد لن يتكرر بسهولة لأحد من الناس، ويكشف له خبايا وأسرار واقعة الطوفان الكبير.

الطوفان في ملحمة جلجامش

فأجاب: «اوتو ـ نبشتم» جلجامش وقال له:

«ياجلجامش سأفتح لك عن سرّ محجوب

سأطلعك عن سرّ من أسرار الآلهة:

«شروباك»، المدينة التي تعرفها انت

والراكبة على شاطىء نهر الفرات

ان تلك المدينة قد تقادم العهد عليها وكان الآلهة فيها

فرأى الآلهة العظام ان يحدثوا طوفانا وقد زينت لهم قلوبهم ذلك

لقد اجتمعوا وكان معهم «آنو» أبوهم

و«انليل» البطل مشيرهم

و«نينورتا» مساعدهم (وزيرهم)

و«انوكي، حاجبهم

وكان حاضراً معهم «نن ـ ايكي ـ كو، اي «ايا»

فنقل هذا كلامهم الى كوخ القصب وخاطبه

«يا كوخ القصب، يا كوخ القصب: ياجدار، ياجدار،

اسمع يا كوخ القصب وافهم ياحائط

يارجل «شروباك»، يا ابن «اوبارا ـ توتو»

قوّض البيت وابنِ لك فلكا

تخلّ عن مالك وانج بنفسك

انبذ الملك وخلص حياتك

واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة،

والسفينة التي ستبنى عليك ان تضبط مقاسها (قياسها):

ليكن عرضها مثل طولها

واختمها جاعلاً اياها مثل مياه «العمق»

ولما وعيت ذلك قلت لربي «ايا»:

«سمعاً ياربي سأصنع بما أمرتني به

ولكن ما عساي ان أقول للمدينة؟

بِم سأجيب الناس والشيوخ؟

ففتح «ايا» فاه وقال لي مخاطباً إياي، أنا عبده:

قل لهم هكذا:

«إني علّمت انّ «انليل» يبغضني

فلا أستطيع العيش في مدينتكم بعد الآن

ولن أوجه وجهي الى أرض انليل وأسكن فيها

بل سأرد الى الـ «ابسو» وأعيش مع «إيا» ربي

وعليكم سينزل وابلاً من المطر غزيراً

ومن مجامع الطير (؟) وعجائب الأسماك

وسيغدق عليكم الغلال والخيرات

وفي المساء سيمطركم الموكل بالزوابع بمطر من قمح

ولما نوّرت بشائر الصباح

تجمع البلد حولي.

وصف مفصّل لبناء الفُلْك، يقابل تكوين 6

وتمّ بناء السفينة في اليوم السابع عند مغرب الشمس

وكان انزالها (إلى الماء) أمراً صعباً

فكان عليهم ان يبدلوا ألواح القاع في الأعلى وفي الأسفل

الى ان غطس في الماء ثلثاها

ثم حملت فيها كل ما أملك

كل ما كان عندي من فضة حملته فيها

وحملت فيها كل ما أملك من ذهب

وحملت فيها كل ما كان عندي من المخلوقات الحيّة

أركبت في السفينة جميع أهلي وذوي قرباي

وأركبت فيها حيوان الحقل وحيوان البرّ وجميع الصنّاع

وحدد لي الاله شمش موعداً معيناً بقوله:

«حينما ينزل الموكل بالعاصفة في المساء مطر الهلاك
فادخل في السفينة واغلق بابك»
وحلّ أجل الموعد المعين
وفي المساء انزل الموكل بالعاصفة مطراً مهلكاً
وتطلعت الى الجو فكان مكفهراً مخيفاً
فولجت في السفينة وأغلقت بابي
وأسلمت دفة السفينة الى الملاح «بوزر - آموري»
أعطيته «البناء العظيم» وما يحويه من متاع
ولما ظهرت أنوار السحر
ظهرت من الأفق البعيد (من أسس السماء) غمامة سوداء
وفي داخلها أرعد الاله «ادد»
وكان يسير أمامه «شلات» و«خانيش»
وهما ينذران أمامه في الجبال والسهول
وقلع الاله «ايراكال» الدعائم
ثم أعقبه الاله «ننورتا» وفتق السدود
ورفع «الانوناكي» المشاعل
واضاءوا بأنوارها الأرض
ولكن بلغت رعود الاله «ادد» عنان السماء
فأحالت كل نور الى ظلمة
وتحطمت الأرض الفسيحة كالكوز (الجرّة)
وظلت زوابع الريح الجنوبية تهب يوماً كاملاً
وازدادت شدة في مهبها حتى غمرت الجبال
وفتكت بالناس كأنها الحرب العوان
وصار الأخ لا يبصر أخاه
ولا البشر يميزون من الأرض
وحتى الآلهة ذعروا وخافوا من عباب الطوفان
فانهزموا وعرجوا الى سماء «آنو»
لقد استكان الآلهة وربضوا كالكلاب ازاء الجدار الخارجي
وصرخت عشتار كالمرأة في ساعة مخاضها

وبكى آلهة الانوناكي وهم منكسو الرؤوس
وندبو وقد يبست شفاههم
ومضت ستة أيام وسبع ليال
ولم تزل الزوابع تعصف وقد غطى عباب الطوفان الأرض
ولما حلّ اليوم السابع خفّت وطأة زوابع الطوفان في شدة وقعها
وقد كانت كالجيش في الحرب العوان
وهدأ اليم وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان
وتطلعت الى الجو، فرأيت السكون عاماً
فتحت كوة فسقط النور على وجهي
ورأيت البشر وقد عادوا جميعاً الى طين
فركعت وجلست أبكي فانهمرت الدموع على وجهي
وتطلعت الى حدود (معالم) سواحل اليم
فرأيت رقاع الأض العالية تظهر من مسافة أربع عشرة ساعة مضاعفة
واستقر الفلك على جبل «نصير»
ولما أتى اليوم السابع أخرجت حمامة وأطلقتها (تطير)
طارت الحمامة ثم عادت
رجعت لأنها لم تجد موضعاً تحطّ فيه
وأخرجت السنونو وأطلقته
ذهب السنونو وعاد لانه لم يجد موضعاً يحط فيه
ثم أخرجت غراباً واطلقته
فذهب الغراب ولما رأى المياه قد انحسرت
أكل وحام وحطّ ولم يَعُد
وعند ذلك أطلقت كل شيء الى الجهات الأربع وقرّبت قرباناً
وسكبت الماء المقدس على قمة (زقورة) الجبل
ونصبت سبعة وسبعة قدور للقربان
وكدست تحتها القصب الحلو وخشب الارز والآس
فتنسّم الآلهة عرفها (شذاها).
أجل تشمم الآلهة عرفها الطيّب

فتجمع الآلهة على صاحب القربان كأنهم الذباب
ولما ان جاء «انليل» وشاهد الفلك (السفينة) استشاط غيضاً
حنق على آلهة الـ «ايكيكي» وقال:
«عجباً كيف نجت نفس واحدة، وقد كان المقدّر ان لا ينجو بشر من الهلاك
ففتح الاله «ننورتا» فمه وقال مخاطباً البطل «انليل»
«من ذا الذي يستطيع ان يدبر مثل هذا الأمر غير «ايا»
فإن «ايا» وحده هو الذي يعرف خفايا كل الأمور
وعند ذاك فتح «ايا» فاه وقال مخاطباً «انليل» البطل:
أيها البطل أنت أحكم الآلهة
فكيف، كيف أحدثت عباب الطوفان بدون أن تتروى؟
حمل صاحب الخطيئة وزر خطيئته
وحمل المعتدي إثم اعتدائه
ولكن كن رحيماً في العقاب لئلا يهلك ولا تهمله فيمعن في الشر
ولكنني جعلت «إترا ـ حاسيس» يرى رؤيا فأدرك سر الآلهة.
والآن قرر مصيره»
ثم صعد «انليل» الى السفينة
ومسكني من يدي واركبني معه في السفينة
واركب معي أيضاً زوجي وجعلها تسجد بجانبي
ثم وقف ما بيننا ولمس ناصيتنا وباركنا قائلاً:
«لم يكن «اوتو ـ نبشتم» قبل الآن سوى بشر
ولكن منذ الآن سيكون «اوتو ـ نبشتم» وزوجته مثلنا نحن الآلهة
وسيعيش «اوتو ـ نبشتم بعيداً عند «فم الأنهار»
ثم أخذوني بعيداً عند «فم الأنهار».

كيف غدا «انكيدو» الوحش إنساناً؟

(ملحمة جلجامش، الجزء 1)

(لقد وصلت الى آلهة السماء شكاوي أهل مدينة «اوروك» من كلكامش وتظلماتهم من استبداده الوحشي وغطرسته، فقرروا خلق بطل ندّ كفء له لينافسه ويحطّ من قوته. ووكلوا بالعمل الى الآلهة «أرورو»).

ولما استمع «آنو» الجليل الى شكواهم، دعو «ارورو» العظيمة وقالوا لها:

«يا ارورو» أنت التي خلقت هذا الرجل بأمر «انليل»

فاخلقي الآن غريماً له يضارعه في قوة القلب والعزم

وليكونا في صراع مستديم لتنال «اوروك» السلام والراحة

ولما سمعت «ارورو» ذلك

تصورت في لبّها مثيلاً (صورة) لآنو

وغسلت «ارورو» يديها، وأخذت قبضة طين ورمتها في البرية

خلقت في البرية «انكيدو» الصنديد، نسل «ننورتا» القوي

يكسو جسمه الشعر، وشعر رأسه كشعر المرأة

جدائل شعر رآسه كشعر «نصابا»

لا يعرف الناس ولا البلاد، ولباس جسمه مثل «سموقان»

ومع الظباء يأكل العشب، ويسقى مع الحيوان من موارد الماء

ويطيب لبه عند ضجيج الحيوان في مورد الماء

(فحدث) ان صياداً قانصاً التقى به عند مورد الماء

رآه الصياد فامتقع وجهه من الخوف

وأبصره يوماً ثانياً وثالثاً عند سقي الماء

لقد دخل (انكيدو) وألفه من الحيوان الى مرابع صيده

فذعر وخاف، وشلت جوارحه

خفق قلبه، وامتقع لونه

دخل الرعب قلبه، وصار وجهه كمن أنهكه السفر البعيد

(استشار الصياد أباه الذي نصحه الذهاب الى (جلجامش) لطلب مساعدته)

فوعى الصياد مشورة أبيه،وقصد جلجامش

أخذ السير في الطريق ووصل الى «اوروك»

مَثُلَ إمام كلكامش وخاطبه قائلاً:

«هناك رجل عجيب انحدر من المرتفعات

انه أقوى من في البلاد، وذو بأس شديد

وهو في شدة بأسه مثل عزم «آنو»

أنه يجوب السُهوب وياكل العشب

ويرعى الكلأ مع حيوان البر، ويسقى معها عند مورد الماء
لقد ذعرت منه فلم اقو على الاقتراب منه
لقد ملأ الآبار التي حفرتها
ومزّق شباكي التي نصبت
فجعل الصيد وحيوان البر تفلت من يدي وحرمني من القنص في البرية
فقال كلكامش له، قال للصياد:
«انطلق يا صيادي واصحب معك بغيّا
وحينما يأتي الى مورد الماء ليسقي الحيوان
دعها تخلع ثيابها وتكشف عن مفاتن جسمها
فإذا ما رآها اقترب منها وانجذب اليها
وعندئذ ستتكره حيواناته التي ربيت معه في البرية»
فانطلق الصياد واصطحب معه بغياً
سارا في الطريق قدما
وفي اليوم الثالث بلغا الموضع المقصود
جلس الصياد والبغي في ذلك المكان
مكثا يوماً ويوماً ثانياً عند مورد الماء
جاء الحيوان الى المورد ليسقى الماء
قصدت حيوانات الماء ففرحت وطابت قلوبها
أما انكيدو الذي كان مولده في التلال
والذي ياكل العشب مع الظباء، ويرد الماء مع الحيوان
ويفرح لبّه مع حيوان البرّ عند الماء
فإن البغيّ رأته، رأت الرجل الوحش
أبصرت المارد الآتي من أعماق البراري
(فأسرّ اليها الصياد): «هذا هو يا بغيّ فاكشفي عن نهديك
اكشفي عن عورتك لكي يتمتع بمفاتن جسمك
لا تحجمي، بل راوديه وابعثي فيه الهيام
فإنه متى رآك وقع في حبائلك
انضي عنك ثيابك لينجذب اليك
علّمي الوحش الغِرّ فنّ المرأة

ستتكره حيواناته التي ربيت معه في البرية
إذا انعطف اليك وتعلق بك»
فأسفرت البغيّ عن صدرها وكشفت عن عورتها
فتمتع بمفاتن جسمها
نضت ثيابها فوقع عليها
وعلّمت الوحش الغرّ فن المرأة فانجذب اليها وتعلق بها
ولبث انكيدو يتصل بالبغي ستة أيام وسبع ليال
وبعد ان قضى وطره منها
وجه وجهه الى الفه من حيوان البرّ
فما أن رأت الظباء «آنكيدو» حتى ولّت عنه هاربة
وهرب من قربه حيوان البرّ
هَمَّ انكيدو أن يلحق بها ولكن شلّ جسمه
لقد خذلته ركبتاه لما أراد اللحاق بحيواناته
أضحى انكيدو خائر القوى لا يستطيع أن يعدو كما كان يفعل من قبل
ولكنه صار فطناً واسع الحسّ والفهم
رجع وقعد عند قدمي البغي
وصار يطيل النظر الى وجهها ولما كلمته اصاخ بالسمع اليها
كلّمت البغي «انكيدو» وقالت له:
«انك حكيم ياانكيدو، وأنت مثل إله
فعلام تجول في البرية مع الحيوان؟
تعال آخذ بيدك الى «اوروك» الحمى والسور
الى «البيت» المشرق، مسكن آنو و«عشتار»
حيث يعيش كلكامش المكتمل الحول والقوّة
المتسلط على الناس كالثور الوحشي»
ولما ان كلّمته تقبّل منها قولها
لأنه كان ينشد صاحباً يفهم قلبه
فأجاب «آنكيدو» البغي وقال لها:
هلمي أيتها البغي خذيني الى «البيت» المشرق المقدس، مسكن آنو وعشتار

الى حيث يحكم كلكامش المكتمل الحول والقوة
والذي يتسلط على الناس كالثور الوحشي
ثم شقّت لباسها شقين وألبسته بواحد منهما، واكتست هي بالثاني
وأمسكته من يده وقادته كما تفعل الأم بطفلها
أخذته الى مائدة الرعاة الى موضع الحظائر
فأحاط الرعاة به
فلما وضعوا أمامه خبزاً تحيّر واضطرب وصار يطيل النظر اليه
أجل! لم يعرف انكيدو كيف يؤكل الخبز
ولم يعرف كيف يشرب الشراب القوي
ففتحت البغي فاها وخاطبت انكيدو:
كلّ الخبز يا انكيدو، فإنه مادة الحياة
واشرب من الشراب القوي، فهذه عادة البلاد
فاكل انكيدو من الخبز حتى شبع
وشرب من الشراب المسكر سبعة أقداح
فانطلقت روحه وانشرح صدره وطرب قلبه وأضاء وجهه
ومسح جسده المشعر بالزيت
وصار انساناً فلبس اللباس وصار كالعريس
أخذ سلاحه وانطلق يطارد الأسود ليريح الرعاة في اثناء الليل
لقد اصطاد الذئاب وأمسك بالأسود
فاستطاع الرعاة ان يهجعوا في الليل مطمئنين
صار «انكيدو» حارسهم وناصرهم
أنه القوي والبطل الفذ

خلق الإنسان وزلّته

ان رواية «خلق الإنسان وزلّته» بقيت هامشية في تراث العهد القديم، إذ ان التوراة لا تذكرها، شأنها في ذلك شأن الأدب النبوي، فلم تحظ باهتمام قبل عصر الجلاء الى بابل (القرن الخامس قبل الميلاد) وهذا دليل على ان هذا النص لم ينتمِ الى رصيد المعتقدات ذات الأهمية الحيوية بالنسبة للإيمان المعاش.

إن موضوع «الاله الذي يجبل الإنسان تراباً (طينا) من الأرض، لشائع في التراث الثقافي الديني للبشرية:

تروي «ملحمة كلكامش» السومرية البابلية كيف أن الآلهة «أرورو» جبلت «انكيدو» من الطين على صورة «آنو» آله السماء[4].

فيتضح بالتالي أن موضوعنا هذا كان معروفاً عند الشعوب الشرق أوسطية وحتى اليونان، فنستطيع أن نثبت فنقول ان الكاتب اليهوي قد اقتبس هذا الموضوع عن تراث وادي الرافدين الذي سكن وإياه، فصاغه بحسب مقتضيات رواية.

تترتب عملية «جبل الإنسان تراباً من الأرض» على قرار إلهي خاص، في الرواية اليهوية، وفي فروع التراث الثقافي الأخرى. تدل هذه الفكرة على أمر ذي مغزى، وهو ان الإنسان كان ـ على تباين مستويات رقيّه الثقافي - يعي منزلته المتميزة بين المخلوقات. تقترن بهذه الفكرة، فكرة «خلق الإنسان على صورة الاله» إنهما تتعاونان على إبراز علم الإنسان بمنزلته الخاصة في الكون وعلاقاته الممتازة بالألوهة.

يتضح من ذلك ان الرواية اليهوية، على الرغم من طريقتها المتميزة في معالجة موضوع «جَبْل الإنسان تراباً من الأرض» تندرج في التراث الثقافي الديني للإنسانية، أينما كان أصل هذا الموضوع ومنبعه، أنه لدليل على مقدرة العقل/ الذهن الإنساني على إبداع الرموز.

البستان او «جنة عدن»

إن موضوع «جنة عدن» ملتبس، إذ إنه يضم معنيين: من جهة يعني البستان باعتباره مكاناً لكسب الرزق والطعام وميداناً للعمل المنتج (تك 2 :8 - 9 و15). ومن جهة أخرى يدل على «الفردوس» باعتباره رمزاً الى الحياة السعيدة التي فقدت في إثر الخطيئة (تك 2 :16 - 17) فيرتدي الموضوع المعنى الأول في سياق الخطاب عن الخلق، بينما يؤدي المعنى الثاني في سياق الخطاب عن مأساة الألم والموت.

يرتبط موضوع «جنة عدن» في كل من السياقين بموضوعات مختلفة. في سياق الخطاب عن خلق الإنسان، يقترن موضوع «جنة عدن» بموضوعي الطعام والعمل المنتج.

إن موضوع «الطعام هبة الاله» يشير الى التراث الكتابي نفسه (تك 1: 29 - 30)، إضافة الى سومر - بابل (ملحمة كلكامش) ومصر (نشيد آمون رَعْ) واليونان القديمة. والقاسم المشترك بين هذه الفروع التراثية هو أن الإنسان يتلقى من الاله طعاماً نباتياً.

---

(4) بحسب النظرية الكسموغونية المصرية (معبد ممفيس) خلق الاله الصانع «خنوم» الانسان، جابلاً اياه طيناً، وادخلت الالهة «هاتور» الحياة في أنفه. كذلك عرفت أساطير اليونان القديمة هذين الموضوعين المقرونين ببعضهما بعض (ملحمة «مواليد الآلهة» لهيسيدوس)، إذ ان البطل الالهي «بروماثاوس» جبل الانسان طينا فوهبه شرارة الالوهة (هذه هي فكرة «الخلق على صورة الله») واخيراً فان أساطير القبائل الزنجية النيلية (قبيلة «الشيلوك» مثلاً) تعرف هذا الموضوع. (انظر روبير بندكتي، التراث الانساني في التراث الكتابي، ص 72، 76).

كذلك يقترن موضوع «جنة عدن» بموضوع العمل المنتج المبدع، إذ «جعل الرب الاله الإنسان في جنة عدن ليفلحها». وفي هذه النقطة يطابق التراث اليهوي الملحمة البابلية، فقد خلق «مردوخ» البشر ليكونوا عبيداً للآلهة، قائمين بالعمل الذي نفر منه الآلهة، فيستطيعوا ان يخلدوا الى الراحة والنعيم (انظر النص 7 هنا).

أما في سياق الخطاب عن الشر والألم والموت، فيقترن موضوع «جنة عدن» بموضوع الشجرة (تك 2: 9 و 16 - 17 و 3: 2 - 3 و 11 - 12و 17و 22) غرس الرب الاله في وسط الجنة شجرتين. إلا أن الرواية تتعلق بشجرة واحدة ذات صفتين وهما «الحياة» من جهة، و«معرفة الخير والشر من جهة أخرى.

وجدير بالذكر ان موضوع «شجرة الحياة» وارد في «ملحمة كلكامش» أما موضوع «شجرة معرفة الخير والشر» فتجهله الملحمة: (أنظر النص) وأخيراً شاع هذا الموضوع في تراث الحكايات الشعبية الذي أضفى عليه دلالة الدواء السحري ضد الموت.

كلكامش ونبات الحياة

النص رقم 8

فقال كلكامش لـ «اوتو ـ نبتشم» القاصي
ماذا عساي يا «اوتو ـ نبشتم» ان أفعل وإلى أين أوجه وجهي؟
وها ان «المغرّق» قد تمكن من جوارحي
أجل في مضجعي يقيم الموت،
وحيثما وضعت قدمي يربض الموت.
ثم قال «اوتو ـ نبشتم» لـ «اور شنابي» الملاح:
يا «اور ـ شنابي» عسى ان لا يرحب بمقدمك المرفأ،
وليبرأ منك موضع العبور
ولتذهب مطروداً من الشاطىء
والرجل الذي قدته الى هنا، والذي يجلل جسمه الشعر الوسخ
وشوهت جمال اعضائه أردية الجلود
خذه يا «اور ـ شنابي»، وقده الى موضع الاغتسال
وليغسل في الماء أوساخه حتى يصبح نظيفاً كالثلج،
لينزع عنه جلود الحيوان وليرمها في البحر حتى يتجلى جمال جسمه
ودعه يجدد عمامة (عصابة) رأسه

ودعه يلبس حلّة تستر عريه
وإلى ان يصل الى مدينته حتى ينهي طريق سفره
لا تدع آثار القدم تبدو على لباسه بل لتحافظ على جدتها
فأخذه «أورشنابي» الى موضع الاغتسال
وغسل أوساخه وشعره حتى بدا نظيفاً كالثلج
ونزع عنه لباس الجلد، فجرفها البحر حتى تجلى جمال جسمه
وجدد عمامته حول رأسه
وألبسه حلّة ـ كسيت عريه
وإلى ان يصل الى مدينته طريق سفره
جعل ثيابه على الدوام
ثم ركب كلكامش واور ـ شنابي في السفينة
وأنزلا السفينة في الأمواج وتهيأا للإبحار
(وإذ ذاك) خاطبت إمرأة اوتو ـ نبشتم زوجها وقالت له:
لقد جاء كلكامش الى هنا وقاسى المشقة والتعب
فماذا عساك ان تمنحه وهو عائد الى بلاده؟
وكان كلكامش في تلك اللحظة قد رفع مرديه
وقرّب السفينة الى الشاطىء
فأدركه «اوتو نبشتم» وخاطبه قائلاً:
لقد جئت يا كلكامش الى هنا وقد عانيت التعب والعناء
فماذا عساي أن أمنحك حتى تعود الى بلادك؟
سأفتح لك يا كلكامش سرّاً خفياً
أجل سأبوح لك بسرّ من أسرار الآلهة
يوجد نبات مثل الشوك ينبت في المياه
انه كالورد شوكه يخز يديك كما يفعل الورد
فإذا ما حصلت يداك على هذا النبات وجدت الحياة الجديدة
وما ان سمع كلكامش هذا القول، حتى فتح المجرى الذي أوصله الى المياه العميقة.
وربط برجليه أحجاراً ثقيلة
ونزل الى أعماق المياه حيث أبصر النبات

فأخذ النبات الذي وخز يديه
وقطع الأحجار الثقيلة من رجليه
فخرج من الأعماق الى الشاطىء
ثم قال كلكامش لـ «اور ـ شنابي الملاح
«يا اور شنابي الملاح، ان هذا النبات نبات عجيب
يستطيع المرء ان يطيل به حياته
لآخذه معي الى «اوروك» معي الحمى والشور
والشرك معي (الناس) ليقطعوه ويأكلوه
وسيكون اسمه «ويعود الشيخ كالشباب.
وأنا الله في آخر أيامي حتى يعود شبابي
(ثم بعد هذا) سارا وبعد ان قطعا عشرين ساعة مضاعفة
تبلغا بلقمة من الزاد
وبعد ثلاثين ساعة مضاعفة توقفا ليمضيا الليل
(وبعد فترة) ابصر كلكامش بركة ماؤها بارد
فنزل فيها ليغتسل في مائها
فشمّت حية (صِل) عرف النبات
وخرجت (من الماء) واختطفت النبات
وفي عودتها نزعت عنها جلدها
فجلس كلكامش عند ذاك وأخذ يبكي
حتى جرت دموعه على وجنتيه.

خلق المرأة من ضلع الرجل

موضوع «المرأة/ ضلع الرجل» عائد الى الأطوار القديمة من التراث الثقافي الديني للبشرية. إضافة الى الأساطير السومرية البابلية التي تخبر بخلق المرأة من مواد مختلفة. فقد وجدت تماثيل أنثوية حُفرت من العظم: يفترض أن تقابل هذه التماثيل التي صُنعت لغايات طقسية، موضوع «خلق المرأة من ضلع الرجل» أضِف الى ذلك ان اللغة السومرية تتلاعب بلفظي «المرأة» و«الضلع». ومن الجدير بالذكر ان أساطير الشعوب القاطنة بالمناطق القطبية تروي ان المرأة مخلوقة من أصبع الإنسان. يظهر إذاً من ذلك ان الكاتب اليهوي يتعامل مع موضوع رمزي متأصل في تراث الإنسانية الثقافي، إلا أنه يعيّد تأويله في إطار روايته.

موضوع «الحيةّ»

«الحية» موضوع متعدد الدلالات ومتنوّع المعاني، يعرفه التراث الإنساني الديني الثقافي ويستعين به رمزاً في سياق مركّبات دلالية مختلفة: فتارة ترمز الى الحب والخصب فترتبط بشخصيات إلهية ذات صلة بالإرادة والحياة، وطوراً ترمز الى الحكمة، وطوراً الى الخلود والحياة الأبدية. وتعتبر أحياناً حيواناً خيّراً وحكيماً، يفيد الإنسان ويساعده، ويُتوقى أحياناً أخرى شرّها وخبثها. وأخيراً تمت بصلة ال« السحر والقِوى السرّية.

يظهر موضوع «الحيّة» في ثقافات الشرق القديم التي تضفي عليه معنى الخلود وتربطه بفكرة الخصب. هكذا تروي مثلاً «ملحمة كلكامش» أن الحيّة القاطنة بأعماق البحيرة خلست «نبات الحياة» التي حصل عليها كلكامش، مغامراً، مخاطراً بحياته، فسلبته الخلود (أنظر النص رقم 8) هنا في الكتاب[5].

الخلاصة

وهكذا نخلص ان «ملحمة كلكامش» التي تدور حول موضوع «انتقال الإنسان من الحالة البدئية الى الحضارة، وهو يشكل محورها القصصي يستخدمها الكاتب اليهوي كنواة لقصته التي يرغب ان يصل بها الى «معرفة الخير والشر» مع «صراع الإنسان والاله» فتلتقيان القصتان السومرية واليهوية في البنية الخطابية مع ورود بعض الموضوعات المشتركة في كلتيهما، ولكنهما تتباينان في البنية الذهنية مع نضوج الفكر الديني التأملي بالقصة اليهوية التي تتمثل في مفهوم الإنسان (الحر المخيّر من جهة، الخاضع للحتمية من جهة أخرى) فالملحمة السومرية كتبت لتكون ملحمة، في حين أن الرواية اليهوية هي تأمل قصصي، وكلتاهما تعبّران عن مصير الإنسان الأخير...

الطوفان التوراتي

إن كان الدارس بحاجة الى أعمال الفكر ليظهر التشابه القائم بين نصوص التكوين السومرية والبابلية والسورية من جهة، والنص التوراتي من جهة أخرى، فإن نصوص الطوفان تعفيه من كثرة التمحيص والتدقيق والبحث عما خفي من المعاني والرموز. إن التشابه الصاعق بين النصوص البابلية والنص التوراتي يدعو لكثير من التأمل والتفكير. ومرة ثانية تطرح نفسها، مسألة التفسير، بقوة أكبر. لقد كتب مؤلفو التوراة نص الطوفان معتمدين بشكل واضح على أكثر من نص بابلي، مع بعض التعديل

---

(5) اما في أساطير أوغاريت الفينيقية، فقد ارتبطت الحية بإلهة الحب والخصب.

والتغيير، ومعظم التعديلات تتعلق بشخصية الاله الرئيسي في الرواية. فبينما تزدحم الرواية البابلية بالآلهة المتناقضة الاهواء والرغبات، يتفرد يهوه بالفعالية الرئيسية في الرواية التوراتية. وفيما عدا ذلك فإن الرواية التوراتية تتبع نفس المخطط العام الذي أسست له الأسطورة السومرية. وسأعمد بعد سرد النص التوراتي الى اجراء مقارنة شاملة بين جميع النصوص التي قدمتها.

طوفان نوح. سفر التكوين

الاصحاح السادس

(١) ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولد لهم بنات (2) رأى بنو الله بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا. (3) فقال الرب لا تحلّ روحي على الإنسان أبداً لأنه جسد وتكون أيامه مئة وعشرين سنة (4) وكان على الأرض جبابرة في تلك الأيام وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً أولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر (5) ورأى الرب ان شرّ الناس قد كثر على الأرض وان كلّ تصور أفكار قلوبهم إنما هو شرّ في جميع الأيام (6) فندم الرب أنه عمل الإنسان على الأرض وتأسف في قلبه (7) فقال الرب امحو الإنسان الذي خلقتُ عن وجه الأرض الإنسان مع البهائم والدبابات وطير السماء لأني ندمت على خلقي لهم (8) أما نوح فنال خطوة في عيني الرب (9) وهؤلاء مواليد نوح. كان نوح رجلاً براً كاملاً في أجياله وسلك نوح مع الله. (10) وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافث (11) وفسدت الأرض أمام الله وملئت جوراً (12) ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت لأن كل جسد قد أفسدَ طريقه عليها (13) فقال الله لنوح قد دنا أجل كل بشر بين يديّ فقد امتلأت الأرض من أيديهم جوراً فهاءنذا مهلكم مع الأرض (14) اصنع لك تابوتاً من خشب قطراني واجعله مساكن واطله من داخل ومن خارج بالقار (15) كذا تصنعه ثلاث مائة ذراع طوله وخمسون ذراعاً عرضه ثلاثون ذراعاً سمكه. (16) وتجعل طاقاً للتابوت وإلى حدّ ذراع تكمله من فوق واجعل باب التابوت في جانبه ومساكن سفلى وثواني وثوالث تصنعه (17) وهاءنذا آت بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء وكل ما في الأرض يهلك (18) وأقيم عهدي معك فتدخل التابوت أنت وبنوك وامرأتك ونسوة بنيك معك (19) ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل التابوت لتحيا معك. ذكراً وأنثى تكون. (20) من الطير بأصنافها ومن البهائم بأصنافها ومن جميع دبابات الأرض بأصنافها يدخل اليك اثنان من كل لتحيا. (21) وأنت فخذ لك من كل طعام يؤكل وضمه اليك فيكون لك ولهم مأكلاً (22) فعمل نوح بحسب كل ما أمره الله به هكذا فعل.

الفصل السابع

(1) وقال الله لنوح ادخل التابوت أنت وجميع أهلك فإني اياك رأيت باراً أمامي في هذا الجيل. (2) وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكوراً وأناثاً. ومن البهائم التي ليست طاهرة اثنين ذكراً وأنثى (3) وخذ أيضاً من طير السماء سبعة سبعة ذكوراً وأناثاً ليحيا نسلها على وجه كل الأرض (4) فإنني بعد سبعة أيام ممطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة وماحٍ كل قائم مما صنعته عن وجه الأرض (5) فعمل نوح بحسب كل ما أمره الرب به. وكان نوح ابن ست مئة سنة حين كان ماء الطوفان على الأرض. (7) ودخل نوح التابوت هو وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه من ماء الطوفان (8)ومن البهائم الطاهرة ومن البهائم التي ليست بطاهرة ومن الطير وجميع ما يدبّ على الأرض. (9) دخل التابوت اثنان اثنان الى نوح ذكوراً وأناثاً كما أمر الله نوحاً (10) وبعد سبعة أيام كانت مياه الطوفان على الأرض. (11) في السنة الست مئة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه في ذلك اليوم تفجّرت عيون الغمر العظيم وتفتحت كوى السماء (12) وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. (13)في ذلك اليوم نفسه دخل نوح التابوت هو وسام وحام ويافث بنوه وامرأة نوح وثلاث نسوة بنيه معهم (14) هم جميع الوحوش بأصنافها وجميع البهائم بأصنافها وجميع الدبابات الدابّة على الأرض بأصنافها وجميع الطير بأصنافها من كل طائر وكل ذي جناح (15) ودخلت التابوت الى نوح اثنين اثنين من كل ذي جسد فيه روح حياة (16) والداخلون دخلوا ذكوراً وأناثاً من كل ذي جسد كما أمره الله وأغلق الرب عليه (17) وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض فكثر الماء وحمل التابوت فارتفع عن الأرض (18) وكثر المياه وتعاظمت على الأرض فسار التابوت على وجه الماء (19) وكثرت المياه جداً جداً على الأرض فتغطّت جميع الجبال الشامخة التي تحت المساء كلها (20) وعلت المياه خمس عشرة ذراعاً على الأرض وتغطّت الجبال (21) فهلك كل ذي جسد يدّب على الزرض من الطير والبهائم والوحوش وجميع الزحافات التي تزحف على الأرض والناس كافة (22) كل من في أنفه نسمة حياية ميني كل من في اليبس ماتوا (23) ومحا الله كل قائم كان على وجه الأرض من الناس والبهائم والدبابات وطير السماء فانحت من الأرض وبقي نوح ومن معه في التابوت فقط (24) وتعاظمت المياه على الأرض مئ وخمسين يوماً.

الفصل الثامن

(1) وذكر الله نوحاً وجميع الوحوش والبهائم التي معه ي التابوت. فأرسل الله ريحاً على الأرض فتناقصت المياه (2) وانسدت عيون الفجر وكوى السماء واحتبس المطر من السماء (3) وكانت المياه تتراجع عن الأرض كلما مرّت وعادت ونقصت المياه

بعد مئة وخمسين يوماً (4) واستقر التابوت في الشهر السابع في اليوم السابع عشر على جبال آراراط (5) وكانت المياه كلّما مرّت نقصت الى الشهر العاشر وفي أول يوم منه ظهرت رؤوس الجبال (6) وكان بعد أربعين يوماً أن فتح نوح كوّة التابوت التي صنعها (7) وأطلق الغراب فخرج وجعل يتردد الى أن جفّت المياه عن الأرض (8) ثم أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاضت المياه عن وجه الأرض (9) فلم تجد الحمامة مستقراً لرجلها فرجعت اليه الى التابوت إذ كانت المياه على وجه الأرض كلها فمدّ يده فأخذها وأدخلها اليه الى التابوت (10) ولبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأطلق الحمامة من التابوت (11)فعادت اليه الحمامة وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح ان المياه قد جفت عن الأرض (12) ولبث أيضاً سبعة أيام أخر ثم أطلقها فلم تعد ترجع اليه أيضاً (13) وكان في سنة احدى وست مئة في اليوم الأول من الشهر الأول ان جفت المياه عن الأرض. فرفع نوح غطاء التابوت ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف (14) وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين منه جفّت الأرض (15) فخاطب الله نوحاً قائلاً (16) اخرُج من التابوت أنت وامرأتك وبنوك ونسوة بنيك معك (17) وجميع الوحوش التي معك من كل ذي جسد من الطير والبهائم وسائر الدبيب الساعي على الأرض أخرِجهن معك ليتوالدن في الأرض وينمُون ويكثرن عليها (18) فخرج نوح وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه (19) وجميع الوحوش والدبابات والطيور وكل ما يدبّ على الأرض بأصنافها خرجت من التابوت. (20) وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ من جميع البهائم الطاهرة ومن جميع الطير الطاهرة فاصعد محرقات على المذبح (21) فتنسّم الرب رائحة الرضى وقال الرب في نفسه لا أعيد لعن الأرض أيضاً بسبب الإنسان بما أن تصوّر قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولا أعيد أهلك كل حي كما صنعتُ. (22) وأبداً ما دامت الأرض فالزرع والحصاد والبرد والحرّ والصيف والشتاء والنهار والليل لا تبطل.

بين النص التوراتي

والنصوص السومرية والبابلية

نجري الآن المقارنة بين النص التوراتي والنصوص السومرية والبابلية السابقة له، وذلك بتتبع العناصر الرئيسية في رواية الطوفان:

"1" آله الطوفان

في سفر التكوين، يقوم آله اليهود يهوه بإرسال الطوفان. ولكن مجمع الآلهة السومري والآكدي من قبله هو الذي يقرر الطوفان. وهذا القرار ليس اجماعياً بدليل

ان آلهة الولادة «ننتو» في النص السومري تنوح على أولادها البشر. وانكي الحكيم يقرر بينه وبين نفسه مدّ يد المعونة للناس وانقاذ الحياة عن طريق زيوسودرا التقي الأثير لديه. كذلك الأمر بالنسبة للنص البابلي فعشتار ندمت على انصياعها لقرار البعض في مجمع الآلهة، وآيا قام بكشف سر القرار الالهي لاوتنابشتيم. ثم إننا بطريقة غير مباشرة نعرف في آخر النص، ان انليل هو المسؤول الرئيسي عن الطوفان، شأنه في ذلك شأن يهوه، ويبدو انه هو الذي اقترحه وحمل الآلهة للموافقه عليه، ومن ثم قام بإدارته حتى النهاية وتبدو مسؤولية الطوفان واقعة بكليتها على انليل من كلام أيا: «كيف دونما تفكر جلبت هذا الطوفان» ومن كلام عشتار: «تقدموا جميعاً وقربوا من الذبيحة. الا انليل وحده لن يقترب لأنه سَبَّب الطوفان دونما ترو. والسلم شعبي للدمار».

"2" أسباب الطوفان:

تؤكد التوراة صراحة على الأسباب الأخلاقية وراء قرار دمار الإنسان. فالأرض قد فسدت وامتلأت بالعنف والشر. أما النص البابلي فيعطي تلميحاً بالأسباب الأخلاقية، حيث نجد «ايا» في آخر النص يخاطب انليل قائلاً: «حمل المذنب ذنبه والاثم إثمه... امهله كي لا يفنى ولا تهمله كيلا يفسد». وهذا يدلّ بوضوح على ان غرض انليل الأساسي من الطوفان كان القضاء على الشرور والآثام فدمّر الجميع دون تمييز بين الصالح والطالح.

وعلى العكس من هذين النصين فإن ملحمة اتراحيس تطرح سبباً غريباً للطوفان يذكرنا بالسبب الأساسي للصراع بين الآلهة في اسطورة التكوين. فانليل يشعر بالانزعاج من صخب البشر وضوضائهم فيقرر افناءهم بعد ان أعيته الحيل في التقليل من عددهم. ولكنه بعمله هذا يناقض العلة الرئيسية لخلق البشر، ألا وهي حمل عبء الكدح عن الآلهة. فهل كان يخطط لخلق جديد يعقب الطوفان. كما فعل زيوس في الاسطورة اليونانية؟ هذا ما لا تستطيع الأسطورة بنصها الذي وصلنا،الإجابة عليه.

"3" بطل الطوفان

«زيوسودرا» كان بطل الطوفان السومري. والكلمة تعني «الذي وضع يده على العمر المديد»، وذلك اعتماداً على ما أعطته له الآلهة من حياة سرمدية عقب الطوفان. أما اسم «اوتنابشتيم» بطل القصة البابلية فيعني «الذي رأى الحياة» والاسم مشتق هنا أيضاً من طبيعة المكافأة التي نالها لإنقاذه الحياة على الأرض. وفي ملحمة اتراحيس فإن الاسم يعني «الواسع الحكمة». أما سفر التكوين فلم يعن بإيجاد علاقة ما بين اسم «نوح» وبين التجربة التي مرّ بها البطل. فقد فسرت كلمة نوح أحياناً بأنها تعني الراحة.

إلا أن الحياة المديدة التي عاشها نوح تضعه الى جانب زيوسودرا الذي وضع يده على العمر المديد، واوتنابشتيم الذي رأى الحياة، فلقد عاش نوح تسعمائة سنة.

عاش اوتنابشتيم في «شوروباك» وهي من أقدم المدن في جنوبي الرافدين وقد ورد ذكرها بين المدن الخمس التي ظهرت للوجود عقب خلق الكون السومري. أما زيوسودرا فإن نقص النص يمنع من معرفة المدينة التي عاشه فيها. ولم يخصص التوراة مدينة بذاتها عاش فيها نوح».

كانت نجاة زيوسودرا راجعة لكونه رجلاً تقياً صالحاً. وكذلك الأمر فيما يتعلق باكسوتروس ونوح. ومن سياق النص البابلي نفهم أيضاً أن اوتنابشتيم كان كذلك.

"4" الاعلام عن الطوفان:

تتفق جميع النصوص على أن الاعلام عن الطوفان قد جاء من جهة الهية وتختلف في كيفية ايصال الخبر. فزيوسودرا رأى حلماً لم ير شبيهاً له قط. فأخذ يتضرع للآلهة عسى أن تظهر له معناه، ثم أنه سمع صوتاً يأمره أن يقف خلف حائط ليتلقى من خلاله رسالة الاله الذي أنبأه القرار. كذلك اوتنابشتيم الذي رأى حلماً يخاطبه فيه «ايا» من وراء جدار كوخه القصب، ويكشف له فيه سر الآلهة. ويؤكد نص بيريسوس كذلك على الحلم كواسطة للاتصال.

أما في التوراة فنجد الاله يتصل بنوح مباشرة دونما ستار أو حجاب ودون الحاجة لواسطة الحلم. وفي شخص يهوه تتحد شخصيتا «ايا» و«انليل» فيهوه الذي أمر بالطوفان وهو الذي أبلغ نوح واختاره للنجاة. بينما يقوم بهذه المهمة في بقية الأساطير الهان منفصلان أحدهما يرسل الطوفان والثاني يتولى اعلام من يختارهم للنجاة دون علم الألهة.

"5" السفينة:

كما تباينت اسماء بطل الطوفان تباينت كذلك تسميات السفينة التي بناها. فالقصة السومرية أشارت للسفينة بأنها «ماجور» أي السفينة ونص نيبور استعمل كلمة مشابهة. أما نص جلجامش فسماها «ايليبو» التي تعني مجرد سفينة أو مركب، ولكنه يصفها في أماكن متفرقة على أنها «الهيكل العظيم» بينما لا يستعمل سفر التكوين سوى كلمة واحدة «يتبا» التي تعين بالعبرية الصندوق أو التابوت.

تحتوي سفينة اوتنابشتيم على سبعة طوابق وتنقسم عمودياً الى تسعة أقسام. وأثناء بنائها لا نعرف ما إذا قد جعل لها نوافذ وفتحات وأبواب. ولكننا نقرأ بعد انتهاء الطوفان ان اوتنابشتيم قد فتح نافذة فسقط النور منها على وجهه. أما سفينة نوح

فتحتوي على ثلاثة طوابق وتتألف من عدد غير محدّد من الأقسام. ولها باب في جانبها وفتحة للنور تحت السقف مباشرة تدور حول السفينة من كل الجوانب. بينما ينفرد اوتنابشتيم باستعمال الزيت عندما قام بنقع مصدات المياه بوزنة واحدة وخزن الوزنتين الباقيتين. فإنه يتفق مع نوح على استعمال القار الذي طلا به السفينة ولكنهما يعودان للاختلاف بشأن الشكل الخارجي والأبعاد.

وعلى كل فإن أبطال الطوفان يؤمرون كل بدوره ببناء سفينة عظيمة تحمل بذور الحياة وتتدخل الشخصية الالهية كثيراً أو قليلاً بتحديد شروط بنائها. ويبدو ان اوتنابشتيم كان أكثرهم حرية في ذلك.

"6" ركاب السفينة:

بعد ان فرغ من عمله، قام اوتنابشتيم بنقل كل ما يملكه من ذهب وفضة الى السفينة. كما نقل اليها أهله وأقاربه وجميع أهل الحرف. ودفع اليها طرائد البرية ووحوشها. وأقام عليها ملاحاً أسلمه قيادها. ويأتي عمل اوتنابشتيم في حمل أصحاب الحرف مشابهاً في مغزاه لعمل اكسوتروس في طمر الألواح الحاوية على سجلات البداية كل شيء وتطوره. فالبطلان يحاولان حفظ حضارة الإنسان وثقافته من الضياع ونقلها للأجيال التالية التي تعقب الطوفان، حتى لا تجد نفسها مضطرة للبدء من جديد. ويبدو من سياق النص ان اوتنابشتيم قد حمل معه طيوراً لأنه قام بإطلاق بعضها على سبيل الاستطلاع. كما قام يحمل المؤن والذخائر.

ونستدل من المقاطع الباقية من النص السومري، ان زيوسودرا قد حمل معه بعض الحيوانات، بدليل أنه قام بتقديم ذبائح الشكر للآلهة من الثيران والخرفان. وكذلك فعل اتراحسيس الذي حمل الى السفينة طرائد البرية ووحوشها وما استطاع من آكلي الأعشاب، ونقل اليها أهله وأقاربه وأصحاب الحرف وجرى اكسوتروس على نفس المنوال فنقل زوجه وأولاده وأصدقاءه المقربين وخزن فيها الطعام والشراب وحمل فيها مخلوقات حية مجنحة وذوات أربع.

تتفق التوراة مع قصص أرض الرافدين من حيث نقل الأشخاص والطعام والحيوان. الا أن العدد الهائل للأفراد يتقلص الى ثمانية فقط، هم نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجات أولاده. أما الحيوانات المحمولة والأطعمة حسب أوامر الرب فكانت: «من كل حي من كل ذي جسد اثنين تدخل الصندوق لتحيا معك ذكراً وأنثى تكون. من الطير بأصنافها ومن البهائم بأصنافها ومن جميع دبابات الأرض بأصنافها يدخل اليك اثنين من كل لتحيا. وأنت فخذ لك من كل طعام يؤكل فيكون لك ولهم مأكلاً». ويتبع ذلك تفصيل بالحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة.

أما كيف سيعمل بطل الطوفان على جميع كل هذه الحيوانات فيبدو أن الشخصية الالهية هي التي تكلفت بدفعها اليه ليحملها الى السفينة، كما يبدو من ملحمة اتراحيسس ومن سفر التكوين. ففي ملحمة اتراحيس نرى أيا يقول بعبده «طرائد البرية ووحوشها وما استطعت من آكلي الأعشاب سأدفع بها اليك» كذلك في سفر التكوين نجد ان الحيوانات تأتي الى نوح دونما جهد منه لجمعها وحصرها «وتدخل الصندوق لتحيا معك» «ويدخل اليك اثنين من كل لتحيا».

"7" يوم ابتداء الطوفان:

«في السنة الستمائة من عمر نوح، من الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه. في ذلك اليوم تفجرت عيون الغمر وتفتحت كوى السماء» ومن المعروف ان السنة العبرية الزراعية تبدأ في الخريف في أواخر تشرين الأول. فيكون الشهر الثاني والحالة هذه، هو كانون الأول بداية موسم الأمطار في سورية.

أما قصة بيريسوس فتجعل الطوفان يبدأ في اليوم الخامس من شهر مايس. بينما تصمت بقية النصوص عن ذكر أي موعد معين لبدء الطوفان.

"8" علل الطوفان:

تسبب الطوفان في النص البابلي عن العاصفة والأمطار والمياه السفلية «فأدد» آله الرعود والبروق والصواعق والأمطار قد انطلق يسبقه مساعداه. ونرجال فتح فوهات العالم الأسفل فانطلقت مياه الأعماق الحبيسة. وننورتا آله السدود والري فتح سدوده وقنواته ففاضت دونما ضابط. وفي التوراة كذلك، تسبب الطوفان عن الأمطار الغزيرة وانبثاق المياه السفلية. أما النص السومري فيؤكد على الأمطار كعنصر أساسي.

وقد قام الجيولوجي النمساوي E. SUESS في نهاية القرن التاسع عشر بمحاولة ايجاد تفسير علمي لرواية الطوفان فقال ان الطوفان ربما تسبب أساساً من عاملين. أولهما موجات عملاقة من البحر سببها اضطراب زلزالي في اقليم الخليج العربي أو الى الجنوب منه[1]. وثانيهما اعصار عنيف نشأ في خليج البنغال، ثم عبر الهند متجهاً شمالاً نحو الخليج العربي. وقد صادف ذلك كله في موسم الفيضان السنوي في حوض دجلة والفرات. وتشققت الأرض بتأثير الزلزال واندفعت منها المياه. وهكذا فإن الطوفان قد نشأ بتأثير مياه البحر الطاغية بصورة رئيسية. أما المياه السفلية ومياه الفيضان فلم تكن الا عناصر مساعدة.

ولا نريد هنا ان نناقش هذه النظرية أو غيرها. بل نقول ان علل الطوفان كانت

(1) فراس السواح، مغامرة العقل الاولى، ص 151. وللتفصيل بهذا الشان راجع برسي ولكوكش، جنة عدن.

متشابهة في النصين البابلي والتوراتي. وذلك بصرف النظر عن تأكيد كل نص على عناصر معينة دون أخرى.

"9" مدة الطوفان:

أعطى التوراة فواصل زمنية محددة بين الحوادث المؤلفة للقصة. فلقد دام الطوفان أربعين يوماً. ثم ابتدأت المياه بالتناقص بعد مائة وخمسين يوماً.... الخ وبجمع الأزمنة بعضها الى بعض نستنتج ان المدة الفاصلة بين بدء الطوفان وخروج نوح من السفينة قد امتدت قرابة السنة الكاملة. أما النص البابلي فلم يأتِ على تفصيل للفواصل الزمنية، بل اكتفى بالقول ان الطوفان استمر سبعة أيام وسبعة ليال. وكذلك الأمر في الاسطورة السومرية، حيث استمر الطوفان ستة أيام وست ليال. لذلك لا نستطيع استنتاج مدة معينة لدوام الطوفان البابلي، ولكنه قطعاً قد دام مدة أقصر بكثير من طوفان نوح.

"10" أين إستقرت السفينة

استقرت سفينة اوتنابشتيم على جبل «نصير» أي جبل الخلاص. وقد ورد اسم هذا الجبل في حوليات الملك اشوربانيبال التي حددت موقعه في جنوب نهر الزاب الأدنى، وهو أحد روافد دجلة.

أما سفينة نوح فقد استقرت على جبل آراراط. وآراراط في الواقع ليس إسماً لجبل بل هو اسم يطلق على بلاد ارمينيا. ويبدو ان السفينة قد رست على أعلى قمة في بلاد آراراط. ومن هنا جاءت التسمية، وقد وردت كلمة آراراط في مواضع أخرى من التوراة للدلالة على قطر وبلاد لا على جبل. من ذلك مثلاً ما ورد في التوراة: «وفيما هو ساجد في بيت نصروك إلهه، قتله (ادرملك) و(شرآصر) ابناه بالسيف وهربا الى أرض آراراط. وملك اسرحادون ابنه مكانه»[2]. وأيضاً: «انصبوا الراية في الأرض وانفخوا في البوق في الأمم قدسوا عليها الأمم ونادوا عليها ممالك آراراط ومنى واشنكار»[3].

"11" اطلاق الطيور:

في اليوم السابع لبدء الطوفان أطلق اوتنابشتيم حمامة لاستطلاع المحيط. وما لبث ان عادت اليه لأنها لم تجد مستقراً لقدميها. وبعد فاصل زمني غير محدد أطلق سنونو فطار ثم عاد أيضاً. فانتظر فترة أخرى، ثم أطلق غراباً فطار ولم يعد. فاستدل

---

(2) سفر اشيعا 37 - 38.

(3) سفر ارميا 51 - 37.

من ذلك ان الأرض قد أصبحت صالحة للهبوط فحرر سكان السفينة وأطلقهم للجهات الأربع. أما نوح فقد بدأ بالغراب. وقد أظهر بهذا التصرف حكمة أكثر من زميله اوتنابشتيم. ذلك ان الغراب يهوى المرتفعات دون السفوح والسهول. لذلك فإن غيابه لا يدل على انحسار الماء عن جميع الأرض. ثم أنه أرسل الحمامة ذلك الطائر الذي لا يطير إلا في السهول والمنخفضات. فحامت الحمامة ثم عادت فانتظر سبعة أيام أطلق بعدها الحمامة الثانية فطارت وعادت في المساء، وفي منقارها غصن زيتون طري. ويبدو أنها وجدت مكاناً تهبط فيه وطعاماً إلا أن الوضع بشكل عام لم يكن مشجعاً على قضاء الليل خارج السفينة. فانتظر سبعة أيام أخر، وأطلق الحمامة الثالثة فطارت ولم تعد. مما دلّ نهائياً على ان السهول قد غدت جافة كما المرتفعات.

وهكذا تتفق الروايتان في ارسال الطيور ولكنها تختلف في نوعيتها وعددها. فبينما يرسل اوتنابشتيم حمامة وسنونو وغراباً، يقوم نوح بإرسال غراب وثلاث حمامات. ونستطيع ان نلمح تشابهاً من حيث المغزب بين عودة حمامة نوح وفي منقارها غصن زيتون، وعودة طيور اكسوتروس وعلى مخالبها آثار من طين.

"12" مغادرة السفينة:

انتظر نوح فترة أطول قبل الخروج من السفينة. وكانت هذه الفترة كافية لنمو النباتات من جديد لإعالة جيل ما بعد الطوفان من الناس والحيوان. أما خروج باقي أبطال الطوفان فقد كان سريعاً لأن دوام الطوفان لم يكن بالطول الكافي لدمار لطبيعة دماراً تاماً كما هو الأمر في الطوفان التوراتي. وقد جاء خروج نوح بناء على أمر من الاله كما كان الحال لدى دخوله. أما اوتانابشتيم والآخرون فقد خرجوا بناء على تقديرهم الخاص.

"13" تقديم الذبيحة والعهد الالهي

يرفع كل أبطال الطوفان الشكر للآلهة على نجاتهم، ويقدمون الأضاحي والقرابين. فزيوسودرا خرّ ساجداً أمام اوتو ونحر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم واكسوتروس سجد على الأرض وبنى مذبحاً وقدم قرباناً للآلهة؛ وأوتنابشتيم أطلق الركاب للجهات الأربع وقدم أضحية. ونوح بنى مذبحاً للرب، وأخذ من جميع البهائم الطاهرة، ومن جميع الطير الطاهرة، فاصعد محرقات على المذبح. وهنا يتطابق حرفياً النص البابلي مع التوراة، فبعد حرق الأضاحي نقرأ في نص اوتنابشتيم «تنشّق الآلهة الرائحة الذكية» ونقرأ في التوراة «فتنسم الرب رائحة الرضى».

يتقبل الرب تقدمه نوح ويندم على فعلته، ويقطع على نفسه عهداً أبدياً بألاّ يدمر

الأرض ثانية بطوفان مماثل: «وقال الرب لا أعيد لعن الأرض... ولا أعود أهلك كل حي كما صنعت.... وأقيم عهدي معكم.... تلك قوسي جعلتها في الغمام فتكون علامة عهد بيني وبين الأرض». وفي نص اوتنابشتيم ينسى الالهة غضبهم على البشر عندما يشمون رائحة الأضحية، ويتجمعون على صاحبها وقد سرّوا بنجاة الحياة على الأرض.ولا توجد هنا اشارة مباشرة لعهد ما مع الإنسان. إلا أن كلام عشتار يوحي لنا بشيء قريب جداً من العهد الالهي، ومن اشارته التي كانت عند يهوه قوس قزح، كلما رآه تذكر عهده مع البشر. فعندما وصلت عشتار رفعت عقدها الكريم الذي صنعه آنو وفق رغبتها وقالت: «أيها الآلهة الحاضرون. كما أنني لا أنسى عقد اللازورد الذي يزين عنقي. فإنني لن أنسى هذه الأيام قط سأذكرها دوماً» ان رفع عشتار لعقدها يقترب كثيراً في مضمونه من قوس قزح الذي يعطيه يهوه اشارة وعهد.

أما عن الندم فتعبر عنه عشتار عندما تقول: «تقدموا جميعاً واقتربوا من الذبيحة الا انليل وحده لن يقترب لأنه سبب الطوفان دونما تردد أسلم شعبي للطوفان» كما يعبّر عنه آيا عندما يخاطب انليل: «كيف... آه كيف دونما تفكر جلبت هذا الطوفان» وبالنهاية فإن انليل نفسه يعبّر عن ندمه عندما يهدأ غضبه. فيصعد اوتنابشتيم وزوجه ويمنحهما بركاته الالهية وخلوداً لنفسيهما، ويسكنهما في القاصي البعيد عند فم الأنهار. وينال أبطال الطوفان الآخرون جزءاً مماثلاً. فيمنح زيوسودرا حياة أبدية في أرض دلمون واكسرتروس ينال نفس النعمة.أما نوح فينال أيضاً بركات الهية من يهوه ولكن هذه البركات لا تصل حد إسباغ نعمة الخلود: «وبارك الرب نوحاً وبنيه وقال انموا واكثروا واملأوا الأرض».

إلا أن نوحاً يتكشف فيما بعد في التوراة عن انسان سكير عربيد. فبعد ان غرس كرماً، حصد وشرب من خمره فسكر وأخذ يرقص ويتعرى من ثيابه: «وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا الى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما الى الوراء فلم يبصروا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لأخوته. وقال مبارك الرب آله سام. وليكن كنعان عبداً لهم»[4].

ويلاحظ هنا ان العبرانيين قد أدخلوا هذا الفاصل في القصة لتبرير امتلاكهم لأرض الكنعانيين وطردهم أهلها الذين لعنهم يهوه بسبب رؤية أبيهم كنعان لعورة أبيه...

(4) سفر التكوين 9: 31 - 35.

نتيجة

لقد قمنا بسرد ما عثر عليه حتى الآن من أساطير الطوفان في المنطقة. وأجرينا مقابلة بين هذه النصوص، موجهين النظر أحياناً الى نقاط اللقاء وتاركين أحياناً أخرى لذهن القارىء ان يعقد المقارنة ويكشف نقاط اللقاء والخلاف. والسؤال الأخير الذي يطرح نفسه: هل اعتمد النص التوراتي على النص البابلي أو أي من النصوص الأخرى؟ والجواب الذي أراه بالدراسة الموضوعية للنصوص هو نعم. مع بقاء الاحتمال قائماً في رجوع النصوص جميعاً الى نص أقدم، وإلى رواية بقيت في أذهان شعوب المنطقة من ديانة توحيدية سابقة. والواقع ان الهيكل العام للرواية التوراتية ينطبق بكل خطوطه العريضة، وبكثير من تفاصيله على النص البابلي حتى ان بعض التعابير تكاد تنطبق بحرفية مطلقة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ان يهوه إنما يقوم في الرواية التواتية بجميع الأدوار المتناقضة للآلهة، لزالت الى حد كبير شقة الخلاف بين الروايتين. فيهوه يقرر منفرداً إرسال الطوفان، ثم انه هو الذي يتسبب في علله، من طغيان مياه السيول والأمطار وانبثاق المياه السفلية، وهو الذي ينقذ بعض الاثيرين لديه، وهو الذي يندم ويعد بالاّ يفعل ذلك ثانية.

أما من ناحية الصياغة الأدبية، فإن النص البابلي يتفوق بشكل واضح على نص التوراة. ويكفي ان نستعيد قراءة وصف أهوال الطوفان، لنرى التصوير الفني البديع والصنعة الأدبية الرفيعة. ويبلغ النص قمة روعته في النهاية عندما يقترب اينليل من اوتنابشتيم وزوجته في مشهد درامي رائع فيصعدهما الى السفينية، ويجعلهما يركعان أمامه فيلمس جبهتاهما مباركاً: ما كنت قبل اليوم إلا بشراً فانياً ولكنك منذ الآن، ستغدو وزوجتك مثلنا نحن الآلهة، وفي القاصي البعيد ستعيشان عند فم الأنهار[5].

---

(5) بصدد قصة الطوفان راجع ما يلي:

1) كتاب العهد القديم (سفر التكوين).
2) طه باقر، ملحمة كلكامش.
3) ادوارد كيير، كتبوا على الطين، ترجم د. محمود حسين الامين.
4) جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، ترجمة د. نبيلة ابراهيم.
5) د. فاضل عبد الواحد احمد، الطوفان، (بغداد 1975).
6) فراس السواح، مغامرة العقل الاولى، (بيروت 1981).
7) برسي ولكوكس، جنة عدن. (بغداد 1955).
8) احمد السقاف، العنصرية الصهيونية في التوراة.
9) غوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الاولى.
10) احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ.
11) د. جورجي كنعان، وثيقة الصهيونية في العهد القديم.

قانون حمورابي وشريعة موسى

يعد حمورابي من أعاظم ملوك العراق القديم. فقد انصرف في أولى سنوات حكمه الى الإصلاحات الداخلية، وترفيه حالة السكان المعاشية، وإقامة المشاريع، وذلك لكسب رضى الناس ومحبتهم. ثم انصرف الى إصلاح الجهاز الإداري والقضاء على الرشوات ورفع المظالم، وتثبيت الأسعار والاهتمام بحفر الترع وإقامة السدود وتقوية الجيش. كل ذلك من أجل تثبيت العدل.

وقد ساعدت الظروف هذا الملك النابه القوي على إزاحة أعدائه ومناوئيه من مسرح السياسة واحداً بعد الآخر، فتحطم النطاق الذي كان مطبقاً عليه. وقد بدأ الحظ يخدمه في إزاحة أقوى عدو له هو الملك «شمس ادد» الجاثم على قمة الحكم في البلاد. واستولى على جنوب العراق بسقوط (لارسا) ثم فتح بلاد عيلام واشنونا، وغزا دولة ماري وقضى على ملكها «زمري لم» واحتل بلاد آشور وبلاد سوبارتو الواقعة شمال كركوك الحالية. وبذلك أصبح ملك الجهات الأربع.

أما موسى النبي، فكان من اولئك الذين قضى عليهم بالموت منذ الولادة. وكان في ظروف أخرى، يرعى الغنم طول حياته ولا يذكر التاريخ ان فرعوناً أصابه بسوء، بل كان له منقذ ومعين حين رفعه من الحضيض الى مرتبة الزعيم المطاع. وقد جعلته أمه في سفط من بردي بعد ان ولدته ثم وضعته بين الخيزران، ولما أقبلت بنت فرعون الى النهر لتغتسل أخذتها الشفقة على الطفل «فاتخذته ابناً لها»[1].

وتلقن الطفل في القصر الملكي ما يتلقن الامراء المصريون من علم القانون والإدارة، والسياسة، والحرب ليعدّ نفسه للقيام مستقبلاً بدور الزعيم في شعبه.

---

(1) سفر الخروج 2: 11.

فيتفاوض مع قبائل الصحراء ويحارب الذين يقطعون عليه السبيل، فيرسي قواعد الناموس لشعبه لكي يسوسه به حتى مجيء السيد المسيح[2].

المسلة والأسفار

بدأ حمورابي قوانينه بمقدمة على غرار مقدمات شريعتي أورنّمو ولبت عشتار، وقد سجلها على مسلة كبيرة من حجر الديورانت الأسود، ارتفاعها 225 سم وقطرها 60 سم، وهي اسطوانية الشكل، رتبت موادها في 44 حقلاً، وكتبت باللغة البابلية ـ الاكدية بالخط المسماري. وتحتوي على 282 مادة، ومن المرجح أنها كانت تزيد على 300 مادة.

في القسم الأعلى من المسلة نحت بارز يمثل الاله شمش آله الشمس جالساً على عرشه يسلّم بيده اليمنى الملك حمورابي الواقف أمامه بخشوع أدوات القياس ليتسنى له إعمار البلاد وتثبيت الملكية. وختم قوانينه بخاتمة طويلة كتبت بالأسلوب نفسه الذي كتبت به المقدمة، وفيها يذكر جميع ما قام به من الأعمال، ويطلب من جميع آلهة البلاد إفناء كل من لا يعمل بهذه القوانين ومن يحاول طمسها أو تخريبها أو إضافة اسمه عليها.

وقد عرضت مواد شريعة حمورابي في ثلاثة عشر قسماً:

الأول: يحتوي على المواد 1 - 5 التي تتعلق بالقضاء والشهود.

الثاني: يحتوي على المواد 6 - 25 وتتعلق بالسرقة والنهب.

الثالث: يحتوي على المواد 26 - 41 وتتعلق بشؤون الجيش.

الرابع: يحتوى على المواد 42 وما بعدها بشؤون الحقل والبيت والبساتين.

الخامس: يحتوي على المواد 107وما قبلها وتتعلق بالقروض، ونسبة الفائدة والتعامل مع صغار التجار وكبارهم.

السادس: يحتوي على المواد 108 - 111 وتتعلق بساقية الخمر.

السابع: يحتوي على المواد 112 - 126 وتتعلق بالائتمان والديون.

الثامن: يحتوي على المواد 127 - 194 وتتعلق بالشؤون العائلية: كالزواج والطلاق والارث والتبني وكل ماله علاقة بالرابطة العائلية.

التاسع: يحتوي على المواد 195 - 124وتتعلق بعقوبات القصاص والغرامات المفروضة على الأضرار التي يحدثها الأفراد بعضهم لبعض.

(2) راجع ترجمة (موسى النبي) مفصلة في سفر الخروج من العهد القديم.

العاشر: يحتوي على المواد 215 - 227 وتتعلق بالطب والطبيب البيطري والمواسم.

الحادي عشر: يحتوي على المواد 228 - 240 وتتعلق بالأسعار وتعيين أجور بناء البيوت والقوارب والصناع والرعاة، كما أنها تتعلق بالعقوبات المفروضة على من يخلّ بالتزاماته.

الثاني عشر: يحتوي على المواد 241 - 277 وتتعلق بأجور الحيوانات والأشخاص.

الثالث عشر: يحتوي على المواد 278 - 282 وتتعلق بشراء العبيد وعلاقاتهم بأسيادهم[3].

أما الشريعة الموسوية، فتتألف من الأسفار الخمسة الأولى من (العهد القديم) التي تكوّن مجموعة موحدة كان اليهود يسمونها «الشريعة» أو «التوراة». وقد اتخذت باليونانية اسم «بانتاتيكوس» أي الكتاب ذو الأسفار الخمسة. وقد انتقلت هذه اللفظة الى اللاتينية وإلى معظم اللغات العصرية. وقد جرت العادة منذ أيام الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية[4]، ان يسمى كل سفر حسب محتواه. فسمي الأول (سفر التكوين) لأنه يصف بدء العالم والإنسانية. ودعي الثاني (سفر الخروج) لأنه يتحدث عن خروج اليهود من مصر. والثالث (سفر الأحبار) أو (اللاويين)، لأنه يحتوي على طقوس الكهنة ابناء لاوي. والرابع (سفر العدد) بسبب احصاءات اليهود وأسباطهم، وتنتهي المجموعة بسفر (تثنية الاشتراع) الذي يبدو تكراراً وتتمة لشريعة موسى.

وتترابط هذه الأسفار بحيث يمكن الوقوف على اللحمة التي تربط سياق الحوادث منذ خلق العالم حتى موت موسى النبي. وهكذا تدخل كل الشرائع ضمن إطار تاريخي. وأبرز ميزات المجموعة الخماسية هو مزج القصص بالشرائع مما يحدو بالقارىء لأن يكون منتهياً بشكل مستمر.

والأسفار الخمسة هذه يطلق عليها اسم «التوراة» أو «كتب الناموس». أما اليهود فقد أطلقوا عليها قديماً اسماء خاصة لا تشير الى محتوياتها، بل هي عبارة عن الألفاظ التي يبدأ بها كل سفر من الأسفار الخمسة[5].

---

(3) د. محمود الامين، قوانين حمورابي، مستل من مجلة كلية الاداب، عدد 3، كانون الثاني (بغداد - 1961). وم المصادر العربية الاخرى:
1) قوانين حمورابي، ترجمة عبد المسيح وزير، مجلة اليقين، 1923 - 1925.
2) قوانين حمورابي، ترجمة عبده حسن الزيات، مجلة القضاء، 1935.
3) شريعة حمورابي، الدكتور عبد الرحمن الكيالي، (حلب - 1985).
4) الشرائع العراقية القديمة، الدكتور فوزي رشيد، (بغداد - 1973).

(4) سميت بالسبعينية لأن اثنين وسبعين كاهناً من احبار اليهود أجمعوا على هذا النص للأسفار الخمسة (العهد القديم) فاعتبرت النسخة المحققة والموثوقة والمعتمد عليها.

(5) د. فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، ص 39.

والآن نتساءل كيف تم اختيار الأسفار المقدسة الخاصة بالعهد القديم؟ وكيف استبعدت الأسفار الأخرى من العهد القديم؟ لنتبين القواعد التي يعتمد عليها والتي تراعى عند الاختيار صحة الرواية ثم تكون دائماً صحيحة فإننا نجد مثلاً «وكتب موسى هذه الشريعة وأعطاها للكهنة»[6] ولا يفهم من هذه العبارة ان «يشوع كتب هذا في كتاب الشريعة أمام الله»[7]. أما بداية السفر ونهايته فمسألة تقديرية حيث روعي فيها الكم لا الكيف.

وإطلاق اسم (أسفار موسى الخمسة) على التوراة لا يشير فقط الى الاهتمام بموسى بل الى نسبتها اليه واعتباره مؤلفها، وهذه هي عقيدة اليهود منذ عهد فيلون السكندري (القرن الأول قبل الميلاد والأول الميلادي). ويوسيفوس، اللذين عاصرا السيد المسيح، وأعلنا ان موسى هو مؤلف التوراة[8].

القانون والشريعة

ثبت أن قانون حمورابي شريعة سامية، وأنه من استنباط العقلية العراقية التي أعطت قيمة للتشريع، للحفاظ على سلامة الشعب وأمنه، والتحريض مع الحرص الشديد على تعميم العدالة.

أما بالنسبة للتوراة (الأسفار الخمسة) فلا بد من وقفة تأمل وتحقيق، فقد قيل عنها الكثير من الروايات التي تحتمل الشك والريبة من أنها من وضع موسى النبي أو في الأقل تشوبها بعض الشوائب التي لا يصح اسنادها لموسى انما حشرت واقحمت فيها وأكثرها مواد مقتبسة من الشعوب المجاورة، أو بالأحرى من التشريع العراقي القديم، وبخاصة من قانون حمورابي. فمجموعة الأسفار التوراتية نشأت وتطورت في عصور بعيدة، وهي خير مرآة للحياة والعقلية اليهودية في النصب والاحتيال.

إن الشرائع التي سنّها موسى، لا تعدو ان تكون وسائل للحياة الأخرى ولذا فهي قابلة للتحوير والتعديل أو النسخ والالغاء على مرّ الأيام بسبب التطور الفكري[9].

ولا عجب في ان ينسب كتّاب القرون التوالي الى موسى كل هذا النشاط التشريعي الذي كان لا بد منه خلال تاريخ طويل. فإذا كانوا يعبرون عن دهشتهم ازاء هذه الشريعة، التي كانت تضعهم فوق كل الشعوب الأخرى، كان من الطبيعي لديهم ان يعظموا ذكر ذاك الذي وضع لها الأسس الأولى في فاتحة أفضل مجموعة تشريعية يهودية، وكذلك في خاتمتها.

(6) سفر تثنية الاشتراع 31: 9 ,24.
(7) سفر يشوع بن سيراخ 24 - 26.
(8) دانيال رويس، ما هو الكتاب المقدس، ص 28.
(9) للتفصيل بهذا الموضوع راجع الاب ديلي، تاريخ شعب العهد القديم، ص 135 - 136، 154 - 155، 156 - 158.

فهل يعني هذا ان موسى كان المؤلف المباشر لجميع مشترعات اليهود، وأنه ينبغي ان نقبل حرفياً المقاطع التي فيها يعزو الكتاب المنزّل الى موسى وضع أسفار التوراة بكاملها؟ ليس الأسلوب والألفاظ فقط هي التي تتغير من موضع الى آخر، بل ثمة إعادات وبعض التغيرات التي تتعارض تماماً ووجهة نظر ساذجة الى هذا الحد(10).

ولكن من السذاجة أيضاً ان تبالغ في تحديد فاعلية موسى الشخصية. ففي زمانه (خاصة بين سنة 1250 وسنة 1230 ق.م) ظهرت الكتابة لدى شعوب شبه جزيرة سيناء ولدى الكنعانيين الذين دوّنوا شرائعهم قبل تدوين موسى.

أثر قانون حمورابي في شريعة موسى

تستقي الشرائع أحكامها عادة من البيئة الجغرافية، ومن ظروف المجتمع السياسية والدينية والمعاشية، بحيث تنسجم مع نمط حياة السكان ومشاكلهم، ولا بد من أن تتأخر هذه الشرائع بعض الشيء بالشرائع التي سبقتها في مختلف المجتمعات، وفي التقاليد المرعية وفي العرف المحلي في مجرى تطورها ونموها. ولا أدلّ على ذلك مما هو واضح في الشريعتين، شريعة حمورابي، وشريعة موسى. فهناك تشابه كلي في بعض مواد الشريعتين، في حين ان هناك مواد أخرى تختلف في أحكامها بين الاثنتين، ومواد أخرى موجودة في الواحدة دون الأخرى. وهذا الاختلاف ناجم عن اختلاف البيئة الجغرافية والظروف السياسية والاجتماعية والدينية والمعاشية. في كل من البلدين اللذين وضعت فيها الشريعتان، غير أنه لا بد من الاعتراف بأن المتشابه بين الشريعتين لا بد أن يكون معظمه مقتبساً من أقدمهما، أي ان المتشابه الوارد في أسفار موسى الخمسة (التوراة) يكون مقتبساً من شريعة حمورابي التي سبقت شريعة التوراة بأكثر من خمسمائة عام. هذا إذا أخذنا بالتاريخ الذي ظهر فيه موسى في زمن الخروج بغضّ النظر عن التاريخ الذي دونت فيه (التوراة) في وقت لاحق بعدة قرون.

ولدينا من الدلائل ما يشير الى أن مدوّني التوراة كانوا مطلعين على الشرائع المختلفة التي وضعها المصريون في مصر، والسومريون والآكديون والبابليون والآشوريون في العراق، وخاصة شريعة حمورابي التي اقتبسوا منها النصوص المتشابهة بين الشريعتين سيما وان اليهود قد سباهم الاشوريون والكلديون بأيام نبوخذ نصر الذي جلبهم الى أرض بابل بما عرف «بالأسر البابلي» فأدخلوا الكثير من نصوص الأدب العراقي القديم في نصوص أسفارهم التوراتية بعد تحويرها وتغييرها من الوثنية الى التوحيد الذي كانوا يدينون به.

وفيما يلي بعض المقارنات النصية المتشابهة والمشتركة بين الشريعتين:

(10) راجع: الأسفار المقدسة، ترجمة يوسف قوزي (الموصل 1964) ص 11 - 13.

1. حكم العين بالعين والسنّ بالسن:

إن التقليد القديم الذي ينطوي على حكم العين بالعين والسنّ بالسن، ورد في قانون حمورابي، وقد ورد نفسه نصاً في التوراة.

ففي شريعة حمورابي المواد التالية:

«إذا سيد فقأ عين ابن أحد الأشراف، فعليهم ان يفقأوا عينه».

(المادة: 196)

«إذا كسر عظم سيد آخر، فعليهم أن يكسروا عظمه».

(المادة: 197)

«إذا سيد قلع سنّ سيد من طبقته فعليهم أن يقلعوا سنّه»

(المادة: 200)

«إذا بنى بناء لرجل داراً ولم يقوّ عمله بحيث انهار البيت الذي بناه، وسبب قتل صاحب البيت، فيجب ان يقتل ذلك البنّاء»

(المادة: 229)

«فإن سبب قتل ابن صاحب البيت، فعليهم أن يقتلوا ابن هذا البناء».

(المادة: 230)

ولقد اقتبس كاتب شريعة موسى هذه المواد وأدرجها فيها كما يلي:

«وان تأتّى ضرر، تبوء نفساً بنفس، وعيناً بعين، وسناً بسنّ، ويداً بيد، ورجلاً برجل، وكيّاً بكي، وجراحه، بجراحه، ورضاً برض».

(سفر الخروج 21: 23 - 25)

«ومن قتل انساناً يقتل قتلاً. ومن قتل بهيمة فليعوض مثلها، راساً بدل رأس، واي انسان أحدث عيباً في قريبه، فليصنع به كما صنع. الكسر بالكسر، والعين بالعين، والسنّ بالسنّ، كالعيب الذي يحدثه في الانسان يحدث فيه... ومن قتل انساناً يُقتل.

(سفر الأحبار 24: 17 - 21)

«لا تشفق عينك، النفس بالنفس، والعين بالعين، والسن بالسن، واليد باليد، والرجل بالرجل».

(سفر تثنية الاشتراع 19: 21)

2. عقوبة تهريب الرقيق أو سرقته وبيعه

إن عقوبة تهريب الرقيق أو سرقته، أو سرقة انسان وبيعه، هي الحكم بالموت في كلتا الشريعتين البابلية والتوراتية وكما يلي؛

ففي حكم قانون حمورابي يعدم كل من احتفظ برقيق في بيته أو ساعد رقيقاً هارياً، أو أمه هاريه:

المادة: 14

«إذا سرق رجل ابناً لسيد آخر، فيجب أن يعدم».

المادة: 15

«إذا سيد ساعد رقيقاً للدولة، أو أمة تعود للدولة، أو رقيقاً لمواطن عادي أو أمه لمواطن عادي على الهروب من باب المدينة فيعدم».

المادة 16

«إذا سيد آوى في بيته رقيقاً هارياً أو أمة تعود الى الدولة، أو إلى مواطن عادي، ولم يقده الى الشرطة فإن صاحب البيت يعدم».

المادة 19

«فإذا كان قد احتفظ بذلك الرفيق في بيته، ثم وجد الرقيق بعدئذ في حوزته فذلك السيد يُعدم».

ومثل ذلك في حكم شريعة موسى:

«ومن خطف أحداً فباعه، أو وجد في يده فليقتل قتلا».

(سفر الخروج 21: 16)

3. عقوبة انتهاك حرمة الوالدين

ان لكل من الشريعتين حكماً في ذلك، فقانون الملك حمورابي، تحكم بقطع اليد إذا ضرب أحد والده:

المادة 195

«إذا ولد ضرب والده فعليهم ان يقطعوا يده».

في حين ان شريعة موسى تحكم عليه بالقتل.

«ومن ضرب اباه أو امه فليقتل قتلاً. ومن لعن اباه أو امه فليقتل قتلاً». (سفر الخروج 21: 15، 17)

4. عقوبات الزنى والاغتصاب

إن وجه التشابه بين أحكام الشريعتين في ذلك ظاهر، فحكم الموت على الزاني والمغتصب، مفروض في كلتا الشريعتين:

المادة 129

«إذا قبض على امراة سيد مضطجعة مع سيد ثانٍ، فيجب عليهم ان يوثقوهما ويلقونهما في الماء، ويمكن لزوج المرأة ان يبقي زوجته على قيد الحياة، ان رغب. كما يمكن للملك أن يخلّي حياة أمته».

المادة 130

«إذا اغتصب شخص عفاف زوجة سيد لم يسبق لها ان تعرفت على رجل، ولما تزل في بيت والدها، ونام في حضنها وقبض عليه اثناء ذلك، فإن هذا الرجل يقتل وهذه المرأة تترك».

المادة 132

«إذا وجهت الأصبع على زوجة سيد بسبب رجل آخر ولكنها لم تقبض اثناء اضطجاعها مع الرجل الآخر، فعليهم ان تلقي نفسها في النهر لأجل زوجها».

المادة 133 ب

«إذا لم تحافظ تلك المرأة على نفسها ودخلت بيت شخص آخر، فعليهم ان يثبتوا هذا على تلك المرأة ويلقونها في الماء».

وفي شريعة موسى؛ إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان، الرجل والمرأة. وتفرض الشريعة الموسوية حكم الموت في الأحوال التالية:

«وان وجد رجل مضاجعاً امرأة ذات بعل فليقتلا جميعاً، الرجل المضاجع والمرأة.....». (سفر تثنية الاشتراع 22: 22)

«ومع زوجة صاحبك لا تجعل لك مضاجعة زرع ولا تتنجس بها».

(سفر الأحبار 18: 19)

«وأي رجل زنى بامرأة، ان زنى بامرأة قريبة فليقتل الزاني والزانية. وان ضاجع أحد زوجة أبيه فقد كشف سوءة أبيه فليقتلا كلاهما، دمهما عليهما. وان ضاجع أحد كنته فليقتلا كلاهما، أنهما صنعا فاحشة، دمهما عليهما. وان اتخذ أحد امرأة وأمها فتلك فاحشة فليحرق هو وهي بالنار».

(سفر الأحبار 20: 10 - 14)

ومثل ذلك فرضت شريعة حمورابي:

المادة 155

«إذا سيد اختار عروسة لابنه. ودخل بها ابنه، ولكن بعدئذ ينام هو بنفسه في حجرها فيقبضون عليه. فيجب عليهم ان يوثقوا ذلك الرجل ويلقونه في الماء».

المادة 157

«إذا نام سيد في حجر أمه بعد والده. بعد وفاة والده - فعليهم أن يحرقا كليهما».

5. عقوبة السرقة والنهب

مهما تختلف الأحكام بين الشريعتين، إلا أنها تتشابه وتترابط. فشريعة حمورابي أشدّ في عقوباتها، إذ تفرض عقوبة الاعدام في جميع قضايا السرقات والنهب.

المادة 6

«إذا سرق سيد ثروة تعود للآله أو للقصر[11]. فإن ذلك الشخص يعدم كذلك يعدم من يتقبل المسروقات من يده».

المادة 8

«إذا سرق سيد إما ثوراً أو شاة أو حماراً أو خنزيراً أو قارباً، إذا كان يعود للإله أو للقصر فعليه أن يعطي ثلاثين مثلاً. أما ان كان يعود الى مسكين[12] فعليه ان يدفع عشرة أمثال كاملة، إذا السارق ليس لديه التعويض الكافي فإنه يعدم.

المادة 14

«إذا سيد سرق الابن الصغير لسيد آخر، فيجب أن يعدم»[13].

المادة 22

«إذا سيد قام بالسرقة وقبض عليه (في اثنائها) يعدم».

المادة 23

«إذا السارق لم يقبض عليه، فإن على السيد المسروق أن يشتكي للآله عن كل المسروقات وعما فقد وعلى المدينة والحاكم الذي في أرضه ومنطقته حصلت السرقة أن يعوّضه جميع ما فقد منه».

أما الشريعة الموسوية فهي تحكم بمبدأ التعويض بضعف المسروق ان وجد السارق، وان لم يوجد السارق تقدم الدعوى الى الله فالذي يحكم الله بذنبه يعوض صاحبه باثنين.

«إذا دفع انسان الى صاحبه فضه أو امتعة ليحفظها فسرقت من منزله، فإن وجد السارق عوّض مثلين. وان لم يوجد السارق يقدّم صاحب المنزل الى الآلهة ليحلف أنه لم يمدد يده الى مُلك صاحبه. كل دعوى جناية في ثور أو حمار أو شاة أو كل ضالة يقال فيها الأمر كذا فإلى الآلهة ترفع الدعوى ومن تحكم الآلهة عليه يعوّض صاحبه مثلين. إذا دفع أحد الى صاحبه حماراً أو ثوراً أو شاة أو شيئاً من سائر البهائم ليحفظه فمات أو تعيّب أو غنِم ولم يره راء. فيمين بالرب تكون بينهما»[14].

(سفر الخروج 22: 7 - 11).

---

(11) المقصود بذلك هو الثروة التابعة للمعبد او الدولة.

(12) المسكين تعني هنا شخصا من الطبقة الوسطى وكذلك شخصاً عادياً.

(13) ان المواد الخاصة بالسرقة وردت عقوباتها متباينة، متغايرة وذلك في المواد الواقعة بين 6 و 13. وفي المواد 260, 22, 23, 25, 259 و265 مما يدل على ان هذه المواد تعود الى فترات مختلفة من تاريخ العراق القديم، وكان حمورابي قد أدرجها جميعاً في قوانينه.

(14) من الملاحظ ان أسفار موسى الخمسة تاخذ في مثل هذه القضايا بالحكم الالهي حيث يمكن التكفير عن الذنوب بتقديم القرابين للاله عن طريق الكهنة (انظر سفر العدد 5: 11 - 28).

وعلى الرغم مما تقدم فهناك تشابه في الشريعتين البابلية والموسوية في فرض عقوبة التعويض بأضعاف المسروق. فالمادة الثامنة من الشريعة البابلية تنص على التعويض بثلاثين مثلاً إذا سرق شخص ثوراً أو شاة أو حماراً أو خنزيراً أو قارباً يعود للآله أو للقصر. أما ان كان يعود الى مسكين (شخص عادي) فعليه أن يدفع عشرة أمثال كاملة. وشبيه ذلك ورد في الشريعة الموسومة، حيث ينص الاصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج على التعويض بخمسة ثيران إذا كان المسروق ثوراً وأربع من الغنم إذا كان المسروق شاة.

6. عقوبة الاتهام الكاذب

إن التشابه في عقوبة اتهام المرأة أو الفتاة بالفحشاء دون إثبات في كل من الشريعتين بهذا الباب واضح، ففي شريعة حمورابي يجلب ذلك الرجل أمام القضاة ويعلّوا جبينه قصاً:

المادة 127

«إذا سيد أومأ بابهامه على عينة معبد او على زوجة سيد ولكن لا يثبت عليها شيء فيجب جلب ذلك الرجل أمام القضاة ويعلّموا جبينه قصاً».

ونجد مثل ذلك في شريعة موسى التي تترك الى شيوخ المدينة تأديب الرجل وتغريمه بمقدار من الفضة.

«إذا تزوج رجل بأمراة ودخل بها ثم ابغضها، فنسب اليها ما يوجب الكلام فيها وأذاع عنها سمعة قبيحة، يأخذ الفتاة أبوها وأمها ويخرجان الى شيوخ المدينة الى الباب، ويقول أبوها للشيوخ اني أعطيت ابنتي لهذا الرجل زوجة بأبغضها، وها هوذا قد نسب اليها ما يوجب الكلام فيأخذ شيوخ المدينة ذلك الرجل ويؤدبونه ويغرمونه مئة من الفضة ويدفعونها الى أبي الفتاة لإذاعته سمعة قبيحة، وتكون له زوجة ولا يستطيع أن يطلقها طول عمره».

(سفر تثنية الاشتراع 22: 13 - 21)

7. عقوبة الشهادة الكاذبة

إن الحكم في هذا الباب أشدّ صرامة في الشريعة البابلية منه في الشريعة الموسوية. ففي شريعة حمورابي العقوبة هي الاعدام.

المادة 1

«إذا اتهم سيد سيداً وأقام عليه دعوى بالقتل ولكنه لم يستطع اثباتها فإن المتهم يعدم».

المادة 3

«إذا أدلى سيد بشهادة كاذبة في دعوى ما لم يثبت صحة الكلمات التي نطقها، فإن كانت تلك الدعوى تتعلق بدعوى حياة فإن ذلك السيد يعدم».

المادة 11

«فإذا لم يقدم المالك (المعترف) بالمال المفقود شهوداً يؤيدون ماله المفقود، فهو إذا غشاش وقام بشكاية كاذبة، فيجب أن يعدم».

أما شريعة موسى فكانت العقوبة فيها أخفّ وطأة.

«إن قام على أحد شاهد زور فشهد عليه بردّه، فليقف الرجلان اللذان بينهما الدعوى أمام الرب، أمام الكهنة والقضاة الذين يكونون في تلك الأيام. وليستقص القضاة جيداً فإن كان الشاهد شاهد زور وقد شهد بباطل على أخيه. فاصنعوا به كما نوى أن يصنع بأخيه واقلع الشر من بينكم. فيسمع الباقون ويخافوا ولا يعودوا يصنعون أيضاً مثل هذا الشرّ فيما بينكم، لا تشفق عينك النفس بالنفس والعين بالعين والسنّ بالسنّ، واليد باليد، والرجل بالرجل.

(سفر تثنية الاشتراع 19: 16 - 21)

8. عقوبة السِّحر

أما حكم الشريعة البابلية بالساحر فكما يلي:

المادة 2

«إذا اشتكى سيد على سيد بتهمة السحر، ولكنه لم يثبتها فإن على الذي أقيمت عليه الدعوى بتهمة السحر ان يذهب الى النهر[15]، وعليه ان يرمي نفسه في النهر. فإذا غلبه فإن على من اتهمه ان يستولي على ثروته فإذا أثبت النهر ان هذا السيد بريء وخرج منه سالماً، فإن الذي اشتكى عليه بتهمة السحر يعدم. أما الذي ألقى نفسه في النهر فعليه ان يستولي على ثروة المتهم».

أما شريعة موسى النبي فتنص:

«ساحرة لا تستبق». (سفر الخروج 22: 18)

«لا يوجد فيكم من يجيز ابنه أو ابنته في النار ولا من يتعاطى عِرافة ولا مشعوذ ولا متفائل ولا ساحر. ولا من يرقي رقية ولا من يسأل جاناً أو تابعة ولا من يستشير الموتى، لأن كل من يصنع ذلك ممقوت عند الرب ولأجل تلك الرجاسات سيطرد الرب الهك أولئك من وجهك».

(سفر تثنية الاشتراع 18: 10 - 13).

---

(15) المقصود بالنهر هو نهر الفرات. وقد كانت له قدسية عند البابليين وبأنه مطهّر ومظهر للحقائق، وكان المتهم يُقَيّد ويُرمى في النهر، فإن غرق ذهب بجريرته وان طاف فهو بريء. (د. محمود الامين: شعار سومر، مجلة سومر (بغداد) مج 8 مجلد 2 لعام 1952).

9 ـ الديون وكيفية استيفائها

إن الشريعتين البابلية والموسوية، تجوّز بيع خدمة أحد أفراد العائلة في حالة تخلف المدين عن دفع الدين المستحقة عليه.

ففي الشريعة البابلية نصوص تنطوي على بيع خدمة الزوجة أو الابنة أو الابن، وعلهيم أن يعملوا في بيت الدائن ثلاث سنوات وتعاد لهم حريتهم في السنة الرابعة.

المادة 117

«إذا حان الاستحقاق [16] على سيد وباع[17] زوجته أو ابنه أو ابنته أو ارتبط بالخدمة فيجب عليهم أن يعملوا في بيت من اشتراهم أو الدائن ثلاث سنوات وتعاد لهم حريتهم في السنة الرابعة».

المادة 118

«إذ أعطى رقيق أو أمة للخدمة[18]، واستكمله التاجر، فيستطيع بيعه ولا يحق له[19] بمطالبته».

المادة 119

«إذا استحق الدين على سيد وباع بالدراهم[20]، أمته التي ولدت له أولاداً ودفع صاحب الأمة الدراهم التي كان التاجر قد دفعها له. فله الحق ان يعتق الأمة.

أما شريعة موسى، فقد جعلت مدة الخدمة ست سنوات وفي السابعة يخرجون أحراراً مجاناً.

«إذا ابتعت عبداً عبرانياً فليخدمك ست سنين، وفي السابعة يخرج حراً مجاناً. ان دخل وحده فليخرج وحده، وان كان ذا زوج فلتخرج زوجة معه. وان زوّجه مولاه بامرأة فولدت له بنين أو بنات فالمراة وأولادها يكونون لمولاه وهو يخرج وحده. وان قال العبد قد أحببت مولاي وزوجي وبنيّ لا يخرج حراً يقدمه مولاه الى الآلهة، يقدمه الى مصرع الباب أو قائمته ويثقب مولاه اذنه بالمثقب فيخدمه الى الدهر. وان باع رجل ابنته أمة فلا تخرج خروج العبيد. وان كرهها مولاها الذي خطبها لنفسه فليدعها تفك وليس له ان يبيعها لقوم غرباء لأنه قد غدر بها. وان أعطاها خطيبة لابنه فبحسب حكم البنات يعاملها. وان تزوج بأخرى فلا ينقصها من طعامها وكسوتها وأوقاتها. فإن أخلّ بواحدة من هذه الثلاث تخرج مجاناً بلا ثمن.

(سفر الخروج 21: 2 - 11)

---

(16) أي استحقاق الدين.

(17) أي باع خدمه زوجته.

(18) أي قدمهما للدائن ليكونا رقيقاً أو أمة لدى الدائن بدل دينه والكلمة البابلية هي أعطاهما للعبودية.

(19) أي لا يحق له المطالبة باستعادة الريق او الأمة.

(20) أي باع خدمة أمته.... الخ.

10 . التعويض عن الأضرار

جعلت شريعة حمورابي، التعويض في حالة الرعي في حقل ما أن يعطي الراعي لصاحب الحقل عشرين كوراً[21] من الحبوب لكل ثمانية عشر ايكو[22] من الأراضي التي رعى فيها غنمه[23].

المادة 57

«إذا لم يتفق راع مع صاحب الحقل على رعي غنمه من العشب، ولكنه ترك الغنم ترعى في الحقل بلا موافقة صاحب الحقل، فعندما يحصد الحقل حقله، فعلى الراعي الذي ترك الغنم ترعى في الحقل بلا موافقة صاحب الحقل ان يعطي لصاحب الحقل عشرين كوراً من الحبوب لكل ثمانية عشر ايكو».

أما الشريعة الموسوية فإذا رعى انسان حقلاً أو كرماً وسرح مواشيه فرعت في حقل غيره فمن أجود حقله، وأجود كرمه يعوّض.

«إذا رعى أحد حقلاً أو كرماً فأطلق بهيمته ورعت في حقل غيره فمن أجود حقله أو كرمه يعوّض».

(سفر الخروج 22: 5)

11 . التزوج بأكثر من إمرأة واحدة

تجوّز الشريعتان ذلك، ففي الشريعة البابلية، إذا تزوج شخص امرأة ولم تنجب أولاداً، فلهذا الرجل أن يأخذ جارية كأمرأة ثانية، ولا يجوز أن تتساوى مع الزوجة إلا إذا ولدت أولاداً[24].

المادة 144

إذا أخذ سيد زوجة[25]، واعطت هذه الزوجة جارية لزوجها فولدت اولاداً، ثم اراد هذا الرجل ان يأخذ جارية[26]، فيجب عليهم ان لا يسمحوا لهذا الرجل لأنه يجب أن يتزوج امراة ثانية».

---

(21) الكور: نوع من المكاييل السومرية ويقابل عندنا «الفَرْفَة». ويعادل حوالي 180 حقه (81/2 بوشل).

(22) الايكو: من مقاييس المساحات البابلية ويعادل 7/8 من الفدان الكبير.

(23) انظر المواد 53 ,54 ,55 ,56 من قانون حمورابي.

(24) هناك اكثر من "65" مادة في قانون حمورابي تتعلق بالشؤون العائلية. راجع كتاب جان امل ريك: مركز المراة في قانون حمورابي وفي القانون الموسوي (مصر 1926) وكتاب الاستاذ رضا جواد الهاشمي. نظام العائلة في العهد البابلي القديم (النجف 1971) وكتاب تلماستيان عقرة، المراة، دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين (بغداد 1978) وكتابنا المراة في قانون حمورابي الموصل 1986.

(25) ان قوانين حمورابي فرقت بين النساء. فسمت المراة Sinnishtum والزوجة ashshatum ونوعاً آخر باسم ishippatum وهي التي يترجمها Meek بتحفظ الاردول hierodule اي بغية المعبد وهي المراة التي وهبت نفسها للإله.

(26) راجع الدكتور محمود الامين، قوانين حمورابي، ص 48.

المادة 145

«إذا تزوج سيد زوجة له ولم تهد[27] له اولاداً وقرر ان يتخذ لنفسه جارية فله ذلك ويأتي بها الى بيته، إنها امرأة ثانية، ولا يجوز ان تتساوى مع الزوجة».

المادة 146

«إذا سيد تزوج زوجة واعطت لزوجها جارية فولدت أولاداً، فإن هذه الجارية تتساوى بعد ذلك مع سيدتها لأنها ولدت أولاداً ولا يجوز لسيدتها ان تبيعها بالفضة أو تضعها في السلاسل أو تعدها من الأمات».

المادة 147

«فإذا لا تلد أولاداً فتستطيع سيدتها أن تبيعها بالفضة».

وفي مدونات التوراة ما يشير الى جواز ذلك أيضاً:

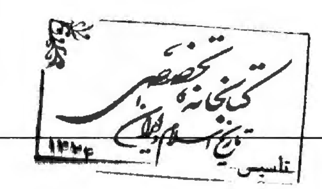
«وأما ساراي[28] إمرأة ابرام[29]، فلم تلد له. وكانت له أمة مصرية اسمها هاجر. فقالت ساراي لإبرام: هوذا قد حبسني الرب عن الولادة، فادخل على أمتي لبعل بيتي يبني منها. فسمع ابرام لقول ساراي فأخذت ساراي امرأة ابرام هاجر المصرية أمتها من بعد عشر سنين من مقام ابرام في أرض كنعان فأعطتها لإبرام رجلها لتكون له زوجة. فدخل على هاجر فحملت. فلما رات أنها قد حملت هانت مولاتها في عينيها. فقالت ساراي لإبرام: ظلمي عليك. إني دفعت أمتي الى حجرك فلما رات أنها قد حملت هُنت في عينيها. يحكم الرب بيني وبينك. فقال ابرام لساراي: هذه أمتك في يدك، اصنعي بها ما يحسن في عينيك. فأذلتها ساراي فهربت من وجهها...».

(سفر التكوين 16: 1 - 6)

«ولما رات راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت من أختها وقالت ليعقوب هب لي ولداً وإلا فإني اموت. فاستشاط يعقوب على راحيل غضباً وقال: ألعلي أنا مكان الله الذي منعك ثمرة البطن. قالت هذه أمتي بلهة ادخل بها فتلد على ركبتي ويبنى بيتي منها أنا أيضاً. فأعطته أمتها بلهة إمراة فدخل بها يعقوب، فحملت بلهة وولدت ليعقوب ابناً. ورات ليئة انها قد توقفت عن الولادة فأخذت زلفة أمتها وأعطتها ليعقوب امراة فولدت زلفة أمة ليئة ليعقوب ابناً».

(سفر التكوين 30: 1 - 12)

(27) ان الكلمة انجب ينجب تعني في البابلية القديمة «يهدي».
(28) ساراي: سارة.
(29) ابرام: ابراهيم.



12 ـ شؤون حياتية عامة

أدرجت شريعة حمورابي مواداً تتعلق بشؤون الحياة اليومية العامة وذلك لتنظيم أمور الأفراد في المجتمع منها[30]:

المادة 202

«إذا سيد صفع خد سيّد ارفع منه فيجب ان يضرب ستين جلدة بجلدة من ذنب الثور في المحكمة».

المادة 204

«إذا شخص اعتيادي صفع آخر اعتيادياً على خده فعليه أن يدفع عشرة شيقلات من الفضة».

المادة 206

«إذا سيد ضرب سيداً آخر في شجار وسبب له جرحاً فعلى ذلك السيد ان يقسم. لم أضربه متعمداً. وعليه أيضاً أن يدفع للطبيب».

المادة 209

«إذا سيد ضرب بنت سيد فسبب لها الاجهاض، فعليه أن يدفع عشرة شيقلات من الفضة لإسقاط جنينها».

المادة 210

«إذا تلك المرأة توفيت فيجب اعدام بنته».

المادة 225

«فإذا عمل لعجل أو حمار جرحاً ثقيلاً فأماته فعليه أن يدفع لصاحب العجل أو الحمار خمس ثمنه».

المادة 251

«إذا كان عجل سيد نطاحاً واظهر له خطأه أنه نطاح ولم يقص قرينه أو لم يربط عجله. فإذا هذا العجل نطح سيداً فاماته فعليه أن يعطي نصف مانا من الفضة».

ولقد أوردت الشريعة الموسوية مثل هذه التشريعات:

«وإذا اختصم رجلان فضرب أحدهما صاحبه بحجر أو لكمه فلم يمت بل ألقي في الفراش. وإذا اختصم قوم فصدموا امرأة حاملاً فسقط الجنين ولم يتأتَ ضرر فيلغرّم الصادم كما يفرض عليه بعل المرأة ويؤدي على يد القضاة، وان تأتى ضرر تبيء نفساً بنفس. وان نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات فليرجم الثور ولا يؤكل من لحمه وربّ الثور بريء».

(سفر الخروج 25: 15، 18)

---

(30) هناك مواد كثيرة لم ندرجها هنا تتعلق بالعقوبات والتعويض والغرامات ونقض الاتفاقيات والعقود - 227). 195)

13 ـ الوديعة والدية

شرّع المشرّع العراقي في أمر الودائع والمحافظة عليها وارجاعها الى صاحبها، وكذلك بدفع الديّة نتيجة المخاصمة بسببها:

المادة 125

«إذا أعطى سيد شيئاً من أمواله قصد المحافظة[31]، وفي المكان الذي أعطاها فقد ماله مع أموال صاحب البيت نتيجة لسرقة أو نهب، فيجب على صاحب الدار الذي كان مهملاً فسبّب فقدان ما وضع لديه للمحافظة ان يعوّض كاملاً لصاحب المال كل ما وضع لديه للمحافظة وما فقد منه، ويجب على صاحب الدار ان يبحث على المال المفقود ويأخذها من سارقها».

المادة 126

إذا سيد لم يفقد شيئاً من ماله ولكنه يقول (ان ماله قد فقد) ويريد ان يشتكي بسبب الخسارة المزعومة، فبالنسبة لماله الذي لم يفقده وشكواه أمام الاله بالخسارة المزعومة يجب عليه أن يدفع كل ما اشتكى بسببه مثلين، بدل الخسارة المزعومة».

وبالضبط ورد هذا في شريعة موسى القائلة.

«أي انسان خطىء وغدر بالرب فجحد على قريبه وديعة أو أمانة أو مسلوباً أو غصبه شيئاً. أو جحد ضالة وجحدها وحلف كاذباً على شيء من كل ما يفعله الانسان فيخطأ به. إذا خطىء واثم فليرد المسلوب الذي استلبه أو الغصب الذي غصبه أو الوديعة التي استودعها أو الضالة التي وجدها. أو كل ما حلف عليه كاذباً يردّه بعينه ويزد عليه خمسة ويعطله للذي هوله في يوم ذبيحة اثمه. وليأت الى الكاهن بذبيحة للرب عن اثمه كبشاً صحيحاً من الغنم بمقدار الاثم. فيكفّر عنه الكاهن أمام الرب فيغفر له ما فعله من جميع ما يؤثم به».

(سفر الأحبار 6: 2 - 7)

14 ـ استخدام الحيوانات

بيّن حمورابي في شريعته ان كل عمل يستحق الأجرة وبعدالة كيما تستمر الحياة في المجتمع الزراعي فدوّن:

المادة 242

«إذا سيد يستأجر[32] لمدة سنة، فعليه أن يدفع أجرة لثور شغل 4 كور من الحبوب».

---

(31) ويقصد بالمحافظة «الايداع على سبيل الامانة او الاجرة».

(32) يستأجر حيواناً، عجلاً، او ثوراً، او حماراً.... الخ.

المادة 254

«إذا كان قد تصرّف بالطعام وجوّع البقر فعليه أن يعوّض الحبوب التي استلمها بضعفين».

كذلك بين موسى النبي في شريعته:

«وان استعار أحد من صاحبه شيئاً فانكسرت أو مات، وليس ربّه معه يعوّض. وان كان ربّه معه فلا يعوّض فلا يعوّض. وانكان مستأجر فقد قضى بأجرته». (سفر الخروج 22: 14)

15. مبدأ الأشياء في العقود

سنّ حمورابي في شريعته بنوداً تخص العقود والاتفاقيات بين الأشخاص وتبيّن مبدأ التعويض فيها بعد ختم العقد أمام شهود لغاية الاستلام والتسليم.

المادة 120

«إذا أودع سيد غلّته في بيت سيد لخزنها وتضررت بسبب نشوب حرب، أو أن صاحب البيت فتح العنبار واخذ الغلّة، أو انه انكر الغلّة كلها، التي خزنها في بيته، فإن على صاحب الغلّة أن يشتكي أمام الاله. ويجب على صاحب البيت الذي أخذ الغلّة أن يدفع ضعفها لصاحب الغلّة».

المادة 122

«إذا أراد سيد أن يعطي فضة أو ذهباً أو اي شيء لسيد قصد المحافظة عليها، فيجب عليه أن يشهد على ما يعطيه شهوداً وان يجعل بذلك عقوداً ومن ثم يودعها للمحافظة».

المادة 124

«إذا أعطى سيد سيداً فضة أو ذهباً أو اي شيء آخر أمام شهود للمحافظة عليها، فأنكرها ومن ثم اثبتوا ذلك على هذا السيد، فيجب عليه أن يدفع ضعف ما انكره».

وبذات المعنى وضع موسى النبي البنود الخاصة في العقود:

«إذا دفع انسان الى صاحبة فضة أو أمتعة ليحفظها فسرقت من منزله فإن وجد السارق عوّض مثلين. وان لم يوجد السارق يقدّم صاحب المنزل الى الآلهة ليحلف أنه لم يمدد يده الى ملك صاحبه كل دعوى جنابة في ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو كل ضالة يقال فيها الأمر كذا، فإلى الآلهة ترفع الدعوى ومن تحكم الآلهة عليه يعوّض صاحبه مثلين. إذا دفع أحد الى صاحبه حماراً أو ثوراً أو شاة أو شيئاً من سائر البهائم ليحفظه فمات أو تعيّب أو غُنِم ولم يره راء، فيمين بالرب يكون بينهما. انه لم يمدّ يده الى ملك صاحبه فيقبلها الصاحب وهو لا يعوّض شيئاً».

(سفر الخروج 22: 7 - 11)

شريعة موسى
وعلاقتها بشريعة حمورابي

بعدما ظهرت الآثار المكتشفة في بلاد «بابل» استدل العلماء على أن ما ورد في «سفر التكوين، والخليقة» من قصص وروايات، عن أصل الكون وكيفية خلق الأشياء، من سماء وأرض وحيوانات ونبات وانسان، وعن الطوفان وما أعقبه، كان مأخوذاً عن أساطير البابليين وقصصهم. ثم بعد أن عثر المنقبون على النصب القائم في مدينة «سوسا» وقرأوا ما كتب عليه عن شريعة حمورابي تبين لهم أيضاً ان الأسفار الخمسة وهي «التكوين، والخروج، واللاّويين، والعدد، والتثنية» أصلها بابلي ومأخوذة عن تلك الشريعة البابلية.

أما اليهود فعندهم ان جميع شرائع اسرائيل هي موحاة من اله اسرائيل الى موسى الذي جاء بعد حمورابي بخمسمائة سنة.

ومع هذا، فمولد موسى على رأي بعض علماء الآثار، إذا صح وجوده كما وصفته كتب بني اسرائيل وكما وصفت حياته وأسباب قذفه في اليم يوم مولده من قبل أمه فيشابه كثيراً ما رواه البابليون في أساطيرهم عن حياة «سرجون الأول» ملك آكاد المسمى «شارغاني ـ شار ـ الي "Shargani - Shar - Ali"» الذي ظهر في بلاد «آكاد» عام **2650** قبل المسيح، واختفى في نهر الفرات مختبئاً بين أوراق الحلفى بعد مولده. ثم ظهر واضطهد، ونجا وعاش وما زال يجد ويسعى حتى غدا ملكاً على بابل بأجمعها، وغزا السومريين واحتل بلادهم وقضى على دولهم. ولبيان ان الأسفار الخمسة لم تكتب في عصر واحد بل كتبت في أزمان مختلفة تتراوح ما بين القرن الثامن عشر قبل المسيح، وأيام اسكندر المقدوني، الذي ظهر في عام **336** قبل المسيح، يرى العلماء ضرورة لتقسيمها الى عدة أقسام. وبحسب تحقيقات الدكتور «درايفر Driver» وهو الذي درسها ورتبها وفصّل محتوياتها، وأخرجها الى العالم، في كتاب سماه المدخل الى

أدب العهد القديم وهي التوراة، ان الكتب المذكورة يمكن تقسيمها الى أربعة أنواع من التشريع:

1 ـ النوع الأول يتناول «كتاب العهد Coveneut أو كتاب الخروج، وذلك من الاصحاح العشرين حتى الآية 33 من الاصحاح الثالث والعشرين، ويتناول الآيات 11 حتى 26 من الاصحاح الرابع والثلاثين من السفر المذكور.

2 ـ النوع الثاني: «سفر التثنية Deuteronomy».

3 ـ النوع الثالث «شريعة التقديس» وهو سفر اللاويين من الاصحاح 17 الى الاصحاح 26.

4 ـ والنوع الرابع «شريعة الكهنة» أو ميزان التشريع الاسرائيلي. وهي في الحقيقة الأسفار الخمسة ومن أهمها، لأنها تأتي بعد زمن عزرا Izra، ثم أضيفت اليها صحف أخرى متأخرة عن هذا التاريخ. وكتاب الشريعة، أو سفر اللاويين يعد شريعة مستقلة، لأنها تتعلق بالمراسيم والعبادات والطقوس الدينية، وبأداب الذبيحة وكيفية ممارستها كما هي عند الاسرائيليين.

وهذه الشريعة تشابه الشريعتين المتقدمتين «شريعة الخروج والتثنية» من حيث ابتدأت بالتعاليم الواردة فيهما، وختمت بالمواعظ الدينية والارشادات الأبوية. ثم لها تقارب عظيم، مع ما ورد عن النبي «حزقيال»، وربما تعود لأيامه.

ويظهر ان كتاب «التثنية» هو كتاب «القانون» الذي وجده كاهن القدس العظيم المدعو «هيلكيا Hilkiha» في السنة الثامنة عشر من أيام «اشعيا ـ Jesiah» أي في عام 621 قبل المسيح في الهيكل الاسرائيلي.

ويتبين مما تقدم، ان أقدم مثال للتشريع الاسرائيلي هو كتاب العهد أي كتاب الخروج. ويؤيد ذلك ادعاء الاستاذ «سميث» أن سفر الخروج من الاصحاح الـ 21 الى 23، يعد أول تشريع اسرائيلي. ولكن النقاد والمتأخرين يقولون، ان الكتاب المذكور هو ما أنزله «يوهوا Yahveh» أي إله اسرائيل على موسى، عندما كان واقفاً على جبل سيناء. وكان نزوله مصحوباً بالرعد والبرق والدخان والنار والصواعق وأصوات الطبول، وبقية الظواهر الخارقة للعادة، الدالة على عظمة الوحي وجديته وأهميته وخطورته.

على أن ثقاة المؤلفين من اليهود، لم يشاركوا النقاد الغربيين في آرائهم لاعتقادهم ان الذي كتب سفر التثنية لم يتطرق الشك الى قلبه بما حواه، كي يسعى الى نسخه بشريعة سابقة.

وفي الجدول الذي وضعه الاستاذ «سميث» ما يدل على أن سفر التثنية، يحوي

جميع ما ورد في كتاب التشريع الأول. ولكن يظهر ان الذين كتبوا سفر الخروج، لم يترددوا في تحريف متنه، فقد جاءت الآية 18 من أول آيات الاصحاح الثاني والعشرين تماماً، بعد الآية 25 من الاصحاح التاسع عشر. وأقحم ما بين ذلك بالوصايا العشر. وعلاوة على هذا، فالكلمات العشر المذكورة، لو كانت من أصل كتاب الخروج، لما كان من ضرورة للاصحاح الثالث والعشرين من آيته الأولى حتى الآية الثالثة والعشرين، التي هي تكرار للاصحاح العشرين، وكذلك بالنظر للاصحاح الثالث والعشرين وما ورد في أوله حتى الآية 12، فإنها تعد حشواً، إذا قارناها بالاصحاح العشرين وآيتيه التاسعة والعاشرة.

وأما ما يتعلق بالوصايا العشر[1]، فإن العلماء لهم أبحاث عديدة عن تاريخها وأصلها، وهم يدعون بأنها مدسوسة في الاصحاح العشرين، وعبارة «الغريب داخل أبوابك» الواردة في الآية العاشرة من اصحاح الخروج، تدل على أنها من سفر التثنية. ولهذا يجب الاقرار بأن الوصايا المذكورة، هي متأخرة عن السفر المشار اليه. والعبارة الواردة في الاصحاح العشرين الآية 11 التي تشير الى أيام الخليفة الستة هي أيضاً متأخرة عن الفصل الأول من كتاب الخليقة، وتابعة لقانون الكهنة وحديثه بالنسبة اليه.

ونظراً لما تقدم، يجب حذف الوصايا العشر، واعتبار ابتداء كلام الاله «ياهوا» من الاصحاح الثاني والعشرين والآية 22 الى الاصحاح الثالث والعشرين حتى الآية 33 من سفر الخروج. وهي مجموعة التشريعات التي يتبادر الى الذهن السؤال عن أصلها السينائي «نسبة الى سينا».

وعند التحقيق في شريعة حمورابي، يتبين لنا ان موسى لا يحتاج الى قوة خارقة للطبيعة، أو الى مرشد خارق للعادة كي يضع شريعته. لأن شريعة حمورابي موجودة وموضوعة قبل موسى بخمسمائة عام، وهي معلومة لديه. وقومه الاسرائيليون كانوا على وشك الدخول الى بلاد تسود فيها تلك الشريعة البابلية الكاملة.

وإذا فرضنا صواب النقد الحديث وصحة آرائه، وان الشرائع الواردة في الخروج ليست أقدم من أيام الانبياء هوزيا Hosea أي يوشع، وآميس Amas أي عاموس، وميكا Micha، أي «ميخا» وأنها في القرن الثامن قبل المسيح، فإننا نبقى بعيدين عن عصر حمورابي، وقريبين من زمن هجرات البابليين الزاحفة المنتشرة، بعد انتصارات الآشوريين.

---

(1) الوصايا العشر: 1. انا الرب الهك الذي اخرجك مصر لا يكن لك آلهة اخرى امامي. 2 ـ اني انا الرب الهك إله غيور افتقد ذنوب الآباء في الأبناء. 3 ـ لا تنطق باسم الرب الهك بالباطل. 4 ـ اذكر يوم السبت لتقدسه ستة ايام تعمل، وأما اليوم السابع فهو للرب الهك. 5 ـ اكرم اباك وامك تطول ايامك على الأرض. 6 ـ لا تقتل. 7 ـ لا تزن. 8 ـ لا تسرق. 9 ـ لا تشهد على قريبك شهادة الزور. 10 ـ لا تشته بيت قريبك لا امراته، ولا عبده، ولا امته، ولا ثوره، ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك.

والذي تجب ملاحظته، ان التنظيمات الواردة في كتاب الشريعة تحمل في طياتها مشابهة سطحية، لما ورد في شريعة حمورابي. فالكتاب المذكور يبتدىء ببيان كيفية عبادة الاله «ياهوا» ومن بعده تأتي نصوص الشريعة، ثم تنتهي بالانذار والوعيد لمن يعصى أحكامها، وبالنصائح والارشادات، لمن يجب ان يخضع لها.

وشريعة حمورابي تبتدىء بالشيء ذاته، بإعلان عظمة الملك حمورابي وخدماته وأتعابه، ثم تذكر الأحكام التشريعية، ثم تدعوا الأجيال الآتية لاحترام النصب، والخضوع للشريعة المسطرة عليه. وإذا كان من الثابت وجود التشابه بين الشريعتين، فالتشريع البابلي لا شك هو الأقدم، والتشريع العبري قد أخذ أحكامه عنه لأنه المتأخر.

الأوضاع الاجتماعية في الشريعة الاسرائيلية

وتشير الشريعة الاسرائيلية الى صنوف ثلاثة يتمثل الشعب فيها: «الصنف الحر، والصنف العامي، والصنف المستعبد، أي الغريب، والتنزيل المتوسط بين العبد والمواطن الحر». وهذا ما نجده في شريعة البابليين «الرجل الحر، والعامي، والعبد».

وكان الاسرائيلي المتدين يسمي نفسه «ابن الله» كما ورد في الاصحاح الرابع والثلاثين الآية 12 من سفر «مزامير داوود». وكذا وجد على الانصاب التي أقامها الفينيقيون اسماء «عبد الملك Ger - Melek» و«عبد اشتارت Ger Ashtart» و«عبد ماليكارت Ger - Malkarth» الخ.

والبابليون حددوا تماماً في شريعتهم حقوق العامة، ولكن في كتاب الشريعة الاسرائيلي، لم يرد عن حقوق العامة شيء سوى التوصية بأن النزيل لا يضطهد ولا تساء معاملته، كما ورد في سفر الخروج الاصحاح الثاني والعشرين الآية 21، والاصحاح الثالث والعشرين الآية 9.

والفرق كبير بين تحديد ما للإنسان من حقوق، وبين التوصية بأن يعامل برحمة. وفي كتاب التثنية يوجد نص في حق النزيل أي العبد، يدل على شفقة شبيهة بالاهانة، بينماكتاب التشريع يقول في الاصحاح الثاني والعشرين الآية 31 «ان اللحم التي تمزقه الحيوانات الوحشية يعطى للكلاب كي تأكله». وقياساً على هذا أباح الاشتراعيون «التثنيون» المتدينون اعطاء النزيل الطعام القذر.

وترينا شريعة الكهنة بأن «العبد Ger» أي النزيل يطلق على من كان في طريقه يسير نحو التحرر أو الاختلاط. لأنها تقول في بحثها عن النزيل والحر من بني اسرائيل «سيكون لهما شريعة واحدة» كما ورد في سفر اللاويين في الاصحاح الرابع والعشرين والآية 22، وفي سفر العدد في الاصحاح الخامس عشر الآية 15.

المحكمة الاسرائيلية

ومن الممكن ان يقال، ان الشريعة الحمورابية، حددت كل ما ورد في سفر الخروج في الآية 6 من الاصحاح الواحد والعشرين، وفي الآيتين 8 و9 من الاصحاح الثاني والعشرين.

ففي الشريعة الحمورابية، يوجد نص، على أن كل قضية ترفع أمام «ماهار ـ ايلي Mahar - Ili» أي امام الله أو امام إله، لأن البابليين كان لهم آلهة متعددة، وفي كتاب الشريعة يجب أن يقدم العبد «امام الله» وفي سطور أخرى، انالمدعي يجب أن يرفع أمره «إلى الله».

وقد تحير المفسرون والمترجمون في معرفة المقصود من هذه السطور، التي تحملهم على اعتبارها تجسيماً للاله، ولذا ترجموا ما ورد فيها من كلمة «ايلوهيم ـ Ilohim» بمعنى القاضي كما تبين من الترجمة الجديدة للتوراة. وقد يكون في نظر الشريعة البابلية ما يدل على المذبح المحلي للاله.

ويلوح لنا في كتاب صموئيل الأول «في الآية الخامسة والعشرين من الاصحاح الثاني» ان الالوهيم يحكم بين الانسان والانسان، لذا جعل مؤلف هذا القسم من الكتاب المذكور، جميع القضايا الواقعة مما يجب رفعه امام الله.

ولإتمام معرفة العلاقة بين كتاب الشريعة، وشريعة حمورابي، يجب مقابلة المواد المتشابهة الواردة في الشريعتين. ففي كتاب الخروج الآية 2 ـ 11 من الاصحاح الواحد والعشرين جاء:

«إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم، وفي السابعة يخرج حراً مجاناً. إن دخل وحده فوحده يخرج، ان كان بعل امرأة تخرج امرأته معه. ان أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين فالمرأة وأولادها يكونون لسيده. وهو يخرج وحده. ولكن ان قال العبد أحبُّ سيدي وامرأتي وأولادي لا أخرج حراً. يُقدمه سيده الى الله ويقرّ به الى الباب أو الى القائمة. ويثقب سيده اذنه بالمثقب فيخدمه الى الأبد. وإذا باع رجل ابنته أمّة لا تخرج كما يخرج العبد. ان قبحت في عيني سيدها الذي خطبها لنفسه يدعها تفك. وليس له سلطان ان يبيعها لقوم أجانب لغدره بها. وأن خطبها لابنه فبحسب حق البنات يفعل لها. ان اتخذ لنفسه أخرى لا يُنقص طعامها وكسوتها ومعاشرتها. وان لم يفعل لها هذه الثلاثة تخرج مجاناً بلا ثمن».

وهذه تقابل المادة 177 من الشريعة البابلية. لأن مبدأ التشريع لدى البابليين والاسرائيليين واحد، فكلاهما يقر بأن المواطن الحر لا يمكن أن يبقى عبداً الى الأبد. ولكن البابليين حددوا العبودية بثلاث سنين، بينما الشريعة الاسرائيلية حددتها بست

سنين. ويقول الدكتور «جان» ان الآية 18 الواردة في الاصحاح الخامس عشر من سفر التثنية، تدل على ان الشريعة الموسوية، كانت تعلم بأن شريعة حمورابي، قد حددت مدة العبودية بثلاث سنين. وهذا ما ورد في الآية المذكورة «لا يصعب عليك أن تطلقه حراً من عندك، لأنه ضعفي أجرة الاجير خدمك ست سنين».

ولما تبين للمشرع الاسرائيلي، ان هذه المدة قد تكون قليلة، بالنسبة للمديون كي يوفي بدنيه، جعلها تسعَ وأربعين سنة، أو المدة التي يطلق عليها اليوبيل، كما ورد في سفر شريعة الكهنة «لاوي» إذ يقول الاصحاح الخامس والعشرون في آياته الـ 39 الى 41، «وإذا افتقر أخوك عندك، وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد كأجير، كنزيل يكون عندك الى سنة اليوبيل، يخدم عندك ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود الى عشيرته».

وبازدياد المدة عما جاء في شريعة حمورابي، ظهرت ارتباكات لم توجد فيها. لأن شريعة حمورابي لم تلاحظ، ان الكفيل سيجد الزوجة ضماناً لدينه، أو ان صاحب الدين، سوف يسعى للزواج من ابنة المديون أو يزوجها من أقاربه.

وفي شريعة موسى، يمتنع بيع العبد الى بلدة أجنبية. والمادة 280 من شريعة حمورابي، تحرر العبد الذي يباع الى بلاد أخرى، لأنها تميل لعتق العبد أكثر من شريعة موسى.

والمادة 175 تنص على ان أولاد الحرة يولدون أحراراً. والمادة 171 تقول ان أولاد الأب الحر هم أحرار. وأما إذا كان الأبوان عبيداً، فأولادهما يولدون عبيداً.

وفي قانون حمورابي لا يوجد نص عن الانتحار. ولكن شريعة موسى في الآية 12 من الاصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج تقول: «ن ضرب انساناً فمات يقتل قتلاً، ولكن إذا لم يتعمد بل أوقع الله في يدٍ فأنا اجعل لك مكاناً يهرب اليه».

والمادة 207 تضع جزاء على القتل التصادمي ومقداره 30 شيكلاً. وفي الآيتين 13 و14 من الاصحاح المذكور تقول: «إذا لم يتعمد بل أوقع الله في يدٍ، فأنا اجعل لك مكاناً يهرب اليه. وإذا بغى انسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن عند مذبحي تأخذه للموت».

والمادة 195 تقول بأن الوالد الذي يضرب أباه تقطع يده، وأما شريعة موسى فتنص على جزاء أشد، إذ تقول الآية 15 من الاصحاح السابق: «ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلاً».

والمادة 14، هي وما ورد في الشريعة الاسرائيلية واحد. فالآية 16 تقول: «ومن سرق انساناً وباعه أو وجد في يده يقتل قتلاً».

والمادة 192 تقول عن الولد المتبني إذا أنكر أبوة من تبناه، يقطع لسانه. والآية 17 من الاصحاح 21 الوارد في سفر الخروج، تنص على أن من يشتم أباه أو أمه يقتل قتلاً.

والمادة 206 تشابه الآيتين 18 و19 تماماً. إذ ورد فيهما «وإذا تخاصم رجلان فضرب أحدهما الآخر بحجر أو بلطمة ولم يقتل بل سقط في الفراش، فإن قام وتمشى خارجاً على عكازة، يكون الضارب بريئاً إلا أنه يعوض عطلته وينفق على شفائه».

والشريعة البابلية تنظر في الأضرار اللاحقة بالعبيد كأنها تعود الى الشخص الثالث. وهو السيد وتجعله يأخذ الدية عن الضرر اللاحق بالعبد، وتدفع له أجرة عن تداويه حتى الشفاء. وشريعة موسى في الآيتين 20 و21 تقول: «وإذا ضرب انسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده ينتقم منه، لكن ان بقي يوماً أو يومين لا ينتقم منه لأنه ماله».

والمواد 209 حتى الـ 214، فيها تفصيل أكثر من شريعة موسى، ولكن بما ان شريعة حمورابي تعترف بقانون الأقارب، ففي قضية المساواة أنظر المادة 200 فهي لا تنفذ شريعة الأقارب الا بما يتعلق بموت الرجل الحر.

وأما شريعة اسرائيل فإن الآيات 22 و23 و24 و25 تقول: «إذا تخاصم رجال وصدموا امرأة حبلى فسقط ولدها ولم تحصل أذية، يُغرم كما يضع عليه زوج المرأة، ويُدفع عن يد القضاة، وان حصلت أذية تعطى نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ورِجلاً برجل وكيّاً بكي وجرحاً بجرح ورضاً برض».

ثم تقول الآية 26 و27 من الاصحاح الحادي والعشرين: «وإذا ضرب انسان عين عبده أو عين أمته فأتلفها يطلقه حراً عوضاً عن عينه. وان أسقط سن عبده أو سن أمته يطلقه حراً عوضاً عن سنه».

واما شريعة حمورابي فتقضي عليه بنصف الجزاء: «إذا عطل انسان عين خادم لرجل، أو كسر عظم خادم لرجل؛ يدفع نصف قيمتها». انظر المادة 199.

والمادة 250 والآية 28 في الشريعتين المذكورتين، تبرئان صاحب الثور الناطح. فتقول شريعة حمورابي: «إذا صادف ثور هائج انساناً في طريق البرية ونطحه بقرنيه وقتله فلا دية تترتب على النطح، هذا ان لم يكن معروفاً عن الثور انه مناطح وان صاحبه لم يقطع قرنيه أو لم يربطه». وشريعة موسى تقول: «وإذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه، وأما صاحب الثور فيكون بريئاً، ولكن إذا كان ثوراً ناطحاً من قبل، وقد اشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلاً أوامرأة فالثور يرجم وصاحبه يقتل».

ثم تقول شريعة موسى في الآيات 29 و30 و31 و32: «وإن وضعت عليه فدية يدفع

فداء نفسه كل ما يوضع عليه وإذا نطح ابناً، أو نطح ابنة فبحسب هذا الحكم يفصل به. وان نطح الثور عبداً أو أمة يعطي سيده ثلاثين شيكلاً فضة والثور ويرجم».

وبذلك جعلت صاحب الثور الناطح مسؤولاً تجاه أقارب المقتول، وأباحت لهم أخذ التعويض إذا شاءوا.

وشريعة حمورابي عينت التعويض فجعلته 30 شيكلاً، إذا كان المضروب المتوفى رجلاً حراً، و20 شيكلاً إذا كان عبداً. وفي شريعة اسرائيل جُعلت دية العبد 30 شيكلاً ونصت على قتل الثور في كل حال.

والآيات 33 و34 و35 و36 من الاصحاح 21 من سفر الخروج تقول: «وإذا فتح انسان بئراً أو حفر بئراً ولم يغطها، فوقع فيها ثور أو حمار فصاحب البئر يُعوض ويرد فضة لصاحبه، والميت يكون له. وإذا نطح ثور انسان ثور صاحبه فمات يبيعان الثور الحي ويقتسمان ثمنه، والميت أيضاً يقتسمانه، ولكن إذا علم أنه ثور نطاح من قبل ولم يضبطه صاحبه، يعوّض عن الثور بثور والميت يكون له».

وشريعة حمورابي لم تشرع شيئاً يتعلق بهذه الحالات، ولكن المواد 53 و54 و55 و56، جعلت الرجل مسؤولاً عن الأذى الذي يلحق بملك الغير.

والآية الأولى من الاصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج تقول: «إذا سرق انسان ثوراً أو شاة، فذبحه أو باعه يعوض عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة بأربعة من الغنم». وشريعة حمورابي تعالج هذه القضية في المادة 262 لو كانت كاملة. ولكنها بحسب المادة 8 تجازيه بثلاثين ضعفاً إذا كان حراً، وبعشرة أضعاف إذا كان من العامة، وكان المسروق حيوانات مأخوذة من بيت الحاكم أوالمعبد.

والآية الثانية والثالثة والرابعة من الاصحاح الثاني والعشرين تقول: «ان وجد السارق وهو ينقب فضُرب ومات فليس له دم. ولكن ان أشرقت الشمس عليه فله دم، وانه يعوض وان لم يكن له يُباع بسرقته. وان وجدت السرقة في يده حية، ثوراً كانت أم حماراً أم شاة يعوض باثنتين». فشريعة حمورابي في المادة 21 تقول: «إذا دخل انسان بيتاً بقصد السرقة يعدم أمام حفرة ويدفن فيها». «إذا رعى انسان حقلاً أو كرماً وسرح مواشيه فرعت في حقل غيره فمن أجود حقله وأجود كرمه يعوض». وكلا الشريعتين كما ورد في المادة 57 تقولان، عند وقوع التعدي يكون التعويض عن الأضرار عيناً. والآية السابعة من الاصحاح الثاني والعشرين، والمادة 125 من حمورابي تتفقان معاً على ان من تودع عنده الأمانة عليه ان يستردها من السارق. فالشريعة الموسوية تقول في الآية المذكورة: «إذا أعطى انسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ فسرقت من بيت الانسان فإن وجد السارق يعوض باثنين، وان لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت الى الله

ليحكم هل لم يمد يده الى ملك صاحبه». والمادة 125 المذكورة تقول: «إذا أودع انسان اشياءه عند شخص آخر مع اشياء أخرى تعود لصاحب البيت الموجود لديه الأمانة، وكان فقدانها أما بسبب السرقة أم دخول بيته وأخذها منه فعلى صاحب البيت ان يعيد الاشياء المودوعة عنده الى صاحبها، أو يعوضه بمثلها، وله ان يقاضيه أمام المحكمة عن الاشياء المسروقة ويستعيدها من السارق».

والآية 8 وما ورد في المادة 120، يجبران المودع عنده الأمانة ان يبرىء نفسه أمام الله باليمين إذا اشتبه من امانته.

والآية التاسعة من الاصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج والمواد 9 و10 و11 و12 و13 من شريعة حموربي، وان تشابهت، فإن ما ورد في الشريعة البابلية أوجبت التحري والتدقيق بصورة أوسع مما ورد في الأولى، وذلك بما يتعلق بدعوى المدعي في المسروق له، كما أنها أوجبت بتعقيب الأثر عن المسروقات والتحري عن تعيين هوية السارق، ولكن في الشريعة الموسوية اكتفى المشرع بتضمين من يتناول المسروقات ومن يحتفظ بها ضعف قيمتها.

وان الآيتين 10 و11 من الاصحاح، تطالبان الراعي بأن يحلف اليمين ليبرأ نفسه من التهمة، وكذا فعلت المادة 206 من حمورابي.

والآية 12 تتفق تماماً مع المادة 263. والآية 13 تتفق مع ما ورد في المادة 244. والاية 14 وان اتفقت نصوصها مع المواد 245 و246 و247 و248، فإن شريعة حمورابي في هذه المواد ذهبت للتفصيل. والاية 15 التي تقول: «وإذا استعار انسان من صاحبه شيئاً فانكسر أو مات وصاحبه ليس معه يعوض، وان كان صاحبه معه لا يعوض». فشريعة حمورابي لا تبحث عن مثل هذه القضية التي تتناول الضرر الذي يلحق بحيوان موجود عند صاحبه. وان كان رأيها كرأي الآية. وما شرحته الشريعة العبرية بهذا الخصوص وان لم يكن منيراً للمقصود، ولكن من المحتمل انه عناه وأراد به ان صاحب الحيوان قد شغله ولم يضمه إذا كان قد تضرر من جراء الشغل الذي قام به.

والاية 16 و17 تتوافق مع المادة 130. ولكن المادة تتفق تماماً مع ما ورد في الآيات 25 و26 من الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التثنية. وهي تقول: «ولكن ان وجد الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده. وأما الفتاة فلا تفعل معها شيئاً. ليس على الفتاة خطية للموت بل كما يقوم رجل على صاحبه ويقتله قتلاً هكذا هذا الأمر». ويظهر ان التعليمات الواردة في كتاب الخروج تفيد بأن الأب العبري يضع قيمة المهر إذا كانت ابنة عذراء باكر أكثر

مما لو كانت بكارتها قد أزيلت بالاغراء فإن قيمتها تقل، وتعطيه الحق بأن يجبر المغري لها على الزواج منها وعلى دفع مهر كامل، أو يدفع له الفرق بين المهرين.

والآية 18 القائلة: «لا تدع ساحرة تعيش». ففي كتاب العهد، الساحرة أي الانثى التي تتعاطى السحر تمنع من العمل. ويتبين من الآية التاسعة من الاصحاح السابع والعشرين من سفر «أرميا» ان اسرائيل كانت تعترف بالسحرة من الرجال، لأنه ورد في الآية المذكورة: «فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرّافيكم وحاليكم وعائفيكم، وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لاتخدموا ملك بابل». وكان ذلك حتى بعد نشر كتاب التثنية الذي منع السحرة في الاصحاح الثالث والعشرين والآية 10 إذ يقول: «ان كان فيك رجل غير طاهر من عارض الليل يخرُج الى خارج المحلة لا يدخل الى داخل المحلة». وفي كتاب «اشعيا» الآية الثالثة من الاصحاح الثالث التي تقول: «هوذا رب الجنود ينزع من اورشليم ومن يهوذا... رئيس الخمسين والمعتبر، والمشير، والماهر بين الصناع والحاذق بالرقية». والكتاب من المرجح انه كتب قبل سفر التثنية، وهو دليل على ان اسرائيل كانت تعتبر الساحر الماهر، والراقي الذكي بين الاشراف، وتعد حرمانهم من ممارسة أعمالهم عقاباً عظيماً.

والآية التاسعة عشرة من الاصحاح الثاني والعشرين التي تقول: «في كل دعوى جناية، من جهة ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو مفقود ما يقال ان هذا هو تقدم الى الله دعواهما، فالذي يحكم الله بذنبه يعوض صاحبه بائنين» لا وجود لمثلها في شريعة حمورابي.

والآية العشرون من الاصحاح الثاني عشر التي تقول: «من ذبح لالهة غير الرب وحده يهلك» فشريعة حمورابي لا تقول بالعقوبات الدينية. والآية الواحدة والعشرون القائلة: «ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر». تجعل العبيد تحت عناية الاسرائيليين ورحمتهم، بنيما شريعة حمورابي تنظم التعاليم لمعاملة العامة وتعيين حقوقهم.

والآيات 2 و23 و24 من الاصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج التي تنص على الأمور الآتية: «لا تسيء الى أرملة ما ولا يتيم، ان اسأت اليه فإني ان صرخ الي أسمع صراخه، فيحمي غضبي وأقتلكم بالسيف، فتصير نساؤكم أرامل وأولادكم يتامى». فبحسب نصها تركت الشريعة أمر اليتامى لرحمة أقاربهم. ويستدل من تذمر الأنبياء في كتاب «اشعيا» الاصحاح الأول الآية 43: «رؤساؤك متمردون ولغفاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا لا يقضون لليتيم، ودعوى الأرملة لا تصل اليهم». ومما ورد في كتاب «حزقيال» الاصحاح الثاني والعشرين الاية السابعة:

«فدفعت لهم عقرها لمختاري بني اشور كلهم وتنجست من عشقتهم بكل أصنامهم». ومما ورد في كتاب «ملاخي» الاصحاح الثالث الآية 5: «واقتربُ اليكم وأكون شاهداً سريعاً على السحرة وعلى الفاسقين، وعلى الحالفين زوراً، وعلى السالبين أجرة الأجير الأرملة واليتيم ومن يصد الغريب ولا يخشاني قال رب الجنود». يستدل ان هؤلاء السيئي الحظ كان العدل لا ينالهم الا قليلاً، أي لا يجدون العطف والرحمة من المجتمع الاسرائيلي وتعاليمه الا قليلاً.

والآيات 25 و26 و27 من الاصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج تقول: «ان أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لا تضعوا عليه ربا. ان ارتهنت ثوب صاحبك فإلى غروب الشمس ترده له. لأنه وحده غطاؤه، هو ثوبه لجلده في ماذا ينام. فيكون إذا صرخ اليَّ اني أسمع. لأني رؤوف». فإنها تمنع اليهود من الحجز على الأشياء الضرورية اللازمة ومن مجازاة ناكث العهد. وفي الاصحاح الرابع والعشرين تمنع الآية 6 من سفر التثنية الحجز على «الرحى» أي الجاروشة ولا يجازى صاحبها لأنها تقول: «لا يسترهن أحد رحى أو مرداتها لأنه انما يسترهن حياة».

وأما البابليون فيشملون ثور الفلاحة ويضعون الغرامة ليقوا تعاليمهم.

والآيات 28و29 و30 و31 من الاصحاح المذكور، تشير الى التنظيمات الدينية أي الى الفروض والواجبات بقولها «لا تسبَّ الله. ولا تلعن رئيس شعبك، لا تؤخر ملء بيدرك وقطر معصرتك وابكارت بنيك تعطيني، كذلك تفعل ببقرك وغنمك سبعة أيام يكون مع أمه وفي اليوم الثامن تعطيني اياه، وتكونون لي أناساً مقدسين. ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوا. للكلاب تطرحونه». ليس لها عند البابليين مثيل لأن شريعتهم لم تتناولها.

والآيات 1 و2 و3 و4 و5 و6 و7 و8 من الاصحاح الثالث والعشرين من سفر الخروج وفيها: «لا تقبل خبراً كاذباً. ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم، لا تتبع الكثيرين الى فعل الشر ولا تجب في دعوى مائلاً وراء الكثيرين للتحريض، ولا تحاب مع المسكين في دعواه، إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً ترده اليه. وإذا رأيت حمار مبغضيك واقعاً تحت حمله وعدلت عن حله فلا بد ان تحل معه. ولا تحرّف حق فقيرك في دعواه. ابتعد عن كلام الكذب، ولا تقتل البريء والبار لأني لا أبرر المذنب». فإن المادة 3 و4 و5 من شريعة حمورابي، قد وضعت نصوصاً عملية لمجازاة من يرتكب ما ورد في الآيات المذكورة. واما اليهود فأرادوا ان يكون كلامهم خطابياً. وما تبقى من آيات الاصحاح الثالث والعشرين من سفر الخروج، اما انه ديني أو حكمي ولا يماثل ما ورد في شريعة نافذة كشريعة حمورابي.

ويجب ان لا يظن بأن اذاعة كتاب الشريعة الاسرائيلي مما يوقف تأثير الشرائع الأجنبية، على ما ورد فيها، فإننا نجد في الأسفار الخمسة نصائح او توصيات شبيهة بتوصيات حمورابي الواردة في شريعته، ولكنها لم ترد في كتاب الخروج، فالمادة الثالثة تتفق مع الآيات 15 و16 و17 و18 و19 و20 و21 الواردة في الاصحاح التاسع عشر من سفر التثنية أكثر مما تتفق مع الآيات 1 و2 و3 و4 و5 و6 و7 و8 من الاصحاح الثالث والعشرين في سفر الخروج التي ذكرناها وقارناها.

والمادة 59 يمكن ان تكون الهاماً للآية 19 من الاصحاح العشرين من سفر التثنية.

والمادة 60 تذكر ان الغرّاس البستاني عندما يغرس بستاناً فله ان يأكل ثمره لمدة أربع سنين، وفي السنة الخامسة فلصاحبه أي لمالك الأرض ان يشارك في المحصول. والآية الخامسة والعشرون والرابعة والعشرون والثالثة والعشرون من الاصحاح التاسع عشر من سفر اللاويين تقول: «ومتى دخلتم الأرض وغرستم كل شجرة للطعام تحسبون ثمرها غُرْلتها أي «كقشرتها». ثلاث سنين تكون لكم غلفاء لا يؤكل منها. وفي السنة الرابعة يكون كل ثمرها قدساً لتمجيد الرب. وفي السنة الخامسة تأكلون ثمرها لتزيد لكم غلتها، أنا الرب الهكم». وهي تقرأ كأنها تذكار لغلط واقع في الواجبات أو تذكار لتكفير الذنب، لأن ثمرات الثلاث سنين محسومة وثمرات السنة الرابعة مقدسة وثمرات السنة الخامسة هي من حق البستاني، وذلك وفقاً لما تقوله الشريعة البابلية.

والمادة 129 تتفق مع الآية الثانية والعشرين من الاصحاح الثاني والعشرين من كتاب التثنية وهي التي تقول: «إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتنزع الشر من اسرائيل».

والمادة 132 وما ورد في الآيات 11 الى 31 من الاصحاح الخامس من سفر العدد شيء واحد.

وكلا الشريعتين أوجبت على المرأة ان تمتحن بالماء في القضية الواردة. وهذا ما يقوله الاصحاح المذكور في الآية 11: «وكلم الرب موسى قائلاً كلم بني اسرائيل وقل لهم إذا زاغت امرأة رجل وخانته خيانة، واضطجع معها رجل اضطجاع زرع وأخفى ذلك عن عيني رجلها واستترت وهي نجسة وليس شاهد عليها، وهي لم تؤخذ، فاعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي نجسة أو اعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي ليست نجسة. يأتي الرجل بامرأته الى الكاهن، ويأتي بقربانها معها عشر الأيفة «مقياس اسرائيلي» من طحين شعير لا يصب عليه زيتاً ولا يجعل عليه لباناً لأنه تقدمة غيرة وتقدمة تذكار تذكّر ذنباً. فيقدمها الكاهن ويوقفها أمام الرب، ويأخذ الكاهن ماءً مقدساً في اناء خزف ويأخذ الكاهن من الغبار الذي في أرض المسكن ويجعل في الماء.

ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب، ويكشف رأس المرأة ويجعل في يديها تقدمة التذكار التي هي تقدمة الغيرة، وفي يد الكاهن يكون ماء اللعنة المر، ويستحلف الكاهن المرأة ويقول لها: ان كان لم يضطجع معك رجل وان كنت لم تزيغي الى نجاسة من تحت رجلك، وتنجست وجعل معك رجل غير رجلك مضجعة؛ يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة ويقول الكاهن للمرأة: يجعلك الرب لعنة وحلفاً بين شعبك بأن يجعل الرب فخذك ساقطة وبطنك وارماً. ويدخل ماء اللعنة هذا في احشائك لورم البطن ولإسقاط الفخذ. فتقول المرأة آمين آمين. ويكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ثم يمحوها في الماء المر، ويسقي المرأة ماء اللعنة المر فيدخل فيها ماء اللعنة للمرارة. ويأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمة الغيرة ويردد التقدمة أمام الرب ويقدمها الى المذبح. ويقبض الكاهن من التقدمة تذكارها ويوقده على المذبح، وبعد ذلك يسقي المرأة الماء ومتى سقاها الماء فإن كانت قد تنجست وخانت بعلها «رجلها» يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة فيرم بطنها وتسقط فخذها فتصير المرأة لعنة في وسط شعبها. وان لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهر تتبرأ وتحبل بزرع».

وفي الآية **29**: «هذه هي شريعة النيرة: إذا زاغت امرأة من تحت رجلها وتنجست، أو إذا اعترى رجلاً روح غيرة فغار على امرأته يوقف المرأة أمام الرب ويعمل لها الكاهن كل هذه الشريعة، فيتبرأ الرجل من الذنب وتلك المرأة تحمل ذنبها».

وكان للبابليين نهر مقدس، ولكن لم يذكر اسمه في التوراة، لأن الأنهر في فلسطين كانت قليلة، ولذا استعيض عن النهر المقدس «بماء الغيرة» المار ذكره.

والمادة **154** وما ورد بعدها حتى المادة **158** الباحثة عن الزنا بالأقارب لم تذكرها شريعة موسى في كتاب الشريعة، ولكن بحثت عنه في الآيات **23** و**22** و**20** من الاصحاح التاسع والعشرين من كتاب التثنية، وفي الآيات **6** حتى **18** من الاصحاح الثامن عشر من كتاب اللاويين.

ويتفق كثير من التعليمات التي وردت في تراث الكهنة الاسرائيليين، مع ما ورد في شريعة حمورابي. ففي الآية الثالثة الواردة في الاصحاح السادس عشر من سفر التكوين ذكر: «بأن سارة امرأة ابراهيم أخذت هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة ابراهيم في أرض كنعان، وأعطتها لإبراهيم رجلها زوجة له فدخل على هاجر فحبلت». وكذا ورد في الآية الثالثة من سفر التكوين ان «راحيل» زوجة يعقوب فعلت الشيء نفسه، لما رأت انها لم تلد له ولداً، وغارت من أختها فقالت له: «هو ذا جاريتي بلهة أدخل عليها فتلد على ركبتي وارزق أنا أيضاً منها بنين». فدخل عليها وحبلت وولدت له أولاً وثانياً. والآية التاسعة من الاصحاح الثلاثين تشير أيضاً الى أن

زوجة يعقوب الثانية Leah «ليئة» توقفت عن الولادة فأخذت جاريتها زلفة وأعطتها ليعقوب زوجة فحبلت منه وولدت له ولداً.

وهذا كله يتفق مع ما ورد في المواد **144** و**145** و**146** من قانون حمورابي. وفي الآيات **4 ـ 16** من الاصحاح السادس عشر من سفر التكوين ان هاجر زوجة ابراهيم وكانت جارية لسارة: «دخل عليها ابراهيم فحبلت، ولما رأت انها حبلت صغرت مولاتها في عينيها، فقالت سارة لإبراهيم ظلمي عليك، أنا دفعت جاريتي الى حضنك. فلما رأت انها حبلت صغرت في عينيها، يقضي الرب بيني وبينك. فقال ابراهيم لساره وهوذا جاريتك في يدك، افعلي بها ما يحسن في عينيك، فأذلّتها سارة، فهربت من وجهها، فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية، على العين التي في طريق شور. وقال يا هاجر جارية ساره من أين أتيت وإلى أيت تذهبين؟ فقالت: أنا هاربة من وجه مولاتي ساره. فقال لها ملاك الرب: ارجعي الى مولاتك، واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب: تكثيراً أكثرُ نسلك فلا يعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب: ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه «اسماعيل» لأن الرب قد سمع لمذلتك. وانه يكون انساناً وحشياً، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه. وأمام جميع أخوته يسكن، فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت «ايل رئي» لأنها قالت أههنا أيضاً رأيت بعد رؤية. لذلك دعيت البئر بئر لحيَ رئي. ها هي بين قادش وبارد». ولذلك استعملت هاجر نفسها على سيدتها وجاء حكمها في المادة **146** التي تقول: «إذا تزوج رجل بكاهنة وجاءت له بخادمة لتلد له أولاداً ثم ان الخادمة أقامت نفسها مقام سيدتها لأنها ولدت له أولاداً، فليس للكاهنة زوجة الرجل ان تبيعها بفضة لكن لها ان تربيها وتعدها من العبيد». فعاملتها سارة بشدة وبقدر ما مكنتها الشريعة من التشديد عليها، فهربت هاجر ثم ان ملاك الرب أعادها وأجبرها على الخضوع لسيدتها، ولو كان هنالك شرطي من شرطة حمورابي بدلاً من الملاك المذكور لما عاملها بغير هذه المعاملة. ويدلنا على توافق الشريعتين بهذا الخصوص، ان يعقوب عندما رعى قطيع «لابان» Laban افتخر بأنه عمل وفقاً للمواد **262** و**263** و**264** و**265** و**266** و**267** من شريعة حمورابي. وقد جاءت الآيات **38** و**39** و**40** من الاصحاح الواحد والثلاثين من سفر التكوين مؤيدة ذلك فهي تقول: «الآن عشرين سنة أنا معك. نعاجك وعنازك لم تُسقط، وكباش غنمك لم آكل، فريسة لم أحضر اليك، أنا كنتُ أخسرها، من يدي كنت تطلبها، مسروقة النهار أو مسروقة الليل، كنتُ في النهار يأكلني الحرُّ وفي الليل الجليد، وطار نومي من عيني». وتؤكد انه لم يغتنم الفرصة فيستفيد من المادة **266** التي تنص على أنه إذا أصاب قضاء الله قطيعاً من الغنم أو الماشية أو أن الأسد سطا عليها وقتل منها ما قتل، فعلى الراعي ان يبرىء ذمته أمام الله، وعلى صاحب

الحظيـرة، ان يقـبل المصـاب، وان يـترك أمـره الـى الله، كمـا ان لابان لـم ينظم أجـوره، حسبما ورد في المادة 261.

وعادات الزواج في اسرائيل، وان لم تنظمها شريعتهم فإنها تتفق تماماً مع أفكار البابليين وعاداتهم، فسفر الخروج يبحث عن ثمن العروس ويقول في الآية السادسة عشرة من الاصحاح الثاني والعشرين: «وإذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها يمهرها لنفسه زوجة، ان أبى أبوها ان يعطيه اياها يزن له فضة كمهر العذارى». وكذا أراد ان يفعل شكيم بمحبوبته «دينة» التي ضاجعها وسعى لدفع مهرها الى أبيها يعقوب ويتخذها زوجة له. فالآية 11 من الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين تقول: «ثم قال شكيم لأبيها ولأخوتها دعوني أجد نعمة في أعينكم، فالذي تقولون لي أعطي، كثروا عليَّ جداً مهراً وعطية، فأعطيَ كما تقولون لي، وأعطوني الفتاة زوجةً».

وفي الآيات 25 و26 و27 من الاصحاح الثامن عشر من سفر صموئيل الأول يقول شاؤل: «هكذا تقولون لداود، ليست مسرةُ الملك بالمهر بل بمائة غلفة من الفلسطينيين للانتقام من اعداء الملك. وكان شاؤل يتفكر ان يوقع داود بيد الفلسطينيين فأخبر عبيده داود بهذا الكلام فحسن الكلام في عيني داود ان يصاهر الملك، ولم تكمل الأيام حتى قام داود وذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مائتي رجل، وأتى داوود بغلفهم فأكملوها للملك لمصاهرة الملك». ثم أنه تزوج داود «ميكال»، ابنة الملك لأنها تحبه. وكان مهرها من أغرب المهور.

وفي الآية الخامسة عشرة من سفر القضاة الاصحاح الأول: «فقالت اعطني بركة لأنك أعطيتني أرض الجنوب بأعطني ينابيع ماء». وكذا في سفر يشوع الآية 19 من الاصحاح الأول ورد ذكر «البركة» وهي تعطى للابنة من الرجل الذي يريد ان يتزوجها وليست مهراً من الأب الى ابنته.

وورد أخيراً في سفر التكوين في الاصحاح الرابع والثلاثين والآية 12 ان شكيم وعد بإعطاء عطية فوق المهر وهي ما يسمى «مات ـ هان Matt - Han» أي «النودونوم Nudunum»، الواردة في شريعة حمورابي، وهي «سكن الزوجة».

ومن كل ما ورد نحكم بأن الفرائض المترتبة في قضية الزواج في شريعة حمورابي، قد اعترف بها الاسرائيليون، ولكنهم اعتبروا المهر هو الأهم من كل شيء.

ومن هذه المقارنات المتشابهة التي لا جدال فيها، ومن المقابلات الكثيرة التي استخرجت من سفر الشريعة، ومن المواد الواردة في شريعة البابليين، لا يسعنا الا القول بأن المطابقة بينهما قطعية.

وأما من حيث الفرائض الدينية التي هي سنن كتاب الشريعة، وقد بلغ عددها

الاثنين والثلاثين، فالواحدة والعشرون منها تتفق تماماً مع الفرائض التي ذكرتها شريعة حمورابي، والباقي يتفق تماماً مع روح البابليين.

ومن هذا نستنتج ان شريعة الاسرائيليين هي وليدة الشريعة البابلية، وان الاخيرة أكثر قدماً وأكثر تحديداً لمفهوم القانون.

وإذا كنا قد اتخذنا سفر الشريعة «الخروج» موضوعاً للمقابلة والمقارنة فذلك للتبسيط، ولكن الحقيقة ان ما ورد في السفر المذكور من أحكام وتعلميات وفرائض لا انسجام بينها، بل ان التباين في أسلوبها والتناقض في أحكامها لم يغب عن نظر النقاد الثقات الذين لمسوا اثارها وآتوا بالشواهد عليها واختصرها الاستاذ «ج.ف.مور» في مقالة له ذكرتها دائرة المعارف البريطانية واستدل بها على بعض الغرائب الواردة في السفر المذكور.

ولإيضاح ذلك، فالاصحاح الواحد والعشرون في المقدمة يشير الى أن السفر هو شريعة كاملة «وهذه هي الأحكام التي توضع أمامكم» الآية الأولى. ثم يذكر القضية الأولى التي تتعلق بشراء عبد اسرائيلي. ويأتي بعدها باعتبارات عادية لحوادث مختلفة ولا يعالجها بصورة منتظمة بل يجعل التعاليم المتعلقة بها تختلط ببعضها حتى ان الآيات 22 و23 و24 و25 من الاصحاح تبحث عن شيء، والآيات 20 و21 و26 و27 تبحث عن شيء آخر.

وفي الحقيقة ان الاصحاحات الثلاثة من السفر المذكور هي حطام شريعة، وليست شريعة واحدة منظمة.

فاختلاف الأسلوب هو دليل آخر على ذلك لأن القسم الأعظم منها فرضي كما هو الحال في شريعة حمورابي التي نجد فيها كلمة «اذا رجل ـ Shumma Amelu شومّا ـ أميلو» وهي تتوافق مع ما ورد في شريعة اسرائيل «إذا رجل» ثم نجد في شواهد أخرى عبارات قطعية وليست فرضية كما يقال. فالآية 18 من الاصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج تقول: «لا تدع ساحرة تعيش».

والآية 19 تقول: «كل من اضطجع مع بهيمة يقتل قتلاً». فاختلاف المخاطب في آيتين من الاصحاح الواحد، تدل على تباين الاسلوب وانتقاله من أسلوب فرضي الى أسلوب قطعي.

ولا يقف التباين عند حد المخاطبة بل يتعداه الى استعمال الضمير المخاطب مرة، والضميرالغائب مرة أخرى.

فالآية 27 من الاصحاح الثاني والعشرين تقول: «ان أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لا تضعوا عليه رباً». بينما الآية الأولى من الاصحاح

المذكور تقول: «إذا سرق انسان ثوراً أو شاة». وأغرب من ذلك ان الآية الخامسة والعشرين الواردة في الاصحاح العشرين القائلة: «وان صنعت لي مذبحاً من حجارة فلا تبنه بأحجار منحوتة، إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها». تدل على ان المتكلم هو الله، بينما الآية السادسة من الاصحاح الواحد والعشرين التي تقول: «ولكن ان قال العبد اني أحب سيدي وامرأتي وأولادي لا أخرج حراً يقدمه سيده الى الله ويقربه الى الباب او الى القائمة». تدل على ان المتكلم شخص ثالث.

وعليه، إذا أردنا تفصيل المقاطع الدالة على الشخص الثالث بحسب أسلوب الشريعة البابلية، لوجدنا ان الآية الأولى حتى الآية 11 والاية 14 و18 حتى الآية 36 من الاصحاح الواحد والعشرين، والآية الأولى حتى الآية 17، من الاصحاح الثاني والعشرين، هي أحسن ما يتفق مع شريعة حمورابي، وكلها تظهر لنا بأن الآيات المبحوث فيها، هي بقايا قانون اسرائيلي، مأخوذ من الشريعة البابلية.

وان هذه المقطوعات مسبوقة ومن ثم ابتدأت بهذه الكلمات: «وهذه هي الأحكام التي تضعها أمامهم». واللفظة «ميشباتيم Mishpatim» ومعناها «الأحكام» هي عين الكلمة البابلية «ديناني Dinani» أي الديانة في العربية لأن حمورابي يسمي شريعته الديانة العادلة، والمشرع الاسرائيلي يسمي العهد القديم شريعة العدل «ميشباتيم».

وصاحب المزامير يقول عن الأحكام التي تتعلق بالعدالة، كما يقول البابليون عن شريعتهم بأنها شريعة العدالة. إذاً فالاصطلاح الاسرائيلي، والاصطلاح البابلي واحد، وهو دليل آخر.

ففي المزمور 119 تقول الآية 7: «أحمدك باستقامة قلب عند تعلمي أحكام عدلك». والآية 62 تقول: «في منتصف الليل أقوم لأحمدك على أحكام برِ». والآية 164: «سبع مرات في النهار سبحتك على أحكام عدلك». وكلها تعبير واحد من كتاب الشريعة بأن ما فيها من تشريع هو عادل.

ولذا وبعد ما كشفت شريعة حمورابي أصبح من الممكن تمحيص الكتاب المذكور ونقده على أسس قويمة جديدة، وأصبح من الممكن الادعاء بأن الذي الفه قد جمعه من شرائع أخرى قديمة أفرغها بحسب ما وافق غايته، وأضاف اليها تعاليم دينية مبعثرة، ونصائح أخلاقية يعتبرها جميع الاخلاقيين في مختلف العصور صالحة من أيام حكماء الفراعنة «بتا ـ هوتب Ptah - - Hotep عام 3500 قبل الميلاد حتى القرن العشرين، لأن علم التشريع في فلسطين في زمن واضع كتاب الشريعة، كان في مستوى منحط، فاضطر صاحبه الى ان يجمع الكتاب المذكور، ويضعه بالصورة الممكنة، التي لا تعلو عن درجة ثانوية، بالنسبة للتشاريع الماضية والحديثة، لان أكثر ما فيها احتوى على التعاليم

الدينة، والارشادات الفرضية المتعلقة بتقديم القرابين والصلوات والاحتفالات الدورية، وهي كثيرة في التشريعات المتأخرة التي تعود لأسفار موسى الخمسة.

كما ان محتويات سفر التثنية تظهر اعتمادها الكثير في مواد التشريعية على ما ورد في كتاب الشريعة، ولكنها أفرغت في قالب خاص لتكون دينية ووعظية. حتى ان مستنبط القانون الاسرائيلي في مجمل ما جاء به عن مزايا القانون يقول: «إن سفر التثنية من الوجهة الأدبية، إذا استثنينا منه الرسائل المتعلقة بالأسفار الخمسة، والقصيدتين 32 و33 من المزامير، هو عبارة عن شريعة لقوانين لها شروحات ومقدمة خطابية».

ثم يأتي بعدها قانون القداسة الموجود في سفر اللاويين من الاصحاح 17 حتى الاصحاح 26، فمحتوياته تدل على أنه مجموعة قوانين وضعها المؤلفون السابقون بروح أبوية، ثم أدخلت في مجموعة الأسفار الخمسة، مع تعديلات بحقها تنسجم مع محتوياتها من الوجهتين الروحية والتشريعية.

وعندما يقارن المحور الأساسي الذي يدور حوله كتاب القداسة مع سفر الشريعة، يظهر للعيان بأنه يتعلق كثيراً بقانون الجرائم والقانون المدني، وان القسم الذي يعود للجرائم قد أشير اليه في الآيات 17 و18 و19 و20 و21 من الاصحاح 24 من سفر اللاويين القائلة: «ومن جدف على اسم الرب فإنه يقتل، وإذا أمات أحد انساناً فإنه يقتل، ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفساً بنفس، وإذا أحدث انسان في قريبه عيباً فكما فعل كذلك يفعل به، كسر بكسر، وعين بعين، وسن بسن، كما أحدث عيباً في الانسان كذلك يحدث فيه، من قتل بهيمة يعوض عنها ومن قتل انساناً يقتل».

وما ورد في الاصحاح الخامس والعشرين من السفر المذكور، يدل على أنه في الأصل تابع لقانون مدني، ثم اعتبر كمبدإ انساني وديني. والذي يسمى تشريع الكهنة ينحصر في بيان الواجبات والشعائر الدينية، وأصول تقديم القرابين والذبائح.

وبعبارة أخرى ان المتبقى من كتاب الأسفار الخمسة، يدُل على أنه تعاليم كهنونية كل ما مر الزمن. والحقيقة أنه لولا شريعة حمورابي وتأثيرها، لما أفرغت أصول العهد القديم في قالب شرعي أصلاً.

ويشهد اللسان العبري، على اطلاعه على القوانين الواردة في شريعة حمورابي، المنقوشة على النصب المكتشف في سوسة، على ان الاسرائيليين لم يحافظوا على الشريعة المذكورة كما وردت، بل أخذوا منها ما كان قابل التطبيق في زمانهم، وتركوا قسماً دلَّ على تقدم في المدنية، ورقي يسبق ما كانت عليه مملكة اسرائيل واليهودية.

فالتنظيمات العسكرية الواردة في المادة 26 الى المادة 41 القائلة: «إذا سيج انسان

مزرعة أو بستاناً أو داراً تعود لجندي من حملة السلاح الخفيف، أو من حملة السلاح الثقيل، أو كان من جنود الاقطاعية، فعندما يعود الجندي الى مزرعته أو بيته أو بستانه، عليه أن يدفع للرجل قيمة الركائز التي أقامها والأوتاد الموضوعة في السياج».

ان هذه التنظيمات لم تأخذ بها الشريعة الاسرائيلية، لأن ملوك اسرائيل لم يكن عندهم جماعة من العبيد الاقطاعيين يستخدمونهم في أملاك التاج، بل كان لديهم عساكر أجانب مأجورون، يستخدمونهم ويؤدون لهم مرتباتهم، كما دل على ذلك ما ورد في الآية السابعة من الاصحاح العشرين من كتاب صموئيل الثاني إذ تقول: «فخرج وراءه رجال يوآب الجلادون والسعاة وجميع الأبطال وخرجوا من أورشليم ليتبعوا شبع بن بكري». ثم ان كل اسرائيلي قابل للجندية كان مفروضاً عليه الخدمة، وان يتسلح ويحمل السلاح عندما يدعى للتجنيد العام، كما ورد في الآية السابعة من الاصحاح الحادي عشر من كتاب صموئيل الأول القائلة: «فأخذ فدان بقر وقطعه، وأرسل الى كل تخوم اسرائيل بيد الرسل قائلاً: من لا يخرج وراء شاول ووراء صموئيل، فهكذا يفعل ببقره، فوقع رعب الرب على الشعب فخرجوا كرجل واحد».

وما يتعلق بالتنظيمات الأرضية الواردة في المادة 42 الى المادة 56 من شريعة حمورابي، لم يرد لها مثيل في شريعة الأسفار الخمسة، رغم وجود ملاكين لأراضٍ واسعة بين الاسرائيليين. فكتاب «اشعيا» في الآية الثامنة من الاصحاح الخامس يقول: «ويل للذين يصلون بيتاً بيت، ويقرنون حقلاً بحقل حتى لم يبقَ موضع. فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض».

ان في هذا لدلالة، على وجود الملاكين، أصحاب الأراضي الشاسعة، الذين كانوا يفلحون في أراضيهم ويسقونها ويستخدمونها، ولكن ليس كما كان يفعل البابليون في ما بين النهرين، وكما كانوا عليه من المهارة والرقي في زراعتهم.

والمواد من 60 الى 66 من حمورابي، المتعلقة باستئجار الأراضي، وجعلها بستاناً، وما يتوجب على المتعهد من حقوق، فليس لها مثيل في شريعة موسى إلا بقايا من قانون ورد في سفر اللاويين في الآيات 23 و24 و25 من الاصحاح التاسع عشر، وقد تكلمنا عنه في السابق.

ولما كان يهود العهد القديم ليسوا شعباً تجارياً، فما ورد في المواد 100 و101 و102 و103 و104 حتى المادة 107 لا يفيدهم، لأنها تتعلق بالقروض والتجارة والدين وما يترتب عليها.

لقد كان جل اعتمادهم على الغلال والمحاصيل الزراعية الأخرى وتجارتها، وكانت الأمور التجارية بيد الفينيقيين الذين مهروا فيها. وفي الآية الثانية من الاصحاح الثالث

والعشرين من سفر أشعيا ورد اسم الكنعانيين عنواناً لاسم التجار، فالآية تقول: «اندهشوا ياسكان الساحل تجار صيدون العابرون البحر ملأوك».

ومن أهم ما أهملته التوراة مسائل الأرث. وأما قانون حمورابي فقد تناولها، وكان خلافاً لما ورد في سفر التشريع كاملاً بما يتعلق بها. وأما هي فكانت مناقضة له. فالأبناء في شريعة موسى يتقاسمون أموال أبيهم وتركاته فيما بينهم بالتساوي، على ان الابن الأكبر يأخذ ضعف حصة زيادة.

كما ورد في الاصحاح الحادي والعشرين من سفر التثنية، إذ تقول الآية الخامسة عشرة حتى السابعة عشرة: «إذا كان لرجل امرأتان، أحداهما محبوبة والأخرى مكروهة، فولدتا له بنين، المحبوبة والمكروهة. فإن كان الابن البكر للمكروهة، فيوم يقسم لبنيه ما كان له، لا يحل له أن يقدم ابن المحبوبة بكراً على ابن المكروهة البكر، بل يعرف ابن المكروهة بكراً ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده، لأنه هو أول قدرته، له حق البكورية». وإذا لم يكن له بنون ذكور ترث البنات، وإذا لم يكن له ذكور ولا اناث يتوارثه اخوته، كما ورد في سفر العدد من الآية 6 ـ 11 من الاصحاح السابع والعشرين: «فكلّم الرب موسى قائلاً بحق تكلمت بناتُ صلفحاد، فتعطيهن ملك نصيب بين اخوة أبيهن، وتنقل نصيب أبيهن اليهن. وتكلم بني اسرائيل قائلاً: ايما رجل مات وليس له ابن تنقلون ملكه الى ابنته، وان لم تكن له ابنة تعطوا ملكه الى اخوته، وان لم يكن له اخوة تعطوا ملكه لأخوة ابيه، وان لم يكن لأبيه اخوة تعطوا ملكه لنسيبه الأقرب اليه من عشيرته فيرثه». وفي كل لم يكن للأرملة حق في الثروة، وقبلاً في القرون الأولى، كانت تعتبر من جملة ملك المتوفى، وتعامل على هذا الوجه، وكان وثنيو العرب على هذا الشكل قبل مجيء محمد أيضاً.

وفي الآية 21 من الاصحاح السادس عشر، وفي الآية السابعة من الاصحاح الثالث من سفر صموئيل الثاني، وكذا في الوصايا العشر، يأتي اسم المرأة معدوداً مع البيت، والثور، والحمار وغيره مما هو ملك للجار. وحتى كتاب الشريعة لم يذكر مادة تتعلق بالارملة ولا باليتيم بل انهما تركا للرحمة. وفي كتاب الخروج: «الآية 22 من الاصحاح 22» تشير الى هذه الرحمة، بقولها: «لا تسىء الى أرملة ما ولا يتيم، ان اسأت اليه فإني ان صرخ اليَّ أسمع صراخه» فكأنهما اعتبرا كالأجير أو الغريب الذي يستحق الرحمة، ولذا نجد في كثير من التهديدات الواردة على لسان الانبياء، ما يدلنا على الضيم والظلم الذي يحيق بالارملة، واليتيم في المجتمع الاسرائيلي.

ولو أننا قارنا هذا الاعتبار الوارد في الشريعة الموسوية، بما هو وارد في الشريعة البابلية، لتبين لنا ان أخلاق الاسرائيليين ولا شك، هي دون أخلاق البابليين.

وقضية التبني التي تحتل مكاناً واسعاً في شريعة حمورابي، والتي وردت في المواد 185 ـ 193 ليس لها ذكر في الشريعة الموسوية، ولكن وضع مكانها شرط جعل المرأة تعتبر آلة لحمل الأولاد.

فالآيات الخامسة حتى العاشرة من الاصحاح الـ 25 من سفر التثنية تقول: «إذا سكن اخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن، فلا تصر امرأة الميت الى خارج لرجل أجنبي. أخو زوجها يدخل عليها، ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخي الزوج. والبكر الذي تلده، يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من اسرائيل، وان لم يرض الرجل ان يأخذ امرأة أخيه، تصعد امرأة أخيه الى الباب الى الشيوخ وتقول: قد أبى أخو زوجي ان يقيم لأخيه اسماً في اسرائيل، لم يشأ ان يقوم بواجب أخي الزوج. فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه، فإن أصر وقال لا أرضى ان اتخذها، تتقدم امرأة أخيه اليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه وتصرّح وتقول: هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه، فيدعى اسمه في اسرائيل بيت مخلوع النعل».

وقوانين الملاحة التي نصت عليها المواد 234 حتى المادة 240، كانت عديمة الفائدة عند الاسرائيليين، لأنهم لم يكونوا شعباً بحرياً، ودرجات الأجور والقيم لا تنفذ في غير بلاد بابل.

وما زاده المشرعون الاسرائيليون في شريعتهم، يتناول الأمور اللاهوتية، لأن الفكرة الأساسية، في شريعة حمورابي، بيان حقوق الرعية المدني والعدالة، وبحسب زمان واضعها والظروف الموجودة شملت ذلك وضمنت تحقيقها.

ومع اخلاص حمورابي للآلهة التي وردت في شريعته، وحرصه العظيم على تقديسها، فإنه لم يتعرض للاهوتية في كل ما أورده في شريعته، وجلَّ ما أشار اليه رجوعه الى الآلهة لامتحان القضايا التي يعجز ضمير الانسان وبصيرته عن النفوذ الى باطن حقائقها. فالمادة 2 والمادة 132 تظهران هذه الوسيلة. وأحياناً لامتحان الصدق يلجأ الى حلف اليمين عند فقدان الدليل.

وأما الأسفار الخمسة، فالناحية اللاهوتية تغلب على محتوياتها، وفي مقدمتها الاضطهاد الديني، حتى ان كتاب التشريع لم يخلُ من لقاحها، في حين ان الاضطهاد الديني، كان مجهولاً في بلاد بابل، ولذا لم يرد ذكره في شريعة حمورابي حتى ولا في جميع الألواح والكتابات التي اكتشفت.

والآيات 1 و2 و7 ـ 12، الواردة في الاصحاح الحادي والثلاثين، من سفر العدد تعد فكرة مثالية للجمع بين الخبرة الطقسية في اقامة الشعائر الدينية وسفك الدماء،

وجعل الغاية الأساسية من الـ "Torah" الكاملة اقامة حكومة لاهوتية للارهاب والانتقام. يقول السفر المذكور: «وكلم الرب موسى قائلاً: انتقم نقمة لبني اسرائيل من المديانيين ثم تضم الى قومك، فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر. وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم، وسبى بنو اسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم، وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم، وجميع خصومهم بالنار، وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم، وأتوا الى موسى والعازار الكاهن وإلى جماعة بني اسرائيل».

ثم قال موسى في الآيات 17 ـ 24: «فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها. لكن جميع الأطفال من النساء اللاتي لم يعرفن مضاجعة ذكر ابقوهن لكم حيات. وأما أنتم فانزلوا خارج المحلة سبعة أيام. وتطهروا كل من قتل نفساً، وكل من مس قتيلاً في اليوم الثالث وفي السابع أنتم وسبيكم وكل ثوب وكل متاع من جلد، وكل مصنوع من شعر معز، وكل متاع من خشب تطهرونه. وقال العازار الكاهن لرجال الجند الذين ذهبوا للحرب هذه فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى. الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص، كلُّ ما يدخل النار تجيزونه في النار، فيكون طاهراً غير انه يتطهر بماء النجاسة. وأما كل ما لا يدخل النار فتجيزونه في الماء، وتغسلون ثيابكم في اليوم السابع فتكونون طاهرين، وبعد ذلك تدخلون المحلة». ومثل هذا القصاص يلحق بأقل تقصير في اجراء الشعائر الدينية، كأن التقصير فيها من أكبر الجرائم، وكأن نظام الكهنة يجب ان يبقى حملاً ثقيلاً على المتشفع الذي ستنفصل روحه عن الشعب إذا ما عصى أمراً، حتى ان الذي يحرق البخور ويركب أو يدهن بالزيت غيره دون ان يكون مأذوناً يعاقب بالموت، كما ورد في الآيتين 32 و33 من الاصحاح الثلاثين من سفر الخروج اللتين تقولان: «على جسد انسان لا يسكب. وعلى مقاديره لا تصنعوا مثله، مقدس هو ويكون مقدساً عندكم. كل من ركب مثله ومن جعل منه على أجنبي يقطع من شعبه».

وكذا ورد بحق من يهمل عيد الفصح، في سفر العدد الاصحاح التاسع الآية 13، حيث تقول:

«لكن من كان طاهراً وليس في سفر. وترك عمل الفصح تقطع تلك النفس من شعبها، لأنها لم تقرب قربان الرب في وقته، ذلك الانسان يحمل خطيئته». ومن خالف يوم السبت كما تقول الآية الثانية من الاصحاح الخامس والثلاثين من سفر الخروج يقتل: «ستة أيام يعمل عمل. وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم سبتُ عطلة مقدس للرب، كل من يعمل عملاً فيه يقتل». حتى الذي يعمل ما يجب بروح متكبرة أي بيد رفيعة تدل

على السلب، انظر سفر العدد الآية 30 من الاصحاح الخامس عشر حيث تقول الاية: «وأما النفس التي تعمل بيد رفيعة من الوطنيين أو من الغرباء، فهي تزدري بالرب، فتقطع تلك النفس من بين شعبها، لأنها احتقرت كلام الرب ونقضت وصيته».

وبهذه القسوة والتعصب الذي لا معنى له يتبين الفارق العظيم، بين القوانين الاسرائيلية التي تظهر بهذا الطابع، وبين عظمة التشريع الحمورابي، الذي هو انساني ومدني واجتماعي بكل ما في التشريع من معنى.

حِكمة أحيقار وأثرها في الكتاب المقدس

المقدمة

تبحث هذه الصفحات في منشأ الحكمة وأصولها وأثرها في الكيان البشريّ على مرّ التاريخ، وهي جاءت لتفنّد المقولة القديمة القائلة: «إنّ سفر الحكمة وسفر الأمثال، وسفر يشوع بن سيراخ، وسفر الجامعة في كتاب العهد القديم من الكتاب المقدّس، أقدم نصوص حكميَّة تعليميَّة مدوّنة». والحقيقة أنّ ذلك شهادة زور على العهد القديم، إذ تبيَّن وبالتحقيق العلميّ الأكاديمي الدقيق، أنّ الحكمة نبتت على ضفاف الرافدين ونمت وترعرع حتى امتدّت فروعها الى الشعوب المجاورة وما بعدها، بدءاً بالسومريّين ومروراً بالأكّديّين والبابليّين، وانتهاء بالإشّوريّين الذين في عهدهم أينعت الحكمة، وأزهرت على لسان «إحيقار» وزير الملك سنحاريب الأشّوري حكيم نينوى الذي نجد لحكمته أثراً بيناً لدى سائر الأمم القديمة كاليونانيين والعبرانيين والمصريين والآراميين والعرب وغيرهم.

ولدينا من الدلائل ما يشير الى أنّ مدوّني العهد القديم كانوا مطّلعين على الحكمة العراقية القديمة، ولا سيما حكمة «أحيقار» حكيم البلاط الآشوري وعاصمته نينوى، والتي منها اقتبسوا النصوص الحكميّة التعليميّة والتي جاءت متشابهة في أكثر من سفر. وأنّ اليهود الذين سباهم الأشّوريون ونبوخذنصر بالسبي البابلي، أدخلوا الكثير من النصوص العراقية القديمة في نصوص الأسفار التوراتية بعد تحويرها وتغييرها الموجّه، ثم توظيفها للتوحيد، أي عبادة الإله الواحد بطريقة تنظيفها من بقايا الوثنية المشركة.

تمهيد تاريخي

من المعروف أنّ وادي الرافدين مرّ بفترات عظم فيها الإيمان بوجود «حكماء»[1]. يوجّهون أعمال الملك وهم بمثابة مستشارين له. ويساهم هؤلاء الحكماء بشكل مباشر، وغير مباشر، في تعليم الأفراد والأمّة. في الوقت الذي هم قريبون من الملك والسلطة، يشيرون عليه بالنصيحة، ويرشدونه الى خير الأمور وأحسنها. وهؤلاء الحكماء، أسهموا في تطوير المعارف الانسانية خلال أجيال متعاقبة وطويلة.

لقد كان هؤلاء الحكماء، من المشمولين برعاية إله المعرفة (آيا). ويسهمون في اختصاص هذا الإله الذي هو في الوقت نفسه إله عالم المياه كلها، هذا العالم الذي يعدّ ـ حسب معتقداتهم ـ أصل كل المعارف.

ويرد في أشعار «ايرا» وهو الإله المدمّر آله الطاعون وعالم جهنم في معرض تهديده بابل ما تعريبه:

«أين هم إذن حكماء المياه السبعة؟ الأسماك النقيّة، التي كانت كأبهيا «آيا» مفعمة بفهم عظيم»[2].

لقد كان هذا طابع الحكماء حتى أواخر فترات العهد البابليّ الحديث، وقد ذكرهم فيما بعد المؤرّخ والعالم البابلي الشهير «بيروسوس»، الذي كتب تاريخ البابليين في ثلاثة مجلدات، باللغة اليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد[3].

وممّا ذكره «بيروسوس» هذا، أنّ هناك الرجل السمكة، المسمى أوانيس، قد خرج من البحر، ليعلم الرجال العناصر الأولى للحضارة. ويفصل بيروسوس المعارف التي كان من الواجب على هؤلاء الإحاطة بها ومنها:

«آلإجادة التامة للكتابة والعلوم والقوانين الاجتماعية المنظمة للحياة اليومية، وفقه القوانين، والهندسة، وفنون تشييد المعابد، وتعليم الزراعة وما يخص البذور، والحصاد، وكل ما يتعلق بالثقافة»[4].

---

(1) من المعروف عن فراعنة مصر وملوك فلسطين ورؤساء الآراميين انهم قربوا مثل هؤلاء الحكماء. وتسمي النصوص الحكيم باسم «أحيقار» التي قد تعني في ما تعنيه «أخا الكرم، أخا الوقار» ومثل شخصية «الاحيقار» كانت معروفة في بلاط الاشوريين خلال القرن السابع قبل الميلاد. ويرد في واحد من نصوصهم المؤرخة في فترة حكم الملك الاشوري «أسرحدون» اسم «أبو ـ نينو ـ داري» الذي يسميه الآراميون بالأحيقار.

(2) الكدتور وليد الجادر، اهمية دراسة التراث الفكري في حضارة وادي الرافدين، مجلة «آفاق عربية» بغداد (1986)العدد السابع، ص 66 وما بعدها.

(3) عن شخصية المؤرخ البابلي «بيروسوس» (انظر مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد 22 شباط 1978، ص 369 - 370 ويرد اسم «بيروسوس» ايضا باسم «برحوشا».

(4) د. وليد الجادر، المصدر السابق، ص 67.

ولقد عرفت معظم المدن في وادي الرافدين حكماء كهؤلاء الحكماء السبعة. وكان ظهورهم بدفع إلهيّ من السماء، لإرشاد الملوك وتوجيههم لإنقاذ المدينة، والعالم، من شرور معينة، ولتوجيه الناس جميعاً نحو الطريق السليم، وقد سمي البعض من هؤلاء الحكماء وسميت اختصاصاتهم الضيقة المحددة. فيذكر مثلاً اسم «نوبير كالديم» بأنه كان حكيم الملك «أنيمكسار». ويذكر عن آخر اسمه «أور ـ كاتوم ـ دوكا» بأنه كان حكيماً ومنقباً على مستوى عالمي، وهو من مواليد مدينة «أور»[5]. ومن المعروف أن تأثيرهم كان واضحاً في تسيير أمور الحكم والدولة في التنبؤ وتفسير المستقبل.

وفي الحقيقة، فإنّ الاهتمام بمثل هذه الظواهر، التي ترتبط بدون أدنى شك بالقضايا الفكرية، والتفكير بالأحداث، والظواهر والحروب كان واسعاً. وكانت اهتمامات المفكرين منتشرة على نطاق واسع حتى أن نسبت احدى المدن اليهم. فقد كانت مدينة الحكمة «آل نيميكي» ومثل هذه الصفة التعظيمية كانت معروفة بالنسبة لمدينة بابل قبلها. وكانت هاتان المدينتان بالذات من المراكز المرموقة والمعروفة عالمياً وقتذاك بالعلم والمعرفة[6].

وخلال العهد الأشوري والبابلي، كان البعض من هؤلاء الحكماء يظهرون على المنحوتات البارزة على هيئة طيور وأسماك وهم في هذه الصور الرمزية المعروفة، يرتبطون بصوة أوضح بعالم «آيا»، وهو عالم الحياة. والمعروف ان القصائد البابلية الشهيرة «العدالة الإلهية» المدونة في مدينة بابل في حدود نهايات الألف الثاني قبل الميلاد، ومن خلال النسخ المتأخرة أو الحديثة التي تم العثور عليها في المكتبة الأشورية كانت بدايتها مديحاً مكرساً لسيد الحكمة.

ومن المعروف، أن الأشوريين ورثوا عن الأكديين والسومريين ما توصلوا اليه من علوم وفنون وأدب وحكمة، وقد ترجم التراث السومري الى اللغة الأشورية، بينما انتقل اليها التراث الأكدي بلغته الأكدية.

فالحكمة الأشورية والحالة هذه، تمثل كافة أدوار التاريخ الخصب في ما بين النهرين، وسهل شنعار. وقد اكتشفت الأداب الحكمية السومرية مترجمة الى الأكدية والأشورية تحت أنقاض نينوى بين رقم خزائن أشوربانيبال، ونشرت بتحقيق الأثاريين العلماء، رولنصون ولنغدون وميك وميسز. بالإضافة الى ما نشر من رقم أكدية وأشورية وجدت بين أنقاض باكزكوي (عاصمة الحثيين) القديمة، ومن مدينة أشور ومدينة كالح

---

(5) د. وليد الجادر، المصدر نفسه، ص 67.

(6) من محاضرة للدكتور وايزمن القاها في المؤتمر العالمي الثاني للآثار والخاصة ببابل وأشور وحمرين والذي عقد في بغداد خلال الفترة من 1 - 10 تشرين الاول 1979.

(نمرود) تحتوي الأمثال الواردة على ألسنة الحيوانات، ويعود تاريخها الى عهد سرجون الثاني ملك أشور. كما اكتشفت غيرها في مناطق مختلفة من المدن الأشورية المندرسة تعود الى مختلف العهود الأشورية[7].

هوية أحيقار وقصته

بعد هذا المدخل ـ الطويل ـ عن الحكمة الأشورية[8]، التي في أجوائها عاش أحيقار الحكيم ومنها استقى، ولها أرفد، أجد أنه من حقنا الآن أن نعرف من هو أحيقار؟ وما خبره؟ وما أصل قصته؟ وحقيقة أمره[9].

من يكون أحيقار؟

قد يكون اسطورة، وقد يكون اسم شخص عاش فعلاً في زمن الملكين الاشوريين سنحاريب (704 - 611 ق.م) وابنه أسرحدون (680 - 669 ق.م). وقد يكون لقباً، أو صفة، أو رتبة رسمية، أو مهنة، أو حرفة، أو درجة كهنوتية، أو شهادة علمية أو أدبية. فالعظيم والعظمة يصبحان أسطورة حتماً، شاء المؤرخون أم أبوا، لأن التاريخ ليس تسجيلاً وتصويراً ونقلاً، بل «يبدأ التاريخ حين يبدأ الناس في التفكير بانقضاء الزمن، ليس بمعايير السياقات الطبيعية ـ دورة الفصول، أمد الحياة البشرية ـ وإنما بوصفه سلسلة من الأحداث المحددة التي ينخرط الناس فيها، بصورة واعية»[10].

اكتشف أقدم نص لقصة أحيقار على أوراق البردي، ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد[11]. وهذا لا يعني طبعاً أنه لم يكن ثمة نص أقدم لم يسلم من الضياع، كما هو مصير العديد من النتاج الفكري والآثار الأخرى.

تقول القصة ان أحيقار كان وزيراً ومستشاراً لملك أشور ونينوى سنحاريب، وكان حكيماً عظيماً ذا مال وفير، ومعرفة، ورأي وتدبير. لم ينجب. فتزوج عدة نساء، ولكنه

---

(7) للتفصيل في حكمة العراق القديم راجع كتاب «أدب الحكمة البابلية» للأستاذ غوردن وكتابنا «الحكمة في وادي الرافدين»، بغداد، 1983.

(8) سهيل قاشا، الحكمة في وادي الرافدين، ص 145 وما بعدها.

(9) في نيتنا نشر دراسة طويلة ومفصلة عن احيقار حكيم من نينوى، وهو مخطوطة جاهزة للطبع.

(10) ادوار كار، ما هو التاريخ، ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل، بيروت (1980) ص 154.

(11) اكتشف النص الآرامي هذا على أوراق البردي بين وثائق آرامية كثيرة مشابهة له بيد البعثة الالمانية في جزيرة الفيلة بمصر سنة 1906 ويتألف النص من احدى عشرة صفحة ثلاث منها تحوي كل منها عمودين، والصفحات الاربع الاولى وهي ـ طبقاً لما رقمها ساخو من 1 - 78 تحوي قصة احيقار نفسها، والباقية هي عشر صفحات وعشرة اعمدة من 79 - 223 تتناول امثال احيقار وحكمته الشهيرة، والنص خال من التاريخ، ولكن بعض الدلائل المماثلة استنتج العلماء انها من النصف الاخير من القرن الخامس قبل الميلاد، كما هي الحالة في بقية الوثائق المكتشفة في المكان والزمان نفسيهما. (راجع هذا التفصيل لدى المطران بولس بهنام، أحيقار الحكيم، بغداد 1976، ص 29 - 30).

بقي بدون وريث، فكان كثير الهمّ، استشار المنجمين والعرّافين، فأشاوا عليه أن يذبح للآلهة، ويقوم بأفعال خير، ولكنه لم ينل مبتغاه[12]. إلا أنه سمع صوت الإله يوماً يقول له: خذ نادان ابن أختك واجعله وريثك، علمه علمك، ولقنه حكمتك. فأخذ نادان، وكان بعد رضيعاً، واعتنى بأمره. ولما شبّ علّمه الكتابة والقراءة والأدب والفلسفة والعلوم. وبعد سنوات، كبر أحيقار وشاخ، فأشار عليه الملك أن يعيّن من يخلفه في منصبه. فأجابه أنه قد اتخذ من ابن أخته ولداً، فأمره الملك بإحضاره. وعجب لأدبه وحكمته فوافق على تعيينه خلفاً لأحيقار. فأخذ خاله يبذل النصح له. ويطلعه على أسرار النجاح في مهمته سارداً له تجاربه في الحياة، فالتجربة خير معلم. وتنازل أحيقار عن وظيفته وثروته العظيمة من أموال وممتلكات وعبيد، ولم يحتفظ لنفسه إلا بشيء يسير دلالة عن شدة محبته لنادان.

وتريد القصة أن يخيب نادان آمال خاله ومربيه، فيضيع الثروة ويتصرف تصرفات طائشة بحيث يضع خاله وأهله عرضة لتقولات شتى حتى يضطر أحيقار أن يعاقب نادان، ويسترد الميراث، مانحاً إياه الى الأخ الأصغر، فيحقد نادان على خاله، ويضمر له العداء ويدبر خطة للإيقاع به، فيلجأ الى طريقة دنيئة، إذ يدس على أحيقار خطابين موقعين باسمه: الأول موجه الى ملك الفرس، والثاني الى فرعون مصر، يظهر أحيقار في كليهما خائناً لوطنه وملكه، إذ يطلب من الملكين المجيء الى بلاد آشور لكي يتسلما المملكة بغير حرب. ويقع الخطابان في يدي الملك وفق الخطة المرسومة، ويزوّر نادان خطاباً ثالثاً موجهاً من قبل الملك الى أحيقار يطلب اليه أن يجمع العساكر ويحضر في موقع معين، فيطيع أحيقار وتثبت التهمة عليه، ويتأكد الملك هكذا من خيانته، فيصدر أمراً بالقبض عليه وقطع رأسه. وتشاء الصدف أن يكون أحيقار قد أنقذ سابقاً الرجل الموكّل إليه أمر إعدامه، فيدبر هو وامرأة أحيقار أمر نجاته وينفذ الحكم بأحد المحكوم عليهم بالإعدام، بينما يختبىء أحيقار في مخبأ حديقة الدار لا يعلم به أحد.

تمر السنون ونادان مكان خاله مستشاراً للملك، لكنه غير متزن وضعيف الرأي، فيستغل ملك مصر ـ وكان فرعونها إذ ذاك ترهاقاً من الأسرة الخامسة والعشرين التي كان ملوكها من الحبشة ـ الفرصة لإحراج ملك آشور، فيبعث الهي مخبراً يخبره بين أمرين: إما أن يرسل من يبني له قصراً في الهواء ويرد على أسئلته، فتدفع له مصر الجزية ثلاث سنوات او يعجز عن ذلك فيدفع الجزية ثلاث سنوات لمصر. وإذ يجمع ملك آشور العلماء والحكماء والعرّافين ويعرض الأمر عليهم، يقر الجميع بعجزهم،

(12) وتضيف النصوص السريانية انه هجر الوثنية الى عبادة الإله الواحد، ولم يرزق له ولد.

ونادان أشد عجزاً منهم. فيغتم الملك غماً شديداً، ويأسف على قتل أحيقار الحكيم، ويطول حزنه حتى يمثل السياف بين يديه ويصرخ بأنه قد أبقى على حياة أحيقار اعترافاً له بالجميل، فيستدعيه الملك ويعرض عليه رسالة ملك مصر. فيعدّ أحيقار نسرين كبيرين وغلامين وشريطين طويلين من القطن طول كل منهما ألف ذراع، ويربط النسرين بالشريطين، ويدرب الغلامين على الركوب على ظهر النسرين، ثم يطلقهما فيطيران في الجو على طول الشريط، فإذا وصلا الحد الأعلى صاح الغلامان: قدموا لنا الحجارة والملاط لنبني البيت. فيخرج ملك مصر ومن معه ويروا استحالة تلبية طلب الغلامين، فيعترف لأحيقار بالنصر.

وينفّذ أحيقار ذلك بنجاح، وتستمر الألغاز بين فرعون وأحيقار والأخير ظافر فيعود أحيقار الى بلاده معززاً مكرماً، مثقلاً بالهدايا، ويجري له استقبال حافل وكأنه منقذ البلاد.

وينتقم أحيقار من نادان، فيربطه بسلسلة حديد، ويلقيه في مكان مظلم، ويؤنبه بكلام بحكمة قاسية. وتقول القصة إن نادان انتفخ حتى انفجر ميتاً.

وتأتي الخاتمة، وقد زادها على الكتاب أحد المؤلفين المتأخرين وقد يكون مسيحياً نظرا الى التعابير التي وردت فيها مثل «الخطيئة المميتة» و«ملكوت السماء» و«السعادة الأبدية».

وفي هذه الخاتمة يذكر أن أحيقار كان وثنياً في البداية ثم آمن بالإله الواحد في نهاية حياته[13].

أصل القصة وانتشارها

يكاد يجمع مؤرخو الأدب السرياني، ولا سيما المستشرقون منهم، على اعتبار كتاب أحيقار هذا ترجمة آرامية لنص غريب، ولهم في ذلك مبرر، ليقينهم أن الآداب السريانية نبعت من الفكر المسيحي، وتبلورت في ميدان الجدل دفاعاً عن هذا الميدان. ولقد فاتهم أن الآرامية كانت اللغة السائدة في الشرق في تلك الفترة بالذات، منتشرة من المتوسط الى الهند، وحتى في قلب أشور ونينوى وبابل، وفي الأوساط الشعبية كما وفي الدوائر الرسمية، وأن ملوك أشور اتخذوا دوماً وزراءهم وكتّابهم من الآراميين - أليس أحيقار نفسه آرامياً؟ - أو على الأقل من المتضلعين من الآرامية، وأنهم أردفوا الى نصوص رقمهم الأشورية نصاً آرامياً في سبيل نقل مضمونها الى جميع الشعوب كافة، وهي على علم بهذه اللغة.

---

(13) البير ابونا، ادب اللغة الآرامية، ص 35 - 40.

ويذهب نفر، حتى من الشرقيين الأصليين - الى أن القصة آشورية المنبع، وهي بقية من أساطير نينوى وبابل، نقلت الى اليهودية (العبرية) او الى الآرامية، باعتبار اسماء الآلهة المذكورة فيها بابلية، أو أنها آشورية الأصل.

ويتساءل آخر هل هي عبرية المنشأ نقلت الى اليونانية فأصبح بطلها أيسوبوس، لما ورد على لسانه من أمثال مشابهة ما لم يكن الأمر معكوساً، أي أنها نقلت من أصل يوناني الى العبرية بأسماء سامية آشورية، وهذا احتمال ضعيف جداً ومردود بنفس الوقت ومرفوض علمياً ومنطقياً.

إن من يكب على دراسة نص «قصة أحيقار» كما وصل الينا، يتبين له أن فيه قسمين:

الأول، ويضم النصائح والحكم والأمثال.

والثاني، وقد أقحم فيه الروايات والحكايات الغريبة المدهشة من طابع القصص الهندي الذي نجد له صدى في كتاب «كليلة ودمنة» من وضع الفيلسوف الهندي بيدبا، وكتاب «ألف ليلة وليلة» وقد تكون ألحقت فيما بعد بها.

كما يتضح أن طريقة التفكير وأسلوب التعبير من خصائص الأدب الآرامي السرياني القائم أصلاً على الوعظ والإرشاد. فضلاً عن أن اسماء بعض الآلهة التي وردت في النص أقرب الى الآرامية منها الي الآشورية والبابلية.

وعليه، فليس من المستبعد، بل يقرب من اليقين أن تكون قصة أحيقار وحكمه وضعت أول ما وضعت بالآشورية، ثم دونت بالآرامية السريانية، حلقة من حلقات التراث الأدبي في العالم القديم، وقد لاقت فيه وما بعده رواجاً لا مثيل له.

ومن حسن الحظ أن يكون طوبيّا البار قد أقام مدة في نينوى حيث استمع ولا شك الى أخبار أحيقار الكاتب في البلاط الملكي ونصائحه وإرشاداته وحكمه، فجاء سفره على كثير من توارد الحكم والمقاطع - كما سنرى - وقد ثبت أن هذا السفر وضع بالآرامية في القرن الخامس قبل الميلاد[14]. فمال معظم النقاد الى جعل نص أحيقار الآرامي معاصراً له أو سابقاً بقليل. ومال بعضهم الى اعتبار طوبيّا يهودياً نسيباً لأحيقار، ويعزز هذا الرأي ما ذكره سفر طوبيّا من علاقة النسب بين طوبيّا وأحيقار أولاً، وما عرف عن ديموقريطس الذي عاش في القرن نفسه، من أنه ردد في «أخلاقياته» بعض ما جاء في كتاب أحيقار من الحكم، ثانياً.

هذا، فضلاً عما دوّن فيما بعد، في عدد من أسفار العهد القديم، كسفر دانيال

---

(14) فولوس غبريال، اللغة السريانية، الادب والنحو، الجزء 3 ص 100 - 107.

النبي، الذي عاش في عهد قريب من أحيقار، ،في ظروف وبيئة شبيهة بظروفه وبيئته. وسفر يشوع بن سيراخ، أو سفر الحكمة الموضوع في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، وسفر الأمثال، وسفر الجامعة وسواها، وفي جميعها توارد في التفكير والتأليف، في التركيب والتعبير حتى وفي النص واللفظ، وفي الصف والترتيب. وهذا ما نرغب أن نبحثه هنا في مدى أثر «حكمة أحيقار في أسفار العهد القديم».

فلا غرو إذن والحالة هذه أن نرى اليهود الآخذين باللغة الآرامية منذ ظهورهم يبالغون في اهتمامهم بأحيقار وحكمه وأمثاله، فيكثرون من نسخها ولا سيما المتهلننون منهم، ويحرصون على مخطوطاتها، حتى ويجلونها محل كتابهم، كما حصل في الفيلة، حيث عثر عليها، دون سواها من النصوص اليهودية الدينية، ومن نسخة الفيلة هذه انطلقت الترجمات اللاحقة وعليها المعوّل في الدراسة الأولية.

ولا عجب أن تكون الأوساط اليهودية، أينما حلت، نهجت النهج نفسه، حتى راجت فيها أمثال أحيقار الحكيم، يتناقلها الناس أبا عن جد، ويهتدون بها في حياتهم اليومية وهي نابعة من فلسفة الحياة العامة، فتعلق الأقوال في الأذهان، ويضرب صفحاً عن شخصية قائلها.

النص السرياني لقصة أحيقار الحكيم(*)

«بقوة إلهية، ساكت أمثال، أي قصة أحيقار الحكيم كاتب سنحاريب ملك أشور ونينوى.

في السنة العشرين لملك سنحاريب ابن سرحدوم[1]، ملك آشور ونينوى كنت أنا أحيقار كاتب الملك. وقيل لي لما كنت ولداً صغيراً، أنك لن ترزق ابناً. أما الثروة التي كنت أملكها فقد كانت أعظم مما يستطيع المرء وصفه. تزوجت ستين امرأة[2]، وبنيت لهن ستين قصراً. ولكني لم أرزق ولداً. فبنيت لي أنا أحيقار مذبحاً عظيماً. كله من الخشب، وأوقدت فوقه النار، ووضعت عليه طعاماً طيباً وقدمت ضحية رجاء صالح وقلت:

أيها الرب إلهي، إذا مت ولم أنجب ولداً، ماذا سيقول الناس عني؟ سيقولون: إن أحيقار البار الصالح العادل، الصادق، تقي الله وخادمه مات ولم يترك ولداً، ابناً يتولى دفنه[3]، ولا ابنة. وهذه مقتنياته وثروته ليس لها من يرثها من بعده كأنه رجل حلت عليه اللعنة. أضرع اليك اللهم أن ترزقني ابناً ذكراً ليرمي التراب على عيني يوم أموت.

---

* عن النص الذي نشره المطران يوحنا دولباني عن مخطوطة كمبريدج المرقمة 2002 وقد نشره عام 1962 وقد ترجم لي النص المرحوم والدي الشمّاس بطرس متي قاشا وقابلت الترجمة مع الترجمة التي وضعها الدكتور انيس فريحة في كتابه «حكيم من الشرق» والترجمة الثانية التي وضعها المثلث الرحمة المطران غريغوريوس بولس بهنام في كتابه «أحيقار الحكيم» واشرت على مواضيع الاختلاف في الترجمات الثلاث.

(1) لاسم الاشوري الصحيح أسَرحَدّون. والمعروف ان سنحاريب هو ابن سرجون الثاني (681.704 ق.م) لا ابن اسرحدون. لأن اسرحدون هو ابن سنحاريب الذي ملك في غضون (669.681 ق.م). وفي القصة خطأ تاريخي واضح، بينما النص الآرامي القديم الذي نشره ساخو يسجّل هذه الناحية التاريخية بصورة صحيحة وفي النصوص الاشورية يرد اسم اسرحدون كما يرد في هذا النص.

(2) عدد ستين عدد كامل في الرياضيات البابلية الاشورية. وفي الادب البابلي الاشوري يشير العدد الى كثرة كثيرة وليس من الضروري ان يؤخذ العدد حرفياً. كذلك الحال في الادب العبري او العبراني. جاء في سفر نشيد الاناشيد (7:6) «الملكات ستون، والسراري ثمانون، والأبكار لا عدد لهنّ».

(3) نجد هنا التوكيد على دفن الموتى. فقد كان القدماء يهتمّون بأمر دفنهم قبل الممات.

ثم إني سمعت صوتاً يقول: يا أحيقار الكاتب الحكيم، لقد منحتك كل ما طلبت ونلته مني، وأما إني لم أرزقك ابناً فأمر يجب أن تتقبله (حرفياً: فأمر يكفيك) فلا تقلق، وعليك ألا تنزعج. ولكن ها هو نادان ابن أختك سيصبح ابناً لك، وعندما يكبر في القامة، يمكنك مع تربيته وتنشئته أن تعلمه كل شيء.

وعندما سمعت هذا الكلام حزنت وقلت: أيها الرب الإله أتعطيني نادان ابن أختي ليكون لي ولداً يرمي التراب على عيني يوم أموت؟ فلم ألق جواباً.

فأطعت وصية الإله وأخذت نادان ابن أختي ولداً لي. وبما أنه كان لا يزال طفلاً فإني سلمته لثماني مرضعات، وأطعمته العسل، وأجلسته على البساط الفاخر وألبسته الحرير والخز والأرجوان.

فنما ابني وتعالى وامتدت قامته كالأرز. ولما ترعرع وبلغ أشده، علمته الكتابة ولقنته الحكمة.

ولما عاد الملك من سفرة كان قد قام بها. دعاني اليه وقال لي: يا أحيقار الكاتب الحكيم، يا كاتم أسراري وصاحب مشورتي، عندما تشيب وتموت من سيخلفك في خدمتي ومشورتي؟

فأجبته قائلاً: عش الى الأبد ياسيدي الملك. لي ابن حكيم مثلي، قد حذق الكتابة والكتب والأدب. وعلى جانب كبير من العلم.

فقال لي الملك: أحضره إليّ فأراه. وإذا استطاع الوقوف أمامي فإني أطلقك بسلام، فتقضي شيخوختك بكرامة، الى أن يوافيك الأجل.

عندئذ سرت بنادان ابني وأوقفته بحضرة الملك. فلما رآه سيدي الملك قال: ليكن هذا اليوم مباركاً أمام الله. فكما سار أحيقار، سار أمام سرحدوم (هكذا) أبي فكوفيء، وكما سار أمامي، هكذا سيجازى نادان عندي الجزاء. فليخلد هو الى الراحة، وسأقيمه على بابي الى آخر أيامه.

عندئذ سجدت أنا أحيقار للملك وقلت: ليعش مولاي الملك الى الأبد. كما سرت أمام أبيك وأمامك الى الآن، أرجو عطفك على حداثة سن ابني هذا، وطول أناة وصبر فيزداد عطفك الذي كنت تبديه نحوي أضعافاً نحوه.

وعندما سمع الملك هذا مد يمينه نحوي وأعطاني يمين العهد، فانحنيت له تكريماً. ولم أكن أنقطع عن تعليم ابني فأشبعته العلم والحكمة، كما أشبعته الخبز والماء. وكنت أقول له:

1 ـ [4]إسمع يا بنيّ نادان وافهم كلامي، واعتبر نصائحي، واذكر كلامي، ذكرك كلام الإله ونصائحه.

(4) لقد اثبتنا هذا الترقيم، طبقاً للترقيم الذي جاء في النص السرياني الذي عنه أخذنا الترجمة، وليس في الاصل، إنما من وضع الناشر للنص أولا.

2 - يا بنيّ نادان، إن سمعت كلمة فاتركها تموت في قلبك، ولا تبح بها لإنسان لئلا تصير جمرة في فمك فتكويك، وتترك وصمة في نفسك، ويغضب الله عليك، فتكون مكروهاً في الأرض وتجدف على الإله.

3 - يا بني، لا تبح بكل ما تسمح، ولا تقل شيئاً عن كل ما تراه.

4 - يا بني، لا تحل عقدة ربطت ولا تعقد عقدة حلت.

5 - يا بني، لا ترفع عينيك الى امرأة متبرجة متكحلة، ولا تشتهيها بقلبك. فإنك إن أعطيتها كل ما ملكت يديك لن تجد فيها خيراً وتقترف اثماً أمام الله.

6 - يا بني، لا تزن بامرأة صاحبك لئلا يزني آخرون بامرأتك.

7 - يا بني، لا تكن عجولاً متسرعاً كشجرة اللوز تزهر قبل كل الاشجار، ويوكل ثمرها بعدها جميعاً. بل كن سوياً وعاقلاً هادئاً متأنياً كشجرة التوت، فإنها تورق آخر الأشجار، لكن ثمرها يسبق كل الأثمار.

8 - يا بني، طأطىء عينيك الى أسفل، واخفض صوتك، وانظر الى تحت باحتشام، لأنه لو كان المرء يستطيع أن يبني بيتاً بالصوت العالي المرتفع لبنى الحمار بيتين في يوم واحد. ولو أن القوة الشديدة (وحدها) هي التي تجر المحراث لما فارق النير منكب الجمل.

9 - يا بني، نقل الحجارة مع رجل حكيم أفضل من شرب الخمرة مع رجل جاهل.

10 - يا بني، اسكب خمرك على قبور الصالحين، ولا تشربه مع الأئمة.

11 - يا بني، إنك لن تضل إذا عاشرت حكيماً، ومع الضال لن تتعلم الحكمة.

12 - يا بني، عاشر الحكيم تصبح حكيماً مثله، ولا تعاشر طويل اللسان والمهذار لئلا تحسب نظيره.

13 - يا بني، إذا كنت منتعلاً، دس الشوك برجليك ومهد الطريق لبنيك وبني بنيك.

14 - يا بني، يأكل ابن الغني حية فيقول الناس: للشفاء أكلها ويأكلها ابن الفقير فيقول الناس: من جوعه أكلها.

15 - يا بني، كل نصيبك ولا تهزأ بجارك (ولا تقتحم نصيب إقرانك).

16 - يا بني، حتى الخبز مع قليل الحياء لا تأكل.

17 - يا بني، لا تغتم لخير يناله مبغضك، ولا تفرح لشر يصيبه.

18 - يا بني، لا تقرب امرأة مهذارة، ولا امرأة صخابة.

19 - يا بني، لا يغرينك جمال المرأة، ولا تشتهها بقلبك، لأن جمال المرأة طعمها، وبهاؤها حلاوة كلامها.

20 ـ يا بني، إذا جابهك عدوك بالشر فجابهه أنت بالحكمة.

21 ـ يا بني، إن الأثيم يسقط ولا ينهض، والبار لا يتزعزع لأن الله معه.

22 ـ يا بني، لا تحرم ابنك من الضرب (التأديب) لأن الضرب للصبي كالسماد للبستان، وكالرسن للحمار، وكاللجام للبهائم، وكالقيد في رجل الحمار.

23 ـ يا بني، اخضع ابنك ما دام طفلاً صغيراً، قبل أن يفوقك قوة وشدة، ويتمرد عليك فتخجل في مساوئه ومن كل أعمال السوء التي يعملها.

24 ـ يا بني، اقتن ثوراً يريض، وحماراً ذا حوافر، ولا تقتن عبداً آبقاً ولا أمة لصة كي يفقداك ما تملكه يدك.

25 ـ يا بني، إن كلام الكذاب كعصافير الدوري السمينة، وعديم الحكمة يأكلها.

26 ـ يا بني، لا تجلب عليك لعنة أبيك وأمك، لئلا تحرم الفرح بنعم بنيك.

27 ـ يا بني، لا تسر في الطريق بدون سلاح لأنك لست تدري متى يلقاك أو يقابلك عدوك.

28 ـ يا بني، كما أن الشجرة مزدانة بأغصانها وثمرها، وكما يزهو الجبل باحتباك أشجاره، هكذا يزدان الرجل بزوجته وبنيه. والرجل الذي ليس له زوجة ولا أخوة ولا بنون محتقر ومهان بين أعدائه. إنه يشبه شجرة على قارعة الطريق، كل عابر يستبيحها، وكل حيوان البر يقضم أوراقها.

29 ـ يا بني، لا تقل سيدي جاهل وغبي، وأنا عاقل حكيم، بل امسكه متلبساً بأخطائه ومساوئه تنل رحمة ورضى (منه) فتتسامى.

30 ـ يا بني، لا تحسب نفسك حكيماً عاقلاً والناس لا يحسبونك كذلك.

31 ـ يا بني، لا تكذب أمم سيدك بكلامك، لئلا تحتقر ويقول لك: إليك عني، واغرب عن وجهي.

32 ـ يا بني، ليكن كلامك صادقاً، ليقول لك سيدك اقترب مني فتحياي.

33 ـ يا بني، لا تجدف على الله يوم محنتك (مصيبتك وبؤسك) لئلا يغضب عليك حين يسمعك.

34 ـ يا بني، لا تفضل عبداً من عبيدك على صاحبه، فإنك لست تدري أيهم ستحتاج إليه آخر الأمر.

35 ـ يا بني، ارم حجارة على الكلب الذي ترك صاحبه وتبعك.

36 ـ يا بني، إن القطيع المبدد الذي يسلك مسالك عديدة في الفلوات يصبح فريسة (نصيب) الذئاب.

37 ـ يا بني، كن عادلاً بأحكامك في شبابك تنل كرامة ووقاراً في شيخوختك.

38 ـ يا بني، اجعل لسانك حلواً، وكلامك عذباً فإن ذنب (الكلب يطعمه خبزاً و (فتح) فمه يكسبه رجماً).

39 ـ يا بني، لا تدع صاحبك يدوس على رجلك لئلا يدوس رقبتك.

40 ـ يا بني، اصفح العاقل بكلمة حكيمة فتكون في قلبه كالحمى في الصيف. وإن ضربت الجاهل عصياً كثيرة فلن يشعر.

41 ـ يا بني، ارسل الحكيم ولا تكرر عليه التوجيه والتوصية، وإذا كان لا بد من إرسال جاهل، فالأفضل أن تذهب أنت بنفسك.

42 ـ يا بني، اختبر ابنك بالخبز والماء، عندها يمكلنك ائتمانه على ثروتك وأموالك.

43 ـ يا بني، كن أول من يقـوم على الوليـمـة، ولا تنتظر تناول الدهائن اللذيذة، ولا تستمر في شرب اللذائذ الساخنة لئلا تصاب بجراح في رأسك.

44 ـ يا بني، من كانت يده ملآنة يدعى حكيماً ومحترماً، ومن كانت يده فارغة سماه الناس مذنباً ووضيعاً.

45 ـ يا بني، إني حملت الملح، ونقلت الرصاص، فلم أجد أثقل من الدين المستحق، فليف الإنسان ولا يقترض.

46 ـ يا بني، حملت الحديد، ونقلت الصخور، فلم أجد أثقل من ثقل الرجل الذي يسكن في بيت حميه.

47 ـ يا بني، علّم ابنك الجوع والعطش ليدبّر بيته برويّة.

48 ـ يا بني، أعمى العينين أفضل من أعمى القلب، لأن أعمى العينين يتعلم طريقه سريعاً فيسلكه، وأما أعمى القلب فإنه يحيد عن الطريق المستقيم، ويهيم في الصحراء فيتيه في الظلال.

49 ـ يا بني، الصديق خير من أخ بعيد، والصيت الحسن خير من الجمال الوافر، لأن الصيت الحسن يدوم الى الأبد، وأما الجمال فيذبل ويزول.

50 ـ يا بني، إن الموت خير لرجل لا راحة له في الحياة، وصوت العويل والنحيب والندب في أذني الجاهل أفضل من صوت المزمار والغناء وأهازيج الفرح.

51 ـ يا بني، إن الكراع في يدك لأفضل من الفخذ في قدر غيرك، وشاة قريبة خير من بقرة بعيدة، وعصفور واحد في يد خير من ألف عصفور طائر، والفقر الذي يوفر خير من الغنى الذي يبذّر، ورداء من صوف تلبسه أفضل من الحرير والخز والأرجوان الذي يرتديه الآخرون.

52 - يا بني، احفظ الكلام في قلبك أفضل لك، لأنك إذا بدلت كلامك تخسر صديقك.

53 - يا بني، لا تطلق الكلمة من فمك حتى تروزها في عقلك (حرفياً: قلبك) لأنه خير للرجل أن يعثر في قلبه من أن يعثر بلسانه.

54 - يا بني، إذا سمعت كلمة سوء فادفنها في الأرض على عمق سبعة أذرع.

55 - يا بني، جانب قوماً يتخاصمون، لأن من الخصام ينتج القتل.

56 - يا بني، كل من لا يقضي قضاء عادلاً يغضب الرب.

57 - يا بني، ابتعد عن صديق أبيك، لئلا صديقك يوماً ما لا يقترب اليك.

58 - يا بني، لا تدخل (حرفياً: لا تنزل) الى بستان العظماء ولا تقترب من بنات الكبراء.

59 - يا بني، حام صديقك أمام السلطان، لكي يمكنك أن تحاميه أمام الأسد.

60 - يا بني، لا تفرح إذا مات عدوك.

61 - يا بني، عندما ترى رجلاً أشد منك بطشاً قم من أمام وجهه.

62 - يا بني، إذا وقف الماء بدون أرض (تسنده) أو طار طائر بدون جناح، أو ابيّض الغراب كالثلج، أو حلي المرّ كالعسل (عندما تحدث هذه الأمور جميعها) يصير الجاهل حكيماً.

63 - يا بني، إذا صرت كاهناً لله فاحترس واتقه، وقف بحضرته طاهراً نقياً، ولا تنصرف من أمام وجهه.

64 - يا بني، من أنعم الله عليه فاحترمه أنت أيضاً.

65 - يا بني، لا تقاوم رجلاً في أوج عزه (حرفياً: في يومه) ولا تناصر النهر في طغيانه.

66 - يا بني، إن عين الإنسان هي كنبع ماء، لا تشبع من الأموال حتى تمتلىء بالتراب.

67 - يا بني، إذا أردت أن تكون حكيماً فامنع فمك عن الكذب، ويدك عن لاسرقة، بذا تصبح حكيماً.

68 - يا بني، لا تتدخل في زواج امرأة، فإنه إذا شقيت (في زواجها) لعنتك، وإذا سعدت وسرت ونجحت فإنها لن تذكرك.

69 - يا بني، بهي الثياب مقبول الكلام وحقيرها مرفوضة.

70 - يا بني، إذا لقيت لقية أمام صنم فقدم له منها حصته.

71 - يا بني، إن اليد التي شبعت بعد جوع لا تجود، وكذلك اليد التي جاعت بعد شبع.

72 ـ يابني، لا تنظر عيناك جمال امرأة، ولا ترن الى جمال ليس لك، لأن كثيرين هلكوا بجمال امرأة وحبها كالنار اللاهبة.

73 ـ يابني، خير لك ان يضربك العاقل الحكيم عصياً كثيرة، من أن يدهنك الجاهل بطيب معطر.

74 ـ يا بني، لا تركض رجلك وراء صاحبك، ولا تدعه يشبع منك فيبغضك[5].

75 ـ يا بني، لا تضع أسواراً ذهبياً في يدك وأنت معدم لئلا يسخر منك الجهال[6].

هذا هو التعليم الذي علمه أحيقار لابن أخته نادان.

أما أنا أحيقار، فقد ظننت أن كل ما علمته لنادان قد لصق بقلبه، فيخلفني في باب الملك. ولم أدرك بأن نادان لم يصغ الى كلماتي، بل تركها تعصف الريح بها. ويعود ويقول: إن أحيقار أبي قد شاخ وهو على حافة قبره، وقد اختلت معرفته، وضئلت حكمته.

ثم إن نادان ابني أخذ يسيء الى عبيدي ويضربهم ويذبح الذبائح، ويبدد ولا يعطف على عبيدي وأمائي النشيطين والمحبوبين جداً، وقتل خيلي وقطع عراقيب بغالي القوية.

ولما رأيت أن نادان تمادى في عبثه هذا قلت له: يا بنيّ نادان، لا تقرب أموالي. فقد قيل في الأمثال «حيث لم تجن اليد لا ترحم العين».

ثم أخبرت مولاي سنحاريب هذه الأمور كلها فأجابني قائلا: ما دام أحيقار، فإن أحداً من الناس لن يستولي على ممتلكاته.

بعد ذلك رأى نادان ابني أخاه نبوزردان قائماً في بيتي.

حينئذ لما رأى نادان ابني أخاه نبوزردان في بيتي، اغتاض جداً، وقال: إن أحيقار أبي قد شاخ فضحلت بكلماته الحكيمة (وقال في نفسه): ق تفهمت كلماته الحكيمة (وقال في نفسه): قد تفهمت كلماته الحكيمة، وأخشى يعطي ثروته لأخي نبوزردان ويطردني من بيته.

ولما سمعت أنا أحيقار هذا الكلام، قلت في نفسي: ويحك يا حكمتي، فقد ظنك ابني نادان تفاهة، واعتبر كلماتي الحكيمة فارغة وأقوالي استخف بها.

وعندما سمع ابني نادان ذلك، غضب، وذهب الى باب الملك مضمراً الشر في قلبه. فجلس وكتب رسالتين الى ملكين من أعداء سيدي سنحاريب.

الأولى الى أخي (أغيش) ابن حمسليم ملك فارس وعيلام وقال: «من أحيقار

(5) وقد ترجمها المطران بولس بهنام: «يا بنيّ لا تكثر من زيارة صديقك لئلا يملك فيشناك».

(6) ترجمها المطران بولس بهنام: «لا تضع خاتم ذهب في أصبعك وأنت خالي الوفاض لئلا يزدريك».

الكاتب وحامل أختام سنحاريب ملك أشور ونينوى، سلام. إذا وصلت إليك هذه الرسالة، بادر ولاقني في أشور، وأنا أدخلك آشور فتستولي عليها بدون حرب».

وكتب رسالة ثانية الى فرعون مصر (هذا نصها): «من أحيقار الكاتب وحامل أختام ملك أشور ونينوى، سلام. إذا وصلت اليك رسالتي هذه، انهض وتعال لمقابلتي في بقعة النسور (نسرين) التي تقع الى الجنوب، في اليوم الخامس والعشرين من شهر آب. وأنا أدخلك الى نينوى فتستولي عليها بدون حرب».

وقد جعل خطه مثل خطي، وختمها بختم الملك.

ثم إنه كتب رسالة أخرى لي كأنها موجهة إليّ من سيدي الملك سنحاريب هذا نصها: «من سنحاريب الملك الى أحيقار كاتبي وحامل أختامي، سلام. عندما تصلك رسالتي هذه اجمع جميع قواتك في الجبل المسمى حص، ومن هناك وافني الى بقعة نسرين الواقعة الى الجنوب في الخامس والعشرين من شهر آب. ومتى رأيتني أقترب منك صف جنودك وكأنك تتهيأ لدخول معركة. وذلك لأن رسلاً من فرعون مصر قد جاؤوا ليروا ما عندي من قوة».

وأرسل ابني نادان هذه الرسالة إليّ بواسطة اثنين من خدام الملك.

وأخذ نادان الرسالتين اللتين كتبهما كأنه عثر عليهما عثوراً، وقرأهما أمام الملك.

ولما سمع سيدي الملك ذلك ولول قائلاً: يا إلهي بما أخطأت نحو أحيقار؟ وماذا جنيت عليه؟ حتى يصنع معي هذا الأمر ويكيل لي هذا الجزاء؟

فأجاب نادان ابني وقال: لا تغتم ولا تغضب يا سيدي الملك؛ هيا بنا لنذهب الى بقعة نسرين في اليوم المعين في الرسالة، وإذا صح الأمر فليكن ما تأمر به.

واصطحب نادان ابني الملك سيدي وأتيا الى بقعة نسرين، فوجداني ومعي جيش عظيم محتشد هناك.

ولما رأيت الملك هيأت جنودي للحرب طبقاً لما ورد في الرسالة.

وإذ رأى الملك هذا خاف خوفاً عظيماً.

فقال له ابني نادان: لا تخف يا سيدي الملك، عد الى خيمتك، وأنا أجلب أحيقار إليك.

حينئذ عاد سيدي الملك الى خيمته. فجاء إليّ نادان ابني وقال: إن جميع ما فعلته حسن، وقد مدحك الملك كثيراً. ويأمرك بأن تصرف الجنود كلا الى بيته وإلى داره. وأنت تعالى وحدك إلي.

ثم مثلت أمام الملك، ولما رآني قال لي: هل أتيت يا أحيقار كاتبيَ وربيب نعمة أشور ونينوى. يا من رفعت شأنه الى مقام الكرامة فانقلبت وأصبحت من أعدائي.

ثم إنه دفع إلي الرسائل المكتوبة باسمي، والمختومة بختمي.

وعندما قرأتها تلعثم لساني وارتخت مفاصلي وحاولت أن أجد كلمة واحدة من كلمات الحكمة فلم أوفق الى واحدة منها.

فقال لي ابني نادان: أغرب من وجه الملك أيها الشيخ الأحمق، وهات للقيود يديك، ورجليك لإصفاد الحديد.

ثم إن سنحاريب الملك أشاح بوجهه عني وتكلم مع نبوسمك مسكين زميلي وقال له: قم اذهب واقتل أحيقار وافصل رأسه عن جسمه مسافة مئة ذراع.

عندئذ سقطت على وجهي الى الأرض وسجدت للملك وقلت: عش الى الأبد يا سيدي الملك، وطالما شئمت قتلي، وبما أنك قد قضيت بقتلي فليكن كأمرك وكإرادتك، وأنا متأكد أني لم أسىء إليك ولم أخطأ. إنما مر يا سيدي الملك أن يقتلوني أمام باب بيتي ويعطوا جسدي ليدفن.

فقال الملك لنبوسمك مسكين زميلي: اذهب واقتل أحيقار أمام باب داره واعط جسده ليدفن.

حينئذ، أنا أحيقار أرسلت الى أشفغني زوجتي، وطلبت اليها أن تحضر مع بنات عشيرتي ألف صبية ويلبسن لباس الحداد، ويولولن ويبكين عليّ، ويزحفن الى بابي، وليقمن مناحة قبل موتي. وطلبت اليها ان تعد وليمة للطعام والشراب لنبوسمك مسكين زميلي ولجماعته من الجنود الذين معه. وقلت لها: أخرجي لملاقاتهم واستقبليهم وادخليهم الى دارعي، وأدخل أنا كضيف.

وكانت زوجتي أشفغني حكيمة جداً، ففهمت كل رغبتي وأعدت كل ما طلبت إليها إعداده، وخرجت تستقبلهم فأدخلتهم داري فتناولوا الطعام، وكانت تخدمهم بذاتها حتى استلقوا في أماكنهم نائمين من شدة سكرهم.

ثم أنا أحيقار دخلت وقلت لنبوسمك مسكين: إرفع بنظرك الى السماء أيها الأخ، واذكر المحبة والصداقة التي بيننا. لا تحزن لموتي، ولا تسبب موتي. واذكر أن الملك أسرحدون أبا سنحاريب أسلمك يوماً إلي لكي أقتلك فلم أقتلك لأني عرفتك بريئاً واستخفيتك حتى طلبك الملك. وعندما أحضرتك أمامه أعطاني عطايا ثمينة، ونلت منه هدايا كثيرة. وأنت الآن أيضاً ابقني حياً ورد إليّ ذلك الجميل. ولئلا ينتشر الخبر بأني لم أقتل فيعابك الملك. هوذا في السجن عندي عبد اسمه منزيفر محكوم عليه بالموت. فالبس ثيابي العبد وأيقظ عليه الجنود فيقتلونه، وأما أنا فلا أموت لأني لم أسىء، ولم أعمل ما يستوجب موتي.

ولما قلت هذا ونبوسمك مسكين زميلي أيضاً حزن عليّ كثيراً وأخذ ثيابي وألبسها

العبد الذي في السجن وأيقظ الجنود، فنهضوا، ولم تزل الخمرة تلعب برؤوسهم وقتلوه وفصلوا رأسه عن جثته مئة ذراع، ورفعوا جثته فدفنت.

فذاع في أشور ونينوى أن أحيقار الكاتب قتل.

ثم إن نبوسمك مسكين وزوجتي أشفغني صنعا لي مخبأ تحت الأرض عرضه ثلاثة أذرع وعلوة خمسة تحت عتبة باب داري. ووضعوا لي خبزاً وماء، وذهبوا فأكدوا لسنحاريب الملك، أن أحيقار الكاتب مات.

ولما سمعوا الرجال ناحوا عليّ والنساء مزقن عليّ وجوههن وولولن قائلات: واأسفاه عليك يا أحيقار الكاتب العظيم الحكيم، يا مقيل عثرات بلادنا، لن يقوم بيننا مثلك الى الأبد.

حينئذ، دعا سنحاريب الملك ابني نادان وقال له: إذهب واقم مناحة ومأتماً لأحيقار أبيك، ثم عد إليّ.

ولما جاء نادان ابني، لم يعمل مناحة ولا مأتماً، ولم يذكرني، بل جمع الرعاع والسفهاء وأجلسهم على مائدتي على صوت الغناء والفرح العظيم.

أما عبيدي الطيبين وأمائي المحبوبين فإنه كان يجردهن من ثيابهن ويجلدهن بدون رحمة. ولم يحترم زوجتي أشفغني بل راودها عن نفسها. وأنا أحيقار كنت ملقى في الظلام في أعماق الجب أسمع أصوات خبازي وطهاتي وسقاتي، يبكون وينوحون في بيتي.

وبعد أيام قليلة أتى نبوسك مسكين زميلي فتح مخبأي (حرفيا: عن وجهي) وطيب خاطري ووضع أمامي خبزاً وماء. فقلت له: عندما تخرج من لدني اذكرني أمام الله وقل له:

أيها الإله الصالح العادل، صانع الجود على الأرض. إسمع صوت أحيقار عبدك. واذكر أنه قدم لك ذبائح عجولاً مسمنة، وحملان الحليب. ها هو الآن ملقى في جب مظلم حيث لا يرى نور النهار. ألست أنت تخلص من يدعوك؟ اسمع يا ربي دعاء زميلي.

ولما سمع فرعون ملك مصر أني أنا أحيقار قتلت، فرح فرحاً شديداً، وكتب رسالة الى سنحاريب هذا نصها:

من فرعون ملك مصر الى سنحاريب ملك أشور ونينوى، سلام.

إني أبغي بناء قصر بين السماء والأرض فتفضّل وارسل إليّ رجلاً بناء حكيماً، يستطيع أن يجيب عن كل مسألة أسأله عنها. وإذا بعثت إليّ برجل كهذا فإني أقدم

غلات مصر (جزية) لمدة ثلاث سنوات وأبعث بها اليك. وأما إذا كنت لا تستطيع أن ترسل إليّ رجلاً يجيب عما أسأله عنه فإنك ستجمع غلات أشور ونينوى لمدة ثلاث سنوات وتبعث بها إليّ بأيدي الرسل الذين سأرسلهم إليك[7].

وعندما قرئت هذه الرسالة في حضرة الملك دعا جميع نبلاء مملكته وكل أشرافها وقال لهم[8]: من منكم يذهب الى مصر ليجيب الملك عما يسأله؟ ويبني له القصر الذي طلبه ويجلب جزية مصر لثلاث سنوات ويعود؟[9].

ولما سمع النبلاء والعظماء قالوا: تعلم يا سيدنا الملك أن المشكلات مثل هذه ليس في عهدك فحسب بل في عهد أبيك أسرحدون كان أحيقار الكاتب يحلها، والآن أيضاً هوذا ابنه وهو أيضاً متعلم أدبه وحكمته.

وعندما سمع نادان ابني هذا الكلام صرخ بحضرة الملك وقال: إن الآلهة نفسها لا تستطيع أن تفعل أموراً كهذه فكيف بالبشر[10].

ولما سمع الملك ذلك اغتم كثيراً، ونزل عن عرشه وجلس على الأرض[11]، وقال: «وأسفاه عليك يا أحيقار الحكيم إني فقدتك بسعاية صبي فمن يعيدك إليّ الآن فأعطيه ثقلك ذهباً»[12].

ولما سمع نبوسك مسكين زميلي هذا الكلام، سجد أمام الملك وقال: إن من يعصي أوامر سيده يستحق الموت، وأنا، يا سيدي، قد عصيت أمر جلالتك فمر أن أشنق لأن أحيقار الذي أمرت بقتله ما زال حياً.

ولما سمع الملك ذلك قال: تكلم، تكلم يا نبوسمك، تكلم أيها الرجل الصالح والمستقيم الذي لا يعرف السوء والشر، أنه إذا كان ما تقوله صحيحاً، وتحضر إليّ أحيقار حياً فإني سأغدق عليك العطايا فضة زنة مئة وزنة، وأرجواناً زنة خمسين وزنة[13].

---

(7) من الأمور المستحبة في قصص القدماء التعجيز وجواب فيه تعجيز مضاد. كذلك الأحاجي فإنها موضوع آخر مستحب.

(8) القصة هنا تشبه قصة نبوخذنصر عندما حلم ليلا ازعجه ولم يستطع السحرة والمنجمون تفسيره (راجع دانيال الفصل الثاني ودانيال 4: 5, 4: 7).

(9) الأحاجي وضروب التعجيز بين الملوك من الأمور التي يكثر ورودها في القصص القديمة. فإن بلقيس ملكة اليمن مثلاً تعجز سليمان بأحاج منها سؤالها عن «ماء روي وليس من الارض ولا من السماء. فيجيبها سليمان: إنه عرق الخيل. (الثعلبي. قصص الانبياء ص 178 طبعة القاهرة).

(10) شبيه بما جاء في سفر دانيال 2: 11.

(11) انظر سفر يونان 3: 6.

(12) المطران بولس بهنام ترجمها: «ثقله ذهبا».

(13) قصة الكتابة على الحائط (دانيال 5: 13 - 18).

قال له نبوسمك: إقسم لي يا سيدي الملك أنه إذا لم يكن لي ذنوب أخرى اقترفها ضدك. إنك تغفر لي هذه الجريرة وأقسم الملك له على ذلك.

وفي الحال صعد الملك الى مركبته وأتى إليّ مسرعاً، وفتح مخبأي (حرفياً: وفتح على وجهي) فخرجت وجثوت أمام الملك، وشعر رأسي ملقى على كتفي ولحيتي انحدرت الى صدري وجسمي كله معفر بالتراب وأظفاري طويلة مثل مخلب النسر(14).

ولما رآني الملك بكى وخجل ان يكلمني وبغم عظيم قال لي: يا أحيقار إنني لم أجنِ عليك أنا، بل الذي جنى عليك هو ابنك الذي ربيت.

حينئذ قلت: الآن يا سيدي وقد رأيت وجهك كأني لم أُصب بسوء.

وقال لي الملك: إمض الى بيتك يا أحيقار واحلق شعرك، واغسل جسمك واستعد قوتك مدة أربعين يوماً. وبعد ذلك عد إليّ.

ثم دخلت بيتي، ومكثت زهاء ثلاثين يوماً. ولما عادت قوتي مثلت أمام الملك.

فقال لي الملك: هل رأيت الرسالة التي بعث بها فرعون مصر إليّ؟

فأجبت وقلت له: لا تهتم بذلك يا سيدي الملك، سأذهب الى مصر، وأبني للفرعون قصراً وأجيبه على كل ما يسألني. وإني سأجلب معي جزية مصر لمدة ثلاث سنوات.

وعندما سمع الملك هذا الكلام شمله فرح عظيم وأقام احتفالاً عظيماً (حرفياً: وصنع يوماً عظيماً) وذبح ذبائح كثيرة، ونفحني بالعطايا السخية. وأجلس نبوسمك مسكين زميلي في مقدمة القوم. فكتبت الى زوجتي أشفغني أقول:

عندما تصلك رسالتي هذه قولي لصيادي أن يصطادوا لي فرخي نسر، وأوصي حياكي الكتان أن يعملوا لي حبال كتان يكون طول الحبل منها ألف باع وثخنها ثخن الخنصر، وقولي للنجارين كي يصنعوا لي قفصين لفرخي النسر. وسلمي لعبائيل ولطبشليم طفلين لا يتكلمان بعد. فيعلمانهما أن يقولا: أعطوا البنائين البطالين طيناً وملاطاً وقرميداً ولبناً.

وقد فعلت أشفغني امرأتي كل ما طلبت إليها.

حينئذ قلت للملك: الان مر يا سيدي واسمح لي بالسفر الى مصر. ولما أمر، اصطحبت معي جيشاً وسافرت.

ولما بلغنا نهاية الشوط الأول للمبيت، أطلقت فرخي النسر وربطت الحبال بأرجلها وأركبت عليهما الصبيين فحملاهما وحلقا في الأجواء العالية. فأخذ الصبيان يصرخا كما تعلما: أعطوا الطين والملاط والقرميد للبنائين فإنهم بطالون. ثم اجتذبتهما.

(14) سفر دانيال 4: 33.

وعندما وصلنا مصر ذهبت الى باب الملك. فقال له عظماؤه إن قد وصل الرجل الذي أرسله ملك أشور.

وأمر الملك فأعطي لي بيت المقام.

وفي اليوم التالي مثلت أمامه، وسجدت له وسلمت عليه. فسألني الملك: ما اسمك؟ قلت: اسمي أبيقام، إحدى النملات الوضيعة في المملكة.

فأجاب الملك وقال: أمحتقر أنا عند سيدك كل هذا الاحتقار ليبعث إليّ بنملة مرذولة من مملكته؟ إذهب يا أبيقام الى منزلك وتعالي إليّ في الصباح الباكر فقابلني.

ثم إن الملك أمر عظماؤه أن يرتدوا في الغد ثياباً حمراء، أما هو فلبس ألبسة كتانية[15]، وجلس على عرشه وأمر فدخلت ومثلت أمامه وقال لي: من أشبه[16] يا أبيقام؟ وعظمائي من يشبهون؟

فأجبت وقلت له: إنك تشبه بيل يا سيدي الملك، وعظماؤك يشبهون أحباره (كهنته).

فقال لي ثانية: إذهب يا أبيقام الى بيتك إليّ في الغد.

وأمر الملك عظماؤه في الغد، فارتدوا ألبسة كتانية بيضاء. أما هو فلبس الأبيض. وأمر فدخلت ومثلت بين يديه، فقال لي: من أشبه يا أبيقام، وعظمائي من يشبهون؟

فقلت له: إنك يا سيدي الملك تشبه الشمس وعظماؤك يشبهون شعاعها.

فقال لي مرة أخرى: إذهب الى منزلك وعد إليّ في الغد.

وأمر الملك عظماؤه أن يلبسوا في الغد ألبسة سوداء، وأما هو فلبس ألبسة قرمزية.

وأمر فدخلت ومثلت بين يديه وقال لي: من أشبه يا أبيقام، وعظمائي يشبهون من؟

فقلت له: إنك يا سيدي الملك تشبه القمر وعظماؤك يشبهون النجوم.

فقال لي: إذهب الى بيتك وعد إلي غداً.

وأمر الملك عظماءه في الغد ان يلبسوا ألبسة ذات ألوان مختلفة متباينة ومزركشة، وأن يجللوا أبواب الهيكل بسجف حمراء[17]. وأما الملك فلبس ألبسة مزركشة بالتطريز[18].

---

(15) ترجمها المطران بولس بهنام: «وارتدى الملك خزاً».

(16) في سفر حزقيال (الطبعة اليسوعية 31: 2 و3): «يا ابن البشر قل لفرعون ملك مصر وجمهوره من اشبهت في عظمتك؟ هوذا أشور ارزة في لبنان بهيجة الامتان غبياء الظل شامخة القوام...» والترجمة الاميركية للتوراة فقد سقطت لفظة «أشور» سهواً ولست أدري لماذا؟ لأن النص العبري يذكر «أشور» ولا يستقيم المعنى بدون كلمة «أشور».

(17) يظهر ان لفظة هيكل وأصلها اشوري e - egallu ومعناها البيت الكبير كانت تطلق أيضاً على القصر او البلاط الملكي.

(18) ترجمها بولس بهنام: «والملك ارتدى ثوباً بلون التفاح...».

وأمر الملك فدخلت ومثلت بين يديه. وقال لي الملك: من أشبه يا أبيقام، وعظمائي من يشبهون؟

فقلت له: إنك يا سيدي الملك تشبه شهر نيسان، وعظماؤك يشبهون وروده.

عندئذ قال الملك: في المرة الأولى شبهتني بالإله بيل وعظمائي بكهنته. وفي المرة الثانية شبهتني بالشمس وعظمائي بشعاعها. وفي المرة الثالثة شبهتني بالقمر وعظمائي بالكواكب. وفي المرة الرابعة شبهتني بشهر نيسان وعظمائي بوروده. والآن قل لي يا أبيقام، سيدك من يشبه؟

فأجبته وقلت له: حاشا يا سيدي الملك أن تذكر اسم الملك سنحاريب وأنت جالس. إن سيدي سنحاريب يشبه [19] (الإله أيلو) وعظماؤه يشبهون البرق والغيوم. وكلما شاء يبلور من المطر والندى برداً. وإذا أرعد يمنع الشمس عن الشروق وأشعتها من الظهور، كما يمنع بيل من التجول في الشوارع وعظماؤه من الظهور. ويمنع القمر من الإضاءة والنجوم من أن ترى[20].

ولما سمع الملك ذلك شق عليه واشتد غضبه وقال لي: استحلفك بحياة سيدك قل لي ما اسمك؟

فأجبت وقلت له: أنا أحيقار الكاتب حامل أختام سنحاريب ملك أشور ونينوى.

فقال الملك: ألم أسمع أن سيدك قتلك؟.

فقلت له: إني لم أزل حياً يا سيدي الملك. إن الله أنقذني مما لم تجنه يداي.

فقال لي: رح يا أحيقار الى منزلك وعد إليّ غداً. وقل لي كلمة لم أسمع بها بعد، ولا سمع بها عظمائي. كما لم تسمع قط في عاصمتي.

عندئذ جلست وأخذت أفكر وفي قلبي رسالة كتبتها هذا نصها:

«من فرعون ملك مصر، الى سنحاريب ملك أشور ونينوى بسلام.

إنّ من الملوك يحتاجون الى الملوك، والإخوة يحتاجون الى الإخوة. وفي هذا الزمان قلّ رفدي وشحّ الملك في خزائني، فمر وارسل من خزائنك فضة مقدار تسعمائة وزنة، فأعيدها إليك بعد زمن قصير».

فطويت الرسالة وقبضتها بيدي. وأمر الملك فدخلت ومثلت بين يديه وقلت له: قد يكون في هذه الرسالة كلمة لم تسمع بها قط. وعندما قرأتها أمامه وأمام عظمائه،

(19) ربما كان النص المشوش هنا يعين «رب السماء».

(20) ويضاف الى ذلك في بعض النسخ: «وإذا أراد ان يأمر الريح الشمالية فتهب وتلبد الغيوم وتهطل الامطار والبرد فيضرب نيسان فتتساقط أزهاره».

صرخوا بصوت واحد ـ كما كان الملك قد أمرهم ـ وقالوا: قد سمعنا بهذه الكلمة. وهذا أمر صحيح. فقلت لهم: إذن مصر مدينة لأشور بمبلغ تسعمائة وزنة.

ولما سمع الملك تعجب، فقال لي: أريد أن تبني لي قصراً بين الأرض والسماء، ويكون ارتفاعه عن الأرض ألف باع[21] (ذراع).

فأخرجت فرخي النسر، وربطت الحبال بأرجلهما، واركبت عليهما الصبيين وأطلقتهما. وكان الصبيان يصرخان: أعطوا الطين والملاط والقرميد للبنائين فإنهم بطالون»[22].

ولما رأى الملك ذلك ودهش.

حينئذ أخذت أنا أحيقار عصا وشرعت أضرب عظماء الملك حتى هرب جميعهم، فانتهرني الملك وقال: لقد جننت يا أحيقار، من يستطيع أن يرفع شيئاً الى هذين الصبيين؟

أما أنا فقلت له: دعك من ذكر سنحاريب سيدي. لا تقول فيه سوءاً. لو كان حاضراً لبنى قصرين اثنين في يوم واحد.

فقال لي الملك: دعك من أمر القصر يا أحيقار، وامض الى منزلك وعد إليّ صباح الغد.

وعندما طلع النهار، مثلت بين يديه، فقال لي: فسّر هذه القضية. إن حصان سيدك يصهل في أشور فتسمعه خيولنا هنا فتجهض؟

حينئذ خرجت من عند الملك وأمرت عبيدي أن يصطادوا لي هرة. فكنت أضربها بالسوط في شوارع المدينة. وعندما رأى المصريون ذلك ذهبوا فقالوا للملك، أن أحيقار يستعلي على شعبنا ويهزأ بنا، فقد أمسك هرة وهو يضربها بالسوط في أسواق المدينة وشوارعها.

فأرسل الملك يدعوني، فدخلت ومثلت أمامه. فقال لي: لماذا تهزأ بنا؟

فأجبته قائلاً: عش الى الأبد يا سيدي الملك، إن هذه الهرة قد آذتني كثيراً وأضرت بي. فقد كان سيدي قد أعطاني ديكاً، وكان صوته جميلاً،وكلما صاح الديك كنت أعلم أن سيدي يطلبني، وكنت أذهب الى باب سيدي. وفي الليلة الماضية ذهبت هذه الهرة الى آشور وقطعت رأس ذلك الديك وأتت.

فأجاب الملك وقال لي: يبدو لي يا أحيقار أنك هرمت فجننت. هناك ثلاثمائة

(21) ترجمها الدكتور انيس فريحة «.... علوه الف قامة...».

(22) في بعض النسخ جملة اخرى بمعنى «أيها العامل اجبل».

وستون فرسخاً من هنا الى آشور، فكيف تقول إن هذه الهرة ذهبت في ليلة واحدة وقطعت رأس الديك وعادت؟!

فقلت له: إذن كيف على بعد ثلاثمائة وستين فرسخاً، سمعت خيولكم من هنا صهيل حصان سيدي فأجهضت؟!

ولما سمع الملك ذلك اغتم كثيراً وقال: فسر لي يا أحيقار هذه الأحجية: هناك عمود على رأسه اثنتا عشرة أرزة، وفي كل أرزة ثلاثون عجلة، وفي كل عجلة حبلان أحدهما أبيض والآخر أسود.

فأجبت وقلت له: يا سيدي الملك إن رعاة الثيران في بلادنا يعرفون جواب هذه الأحجية التي ذكرتها. فالعمود الذي ذكرته هو السنة، والاثنتا عشرة أرزة هي أشهر السنة الاثنا عشر، والحبلان الأبيض والأسود هما الليل والنهار.

عندئذ قال لي الملك: يا أحيقار افتل لي خمسة حبال من رمل النهر.

فقلت له: مر يا سيدي بأن يخرجوا لي حبلاً من الرمل من خزائنك لكي أعمل مثله.

حينئذ قال لي: إن لم تعمل لي هذه الحبال فإني لن أعطيك خراج مصر.

فجلست أفكر في نفسي كيف عساني أن أفعل هذا.. وخرجت خارج قصر الملك وثقبت خمسة ثقوب في الجدار الشرقي للبلاط. ولما دخلت أشعة الشمس في الثقوب أثرت الرمل، فظهرت أشعة الشمس وكأنها حبال من الثقوب، وقلت للملك،مر يا سيدي أن يزيلوا هذه الحبال من أماكنها وأنا أفتل لك غيرها.

ولما رأى الملك وعظماؤه ذلك دهشوا.

ثم أمر الملك أن يحضروا لي حجر الرحى العليا التي كانت قد تصدعت وقال لي: ياأحيقار خيط لنا هذه الرحى المكسورة.

فذهبت وأحضرت حجر رحى وطرحتها أمام الملك وقلت له: ياسيدي الملك، أنا غريب هنا، وليست معي آلة هذه الحرفة، فمر الإسكافيين أن يقطعوا لي قداً من هذه الرحى وهي رفيقه الأولى وحالاً أخيطها.

ولما سمع الملك ذلك ضحك وقال: ليكن اليوم الذي ولد فيه أحيقار يوماً مباركاً أمام آلهة مصر ولأني رأيتك حياً فإني أعتبر من هذا اليوم عظيماً أقيم فيه مأدبة.

ثم أعطاني خراج مصر لسنوات ثلاث.

وبسرعة قفلت راجعاً الى سيدي سنحاريب، فوصلت، فخرج للقائي واستقبلني. وأقام يوماً عظيماً (احتفالاً كبيراً) وأقامني على أهل بيته، وأجلسني في مقدمة أخصائه وقال لي: أطلب ما بدا لك يا أحيقار.

فسجدت للملك وقلت: ياسيدي كل ما تريد أن تنفحني به، أعطه لزميلي نبوسمك مسكين، لأنه هو استبقاني حياً. وأما أنا فمر أن يدفع إليّ ابني نادان لكي أعلمه تعليماً جديداً، لأنه نسي التعليم الأول.

فقال الملك: إذهب يا أحيقار وكلّ ما تريد أن تفعل بنادان ابنك فافعله ولا من ينقذ جسده من يدك.

حينئذ أخذت نادان ابني، وجئت به الى بيتي، وربطته بسلسلة حديدية زنة عشرين وزنة، وربطتها بحلقات، وطوقت عنقه بطوق وضربته على كتفيه ألف عصا، وعلى متنيه ألف ضربة وضربة، وربطته في عتبة باب داري، وأعطيته الخبز موزوناً وأسلمته الى غلامي نبوايل لكي يحرسه، وقلت لغلامي، أكتب على لوحة ما أقوله لابني نادان:

يا بني، من لا يسمع بأذنيه، فإنهم يسمعونه من قذالة (أو قفا عنقه).

أجاب نادان ابني وقال: لماذا أنت حانق على ابنك؟

أجبت وقلت له: يا بنيّ أجلستك على كرسي الوقار، وأما أنت فقد طرحتني من كرسيّ فأنقذني بري وصلاحي، فصرت لي يا ابني كالعقرب الذي لسع صخرة، فقالت الصخرة أنك لسعت قلباً جامداً، ثم لسع إبرة، فقيل له: إنك لسعت حمى أشد من حمتك.

كنت لي يا ابني، كالعنزة التي وقفت على شجرة السماق تأكل منها، فقالت لها الشجرة: لماذا تأكليني؟ إن جلدك يدبغ بجذوري. فقالت العنزة: إني آكلك وأنا حية، وبعد موتي يستاصلونك من جذورك.

يا بني، لقد كنت لي كمن رشق حجرة الى السماء، ولكن الحجر لم يصل الى السماء، إنما بعمله هذا يكون قد أخطأ الى الله.

يا بني، كنت لي مثل رجل رأى رفيقه يرتجف من البرد، فأخذ قربة ماء بارد وصبها عليه.

يا بني، لا تظنن بأنك كنت تقوم مقامي بعد قتلك إياي، إذ ينبغي لك أن تعرف يا بني، إنه إذا طال ذنب الخنزير حتى أصبح سبعة أذرع فإنه لا يقوم مقام الجواد. وكذلك إذا لان شعره فإن رجلاً شريفاً لن يعلو متنه أبداً.

يا بني، أردتك أن تخلفني، فترث بيتي وثروتي، ولكن لم يرق ذلك الله ولم يسمع صوتك.

كنت لي يا ابني، كالأسد الذي صادف حماراً في الصباح الباكر، فقال له: أهلاً بسيدي (قوريس). فقال له الحمار: ليت سلامك هذا يعطى لمن ربطني مساء فلم يحكم ربطي ولم أكن أرى وجهك.

يا بني، إن فخاً أقيم في دمنة، فأتى عصفور فرآه وقال له: ماذا تعمل هنا؟ قال له الفخ: إني أصلي الى الله. قال له العصفور: وما هذا الذي في فمك؟ قال الفخ: خبز للضيوف. فاقترب منه العصفور ونقر من الخبز شيئاً فأطبق عليه الفخ واصطاده. فقال له العصفور وهو يئن ألماً وينتفض: إذا كان هذا خبزك للضيوف، ليت الآله الذي تصلي اليه لا يستجيب لك.

يا بني، لقد كنت لي أسد ربط الى جانب الثور، فالتفت الأسد ومزقه[23].

يا بني، كنت لي كسوسة الحنطة التي أفسدت اهراء الملوك، وهي في حد ذاتها حقيرة الشأن.

يا بني، لقد كنت لي كقدر ركب له قبضتان (أذنان) من ذهب، ولكن أسفله لم ينظف من السواد.

يا بني، لقد كنت لي كفلاح بذر في حقله عشرين مداً من الشعير، وعندما حصده وجد أن الغلة عشرين مداً. فقال للحقل: لقد حصدت ما زرعت فيك. وأما أنت فيجب أن تخجل بصيتك السيىء، لأنك أعطيت المد مداً. وأما أنا فكيف أستطيع العيش.

يا بني، لقد كنت لي كعصفور لم يستطع أن ينجي نفسه من الموت، وصوته غرر بأصحابه.

يا بني، لقد كنت لي كتيس ماعز، أدخل أصحابه الى المسلخ، وهو لا ينجي نفسه.

يا بني، لقد كنت لي كالكلب الذي دخل الى فرن الخزاف ليتدفأ، وبعد أن دفىء، نهض لينبح على الخزافين.

يا بني، لقد كنت لي كالخنزير الذي كان ذاهباً الى الحمام، ولما رأى حمأة وحل نزل يتمرغ بها ودعا أصحابه أن يتمزغوا.

يا بني، إن إصبعي على فمك[24]، وأصبعك على عيني، فهل ربيتك أيها الثعلب لتكون عيناك ناظرتين الى التفاح.

يا بني، إن الكلب الذي يأكل من صيده يصبح من فصيلة الذئاب، واليد الكسلانة يجب بترها من الكتف، والعين التي لا تبصر تقتلعها فراخ الغربان، فأي عمل صالح صنعته معي يابني، لكي أذكرك فترتاح فيك نفسي وتسر بك؟!

يا بني، إذا الآلهة سرقت فبماذا يستحلفونها؟ والأسد الذي يسرق قطعة أرض

---

(23) ترجمه الدكتور انيس فريحة: «... كنت معي كثور الى جانب اسد، فالتفت الاسد ومزقه».

(24) د. انيس فريحة ترجمها: «... إن اصبعي على فمي...» ويريد أحيقار ان يقول أنا كتوم، وأنت تحاول ان تخفي ذاتك وراء الإصبع، أي لا تستطيع ان تخفي عملك الشنيع.

كيف يجلس فيأكلها؟ أنا يا بني، أريتك وجه الملك، ورفعتك إلي كرامة باذخة، وأنت رغبت في الإساءة إليّ.

يا بني، لقد كنت لي كالشجرة التي قالت لقاطعيها، لو لم يكن بأيديكم مني (مقبض الفأس) لما هاجمتموني.

يا بني، لقد كنت لي كفراخ السنونو الذين سقطوا من عشها، فتلقفتهم هرة وقالت لها: لو لم أكن أنا لأصابكم شر عظيم. فقالت لها (الفراخ للهرة) ولهذا وضعتنا في فيك.

يا بني، لقد كنت لي كتلك الهرة التي قيل لها: أتركي سرقاتك فتدخلين دار الملك وتخرجين كما تشائين؛ فأجابت وقالت: لو خلقت لي عينان من الفضة وأذنان من الذهب لما تركت سرقاتي.

يا بني، لقد كنت لي كالحية التي ركبت عوسجاً وطرحت في النهر فرآهما ذئب وقال لهما: شر ركب شراً، وشر من كليهما يقودهما. قالت الحية: لو جئت الى هنا لحسبت حساب المعزى وبنيها.

يا بني، رأيت عنزة قيدت الى المسلخ، ولما لم يأت أجلها عادت الى حضيرتها ورأت بنيها وبني بنيها.

يا بني، لقد رأيت الأمهار (صغار الخيل) تقتل أمهاتها[25].

أنا يا بني، لقد أطعمتك أشهى الطعام، وأنت أطعمتني خبزاً معفراً بالتراب ولم أشبع.

أنا يا بني، دهنتك بالطيوب المعطرة، وأما أنت فعفرت بالتراب جسمي.

أنا يا بني، ربيت قامتك كالأرز، وأنت أحنيت ظهري وأفقدتني رشدي بشرك (حرفياً: سكرت أو رويت من ضرك).

يا بني، أنا رفعتك كالبرج وكنت أقول: إذا هاجمني عدوي أصعد وأتحصن فيك، وأنت إذ رأيت عدوي انحنيت له.

يا بني، لقد كنت لي كالخلد الذي خرج من قلب الأرض ليستقبل الشمس لأنه لا عينان له، فرآه النسر وهاجمه واختطفه.

فأجاب نادان وقال لي: حاشاك من أن تؤخذ بهذه يا أبت أحيقار. فاعطف عليّ برحمتك، فإن الله أيضاً يغفر للناس إذا أخطأوا وأنت اغفر لي هذه الجريرة، وأكون خادماً لخيلك، وراعياً لخنازير بيتك، ولا أدعى شريراً، وأنت لا تحسب لي شراً.

(25) ترجمها المطران بولس بهنام: «... رأيت إعفاء...» جمع عفو وتعني صغار الحمير.

أجبت وقلت: كنت لي يا بنيّ كتلك النخلة المغروسة على النهر، كانت تطرح كل أثمارها في النهر، ولما جاء صاحبها ليقطعها، قالت له: أمهلني هذه السنة فاثمر خرنوباً. فقال لها: إنك لم تنجحي بإعطاء ثمرك، فكيف بإعطاء ما هو ليس لك.

يا بني، قيل للذئب لم تسير وراء الغنم؟ قال: إن غبارها مفيد ودواء لعيني، وأدخلوه (الذئب) الى المدرسة فقال له المعلم: ألف باء. قال الذئب: الجدي والحمل.

يا بني، أنا علمتك أنه يوجد آله. وأنت هاجمت العبيد الصالحين فجلدتهم بدون ذنب، كما نجاني الله لأجل بري، فإنه يهلكك لأجل أعمالك لاشريرة.

يا بني، قد وضعوا رأس الحمار في طبق على المائدة، فتدحرج وسقط على التراب. فقالوا أنه غضب على نفسه لأنه لا يستحق الكرامة.

إنك يا بني، أكدت صدق المثل القائل: إبنك هو الذي ولدته أنت، وابنك الذي اشتريته سمه عبدك.

يا بني، لقد صدق المثل القائل: تأبط ابن اختك واضرب به الحائط، ولكن الذي أبقاني حياً سيقضي بيننا.

وفي تلك الساعة انتفخ نادان حتى أصبح كزق منفوخ ومات.

فمن يصنع خيراً يلق خيراً. ومن يصنع شراً يلق شراً، ومن حفر حفرة لأخيه فإنه سيملأها بقامته.

إنتهت أمثال أحيقار الحكيم، كاتب سنحاريب ملك أشور ونينوى.

أثر حكمة أحيقار في الأدب العبري

تصبح الحكم والأمثال، على ممر العصور، مشاعاً فكرياً وأدبياً يتناوله من يشاء عن طريق الاتصال المباشر وغير المباشر، فإن الشعوب تلتقي في مجالات كثيرة، والحضارات تتفاعل. لذا ينكر بعض الناس كل محاولة يقوم بها المؤرخ أو الأديب لإرجاع حكمة أو مثل، أو قول شائع الى هذا أو ذاك، على أساس أن إظهار البينة، لا سيما إذا لم يكن هناك وثائق كتابية ـ يعتمد عليها ـ من الأمور الصعبة.

ونحن نسلّم بوعورة البحث ونعترف أن المزالق كثيرة. مثال ذلك الشبه الشديد بين ما يعزى الى أحيقار من أقوال وحكم وأمثال، وبين ما جاء في الأدب الحكمي عند العبرانيين واليونان والعرب. وتبقى أمور كثيرة قيد التساؤل.

نريد أن نقول، إن تقصي حكمة انسانية الى مصدرها الأول أمر عسير لا يسلم الباحث فيه من خطأ في التقدير.

إن مقابلة أقوال أحيقار بكثير من الأمثال والحكم عند العبرانيين ترينا أن كتّاب أسفار العهد القديم كانوا يعرفون هذه الأمثال والحكم، ولا غرابة في الأمر، إذ إن أحيقار وخبره وحكمه ظلت معروفة شائعة في العالمين اليهودي والمسيحي الى يومنا هذا. وها هي أمثالنا العامية الجارية بين الناس خير شاهد على ما نقوله.

وقد اخترنا عدداً من الأسفار مثلاً على الشبه الكبير بينها وبين قصة أحيقار من جهة، ومن ثم بين الأمثال والحكم من جهة أخرى.

إن أسفار العهد القديم التي نجد فيها عناصر واضحة من حكمة أحيقار ضربان: الأول، كتب نصها الأصلي مدوّن باللغة العبرية.

والثاني، كتب نصها الأصلي مدوّن باللغة الآرامية. وهي آرامية حكمة أحيقار بالذات. بل آرامية جميع النصوص والوثائق المسجلة في تلك الحقبة.

إن لحكمة أحيقار علاقة وثقى بعدة أسفار من العهد القديم دخلت عناصرها هذه الأسفار عن طريق كونها حكمة انسانية منتشرة سواء بطريقة شفوية أو بطريقة الكتابة. ولا نرى غضاضة لهذه الأسفار أن تنطق بلغة بشرية وقد نزلت لهدايتهم وتقويم انسانيتهم.

والأسفار الحاوية بعض العناصر من حكمة أحيقار وكتب نصّها الأصلي بالعبرية هي:

1 ـ سفر أيوب البار

يبتدىء هذا السفر بقصة شعبية يذكرها الجميع، تروي قصة حياة رجل من عهد الآباء البعيد، اسمه أيوب.

فأيوب رجل غني ونافذ، أب لسبعة بنين وثلاث بنات، وهو أيضاً مثال البراءة والتعلق بالخير والبعد عن الشر. ويهوه فخور به. لكن الشيطان شك في أن تصمد هذه الأمانة الرفيعة حيال المحن. فسمح الله بأن يفقد أيوب أولاده وخيراته دفعة واحدة، ثم مني أيوب شخصياً، فلم يعد سوى مريض مغشى بالقروح، مضجع في الرماد.

إن الروايات النثرية في هذا السفر شأن الجزء الشعري، لا تقتضي أن نعتبرها كوثائق تاريخية صحيحة[1]. لكن اسم أيوب ليس من ابتداع مؤلف السفر، فإنه معروف منذ عهد رسائل تل العمارنة (القرن الرابع عشر قبل الميلاد). وهناك تقليد بارز في سفر حزقيال[2]، يحمل اسم ثلاثة صديقين وهم نوح ودانيال (المذكور في صفائح رأس شمرا) وأيوب. ولا يستبعد أن يكون ذكر هذا الصديق قد حمل معه شيئاً من البلايا حتى قبل تأليف السفر.

إن كاتب هذا السفر يأتي بعد إرميا وقد استلهمه. وبعد حزقيال وهو سابق دون شك للعهد الأغريقي، وأغلب الظن أنه من ابناء الجيل الخامس قبل الميلاد.

ومن الثابت، أن النص الأصلي لسفر أيوب كتب بالعبرية تتخلله جمل بالآرامية والعبرية[3]، الأمر الذي ينفرد به عن جميع أسفار العهد القديم.

---

(1) لقد عثرت بعثة جامعة بنسلفانيا للتنقيبات في مدينة نيبور 160 كم جنوب بغداد على قصيدة تتألف من 139 سطرا، وهي أول محاولة مدونة للإنسان في معالجة موضوع العذاب والخضوع الذي اشتهر في الادب الديني بسبب سفر أيوب رغم انها دونت قبل سفر أيوب بألف عام. وقد اصطلح على تسميتها باسم: «أيوب السومري والبابلي» لعمق التشابه بين الشخصين والسفرين إن صح التعبير.

(2) جاء: «لو كان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة، نوح، ودانيال وأيوب، لكانوا إنما ينقذون ببرهم انفسهم يقول السيد الرب.... وكان فيها نوح ودانيال وأيوب فحي أنا يقول السيد الرب انهم لا ينقذون لها ابناً ولا ابنة، انما ينقذون ببرهم انفسهم» (حزقيال 14: 14 - 20.

(3) قاموس الكتاب المقدس، 2: 67.

ولقد ورد فيه عددان نجد لهما عنصراً واضحاً في حكمة أحيقار:

الأول: قول أيوب (6: 2 و3): «ليت كربي وزن، وبلاياي رفعت جملة في ميزان إذن لكانت أثقل من رمل البحار فلذلك ألغو في كلامي».

وهذا يتفق وما ورد في حكمة أحيقار في رفع الرمل وثقله. قال الحكيم أحيقار: «جريت الرمل وحملت الملح فلم أجد أثقل من الدَين».

والثاني قول أيوب (36: 9 10): «ينبئهم بأعمالهم ومعاصيهم إذا تجبروا ويفتح آذانهم للتأديب ويأمرهم بالإقلاع عن الإثم».

يتفق وما ورد في النص الآرامي المتأخر (السرياني الحديث) من حكمة أحيقار بشأن حفظ المرء ذاته من الاعتداء على زوجة صاحبه لئلا يعتدى على زوجته فيقول: «يا بنيّ لا تفسق بامرأة صاحبك، لئلا يفسق آخرون بامرأتك».

2ـ سفر المزامير

هذا السفر هو مجموعة أصبحت عاجلاً أو آجلاً رسمية، مجموعة أناشيد أو قصائد، كثر استعمالها في رتب الهيكل والاجتماعات الدينية.

عدد المزامير مئة وخمسون مزموراً، تنسب الى النبي داود بطريقة نسبة الكل الى الجزء. فإن داود لم يكتب جميع المزامير، أو ربما لم يكتب شيئاً منها على رأي بعض المدققين. فقد كتبت عن لسانه ونسبت اليه، وسجلت مزامير كثيرة منها بعد عهده منسوب بعضها الى (بني قورح) والبعض الآخر الى سليمان، والبعض الآخر الى غيرهما، الأمر الذي يؤيد كون كتابة هذه المزامير كان بعضه قبل السبي البابلي، والبعض الآخر في غضونه شأن المزمور القائل: «على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا عندما تذكرنا» (مز 36) والبعض الآخر بعده.

ويؤيد علماء العهد القديم أنّ المزامير الأخيرة كتب بعضها في القرن الرابع قبل الميلاد، والبعض الآخر في عهد المكابيين، والبعض الآخر حوالي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد.

ومن المؤكد أنّ كتاب المزامير المتأخرين مطلعون على قصة أحيقار وحكمته فقد وردت في هذا السفر صور كثيرة تنطبق تمام الانطباق على حالة أحيقار فيذكر فيه (الحضرة) و(الشبكة) كقوله:

«إن حبائل الموت اكتنفتني، وسيول الفجور هالتني، وحبائل الهاوية أحاطت بي وشراك الموت نصبت بين يدي» (من 17: 5 - 6).

هذه الأمور التي تصور أحيقار في محنته تمام التصوير.

كما أنّ هناك عناصر كثيرة تنطبق وما ورد في حكمة أحيقار بعد نكبته سيما كلماته الأخيرة في توبيخ ابنه نادان.

3ـ سفر الأمثال

إن سفر المزامير، الآنف الذكر، يعيد الى الأذهان ذكر الملك داود، وها هو سفر الأمثال يرينا ضرباً آخر من المجموعات في حكم الحكماء «المشاليم» وكان لا بد من أن تنتمي الى سليمان الحكيم ابن الملك داود الشهير.

غير أن السفر ليس بكامله من تأليف هذا الملك، وهو يسند اليه مجموعتين مهمتين[4]، يسبقهما ويتخللهما تتمات مهمة.

إن هذه المجموعة المركبة قد اكتملت دون شك بشكلها النهائي بعد السبي، وهي تسبق بكثير تاريخ تكوين الأسفار المماثلة المستوحاة منها أي سفر الجامعة وسفر الحكمة وسفر ابن سيراخ، فقد تكون من الجيل الخامس قبل الميلاد، والمقدمة هي على ما يظهر العنصر الأحدث فيها.

إن لغة الأمثال لربما تعود الى عهد أقدم من عهد سليمان، وقد فاهت بها شعوب الشرق القديمة وحكماؤها من آدوميين وأشوريين ومن مصريين خاصة. فبعد ان كان «سفر الأمثال» العبراني يعد أقدم مجموعة من الحكم والأقوال المأثورة في تاريخ الإنسان المدون، اكتشف أن المدنية المصرية هي أقدم إذ عثر على مجموعات من الأمثال والوصايا المصرية وهي تسبق في زمنها «سفر الأمثال» التوراتي بسنين كثيرة.

ولكن هذه الأمثال المصرية ليست بأية حال أقدم أمثال وحكم مدونة عند الإنسان. فإن مجموعات الأمثال السومرية تسبق في عهدها ما هو معروف من المجموعات المصرية إن لم يكن كلها بعدة قرون[5].

يشمل سفر الأمثال على واحد وثلاثين إصحاحاً، تضم 912 عدداً أو مثلاً. إلا أن عدداً كبيراً منها لا صفة دينية لها البتة، لكن غالباً ما نعثر فيها على فكرة الله وحضوره وسير الحياة اليومية في مختلف نواحيها.

ولقد وردت في هذا السفر نصوص غزيرة جداً تتفق وحكمة أحيقار في مواضيع حياتية شتى منها:

---

(4) انظر الفصول 10 - 22، و25 - 29.

(5) راجع كتابنا «الحكمة في وادي الرافدين» بغداد 1983.

في تربية الأطفال وتأديبهم

1) في فم الفطن توجد الحكمة والعصا على ظهر فاقد اللب. (أمثال 10: 13).

2) مَن وفّر عصاه فهو يبغض ابنه، والذي يحبه يبكر الى تأديبه. (أمثال 13: 24).

3) السفه متأصل في قلب الصبي لكن عصا التأديب تنقيه. (أمثال 22: 15).

4) من استهان بالكلمة يبيد ومن هاب الوصية يجازى. النفوس الغاشة تتيه في الخطايا والصديقون يرأفون ويقرضون. شريعة الحكيم ينبوع حياة، ليجتنب إشراك الموت. (أمثال 13: 13 - 14).

يقابلها من حكمة أحيقار ما يلي:

1) يا بني، لا تحرم ابنك من الضرب (التأديب) لأن الضرب للصبي كالسماد للبستان، وكاللجام للبهائم، وكالقيد في رجل الحمار. (رقم 22).

2). يا بني، اخضع ابنك ما دام صغيراً قبل أن يفوقك قوة ويتمرد عليك فتخجل في مساوئه. (رقم 23).

وجوب معاشرة الحكماء

1) مساير الحكماء يصير حكيماً ومؤانس الجهال يصير شريراً. (أمثال 13: 20).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، مع الحكيم لن تفسد، ومع الفاسد لن تكون حكيماً. (رقم 11).

2) يا بني، عاشر الحكيم تصبح حكيماً مثله، ولا تعاشر الوقح المهذار لئلا تحسب نظيره. (رقم 12).

الجار الصالح وتجنب الخصام

1) لا تترك صديقك ولا صديق أبيك، ولا تدخل بيت أخيك في يوم بؤسك. جار قريب خير من أخ بعيد. (أمثال 27: 10).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، صديق قريب خير من أخ بعيد، والاسم الجيد خير من الجمال الباهر، لأن الاسم الجيد يدوم الى الأبد والجمال يذوي ويزول. (رقم 49).

2) يا بني، لا تقف حيث الخصومة لأن من الخصام ينتج القتل. (رقم 55).

3) يا بني، لا تبتعد عن صديق أبيك، فربما لا يصلك صديقك. (رقم 57).

الصيت الحسن

1) يا بني، كن حكيماً وفرّح قلبي فأجيب معيّري بكلمة. (أمثال 27: 12).

2) ذو الدهاء رأى الشر فتوارى، والأغرار جازوا فنالهم السوء. (أمثال 27: 13).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، صديق قريب خير من أخ بعيد، والاسم الجيد خير من الجمال الباه، لأن الاسم الجيد يدوم الى الأبد، والجمال يذوي ويزول. (رقم 49).

جشع الإنسان ومتع الحياة

1) الصيت أفضل من الغنى الكثير، والنعمة خير من الذهب والفضة. (أمثال 22: 1).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، الزبد الذي في يدك خير من الدهن الذي في قدر الآخرين، ونعجة قريبة خير من بقرة بعيدة، وعصفور في يدك خير من ألف عصفور طائر، والفقر الذي يجمع، خير من الغنى الذي يبدد، ورداء صوف ترتديه خير من خز وأرجوان يرتديه الآخرون. (رقم 51).

2) يا بني، عين الإنسان هي كينبوع ماء، ولا تشبع من الأموال حتى تمتلىء بالتراب. (رقم 66).

صفات المرأة الشريرة

1) وتنقذك من المرأة الأجنبية من الغريبة التي تتملق كلامها. (أمثال 2: 16).

2) ولم تهيم يا بنيّ بالأجنبية أو تحتضن الغريبة. (أمثال 5: 20).

3) لكي تحفظك من المرأة الشريرة من تملق لسان الغريبة. (أمثال 6: 24).

4) لا تشته بقلبك جمالها ولا تفتنك بجفنيها، فإنه بالمرأة الزانية يصار الى عوز رغيف من الخبز وذات البعل تصطاد النفس الكريمة. ايأخذ انسان ناراً في حجره ولا تحترق ثيابه، أم يمشي أحد على الجمر ولا تكتوي قدماه؟ هكذا الداخل على امرأة قريبهِ، كل من مسها لا يكون زكياً. (أمثال 6: 25 - 30).

5) لا يجنح قلبك الى طرقها ولا تهيم في مسالكها. (أمثال 7: 25).

6) فإنها طرحت كثيرين جرحى، وكل من قتلته كان من الاقوياء. (أمثال 7: 26).

7) المرأة الفاضلة إكليل لرجلها وذات الفضائح كنخر في عظامه. (أمثال 12: 4).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، لا ترفع نظرك الى امرأة متبرجة متكحلة ولا تشتهها في قلبك لأنك إن أعطيتها كل ما ملكت يداك، لن تجد فيها خيراً وترتكب أثماً أمام الله. (رقم 5).

2) يا بنيّ لا تفسق بامرأة صاحبك لئلا يفسق آخرون بامرأتك. (رقم 6).

3) يا بني، لا تقرب امرأة مهذارة ولا صخابة. (رقم 18).

4) يا بني، لا يغرينك جمال المرأة ولا تشتهها في قلبك لأن جمال المرأة ذوقها وبهاؤها نطقها. (رقم 19).

سقوط الأشرار وانتصار الأبرار

1) فإن الصدّيق يسقط سبع مرات، وينهض. أما المنافقون فيقعون في العطب. (أمثال 24: 16).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، إن الأثيم يسقط ولا ينهض، والبار لا يتزعزع لأن الله معه. (رقم 21).

عدم الشماتة بالأعداء

1) يا بني، كن حكيماً، وفرّح قلبي فأجيب معيّري بكلمة. (أمثال 27: 11).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، لا تفرح إذا مات عدوك. (رقم 60).

العودة الى الأخلاق السيئة

1) ككلب عائد على قيئه. هكذا الجاهل المكرر سفهه. (أمثال 26: 11).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) كنت لي يا بني، كالكلب الذي دخل الى فرن الخزّاف ليتدفّأ، وبعد أن دفىء نهض لينبح على الخزافين. (في توبيخ نادان).

اقتلاع العيون الشريرة

1) العين المستهزئة بالأب والمستخفة بطاعة الأم تفقأها غربان الوادي وتأكلها فراخ النسر. (أمثال 30: 17).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يابني، إن الكلب الذي يأكل من صيده يصبح من فصيلة الذئاب. واليد التي لا تجتهد تقطع من أصلها، والعين التي لا تبصر تقتلعها أفراخ الغربان. (توبيخ نادان).

4- سفر الجامعة

إن سفر الجامعة، لهو في الحقيقة أشد أسفار الكتاب المقدس غموضاً وأجدرها في تضليل القارىء السطيحي.

يبتدىء الغموض بشخص المؤلف نفسه الذي يدّعي في الفصل الأول أنه ابن لداود الملك وملك أورشليم، فيبدو لنا وكأن كل حكمة سليمان وغناه المضروب بهما المثل. وكان يجب أن لا تغشي هذه التسمية الوهمية أحداً لأن المؤلف يتكنى في ذات الوقت باسم آخر أي «الجامعة». وفي نهاية السفر خلاصة كتبتها يد ثانية تضعه بين «الحكماء» دون ريب أمثال الذين سيدعون في زمن الإنجيل «المعلمين».

ثم إن كلمة «الجامعة» ليست اسم علم حقيقي بل تعني شخص المؤلف من خلال وظيفته وهي دون ريب وظيفة معينة في الجماعة.

كتب النص الأصلي لهذا السفر بالعبرية، وقد وجد علماء الكتاب المقدس نصوصاً كثيرة بين فصوله لا يمكن أن يكون سليمان كاتبها، ويرتقي عهد هذه النصوص الى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، أو الى العهد اليوناني (204 - 200 ق.م)[6].

وعليه نجد خمسة نصوص على الأقل في هذا السفر تتفق وبعض ما ورد في حكمة أحيقار وتدور حول:

المرأة الشريرة

1) فوجدت أنّ ما هو أمرّ من الموت المرأة التي قلبها أحبولة وشبكة، ويداها قيود. من كان صالحاً أمام الله ينجو منها، وأما الخاطىء فيقتنص بها. (الجامعة 7: 27).

يقابلها في حكمة أحيقار:

1) يا بني، لا ترفع نظرك الى امرأة متبرجة متكحلة ولا تشتهيها في قلبك، لأنك إن أعطيتها كل ما ملكت يداك لن تجد فيها خيراً وترتكب إثماً أمام الله. (رقم 5).

النظر الى الجاهل واستهتاره

1) سماع الانتهار من الحكيم خير من سماع ترنيم الجهال. (الجامعة 7: 6).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) نقل الحجارة مع رجل حكيم أفضل من شرب الخمرة مع رجل جاهل. (رقم 9).

2) يا بني، اسكب خمرتك على قبور الصالحين ولا تشربها مع الأثمة. (رقم 10).

---

(6) قاموس الكتاب المقدس (بالانكليزية) ج 1 ص 637 و 740.

الإنسان وحالته المادية

) فقلت إن الحكمة خير من القوة، ومع ذلك فحكمة المسكين مزدراة وكلامه غير مسموع. (الجامعة 9: 16).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، من كان ملآن اليد يدعى حكيماً ومحترماً، ومن كان فارغها يدعى مسيئاً ووضيعاً. (رقم 44).

كلام الحكيم والجاهل

1) قلب الحكماء في بيت النياحة وقلب الجهال في بيت الفرح. (الجامعة 7: 5).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بنيّ خير لك أن يضربك الحكيم عصياً كثيرة من أن يدهنك الجاهل بطيب العطر. (رقم 73).

تأثير الحزن في القلب البشري

1) الصيت خير من الطيب، ويوم الموت خير من يوم الولادة. الدخول الى بيت النايحة خير من الدخول الى بيت الوليمة لأن ذاك منتهى جميع البشر فيجعله الحي في قلبه؛ الحزن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب. (الجامعة 7: 2 - 4).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، الموت خير لرجل لا راحة له، وصوت النحيب في أذني الجاهل أفضل من الغناء والفرح. (رقم 50).

5ـ سفر يشوع بن سيراخ

إن سفر ابن سيراخ هو أوسع من الكتب الحكمية الأخرى، وهو ينتمي إليها وخاصة سر الأمثال، إذ يحتوي السفران على عناصر عديدة مشتركة بينهما. وإنه يتألف ـ شأن سفر الأمثال ـ من مجموعة حكم تارة قصيرة ـ وغالباً ـ طويلة نسبياً. فإنه دون ريب قد اتخذ أكثرها، بعد أن طبعها بطابعه الخاص، من التراث العام المتداول الذي يرتقي الى حكمة الشعوب المجاورة ـ الأشوريون والآراميون والمصريون ـ. كما أننا نجد فيه ملاحظات لا تبعد عن أن تكون من وحي اختباره الشخصي فتشكل مع مقاطع أخرى ضرباً من الترجمة الشخصية؛ ويظهر لنا فيها ابن سيراخ بأوصاف أثارت قريحة الشراح.

فهو رجل موسر، مهتم بصالحه وتربية بنيه وزواج بناته. ونحس أن لديه إيماناً قوياً

وتقوى عميقة وإن كانت قليلة الزهد. وإنه اكتسب خبرة واسعة خلال حياة قضاها في الأسفار وركوب الأخطاء واحتمال المحن. وقد جعلت منه معرفته للأسفار المقدسة وحكم الحكماء، معلماً، وكتابه موجه خاصة الى تلاميذه الشبان.

كتب النص الأصلي لأثر ابن سيراخ في الفترة الواقعة بين سنتي 190 - 170قبل الميلاد. ولم يعتبر من الأسفار القانونية في مجموعة الأسفار العبرية المقدسة. كما أن بعض الكنائس المسيحية تعتبره من الأسفار المنحولة (أبو كريفا). وأقدم ترجمة له الى اليونانية عملت حوالي سنة 130ق.م. كما أخذت عنها الترجمة الآرامية المعروفة بالسبعينة مع وجود ترجمة آرامية أخذت مباشرة عن العبرية(7).

إن كاتب هذا السفر مطلع تمام الاطلاع على حكمة أحيقار ـ إن لم يكن سفر طوبيّا سابقاً تاريخياً لهذا السفر، واطلع كاتبه على حكمة طوبيّا المتأثرة هي الأخرى بحكمة أحيقار كما سنرى ـ فقد وردت فيه ايات كثيرة تتفق وحكمة أحيقار نصاً وروحاً بطريقة تفوق بقية الأسفار المقدسة، الأمر الذي يبرهن على اهتمام آداب الحكمة العبرية بهذه الحكمة الأشورية أبلغ الاهتمام.

وبين ابن سيراخ وأحيقار علاقة وثقى أهمها ما يدور حول:

تربية الأولاد

1) إن دللت ابنك روعك وإن لاعبته أحزنك. لا تضاحكه لئلا يغمك وفي أواخرك يأخذك صريف الأسنان. لا تجعل له سلطاناً في مبادئه ولا تهمل جهالاته. إحن رقبته في صبائه وارضض أضلاعه ما دام صغيراً لئلا يتصلب فيعصيك فيأخذك وجع القلب. أدّب ابنك واجتهد في تهذيبه لئلا يسقط فيما يخجلك. (ابن سيراخ 30: 9 - 3).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، لا تحرم ابنك من الضرب، لأن الضرب للصبي كالسماد للبستان، وكاللجام للبهائم، وكالقيد في رجل الحمار. (رقم 22).

2) يا بنيّ اخضع ابنك ما دام صغيراً قبل أن يفوقك قوة ويتمرد عليك فتخجل في مساوئه. (رقم 23).

العلاقات الاجتماعية

1) الفم العذب يكثر الاصدقاء، واللسان اللطيف يكثر المؤانسات. (ابن سيراخ 6: 5).

2) وتكشف له أسرارها وتجمع فيه كنوزاً من العلم وفهم البر. (ابن سيراخ 4: 21).

(7) قاموس الكتاب المقدس (بالإنكليزية) ج 4 ص 539.

بقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، اجعل لسانك حلواً وكلامك عذباً فإن ذنب الكلب يطعمه خبزاً، وفمه يكسبه رجماً (ضرباً). (رقم 37).

2) يا بنيّ لا تدع صاحبك يدوس رجلك لئلا يدوس عنقك. (رقم 39).

حفظ اللسان وصون الأسرار

1) احبس فضتك وذهبك. واجعل كلامك ميزاناً ومعياراً ولفمك باباً ومزلاجاً. واحذر أن تزل به فتسقط أمام الكامن لك. (ابن سيراخ 29: 29 - 30).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بنيّ احصر الكلمة في قلبك تسعد، لأنك إذا بدلت كلامك، فقدت صديقك. (رقم 52).

2) يا بنيّ لا تطلق الكلمة من فمك حتى تروزها في قلبك، لأنه خير للرجل أن يعثر في قلبه من أن يعثر في لسانه. (رقم 53).

العلاقة بين الإنسان وصديقه

1) لا تقاطع صديقك القديم، فإن الحديث لا يماثله. (سيراخ 9: 14).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يابني، حام صديقك أمام السلطان لكي يمكنك أن تحاميه أمام الأسد. (رقم 59).

النظرة الى أفاضيل الرجال

1) أحسن الى التقي فتنال جزاء، إن لم يكن من عنده فمن العلي. (ابن سيراخ 2 :12).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، من أنعم الله عليه، فاحترمه أنت أيضاً. (رقم 64).

2) لا توتر قوسك ولا تطلق سهمك على الصدّيق لئلا تفزع الآلهة لمساعدته فترد الضربة عليك. (رقم 126 من النص الآرامي القديم).

سلوكه كإنسان مهذب

1) لا تفتخر بهوان أبيك، فإن هوان أبيك ليس فخراً لك. (سيراخ 3: 12).

1) يا بنيّ كن عادلاً بأحكامك في شبابك تنل كرامة في شيخوختك. (رقم 37).

شعوره في مآتي الحياة

1) أي شيء أثقل من الرصاص وماذا يسمى الأحمق. الرمل والملح والحديد أخف حملاً من الإنسان الجاهل. (ابن سيراخ 22: 17 و18).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بنيّ حملت الملح ونقلت الرصاص فلم أجد أثقل من اليدين، فليفِ الإنسان ولا يقترض. (رقم 45).

2) يا بنيّ حملت الحديد ونقلت الحجارة فلم أجد أثقل من رجل يسكن ببيت حميه. (رقم 46).

الناس بين القوة والضعف

1) لا تستحي أن تعترف بخطاياك ولا تغالب مجرى النهر. ولا تتذلل للرجل الأحمق ولا تحاب وجه المقتدر. (ابن سيراخ 4: 31 و32).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بنيّ لا تقاوم من كان في أوج قوته، ولا تناحر النهر في طغيانه (رقم 65).

2) الأسد يفترس الأيل وهو كامن في عرينه... ويسفك دمه ويأكل لحمه. هكذا هي معاشر الناس. (رقم 88، 98 من النص الآرامي القديم).

الأطماع البشرية

1) عين البخيل لا تشبع من حظه، وظلم السرير يضني نفسه. (سيراخ 14: 9).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، إن عين الإنسان هي كينبوع ماء، ولا تشبع من الأموال حتى تمتلىء بالتراب. (رقم 66).

التطلع الى ما يفوق قدرته

1) من رمى حجراً الى فوق، فقد رماه على رأسه. والضربة بالمكر تجرح الماكر.

(ابن سيراخ 27: 28).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بنيّ لا تقتحم بستان العظماء، ولا تقرب بنات الكبراء. (رقم 58).

2) لا تقاوم من هو أعلى منك منزلة، ولا تنافس من هو أقوى منك. لأنه سيأخذ نصيبك، ويضيفه الى نصيبه، فانظر الى هذه حالة الضعيف مع القوي. (رقم).

الموازنة بين الحياة والموت

1) الموت أفضل من الحياة المرة، أو السقم الملازم. (ابن سيراخ 30: 17).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، الموت خير لرجل لا راحة له. وصوت النحيب في أذني الجاهل أفضل من الغناء والفرح. (رقم 50).

الذكرى الصالحة

1) الحياة الصالحة أيام معدودات، أما الاسم الصالح فيدوم الى الأبد. (ابن سيراخ 41: 17).

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، صديق قريب، خير من أخ بعيد، والاسم الجيد خير من الجمال الباهر، لأن الاسم الجيد يدوم الى الأبد، والجمال يذوي ويزول. (رقم 49).

عدم الشماتة بالأعداء

١) لا تشمت بموت أحد، اذكر أنّا بأجمعنا نموت. (سيراخ 8: 8)

يقابلها من حكمة أحيقار:

1) يا بني، لا تفرح إذا مات عدوك. (رقم 60).

6ـ سفر طوبيّا

يظهر كتاب «طوبيّا» كقصة، لذا فقد اتخذ مكانه في بعض المجموعات من الكتاب المقدس اليوناني بين سفر عزرا ـ ناحوم، وسفر المكابيين، هذه الكتب التي تتبع التاريخ عن كثب.

وإنه من السهل في الواقع أن القصة ليست إلا كسبيل الى التهذيب والتعليم. وربما أن اللاتين قد أحسوا بذلك عندما وضعوا كتاب طوبيّا بعد عزرا وناحوم وقبل أيوب والمزامير. ويتفق لكاتب طوبيّا مرات عديدة أن يتصرف بحرية بالتاريخ والجغرافية. وهكذا فإنه يجعل من سنحاريب (704 - 681ق.م) خلفاً مباشراً لشلمناصر 726 - 722 ق.م) مهملاً عهد سرجون الثاني 720 - 705 ق.م[8]).

ويحدد راجيس على مسافة يومين عن أقبطان[9]. في حين ان عدة مئات من

(8) راجع سفر طوبيّا 1: 15.

(9) اقبطان، هي ليوم همذان في ايران وكانت احدى عواصم هذه المملكة. (انظر عزرا 6: 3، يهوديت 1: 1 - 14، 2 مكابيين 9: 3) وكان اليهود من الشمال قد نفوا الى حدود ماداي.

الكيلومترات تفصل ما بين المدينتين[10] . وسوف نشير الى أخطاء أخرى كثيرة مماثلة في محلها من البحث هذا.

وبينما يضع مؤلفنا قصته في حقبة بعيدة، فهو يقيم وزناً للأفكار والعادات التي لن تظهر إلا فيما بعد، وحتى تلك التي كان لعبرانيي زمانه.

إنه يأتي أن يكون مؤرخاً بالمعنى الحدي للكلمة، أو أن يكون جغرافياً.

بيد أن قصته هي في الوجه العام متناسقة جداً. فإن الإطار العام الذي فيه يعيش أبطاله هو إطار أوج المملكة الأشورية ثم انحطاطها، ولو أنه يهمل أن يشير الى الجلاء المزدوج ليهود الشمال، فهم مقيمون في نينوى وفي حدود ماداي، تلك الأمكنة التي جلي اليها أهالي مملكة الشمال[11] .

إن غايته هي دينية محضة. فهو إذ يروي لنا قصة طوبيّا الذي يعني اسمه اسم أبيه «صالح هو اللّه» يريد أن يبجل صلاح الله تجاه لايهود. وأن يبين ل نا كيف يمارس الله هذه الجودة سواء كان في أشورام في إيران البعيدة. في كل مكان ترعى عيون الله الصالحين، ومن كل مكان تصعد اليه صلوات الذين يثقون به ويستجيب لهم.

فجودة الله تجاه ائلة جليل أمينة، والطريقة اليت بها ينجيها، هي بالنسبة إليه الضمان والرمز لبواهر كثيرة. فالله برحمته سيخلص جميع ذويه وبالأحرى جميع الصديقين. سوف يبعث أورشليم جديدة تستقبل الناس من الشعوب قاطبة.

سفر طوبيا وحكمة أحيقار

منذ أن أعلن الأستاذ جورج هوفمان العلاقة بين سفر طوبيّا[12] وحكمة أحيقار سنة 1880 م[13]. والعلماء المعنيون ماضون في دراسة هذه العلاقة، دراسة دقيقة. غير أنهم

(10) انظر سفر طوبيّا 5: 6.

(11) يخبرنا كتاب الملوك ان جلاء أهالي مملكة الشمال جرى على دفعتين، في الدفعة الاولى قام تغلا تفاصر في سنة 734 ق.م باجلاء أهالي الجليل الأعلى وجميع حدود نفتالي (2 ملوك 15:27 . 03) وبعد سقوط السامرة سنة 721 ق. م. انتصر الجلي شلمنصر على بقية أهالي الشمال ثم جلاهم خلفه سرجون الثاني 721 - 705 ق.م) الى أشور العليا وحتى حدود ماداي (ص ملوك 17: 1 - 8). يضع كتابنا الحوادث هذه حول الانتصارات التي أحرزها شلمنصر. ومن الممكن أيضا قد أرسل سجناء الى اشور. فقد جاء في عنوان الكتاب: «كتاب أعمال طوبيّا بن طبوئيل... من سبط نفتالي الذي سيق سجيناً في أيام شلمنصر ملك اشور. (طوبيّا 1: 1 - 2).

(12) يبدو لنا سفر طوبيّا كمجرد حكاية محصورة بين عائلتين، عائلة طوبيّا البار وعائلة نسيبه راعوئيل. كان طوبيّا وهو الأب من سبط نفتالي يقيم في نينوى بين المسبيين من مملكة الشمال بعد سقوط السامرة ويعيش بأمانة ومحبة الله، لكن الله سمح امتحاناً له بأن يفقد نظره ويصبح عرضة السخرية من حوله. لكن الله أراد ان يتدارك الامر فألبس الملاك رافائيل شكلاً بشرياً وارسله الى طوبيّا الأب فرضي هذا أن يكون رفيق سفر لابنه المدعو أيضاً طوبيّا. وعند عودته خلص طوبيّا آباه من العمى بفضل نصائح الملاك. وأنتهى كل شيء بالفرح العام بعد ان أظهر الملاك حقيقته وتوارى.

(13) جورج هوفمان، ط لا يبزك 1880، ص 182 عن بولس بهنام، أحيقار الحكيم، ص 164.

اختلفوا على قضايا كثيرة في تلك الدراسات، ونحن لا يهمنا ذلك في بحثنا هذا[14]، لأن غايتنا تتحصر في الاتفاق الكائن بينه وبين حكمة أحيقار، إنما يجب أن نضم رأينا الى آراء الذين قرروا أن نصه الأصلي إنما كتب بالآرامية بدليل وجود مصطلحات وكلمات كثيرة آرامي قديمة في النسخ والترجمات الحديثة التي يرتقي تاريخها الى القرن الخامس الميلادي[15].

إن سفر طوبيّا أيضاً لم تعتبره الأجيال اليهودية المتأخرة بين الأسفار القانونية والأغلب لأنه كتب بالآرامية، وعليه يعتبر لديهم «احميا» إلا أن مجمع قرطاجنه سنة 357 م اعتبره قانونياً فاعترفت به الكنيسة المسيحية[16]؛ أما الكنائس الشرقية اعتبرته من جملة الأسفار المنحولة (أبو كريفا) ولم يثبت في معظم طبعاتها.

إن الاتفاق التام بين سفر طوبيّا وحكمة أحيقار واضح، بل إن المتتبع المتحقق قد يجد فيها أثراً واحداً في حلتين مختلفتي الألوان، وخاصة ما ورد في الترجمة يذكر أحيقار بالذات ويجعله كاتب السفر ابن أخ طوبيّا، فقد ورد فيها ما تعريبه:

«وملك سرحدون ابنه (ابن سنحاريب) فنصب آحيور (أحيقار) بن حننائيل ابن أخي (وزيراً) على مالية مملكته وعلى جميع أعمالها، واستعطف أحيور عني فعدت الى نينوى. أما أحيور فقد كان ساقياً وحاملاً للختم ومدبراً ومحاسباً، ونصبه سرحدون من جديد، وكان من إخوتي».

ثم يذكر خيانة (عكب) وأشرار نينيوى ويشير إليه بالخروج منها فيقول:

«أخرج من نينوى فإن فيها أشراراً كثراً ففيها خان عكب عقيقار[17] الذي ربى طوبيّا[18] ولم يتمكن من أهباطه الى الأرض، بل هبط عكب نفسه الى الظلام وخرج عقيقار الى النور ونجا من الفخ الذي أخفاه له عكب، وعكب نفسه هبط الى الحضيض».

فأنت ترى - عزيزي القارىء - في هذه الأسطر الواردة في سفر طوبيّا علاقة القربى القريبة بين طوبيّا وأحيقار، ومنزلته في المملكة، الأمر الذي ينطبق تمام

---

(14) إني الآن بصدد وضع دراسة مفصلة عن العلاقة بين الفكر العراقي الديني القديم وأسفار موسى وغيرها من أسفار العهد القديم بعنوان «التوراة البابلية».

(15) قاموس الكتاب المقدس، النسخة الانجليزية 9: 788.

(16) قاموس الكتاب المقدس، النسخة الانكليزية 9: 789.

(17) سفر طوبيّا بحسب الترجمة السبعينية الموجودة في كنيسة العذراء في ديار بكر سنة 1492 م والمعروف ان النص اليوناني يسمي أحيقار AKIKARUS (اكيكاروس) وعنها أخذت كلمة عقيقار. (سفر طوبيّا 1: 12 و 14: 10)

(18) أظنه يريد به طوبيّا الابن.

الانطباق على ما ورد في قصة أحيقار الآرامية قديمها وحديثها، وتلحظ خيانة نادان بأجلى مظاهرها تماماً كما وردت في القصة ذاتها. وهنا ظاهرة بسيطة وهي اختلاف اسم أحيقار، فإن كاتب سفر طوبيّا يسميه (أحيور) في الفصل الأول و(عقيقار) في الثاني.

أما نادان، فلا صلة بين اسمه هذا وبني اسمه الوارد في سفر طوبيّا. فاسمه هنا (عكب)، ولعل عكب صفة لنادان، وهي متطورة من كلمة (عقب) الآرامية، ومعناه المندحر أو الخداع، الغاش، المكّار، أو بالحري الخائن، وهي صفات تنطبق على نادان وخيانته[19].

إنّ اتّجاه أثري طوبيّا وأحيقار واحد. فكلاهما يبدأآن من نقطة واحدة، وهي عمل البر وخاصة الرحمة أو الصدقة، ويلتقيان عند نقطة واحدة كنتيجة وهي نجاة كل منهما من محنة تعرض لها، ناهيك عن الاتفاق الكامل في سياق إصدار الحكمة. والنصيحة نصاً وروحاً، فطوبيّا وأحيقار يلقي الحكمة على ابن أخته نادان، في حين طوبيّا يلقيها على ابنه طوبيّا أيضاً. إلا أن نادان يختلف عن طوبيّا الابن كثيراً لأنه ظهر خائناً ناكراً للجميل، بينما طوبيّا الابن كان أميناً للنهاية. الأول ازدرى الحكمة وضرب بالنصيحة عرض الحائط فلاقى نتيجة عمله نهاية حقيرة مهلكة. والثاني تقيد بها تقييداً تاماً فعاش سعيداً نتيجة أمانته وسيره في طريق الحكمة والبر، واستناداً الى كل ذلك ربما يجد الباحث المدقق طوبيّا (أحيقار) عبريا، وفي أحيقار (طوبيّا) أشوريا.

إن كاتب قصة أحيقار ومدبج حكمته لا يذكر طوبيّا لا من قريب ولا من بعيد، أما كاتب سفر طوبيّا فإنه يذكر أحيقار بالذات ـ كما رأينا ـ ويجعله ابن أخيه حننائيل، فهو لديه عبري لا آرامي ولا أشوري مؤمن بآله واحد لا وثني مشرك.

وإذا أضفنا الى العلاقة المعنوية بين حكمة أحيقار وقصته من جهة، وبين سفر طوبيّا من جهة ثانية، علاقة الأسلوب، ننتهي الى النتيجة المقررة بأن سفر طوبيّا هو قصة أحيقار وحكمته بثوب يهودي، ولا فرق بينهما إلا التباين الإسمي. فأحيقار آشوري صالح ولكنه وثني، وطوبيّا يهودي مؤمن بالله نسج على منوال الأبرار الأولين، وكاتب سفره متأثر الى حد بعيد بمأساة أحيقار وصبره وحكمته، الأمر الذي حدا به الى صياغة هذا السفر بالأسلوب الذي نراه.

وإذا تركنا الناحية اللغوية لهذا السفر، وعدنا الى المقارنة الحكيمة بينه وبين بقية الآثار كسفري ابن سيراخ من جهة، وبين قصة أحيقار وحكمته من جهة ثانية، نجد أن هذه الآثار الثلاثة تتفق اتفاقاً جامعاً بآن واحد.

---

(19) بولس بهنام، أحيقار الحكيم، ص 164 - 168.

طوبيّا واحيقار

يتضح النوع الأدبي في كتاب طوبيّا عند مقابلته بكتاب حكمة أحيقار فيتضمن سفر طوبيّا على غرار سفر أحيقار، مجموعة من القصص تمت بصلة الى الفولكلور الشرقي الذي فيه أدخلت مجموعات من الحكم [20].

إن كتاب أحيقار الذي جاء مشحوناً بالمعتقدات المشركة السائدة في الأوساط الشرقية، أعطى بعدئذ مدلولاً توحيدياً. فقد اهتم به يهود أتقياء، ثم رهبان مسيحيون، وحاولوا أن يجعلوه أرثوذكسياً مقبولاً لدى عباد الإله الواحد الأحد.

إن أحيقار الشرقي هو شخصية يحتل، كما احتل طوبيّا وقتاً ما مكانة[21] مرموقة في بلاط ملك أشور. ففي مطلع قصته يظهر لنا بصفة «أمين خزينة سنحاريب وكاتبه» ثم يلعب الدور عينه لدى أسرحدون.

وبعد أن أنفق بدون جدوى كل خزائن حكمته على ابن أخته نادان أو ناداب يجد نفسه «مزجى في الظلمات» من جرّاء دسائس ابن أخته الذي يريد أن يحتل وظيفته لدى الملوك. ولكن أحيقار ينجو من الموت ويعود مثل طوبيّا الى النور بفضل أعماله الصالحة وحكمته.

من الأكيد أن كاتب سفر طوبيّا قد عرف كتاب أحيقار الذي عثر عليه خلال القرن التاسع عشر، وقد قرأه مثل سائر اليهود الاتقياء. فهو يشير إليه مرات عديدة، ويطيب له أن يجعل من أحيقار نسيباً لبطله ومحسناً إليه.

وبفضل وساطة أحيقار يرجع طوبيّا الى نينوى، بعد أن خسر هو أيضاً ثقة ملوك أشور: «فعاد طوبيّا الى منزله»[22].

وعندما يصاب طوبيّا بالعمى يتولى أحيقار الاهتمام به: «قد أقاته أحيقار مدة سنتين، قبل ذهابه الى بلاد عيلام»[23].

ويتأتي أحيقار ثانية ليسلّم على طوبيّا، ويرافقه ناداب كما تروي القصص الشرقية، وذلك في وقت المباهج التي تلي زواج ابنه عندما ابتهج بعودة النور الى عينيه من جديد[24].

---

(20) توجد حكم طوبيّا في (طوبيّا 4: 3 - 20 و12: 6 - 10). اما حكم احيقار التي تشبه بعضها حكم طوبيّا فقد حفظها الاخلاقيون اليونان حسب ما جاء في شهادة اقليمندس الاسكندري ودموقريطس (496 - 460 ق.م) وميناندور (342 - 291 ق.م)

(21) سفر طوبيّا 1: 13.

(22) سفر طوبيّا 1: 25.

(23) سفر طوباي 2: 10.

(24) سفر طوبيّا 11: 18و 11: 19.

في نهاية الكتاب، يذكر طوبيّا ابنه بمثال أحيقار الجميل وبالقصاص النموذجي الذي أنزله بابن أخته: «أنظر يا بنيّ كل ما صنعه ناداب بأحيقار الذي كان قد رباه. ألم يلقه حياً في الأرض؟ ولكن الله قد كساه بالعار جهراً. لقد خرج أحيقار الى النور ودخل ناداب في الظلمات الأبدية، لأنه كان قد بحث أن يقتل أحيقار. ولأن أحيقار كان يصنع الصدقة، فقد نجا من فخ الموت الذي أهلكه. أنظروا الآن يا أولادي ماذا تفعل الصدقة وما يفعله الظلم، إنه يقتل»[25].

فكل هذه الإشارات الى كتاب أحيقار، تبين بوضوح كيف يريد كاتبنا أن يلقي درسه الديني حسب نهج القصص الشرقية المنتشرة آنذاك كثيراً والحاضرة في جميع القلوب[26].

أوجه الشبه بين سفر طوبيّا وقصة أحيقار

الواقع ـ كما أشرنا سابقاً ـ أن سفر طوبيّا حسب مخطوطة سيناء والفاتيكان (النص اليوناني) هو قصة أحيقار بشكلها اليهودي. يحاول الكاتب أن يجعل أحيقار ابن أخ طوبيّا ـ واسم أخيه عنئيل ـ فهو يهودي لا أشوري، وهذا مرفوض.

أما مغزى القصة الخلقي فيكاد يكون واحداً وإن اختلفت الألفاظ، ويظهر جلياً أن سفر طوبيّا توكيد على هذا العدد:[27] «الصدقة تنجي من كل سوء ومن الموت، ولا تدع النفس تصير الى الظلمة». فكأن كاتب سفر طوبيّا يتذكر أن أحيقار طرح في غياهب الدهليز ولكن الله نجاه لصدقاته.

أما أحيقار فإنه يقول لنادان، عندما كان يوبخه على شر صنيعه: «إن الذي نجاني من الموت وخلصني من البلاء العظيم هو «برّي وخلاصي» واللفظة التي يستعملها في النص السرياني تعني الاستقامة والبر والتقوى ونحن نعلم أن في التعليم السامي الحكمي يستعملون لفظة «صدق» و«صدقة» كمرادف للبر والصلاح».

قلنا سابقاً أن التوكيد في قصة أحيقار هو أن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها. ولكن هناك مغزى آخر في القصة وهو أن البر والصدقة والتقوى جميعها تنجي الإنسان من الموت والهلاك. وهذا المغزى الأخير هو المغزى ذاته الذي نجده في سفر طوبيّا.

وهنالك شبه كبير بين نصائح طوبيّا لابنه وبين تعليم أحيقار لابن أخته نادان، لا بل أحياناً نجد أن الكلام يتفق لفظاً. وها نحن نثبت لك ـ عزيزي القارىء ـ بعض نصوص

(25) سفر طوبيّا 14: 10 - 11.
(26) ج. ك. كوريبون، إقرا طوبيّا، ترجمة الأب يوحنا عيسى، بيروت 1975 سلسلة كلام الله رقم 22 ص 13 . 17.
(27) هذا هو نص العدد 11 في الاصحاح الرابع من سفر طوبيّا كما جاء في الطبعة العربية اليسوعية. أما في الابوكريفا فيرد في العدد العاشر: «الصدقة تنجي من الموت».

من الفصل الرابع من سفر طوبيّا[28] حيث يعطي طوبيّا نصائحه لابنه قبل سفره الى راجيس:

«إسمع يا بنيّ كلمات فمي، واجعلها في قلبك مثل الأساس... فليكن الله في قلبك جميع أيام حياتك. واحذر أن ترضى بالخطيئة وتتعدى وصايا الرب إلهنا. تصدّق من مالك ولا تحوّل وجهك عن فقير، حينئذ وجه الرب لا يحوّل عنك. كن رحيماً على قدر طاقتك. إن كان لك كثير فابذل كثيراً. وأن كان لك لك قليل فاجتهد أن تبذل القليل عن نفس طيبة، فإنّك تدّخر لك ثواباً جميلاً الى يوم الضرورة، لأن الصدقة تنجّي من كل خطيئة ومن الموت ولا تدع النفس تصير الى الظلمة... احذر لنفسك يا بنيّ من كل زنى، ولا تتجاوز امرأتك مستبيحاً معرفة الإثم أبداً. ولا تدع الكبر يستولي على أفكارك أو أقوالك لأن الكبر مبدأ كل هلاك... كل ما تكره أن يفعله غيرك بك فإيّاك أن تفعله أنت بغيرك. كل خبزك مع الجياع والمساكين، واكس العراة من ثيابك. ضع خبزك وخمرك على مدفن البار ولا تأكل ولا تشرب منهما مع الخطأة. التمس مشورة الحكيم دائماً.

إن جميع ههذ النصائح والتعليم يعطيها أحيقار لابن أخته نادان، ولكن من الطبيعي أن نجد فروقاً طفيفة، وذلك لأن كاتب سفر طوبيّا يحاول أن يجعل من قصة طوبيّا قصة يهودية، ومن تعاليمه تعاليم يهودية. فإنّ كاتب سفر طوبيّا مثلاً يحذر من شرك المرأة البغي ولكنه يصرّ بصورة خاصة على التزوج من بنات القوم لا من الأجنبية. ويذكر طوبيّا ابنه أن أخبار اليهود القدامى سافروا الأميال الشاسعة ليتزوّجوا يهوديّات، فلا يجوز الزواج من امرأة خارج القبيلة.

ونلاحظ أحياناً أنّ بعض أقوال أحيقار أقرب فهماً من تعاليم طوبيّا المحورة لتلائم العقائد اليهوديّة، مثلاً يقول طوبيّا:[29] «إسكب خبزك على مدافن الأتقياء، ولكن لا تعط شيئاً منها الى الأثمَة»[30].

أما أحيقار (في النص السرياني) فيقول: «يا بنيّ، اسكب خمرك على قبور الصالحين فإن هذا أفضل من أن تشربه مع الأثمَة».

وواضح أنّ قول طوبيّا «اسكب خبزك» غلط. فالسكب يكون للخمر. وفضلاً عن هذا فإن عبارة طوبيّا لا معنى لها إذا لم تقارن بقول أحيقار، فكأن قول طوبيّا مأخوذ عن أحيقار، ولكن طرأ على النص ما شوّهه.

(28) لقد اعتمدنا في سرد النصوص هنا على نسخة «الكتاب المقدس، العهد القديم» طبعة بيروت 1960 للآباء اليسوعيين.

(29) سفر طوبيّا 4: 17 في طبعة لندن، وفي الطبعة العربية اليسوعية يرد في 4: 18.

(30) في الطبعة اليسوعية: «ضع خبزك وخمرك على مدفن البار، ولا تأكل ولا تشرب منهما مع الخطأة».

ومن أوجه الشبه الشديد بين أحيقار وطوبيّا، أن مسرح القصتين بلاد آشور وما جاورها من عيلام وميديا.

في نينوى عاش طوبيّا منفياً، وفي نينوى عاش أحيقار وخدم أسرحدون وسنحاريب. ويسجن أحيقار ويظلم، ولكن «صدقاته» نجّته من الموت، كذلك نجّت الصدقات طوبيّا من الموت.

وزمن القصتين واحد: في عهد المملكة الأشورية أيام عظمتها.

والآن نورد فيما يلي خمس نقاط هامّة تتفق فيها الآثار اتفاقاً تظنه اتفاقاً النصين، استقى الواحد من الآخر الفكرة كاملة غير منقوصة، وأحياناً التعبير ذاته، الأمر الذي لا يمكن أن يتيسّر في النصين عفوياً أو توارد خواطر، والأحقية والأثر هو للنص الأقدم الذي استقى منه النص اللاحق، فتكون النتيجة إذن الأثر الواضح لحكمة أحيقار بنص طوبيّا لأنه يسبقه في القدم عدة قرون من حيث التدوين...

أ ـ النظر الى أعمال البر

إن النصّين متّفقان تمام الاتّفاق على وجوب ممارسة الإنسان أعمال البر والتقوى والإمعان في الصدقة والإحسان أو الرحمة. فإن الرحمة والصدقة أساس جميع أعمال البر في نظر الكاتبين ترضي الله وتكون سبباً هاماً لعفوه تعالى عن أخطاء الإنسان.

يقول طوبيّا: «لأن الصدقة تنجي من كل خطيئة ومن الموت ولا تدع النفس تصير الى الظلمة»[31] (طوبيّا: 4: 11).

ويقول أحيقار: «يا بني، إن الأثيم يسقط ولا ينهض، والبار لا يتزعزع لأن الله معه» (رقم 21).

ب ـ إحترام الموتى

يقول طوبيّا: «ضع خبزك وخمرك على مدفن البار، ولا تأكل ولا تشرب مع الخطأة»[32] (طوبيّا 4: 8).

ويقول أحيقار: «يا بنيّ اسكب خمرتك على قبور الصديقين ولا تشربها مع الأئمة» (رقم 10).

---

(31) ويقول ابن سيراخ: «الإخوة والعون لساعة الضيق، لكن نصرة الرحمة فوق كليهما». (40: 24).

(32) ويطلق ابن سيراخ النصيحة لاحترام الموتى عامة فيقول: «إذرف الدموع على الميت... وكفن جسده كما يليق ولا تهاون بدفنه». (37: 16).

ج ـ التقوى

تعتبر التقوى حفظ وصايا الله والتقيد بأوامره ونواهيه:

يقول طوبيّا: «وأنت فليكن في قلبك جميع أيام حياتك، واحذر أن ترضى بالخطيئة وتتعدّى وصايا الهنا» (طوبيّا 4: 6).

ويردف قوله: «كل ما تكره أن يفعله غيرك بك فإيّاك أن تفعله أنت بغيرك»[33].

ويقول أحيقار: «يا بنيّ لا تجدف على الله يوم محنتك لئلا يغضب عليك حين يسمعك» (رقم 33).

ويردف: «يا بنيّ كل من لا يقضي قضاء عادلاً يغضب الله» (رقم 56).

وقال أيضاً: «يا بنيّ إذا كنت كاهن الله فاتّقه، وأظهر بحضرته طاهراً، ولا تبرح من أمامه» (رقم 63).

د ـ صيانة النفس من الخطيئة

يشدّد على ذلك طوبيّا بقوله: «إحذر لنفسك يا بنيّ من كل زنى ولا تتجاوز امرأتك مستبيحاً معرفة الإثم أبداً»[34] (طوبيّا 4:3).

ويقول أحيقار: «يا بنيّ لا ترفع نظرك الى امرأة متبرجة متكحلة ولا تشتهها في قلبك، لأنك إن أعطيتها كل ما ملكت يداك لن تجد فيها خيراً وترتكب إثماً أمام الله» (رقم 5).

هـ ـ أسلوب الحكمة

يرسل كلّ منهم تعليمه الى (ابنه) بالطريقة الشرقية المتبعة دائماً في النصح والإرشاد ويقول (يا بني)، وهذا ما نجده لدى لقمان الحكيم عند إرشاده لابنه أيضاً كما ورد في القرآن.

فيقول طوبيّا: «إسمع يا بني، كلمات فمي واجعلها في قلبك مثل الأساس»[35] (طوبيّا 4: 2).

---

(33) ويقول ابن سيراخ: «ترو في وصاياه، تأمل كل حين فهو يثبت قلبك وينيلك ما تتمناه من الحكمة».

(34) ويقول ابن سيراخ: «لا تلق المرأة البغي لئلا تقع في إشراكها، لا تألف المغنية لئلا تصطاد بفنونها، لا تتفرس في العذراء لئلا تعثرك محاسنها. لا تسلم نفسك الى الزواني لئلا تتلف ميراثك. لا تسرح بصرك في أزقة المدنية ولا تتجول في أخليتها. أصرف طرفك عن المرأة الجميلة ولا تتفرس في حسن الغريبة: فإن حسن المرأة اغوى كثيرين وبه يلتهب العشاق كالنار» (9: 3 - 8).

(35) ويقول ابن سيراخ: «إسمع يا بنيّ تعلّم العلم ووجه قلبك الى كلامي. (16 - 24).

ويقول أحيقار في مطلع حكمته: «إسمع يا بنيّ نادان، وتفهم تعليمي واذكر كلامي ذكرك لكلام الله» (رقم 1).

ملخص قصة طوبيّا[36]

كان طوبيّا أحد المنفيين الى بلاد آشور، اسم زوجته سارة، واسم ابنه طوبيّا، أي أنه سماه على اسمه، وكان رجلاً صالحاً تقياً لم يتدنس في اثناء نفيه في برجس الأمم، بل حافظ على نقاوة دينية. وكان حظه في النفي يتأرجح بين فترات حسنة وبين فترات أخرى سيئة. ففي عهد شلمناصر أوتي حظاً كبيراً فجمع مالاً وفيراً ووزعه على الفقراء واليتامى ودفن الموتى[37]. ثم إنه أودع شيئاً من المال عند صديق له في مدينة راجيس بميديا. وما أن ملك سنحاريب حتى فارقه الحظ فحكم عليه بالموت، ولكنه هرب واختبأ. ولكن عندما عين سرحدوم (أسرحدون) أحيقار ابن أخيه سرّ وفرح بذلك. وكان أحيقار عند حسن ظن عمه.

في ذات يوم، بعد أن عاد من دفن الموتى الفقراء، نام قرب حائط فوقع ذرق من عش خطاف على عينيه فغشيهما بياض وعميتا. فانقطع طوبيّا الى الصلاة. وعندما كان يصلي مرة في علية كانت في الوقت ذاته فتاة صبية تدعى سارة في مدينة راجيس تصلي أيضاً في عليتها ليجنبها الله تعيير جواريها إذ إنها كانت قد زفت سبع مرات، ولكن الأزواج السبعة ماتوا قبل الزفاف.

عندما افتقر طوبيّا ذكر ماله المودع في راجيس فطلب الى ابنه طوبيّا أن يسافر الى راجيس[38] الى عند غبائيل صديقه لاسترداد المال. وطلب الى ابنه أن يفتش عن رفيق ودليل. كان الدليل الذي قيّضه له الله الملاك رفائيل[39]، أحد الملائكة السبعة الذي يخدمون الله. ولكن الملاك غيّر اسمه الى عزريا[40]، وادعى أنه ذاهب الى راجيس الى غبائيل. وسافر الاثنان، وفي الطريق اصطادا حوتاً فطلب عزريا (الملاك رفائيل)

(36) اختصرنا النص بحسب ما ورد في طبعة اليسوعيين العربية للعهد القديم، المطبعة الكاثوليكية، ببيروت، 1960.

(37) إن التشديد على (الصدقات) في هذا السفر جعل كثيرين ممن درسوا القصة يعتقدون ان مغزى القصة يدور على عمل الخير والصدقات وان هذا هو الذي ينجي الانسان من أثمه وخطيئته. ويرى ان التوكيد على الأجر الذي يناله المرء من العناية بدفن الموتى.

(38) او الى أكبتانا حسب رواية أخرى. وأكبتانا مدينة في ميديا يعزى بناؤها الى الملكة سميراميس، وموقعها هو موقع همدان الحالية بإيران.

(39) معنى اسم الملاك (الله يشفي) وهو اسم يلائم القصة أشد الملاءمة لأنه شفى سارة من شيطانها وشفى طوبيّا راجيس.

(40) معنى الاسم (الله يساعد ويعين) وهو اسم يلائم المهمة التي قام بها: إعانة طوبيا الابن على الوصول الى راجيس.

من طوبيّا أن يحتفظ بالكبد والقلب والمرارة لأن لها قوة على الشفاء إذا أحرقت ودخن المريض بدخانها.

وعند وصولهما الى راجيس نزلا عند غبائيل أبي سارة. وأسر عزريا الى طوبيّا، أنها فتاة غنية ويحسن به أن يتزوجها لأنها فتاة صالحة تقيّة.

ثم إن عزريا يشفيها من شيطان كان يصرعها وذلك بتبخيرها بدخان كبد الحوت وقلبه ومرارته. وقيد الملاك الشيطان وأرسله الى مصر العليا.

ويعود الثلاثة عزريا وطوبيّا وزوجته سارة الى نينوى حيث كان الأبوان يصليان الى الله كي يرد اليهما ابنهما. ويشفي ملاك الرب طوبيّا من عماه ويعيش الجميع بسعادة وفرح.

يحاول طوبيّا الأب أن يعطي عزريا مالاً ويشكره على صنيعه، ولكن عزريا يقول له: لا تشكرني بل ليكن شكرك الله.

أما في مخطوطة سيناء (وتتفق معها مخطوطة الفاتيكان) فإن طوبيّا يتكلم بضمير المتكلم مثل أحيقار، ويقص علينا أن أهله وعشيرته نفتالي نسوا الله وارتدوا الى عبادة العجل، ثم يقص علينا خبر ابن أخيه أحيقار ابن عنئيل، وكيف أن (سرحدوم) أقامه مشيراً ومدبراً لمملكته، وكيف أن أحيقار ابن أخيه، شفع له في نينوى وأعاله. ويخبرنا أيضاً عن «ناداب»[41] ابن أخت أحيقار وكيف أنه سعى الى قتل خاله، ولكن الله جازى ناداب بأن أوقعه في الحفرة التي حفرها.

أما أحيقار فنجا من الموت (لصدقاته) أي لبره وتقواه.

أحيقار وسفرا دانيال[*] وعزرا

ليست العلاقة بين أحيقار ودانيال محصورة في متون حكمة معينة، كما كانت الحال في علاقة أحيقار ببقية حكماء العهد القديم، بل هي وجه الشبه بين الحكيمين أحيقار ودانيال، وذلك في النقاط التالية:

أولاً: كون الرجلين حكيمين بل أحكم أهل زمانها.

ثانياً: توقف جميع حكماء ملك أشور عن الإجابة على أسئلة فرعون حتى نادان نفسه يصرح بأن هذه الأمور لا يستطيع حلها إلا الآلهة[42]. كذلك توقف جميع حكماء

---

(41) وأحياناً «نادام» ولا شك انه نادان الوارد اسمه في قصة أحيقار.

(*) دانيال النبي، شاب يهودي اقتيد أسيراً الى بابل مع من سباهم نبوخذ نصر في الجيل السادس قبل الميلاد (587 ق.م) وتربى في بلاط الملك الوثني واشتهر هناك كحكيم يحسن كل الفنون والمعارف دون ان يضر بأمانته الدينية المثالية. حصل بالصلاة على معجزات باهرة ونال موهبة تفسير الاحلام ومعرفة المستقبل وفهم مقاصد الله.

(42) راجع قصة أحيقار.

بابل وسحرتها وعرّافيها، عن تفسير أحلام الملك نبوخذ نصر[43] فيظهر أحيقار بعد محنته ويحل جميع المشكلات ويقوم برسالة عظمى لسيده ملك أشور عند فرعون مصر[44]. ومثله دانيال ينبري فيفسر أحلام نبوخذ نصر[45]. وهكذا يفوز الرجلان بخطوة عظيمة كل عند ملكه.

ثالثاً: يبتلي كل منهما بواش، ووشاية. فأحيقار يخونه ربيبه وابن أخته ناداتن ويلفق الأكاذيب ضده، وينكبه الملك ويصدر الأمر بقتله، إلا أن القائد نبوسمسكن يذكر جميل أحيقار معه فيحتفظ به حياً، ومع ذلك لا يمكنه إلا أن يخفيه في مخدع داج تحت الأرض يحرم فيه الحكيم كل أسباب الحياة الطبيعية من نور وهواء وراحة حتى يحتاج الملك الى حكمته ومشورته الصائبة، فيخرج منتصراً بعد آلام شديدة وصبر جميل[46]

ومثله دانيال يشي به أصدقاءه لدى الملك فيغضب عليه الملك ويلقيه في جب الأسود الضارية لتفترسه إلا أن تقواه، وفضيلته تتقذانه من التهلكة فتتوقف الأسود عن افتراسه ويندم الملك على فعلته فيخرجه من الجب منتصراً ويلقى فيه الوشاة[47].

رابعاً: كل منهما تنقذه تقواه من المحنة التي سببها له الوشاة ويرتفع عند مليكه أكثر من ذي قبل.

إن العلاقة بين سفر دانيال وأثر أمر هام جداً، وهو أن دانيال كتب بعض فصول نبوّته باللغة الآرامية البابلية التي كتبت فيها قصة أحيقار وحكمته.

وإن العلاقة بين عزرا[48] وأحيقار ليست علاقة حكمة بل علاقة لغة فقط فإن عزرا كتب سفره باللغة الآرامية البابلية كما فعل دانيال النبي...

---

(43) سفر دانيال 2: 1.
(44) راجع قصة احيقار.
(45) سفر دانيال 2:9 - 48.
(46) راجع قصة احيقار.
(47) سفر دانيال 6: 11 - 28.
(48) عزرا الكاتب، جاء في مقدمة سفر عزرا ـ المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1960 : في الجيل الخامس قبل الميلاد، كان نحميا من مقربي الملك فحصل منه على أوامر استثنائية تقضي بإصلاح أسوار المدينة المقدسة... أما عمل عزرا الكاتب الذي نشر الشريعة الموسوية بكل مضمونها أكثر اهمية. لقد أصبح اسم عزرا ملازما لهذا التغير ولهذا عرف السفر بامسه او باسم عزرا الكاتب وخاصة سفري الثالث والرابع. وإن نوع التأليف مجموعة سفر عزرا، (عزرا) يشير الى الذي جمعها كان يخدم في الهيكل وقد قام بعمله هذا في عهد بعد عهد عزرا.

ملحق

النص الآرامي

ننشر هنا النص الحكمي لحكمة أحيقار[1]، وهو النص الآرامي الذي اكتشفه الأثاريون في جزيرة الفيلة بمصر بين عامي (1906 - 1907) والذي نشره المستشرق ساخو عام 1908، وأعاد نشره مع دراسة مفصلة عام 1911. ويؤكد الآثاريون أنه يعود الى القرن الخامس قبل الميلاد.

1 - مثل نهيق الحمار في الصحراء، كذلك الابن الذي يعلم ويهذب ثم يوضع القيد في رجله.

2 - لا تمنع العصا عن ابنك إذ لا يمكنك إبعاده عن الشر.

3 - إذا ضربتك يا بني فلن تموت، وإذا تركتك تتبع قلبك فلن تحيا.

4 - الضرب للعبد، والقمع للعبدة، والصرامة لجميع خدامك.

5 - الرجل الذي يشتري عبداً أبقاً أو عبدة لصة، فإنه يجلب العار الى بيته ويهين اسم أبيه وذريته بعمله الشائن.

6 - العقرب يجد الخبز فلا يأكله ليعيش به، فأحب إليه لو ذاقه فقط فيما إذا قدم له.

7 - الأسد يفترس الأيل وهو كامن في عرينه... و... ويسفك دمه ويأكل لحمه، هكذا هي معاشرة الناس...

8 - الحمار الذي يترك حمله ولا يحمله، سيحمل عاراً أمام رفيقه وسيحمل حملاً ليس له، وإن يحمل حمل جمل.

---

(1) راجع النص الآرامي الكامل لقصة احيقار في كتاب المطران غريغوريوس بولس بهنام، احيقار الحكيم، ص 109 - 94، بغداد، 1976.

9 - الحمار ينعطف للأتان وامقاً، والطيور (ربما على أشكالها تقع).

10 - كلمتان جميلتان، والثالثة يحبها شماش، أن تشرب الخمرة وتسرّ بها فتصون حكمتك. وتسمع الكلمة فلا تفشيها فذلك عزيز لدى شماش. وأما من يشرب الخمرة ويفقد رشده فحكمته تفنى...

11 - إنه عزيز لدى الآلهة، أيضاً وجود الملكوت هنا الى الأبد، أنها أسست في السماء، لأن رب القديسين رفعها.

12- يا بنيّ لا تدع كل كلمة ولا تفش كل أمر يخطر لك، لأن في كل مكان عيوناً وآذاناً، فاحفظ لسانك مراقباً ولا تدعه أن يدمرك.

13 - أعظم ما تراقب راقب فمك، واغلق قلبك على كل ما تسمع، لأن الكلمة هي كالطير، إذا أرسلتها فلن تستطيع اصطيادها ثانية.

14 - إحص أقوال فمك، ثم أطلقها نصيحة لأخيك.

15 - إن دمار الفم أشد خطراً من دمار الحرب.

16 - لا تستهن بكلمة الملك، دعها تكون شفاء لجسدك.

17 - إن كلمة الملك لينة، لكنها أمضى من سيف ذي حدين.

18 - أنظر أمامك حذراً، إذا كنت بحضرة الملك، ولا تبطىء. إن غضب الملك صاعق كالبرق، فخذ الحيطة لنفسك، لا تدعه يصعقك به فتهلك قبل وقتك.

19 - إذا صدعت بأمر الملك فأطعه حالاً، لأن غضب الملك كالنار فلا تتشح بمسح وتعطي يديك، لأن كلمة الملك صادعة كغضب القلب. فلم يقاوم الخشب النار أو اللحم السكين، أو الرجل الملك.

20- إنني ذقت الحنظل وكان طعمه مراً قاسياً، ولكن لا يوجد أكثر مرارة من الفقر.

21 - ناعم لسان الملك، ولكنه يكسر أنياب الأفعوان كالموت الذي لا يرى.

22 - لا تدع قلبك يرتفع في مجمع الأطفال، ولا تخجل من نقائصهم.

23 - الملك ذو عطف، إلا أن صوته رهيب، فمن يستطيع الوقوف أمامه إلا من كان الله معه.

24 - الملك مهيب عند رؤيته مثل شماش، وسلطانه ثمين جداً عند الذين يسيرون على الأرض بهدوء.

25 - الإناء السليم جميل لدى القلب، والإناء المكسور يطرح خارجاً.

26 - الأسد ذهب فقدّم التحية للحمار، فقال: السلام عليك، أجاب الحمار وقال للأسد...

27 ـ رفعت الرمل وحملت الملح فلم أجد شيئاً أثقل من الدين. حملت التبن ورفعت النخالة، فلم أجد أخف من الضيف.

28 ـ الخصومة تعكر الماء الصافي بين الأصدقاء الخلص.

29 ـ إذا نطق الصغير بأمور عظيمة فإن أقواله ترفع شأنه، فنطقه يرفعه لأنه من الآلهة. وإذا كان محبوباً لدى الآلهة فإنها تمنحه ما ينطق به.

30 ـ إن نجوم السماء كثيرة لا يعرف الإنسان أسماءها، هكذا لا يعرف الإنسان جميع الناس.

31 ـ لا يوجد أسد في البحر، لذلك سموا... أسداً.

32 ـ التقى النمر بالعنزة وكانت مقرورة، فأجاب النمر وقال للعنزة: هلمي وسأغطيك بجلدي. قالت العنزة وأجابت للنمر: لئلا يؤخذ جلدي عني، دعني وشأني. لأنه (النمر) لا يحيي الظبي إلا ليمتص دمه.

33 ـ ذهب الذئب الى الحملان وقال: أعطيني حملاً واحداً وسأكتفي. فأجابته الحملان: خذ أياً منا تشاء، فإننا حملانك.

34 ـ ليس بمقدور البشر أن يرفعوا أقدامهم أو أن يضعوها بدون الآلهة.

35 ـ ليس بمقدورك أن تضع رجلك أو أن ترفعها، إذا طار صيتك على أفواه الناس صالحاً.

36 ـ وإذا تجنوا عليك بالشر فإن الآلهة ستعاقبهم.

37 ـ إذا كانت أعين الآلهة على الإنسان، فإن الإنسان يرى طريقه في الظلام ولا يراه أحد كاللص الذي يقتحم البيت ويهرب.

38 ـ لا توتر قوسك ولا تطلق سهمك على الصديق لئلا تفزع الآلهة لمساعدته فترد الضربة عليك.

39 ـ ... يا بني، اجمع كل حصيدك ومارس عملك فستأكل أنت وتشبع وتعطي لأولادك.

40ـ إذا وترت قوسك وأطلقت سهمك على ما هو أكثر براً منك فإن تلك خطيئة أمام الله.

41 ـ .. يا بنيّ اقترض الذرة والقمح بقدر حاجتك فتأكل وتشعب وتعطي لأطفالك معك.

42 ـ لا تقترض من الشرير، أن ذلك لحملاً ثقيلاً، فإذا فعلت لن تجد راحة لنفسك حتى تلقى الحمل عن كاهلك، فالحمل لذيذ عند الحاجة إليه، ولكن إعادته لأصحابه تملأ البيت خيراً.

43 ـ كل ما تسمعه يجب أن تتفحصه بأذنيك، لأن جمال المرء بصدقه وبشاعته بكذب شفتيه.

44 ـ إذا كان العرش مؤسساً على الكذب، فإن الكذب سيشله أخيراً، وسيبصق بوجهه.

45 ـ إن الكذاب تقطع عنقه، مثل بنت الشمال التي تغطي وجهها وتظهر عورتها، وكالرجل الذي يأتي الفرية ولا يخجل.

46 ـ الأمر الذي لا يصدر عن الآلهة لا تعمل به.

47 ـ لاتحتقر ما ليس من نصيبك، ولا تشته الشيء العظيم الممنوع عنك.

48 ـ لا تحاول زيادة الثروة، ولا توجه قلبك الى الضلال.

49 ـ من لا يفاخر باسم أبيه وأمه، فليت الشمس لم تشرق عليه لأنه رجل شرير.

50 ـ العار إنما ينبع عن ذاتي فمن ذا سيسرُني؟ فابن مهجتي تجسس على بيتي فماذا أقول للغريب.

51 ـ شاهد ظالم شهد ضدي فمن ذا سيزكيني؟

52 ـ إن الغضب انطلق من بيتي فضد من أكافح وأدافع؟

53 ـ لا تفش أسرارك لصديقك، لأن اسمك لن يبقى محترماً لديه.

54 ـ لا تقاوم من هو أعلى منك منزلة.

55 ـ ولا تنافس من هو أقوى منك، لأنه سيأخذ نصيبك ويضيفه الى نصيبه. فانظر أن هذه حالة الضعيف مع القوي.

56 ـ لا تعرض عن الحكمة.

57 ـ لا تكن محتالاً، ولا تدع حكمتك تنطفىء.

58 ـ لا تكن حلواً لئلا يبتلعوك، لا تكن مراً لئلا يبصقوك.

59 ـ إذا رأيت، با بني، أن ترتفع فاتضع أمام الله الذي يذل المتكبر ويرفع المتواضع.

60 ـ كيف تستطيع شفاه الناس أن تلعن عندما الآلهة لا تلعن.

61 ـ خير للإنسان أن يكبح غضبه.

62 ـ لا تسمح لنفسك أن تحب الشر.

63 ـ إن الله سيلجم فم الظالم وسيقطع لسانه.

64 ـ إن العيون الصالحة لن تظلم، والآذان الصالحة لن تصم، والفم الصالح سيحب الحقيقة وينطق بها.

65 ـ الرجل الرفيع الخلق اطيب هو كالقوس القوي الموتر بيد رجل جبار.

66 - إذا الرجل لم يسكن مع الآلهة فكيف ينجو بقوته؟... والذي يسكن مع الآلهة فمن ذا سيذله؟.

67 - إن الإنسان لا يعرف ما بقلب رفيقه، وإذا وجد الرجل الصالح رجلاً شريراً فليحذره.

68 - الرجل الصالح لن يرافق الشرير ولن يتعامل معه.

69 - أرسل العوسج الى شجر الرمان قائلاً: ما الفائدة من شوكك للذي يرغب جني ثمرك؟ أجاب شجر الرمان العوسج قائلاً: إنك كلك شوك لمن يلمسك.

70 - الصديق بين الناس، يعضده كل من يلقاه.

71 - إن بيت الأشرار يدك يوم الزوبعة، وفي اليوم الهادىء تسقط أبوابه لأنهم ينهبون...

72 - إذا الرجل الشرير قبض على تلابيب ثوبك فاتركه بين يديه، واتصل بشماش فإنه يأخذ ثوبه ويعطيك إياه.

73 - إن الله رفعني معك كرجل صديق فلماذا تضمر لي الشر؟

74 - إن أعدائي يموتون ولكن ليس بسيفي...

75 - إنني صنتك في خدور الأرز ولكنك رفضت البقاء فيها.

76 - إنك تركت أصدقاءك وكرمت أعدائي.

77 - ما أسوأ الرجل الذي لا يعرف ماذا يريد...

78 - الرجل الحكيم يتكلم لأن نطقه عذب.

79 - إن السوس سطا على بيت من نحاس، لم ينل منه شيئاً.

80 - وتر رجل قوسه ورمى بسهمه، ولكن لم يصب إلا نفسه.

81 - إذا أعطاك ربك ماء لتحفظه، لا تبدده.

82 - العبد الذي قيدت رجله بقيد، هو اللص الذي لا يحب أن يشرى.

83 - إن من يتذمر على ربه سيذله ربه في المحكمة...

84 - قال رجل لحمار بري، دعني أركبك وسأقدم لك القوت... دع لنفسك قوتك وسرجك، ولن أرى ركوبك.

85 - لا تضع حصاة في رجلي بين اللحم والحذاء.

86 - لا يقل الغني إني ممجّد بغناي.

87 - لا تري البدوي البحر، ولا للصيدوني الصحراء، لأن عملهما مختلف.

88ـ إن الذي يعصر الخمرة هو الذي يذوقها...

89 ـ لا يشترين الرجل إلا امرأة متزوجة...

90 ـ لتشرى الخادمة كخادمة، وأما الزوجة...[2].

(2) نكتفي بهذا القدر من النص الآرامي الذي نشره العالم الالماني المشهور إ. ساخاو عام 1908ب 12 لوحة يبلغ عدد سطورها 223 سطرا علما بأن هناك نصا آراميا آخر وردت فيه مقتطفات منها تم اكتشافه من قبل او. روبنسون عام 1906 في جزيرة سيناء بمصر حيث صارت ضمن أرشيف الفرق العسكرية ويعود تاريخها الى عام 515 ق.م. (ماتقيف، حضارة ما بين النهرين العريقة. ص 31).

الخـاتمـة

إن خلاصة التجربة البابلية في آداب الحكمة ووقائعها العملية في ما وصل الى عصرنا كتابة أو رواية منسوباً الى الحكيم «أحيقار». وقد اشتهر هذا الحكيم في عدد من اللغات. وهو في الأساس آرامي، كان يعمل لدى الملك الأشوري سنحاريب (705 - 681 ق.م) كحامل لأختامه.

عرفه اليونان باسم «آخياكاريوس» والعبرانيون باسم «ايقار» أو «عقيقار» وعرف بالعربية باسم «حيقار» وهو اشتهر في بلاد «نينوى» ونسبت له قصة هي أقرب الى الروايات الشعبية التي تتزايد تفاصيلها مع تناقلها على الألسن[1].

إن أقدم نصوص القصص الآرامي السرياني إطلاقاً، والتي وصلت الينا، قصة «أحيقار، كاتب الملك الأشوري سنحاريب وحامل أختامه». سجلت بخط آرامي على إحدى عشرة ورقة من البردي[2]، عثر عليها سنة 1907 م في جزيرة الفيلة قرب أسوان بمصر. وهي ترقى الى القرن الخامس قبل الميلاد، ولا بد من أن تكون قد تعددت نسخها، وتباينت خطوطها ورواياتها. نقل بعضها الى مكتبات الغرب فحظيت بدراسة المستشرقين، ومن أهمها قيمة وأكملها رواية، مخطوطة جامعة كامبردج في بريطانيا التي نسخت بالخط الأسطرنجيلي في السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر ومطلعها: «قصة أحيقار الحكيم كاتب سنحاريب ملك آشور ونينوى» وعليها اعتمدنا في دراستنا هذه.

---

(1) لقد انتهينا من وضع دراسة مفصلة عن حكمة أحيقار وأثرها في الآداب العربية واليونانية والارمنية والاوربية نحن بصدد نشرها قريبا.

(2) تحفظ بقايا ورق البردي التي هي بشكل لفائف بطول 32 - 33 سم في مكتبة برلين بالرقمين 63 و64 وتتألف اللفافة ذات الرقم 63 من 33 عموداً. اما اللفافة 64 فتضم بقايا عمود واحد فقط وفي كل سطر فيها يوجد من 55الى 58 حرفا؟ (ماتقييف، المصدر السابق، ص 31).

وهنا لا بد من التساؤل عن واضع القصة، وعن تاريخ تأليفها ووضعها. هل هو أحيقار نفسه أم شخص آخر؟ هل كتبت القصة في عهده أم في زمن لاحق؟ وهل الإنشاء فيها أصيل أم منحول؟ جاء في وقت متأخر؟ هل حقاً ان اسمه اسم علم حقيقي، أم صفة أطلقت على شخص واحد أم مجموعة أشخاص كرمز يختفي وراءه حركة ما أو هدف معين.

وهكذا نجد، كما أوضحنا في تضاعيف الكتاب، الأقوال والحكم التي تنسب لأحيقار الآرامي، وريث فلسفة السلوك والتربية البابلية، وسواء كانت له أم لغيره، فهي تمثل طريقة التفكير والعمل في مواجهة المشاكل والصعوبات، وهي الطريقة التي كانت المثال لأتباع الحضارة البابلية (السومرية ـ الأكدية) طوال ما يزيد على ثلاثة آلاف عام. فتبرز لنا أهمية حكمة أحيقار في التفكير الفلسفي لسائر شعوب المنطقة والتي انتقلت غرباً الى اليونان عن طريق ديموقريطس الفيلسوف في القرن الخامس قبل الميلاد أي في عهد ازدهارهم الحضاري.

وإذا غادرنا ديموقريطس، وبقية الفلاسفة اليونان الذين استمدوا حكمة أحيقار، نجد هذه الحكمة تنتقل كاملة في مجموعة ايسوب الذي يمكننا أن نطلق عليه اسم «أحيقار اليوناني» لأن أمثال أحيقار الآرامي صريحة واضحة في تعاليمه ونشرت تحت عنوان «أسطورة أحيقار ـ النص اليوناني» الأمر الذي يؤيد إن أوسيب نقلها بنصها الى اليونانية. وقد ظهرت بنصها وروحها في اللغات الأخرى التي ترجمتها آدابها كالعربية والأرمينية واللاتينية.

أما في الأدب العبري ـ سيما في أسفار الكتاب المقدس ـ فقد أوضحنا بما أوردناه في نصوص البحث وبينا عمق التأثير والتأثر، ومدى العلاقة بين نص حكمة أحيقار ونصوص الأسفار الحكمية في الكتاب المقدس كسفر الحكمة وسفر الجامعة وسفر يشوع بن سيراخ وطوبيّا... وغيرها وما اقتبسته من الحكمة الآرامية والأشورية القديمة وبالتالي من مكونات حكمة وادي الرافدين السومرية والأكدية.

إن الهدف من نشر هذه النصوص، التي تتناول حكمة الإنسان بحسب تراث الشرق القديم (بلاد ما بين النهرين) هو المساهمة في فهم الفصول الحكمية من الكتاب المقدس، إنها مساهمة محدودة، لكنها فعلية.

فقبل أن يصيغ العبرانيون، في ضوء إيمانهم الخاص، تصورهم للحياة الاجتماعية، والعلاقات البشرية، والفلسفة الفكرية، اجتهدت ثقافات أخرى في تفسير هذه العلاقات والإجابة على أهم أسئلة الإنسان في حياته الاجتماعية، من خلال الإطار الأدبي للأسفار الحكمية.

قد يعترض البعض على التقريب بين النصوص الكتابية والنصوص الأخرى قائلاً إن فلسطين لم تكن تستطيع أن تلم بهذه الكتابات التي صيغت في بلاد ما بين النهرين أو في مصر، ونجيب على هذا الاعتراض مكتفين ببعض المعطيات الواقعية ففي مصر تم العثور على أقدم نص لحكمة أحيقار التي أوضحنا عنها أموراً كثيرة.

ولقد غدا الكتاب المقدس ولا سيما العهد القديم منذ بضعة عقود في مركز اهتمام المثقفين والكتّاب، فحضي بعدد متزايد من الدراسات والكتب. فنظرت إليه بعض هذه الكتابات عبر منظار الأحداث التاريخية الحديثة وشرحته في إطار غريب عنه. وعده بعضها الآخر كتاباً روحياً يحمل بشارة روحية تهم الإنسان بصفته إنساناً. وأخيراً قاربه فريق ثالث من الكتاب من زاوية خصائصه الأدبية وعلاقاته بالثقافات الشرقية القديمة.

يشكل محور قراءة الكتاب المقدس، في هذا المنظار، البحث عن آثار ثقافات الشرق القديم في العهد القديم، لإظهار دورها المهم في تكوينه أدبياً وفكرياً على حد سواء.

تتمتع مسألة الاتصالات الثقافية، التي تمت بين تراث الكتاب المقدس ودائرة الثقافات الشرقية القديمة، بأهمية كبرى لفهم العهد القديم فهماً صحيحاً وسليماً.

لقد اكتشف دارسو ثقافات الشرق القديم منذ نيف وقرن أن الثقافات السومرية والأكدية والبابلية والأشورية والكلدية قد أسهمت إسهاماً هاماً في تكوين آداب العهد القديم، وتشكل بعض مفاهيمه ومقولاته وصياغة بضعة تصوراته.

من هذا المنطلق، يطرح السؤال بإلحاح حول كيفية علاقات تراث الكتاب المقدس وثقافات الشرق القديم، ولا سيما ثقافات وادي الرافدين. فقد لقي هذا السؤال أجوبة مختلفة؛ فأثبت فريق من الباحثين أنّ الكتاب المقدس ملفق من عناصر ثقافية مقتبسة من الشرق القديم، مما حدا بهم الى اعتباره «سرقة» و«نهباً» أدبيين.

لم يصمد هذا الرأي أمام النقد العلمي الذي بين أصالة الخبرة الروحية التي ولدت تراث العهد القديم وحافظت على هويته الثقافية خلال قرابة ألف سنة: من ظهور التقاليد الشرعية الأولى في عهد موسى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، الى صياغة «كتب الشريعة الخمسة » التوراة النهائية على يد الكاهن عزرا في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد.

غير أنّ فريقاً آخر من رجال الفكر المسيحي، وقفوا موقف الدفاع عن أصالة «الكتاب الموحى» نافياً نفياً قاطعاً إمكانية تأثره «بالثقافات الوثنية».

يمثل هذان الجوابان موقفين متطرفين، فهما لا يتعاملان مع الوقائع التاريخية تعاملاً موضوعياً، بل يقفان منها موقفاً مسبقاً يصطبغ بصبغة إيديولوجية أو لاهوتية.

أما رأينا فهو من باب البديهيات التي تسلم بأن الكتاب المقدس ـ وخاصة العهد القديم ـ تعامل مع محيطه الثقافي تعاملا فعالاً، وأقام معه علاقات الأخذ والعطاء. وعليه فإن التراث الكتابي جزء لا يتجزأ من التراث الإنساني العام الذي تمثل في الثقافات الشرقية القديمة. فقد أصبح السؤال إذا على الشكل التالي:

ما هي نوعية العلاقات التي قامت بين التراث الكتابي والتراث الشرقي القديم؟

يأتينا الجواب عن هذا السؤال من البحث العلمي الموضوعي والنظر النقدي في المعطيات المحسوسة. ويشكل إطار قراءة هذه المعطيات مفهوم «إعادة التأويل» وهو مفهوم قد بانت فاعليته المنهجية وظهر خصبه النظري. لقد أضحى هذا المفهوم من المقولات الأساسية في العلوم الإنسانية التي تنصرف الى دراسة الاتصالات الثقافية في الماضي والحاضر. وعليه، فمن المشروع أن ننتهج هذا المفهوم في دراسة العلاقات الثقافية التي نشأت بين التراث الكتابي ومحيطه الثقافي سعياً الى تعميق فهم هذا القسم من تاريخ في دراستنا هنا «أثر حكمة أحيقار في الكتاب المقدس» وخاصة في العهد القديم وبالأخص في الأسفار الحكمية وبيّنا مدى الأثر والتأثر في الاقتباس والقياس، ومن حسن الحظ أن يكون طوبيّا البار أحد أنبياء العهد القديم، أقام مدة في نينوى، حيث استمع ولا شك الى أخبار أحيقار ونصائحه وإبداعاته الفكرية التعجيزية، فجاء سفره على كثير من توارد الحكم والأمثال والمقاطع المقتبسة أو المتأثرة من وفي حكمة أحيقار الآرامي أصلاً؛ سيما وقد ثبت أن هذا السفر قد وضع بالآرامية في القرن الخامس قبل الميلاد، فمال النقاد الى جعل نص أحيقار الآرامي معاصراً له، أو سابقاً بقليل، ومال بعضهم الى اعتبار طوبيّا قد أجرى نقلاً يهودياً لنص أحيقار، ونحن مع هذا الرأي سيما ويعزز ذلك ما عرف عن ديموقريطس الذي عاش في القرن نفسه، من أنه أورد في «أخلاقياته» بعض ما جاء في كتاب أحيقار.

وقس على ذلك ما دوّن ـ فيما بعد ـ في عدد من أسفار العهد القديم كسفر دانيال، الذي عاش في عهد قريب من عهد أحيقار، وفي ظروف وبيئة شبيهة بظروفه وبيئته. وسفر يشوع بن سيراخ، أو سفر الحكمة الموضوع في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، وسفر الأمثال وسفر الجامعة وسواها من الأسفار؛ أثر حكمة أحيقار فيها واضحاً وجلياً نصاً أو معنى، حيث تتوارد في جميعها في التفكير والتأليف، في التركيب والتعبير، حتى في اللفظ والترتيب. وهذا دليل على شواهد القدم في الشكل والأسلوب على نمط تلك الفرقات التي حفظتها الأسفار الكتابية في سفر عزرا وسفر نحميا، وعلى ما ردده بعدهما سفر طوبيّا كما بينا في تضاعيف الكتاب.

ونختم قولنا، بأن «حكمة أحيقار» تعود الى ما قبل المسيحية بقرون، وهذا أمر لا

يشك فيه أحد ممن درسوا القصة، وذلك لأن خبر أحيقار وحكمه وأقواله مبثوثة في الأدب الديني السابق للمسيحية ـ كما بينا في فصول البحث ـ ولا سيما الإشارة التي وردت في سفر طوبيّا (14: 10). ولا شك أيضاً ـ كما وضحنا ـ الصلة وثيقة بين سفر دانيال وقصة أحيقار، ناهيك عن الأمثال الواردة في أسفار العهد القديم والتي لها صدى في خبر أحيقار كما سردناها.

أما في العهد الجديد ـ وهذا لم نرغب في شرحه وبيانه خوف الإطالة والملل ـ فإن قصة العبد الشرير الوارد ذكرها في إنجيل لوقا (12: 41وما يليه) وفي إنجيل متّى 24: 42 وما يليه) تكاد تكون قصة نادان ابن اخت أحيقار. وفي رسالة بطرس الثانية (2: 22) نقرأ: «لقد أصابهم ما في المثل الصادق: «كلب عاد الى قيئه وخنزيرة مغتسلة الى التمرغ في الحمأة». ويقول أحيقار لابن أخته نادان: «يا بنيّ أنت صرت مثل الخنزير الذي دخل الحمام مع الأكابر، فلما خرج نظر حفرة سيان، نتنة فنزل تمرّغ فيها». وهو المثل الذي استشهد به بطرس الرسول.

وهكذا يكون قد قدمنا ببحثنا المتواضع هذا، نماذج من الأقوال والحكم التي تنسب الى أحيقار الآرامي ومدى عمق تأثيرها على أسفار الكتاب المقدس (العهد القديم) وريث فلسفة السلوك والتربية البابلية ـ الأشورية. فهي تمثل طريقة التفكير والعمل في مواجهة المشاكل والصعوبات، وهي الطريقة التي كانت المثال لإتباع الحضارة البابلية (السومرية ـ الأكدية) طوال ما يزيد على ثلاثة آلاف عام قبل ميلاد السيد المسيح.

الأصول السومرية
لنشيد الأناشيد

1 ـ إذا كانت هناك ضرورة لأن يُنسب «نشيد الأناشيد» التوراتي الى أحد ملوك «العهد القديم»، فإن سليمان الملك، هو أحق الملوك بذلك. وباعتقادنا، أنه من الأفضل القول إن لنشيد الإنشاد صلة بحياة سليمان الملك ولو لم يكن هو الشاعر والمؤلف. وهناك قرائن عديدة تمكن من القول، إنه ليس من المستعبد أن يكون سليمان هو «الحبيب» الذي يتغنى به الشاعر، وتتغنى به «الحبيبة» فهو الملك[1]؛ وقد ورد اسمه «سليمان»[2].

من هو سليمان؟

2 ـ اسمه بالعبرية شلومو. ملك اسرائيل (نحو 975 أو 970 ـ نحو 931 ق.م) ابن داود وبتشابع. ورث عن أبيه ملكاً مستقراً، بعد أن انتصر على جميع خصومه الداخليين، ولم يبق أمامه الا التخلّص من أخيه البكر ادونيا إذ أمر بقتله[3]. ثم أبعد أبياثار عن الكهنوت، كما أمر بقتل يؤاب الذي دعم حق ادونيا بالملك. وتخلص أخيراً من مِشمعيا لأنه خالف أوامره، وهكذا «تثبَّت الملك بيد سليمان»[4].

تسلّم سليمان الحكم فتى، وبعد تقديمه ألف محرقة عن مرتفعات جبعون[5]، تراءى له الرب في الحلم فطلب منه سليمان أن يمنحه قلباً فهيماً ليحكم على الشعب مميزاً بين الخير والشر، وكان له ما ابتغى لأن كلامه حسن في عيني الرب، فأعطاه «قلباً

(1) نشيد الانشاد 1: 4 و12.
(2) نشيد الانشاد 3: 7 و10.
(3) سفر ملوك اول 2: 25.
(4) سفر ملوك اول 2: 45.
(5) حارب انبياء «يهوه» التقدمات على المرتفعات لأنها كانت عادة سكان البلاد الاصليين في التوجه الى آلهتهم مما كان يثير غضب يهوه وغيرته وغالباً انتقامه من شعبه.

حكيماً ومميزاً»[6]. ومن هنا اكتسب سليمان لقب الحكيم وأثبت ذلك في حكمه الشهير بين «الزانيتين» حول لمن منهما هو الرضيع الميت والرضيع الحيّ. وفي موضع آخر من سفر الملوك ترتسم شخصية سليمان الملك كما يلي:

«فاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر. وكان أحكم من جميع الناس... وكان صيته في جميع الأمم حواليه. وتكلم ثلاثة آلاف مثل. وكانت نشائده ألفاً وخمساً. وتكلم عن الأشجار... وتكلم مع البهائم، وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك. وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان، من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته»[7].

وهذا يعني ان سليمان كان بالإضافة الى حكمته، شاعراً وعالماً وحافظاً لا مثال عصره.

وهو الذي أمر ببناء الهيكل، بيت يهوه في أورشليم بعد ان كان يعيش منذ الخروج تحت خيمة، وذلك بالاعتماد على أعمال وفنّاني حَيْرام ملك صور بعد عقد اتفاق تبادل تجاري معه، قدم بموجبه حيرام، خشب الارز والسرو والبنائين والسبّاكين وشاغلي المعادن الثمينة والخشب وغيرهم من العمال المهرة. كما بنى لنفسه قصراً.

3 ـ برع سليمان أيضاً كتاجر وكوسيط تجاري، فكانت له علاقات مع مصر وأمراء الحثيين والآراميين وخاصة في ما يتعلق بتجارة الخيول التي كان يستوردها من بلاد الكاپادوس وكيليكية.

واستعان أيضاً ببنائي سفن وبحارة حيرام ملك صور لإعداد أسطول تجاري من الطراز الكنعاني، صدّر بواسطته معدني النحاس والحديد، وكانت سفنه تعود مُحمّلة بالذهب والفضة والعاج والخشب الثمين والعطور مما جعل سليمان الملك يعيش حياة بذخ تفوق قدرته. ولم تمنع مكاسبه التجارية من إرهاق الشعب بالضرائب وبأعمال السخرة، كما عجز عن الوفاء بديونه الى حيرام ملك صور بنهاية أعمال بناء المعبد والقصر، التي دامت عشرين سنة، فأعطاه بالمقابل عشرين مدينة في الجليل[8]، ولم يكن حيرام راضياً بذلك.

سليمان والنساء

4 ـ نصل هنا الى ناحية هامة من حياة سليمان الملك، تهمّ بحثنا بالدرجة الأولى، وهي علاقته بالنساء. وتبرز نصوص التوراة دون إخفاء غضبها (غضب يهوه) بأن

(6) ملوك اول 3: 5 - 13.
(7) ملوك اول 4: 30 - 35.
(8) ملوك اول 9: 10 - 12.

سليمان أحبّ نساء غريبات وتعدّد التوراة بالإضافة الى زواجه من ابنة فرعون التي بنى لها قصراً مستقلاً وكانت لها امتيازات خاصة[9]، فإنه تزوج أيضاً من العمّونية (نعمة) وهي أمّ ابنه رحُبْعَام، وخلّفه على مملكة يهوذا بعد الانقسام[10] ويرد في كتاب العهد القديم عن نساء سليمان ما يلي:

«وأحبّ سليمان نساءً غريبات كثيرات مع بنت فرعون، مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات، من الأمم المجاورة الذين قال عنهم الرب لبني اسرائيل، لا تدخلون اليهم وهم لا يدخلون اليكم لأنهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه»[11].

نضع يدنا هنا على ناحية هامة من حياة سليمان وأساسية بالنسبة لهذا البحث وعلينا ان نتحقق الآن لنعرف الى أية درجة مال قلب سليمان الى الهة الغرباء ويأتي الجواب مباشرة من متابعة النص السابق.

«وكان في زمن شيخوخة سليمان ان نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين[12] وميلكوم[13] رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه. حينئذ بنى سليمان هيكلاً لكيموش إله الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولميلكوم إله العمونيين. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن»[14].

5 ـ هكذا يمكننا القول بأن سليمان الشاعر والعالم وهاوي النساء كان منفتحاً نحو آلهة نسائه، ونحو عشتروت إلهة الصيدونيين بشكل خاص وهذا ما يهم بحثنا. وسليمان الحكيم الذي وصلت شهرته الى كافة انحاء العالم القديم، كان منفتحاً أيضاً على التبادل الثقافي الذي رافق التبادل التجاري، وليس من المستبعد أن يكون ملماً «بثقافة عصره». ومن وصلت شهرته الى مملكة سبأ، ومن كان يستقبل الضيوف والهدايا من كافة الممالك المجاورة، كان بشكل طبيعي على اطلاع على ما أنتجه الأدب المقدس في كل من وادي النيل ووادي الرافدين والساحل الكنعاني. ومن كان محوّطاً

---

(9) ملوك اول 3: 1.
(10) ملوك اول 14: 21. وأخبار الثاني 12: 13.
(11) ملوك اول 11: 1 - 3.
(12) وكان لعشتروت ايضا معبد هام في عسقلان (قضاة اول 2: 13 و 10: 6)).
(13) إله العمونيين الذي استولى داود على تاجه الذهبي حين غلب العمونيين.
(14) ملوك اول 11: 4 - 8.

بهذا العدد من النساء «الغريبات» لا بد من أن يكون على معرفة بطقوسهن الدينية وبمعتقداتهن وكما أوضح النص السابق فإن سليمان «التصق بهن بالمحبة وأمَلْنَ قلبه».

والعهد القديم ملىء بأمثلة عن ميل قلوب بني اسرائيل الى آلهة غير يهوه، آلهة غريبة وخاصة آلهة «البعل والعشتروت» بصيغة الجمع.

ومن المفيد الإشارة الى ان الهياكل التي أقامها سليمان كما ورد في المقطع السابق بقيت قائمة مدة 400 سنة بعد سليمان ولم تهدم إلا على يد الملك يوشيا[15] الذي أمر بأن تُخرج من هيكل الرب في أورشليم جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية[16] ولكل أجناد السماء بغية إحراقها، كما أقال كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا... «والذين يوقدون للبعل، للشمس، والقمر والمنازل وكل أجناد السماء»[17].

ونتابع إصلاحات يوشيا الملك، لنرى أنه يأمر بهدم بيوت غانيات معبد يهوه حيث كانت النساء ينسجن أغطية للإلهة عشتروت[18] وهذا يعني ان البغاء المقدس استمر في معبد يهوه حتى تلك الفترة. وأخيراً، وإلى الجنوب من جبل الزيتون، مقابل اورشليم، يأمر بهدم الهياكل «التي بناها سليمان ملك اسرائيل لعشتروت رجاسة الصيدونيين ولكيموش رجاسة الموآبيين وللكوم كراهة بني عمّون»[19].

6 ـ وقبل ان ننتقل الى تحليل نصوص نشيد الانشاد، لا بد من ذكر مصدر أخير يحكم على تصرفات الملك سليمان وهو نص متأخر كتبه خلال الفترة السلوقية في الاسكندرية في حوالي عام 190 ق.م. أحد حكماء اليهود في تلك الفترة وهو يشوع بن سيراخ[20] ونقله الى اليونانية حفيده فيما بعد. وهذا الكتاب أصبح جزءاً من التوراة (العهد القديم) اليونانية ولم تتبنه التوراة العبرية اليه كما لم يدخل في أسفار العهد القديم للنشرة البروتستانتية. إلا أن الكنيسة الكاثوليكية تبنته وأوردته بعد سفر الحكمة تحت عنوان سفر يشوع بن سيراخ الكنسي[21] كما اسمته توراة القدس.

ومن ضمن ما ورد في هذا السفر، هو تأملات بن سيراخ حول وجهاء العهد القديم: الآباء الأولين والقضاة والأنبياء والملوك... وهذا هو حكمه على الملك سليمان:

(15) يوشيا حكم خلال الفترة 640 ـ 609 ق. م. وقام باصلاحاته الدينية عام 622 ق.م.

(16) السارية، ذكرت تحت اسم عشيرة في توراة القدس وهي عشيرة اوغاريتية قرينة ايل وكانت ايضاً تلقب «بعشيرة يم» ودُمجت فيما بعد بعشتار ابنة الاله القمر سين البابلي وهي الهة الخصب والحب اي أنانا السومرية، وهي ايضاً عشتروت الكنعانية.

(17) ملوك ثاني 23: 4-6.

(18) الالهة عشيرة في توراة القدس (ملوك ثاني 23: 7).

(19) ملوك ثاني 23: 13.

(20) او ابن سيراخ كما ورد اسمه في التوراة الكاثوليكية الصادرة في بيروت 1951.

(21) Eclesiastique

«مَلَكَ سليمان أيام سلام وأراحه الرب من كل جهة لكي يشيد بيتاً لاسمه ويهيّء قدساً الى الأبد، ما أعظم حكمتك في حَبائك وفطنتك التي طفحت بها مثل النهر، فإن قريحتك عمّت الأرض، فملأتها من أمثال الأحاجي. بلغ اسمك الى الجزائر البعيدة، وأحببت لأجل سلامك. أعجبت الآفاق بما لك من الأغاني والأمثال والألغاز والتفاسير، باسم الإله الرب الموصوف كإله اسرائيل جمعت الذهب كالقصدير والفضة كالرصاص.

أملت فخذيك الى النساء فاستولين على جسدك. جعلت عيباً في مجدك ونجّست نسلك[22] فجلبت الغضب على بيتك. لقد صدعتُ قلبي جهالتك»[23].

7 ـ وبالاعتماد على ما ورد أعلاه، حول الملك سليمان وشخصيته وانفتاحه على بقية الآلهة التي لم تكن يهوه وكأن هذا الأخير كان بالنسبة لسليمان إلهاً شخصياً بالإضافة الى بقية الآلهة كما عرفنا ذلك في بابل وآشور. ونحن نعلم أهمية الإلهة إنانا/ عشتار/ عشتروت. وقد اجتازت عبادتها جميع الأجيال وعمّت بلدان المنطقة بكاملها[24]، ونعلم أيضاً ان الزواج الالهي و«البغاء المقدس» كانا من أهم طقوسها. ويمكننا هنا ان نتساءل إذا ما كان تَبَنّي سليمان إرضاء عشتروت[25] قاده ولمصلحة تعميم الرخاء في البلاد، ودون ان ننسى حبه للنساء، قاده الى اقامة طقوس الزواج الالهي فكان هو الملك والحبيب والعريس ولم تكن النساء ينقصن من حوله للقيام بدور إلهة الخصب. ونحن نعلم إن إنانا كانت ترسّخ الملوك على عروشهم بنتيجة الزواج الإلهي وتمنحهم حياة مديدة، وقد لا يكون سليمان قد شذّ عن هذه القاعدة، مما يساعد على القاء ضوء آخر على «نشيد الانشاد التوراتي».

التفسير والتأويل والتوازي
بصدد نشيد الأناشيد

1 ـ يمكننا أن نبدأ بالقول بصدد هذا النشيد التوراتي، الذي لا يتعدّى 117 بيتاً احتوتها ثمانية أصحاحات (فصول)، بأن ليس هناك اتفاق بين الباحثين في ما يتعلق بأصوله وفترة تأليفه وبنيته ومعناه الاجمالي وما يسعى ايه، وهو على الرغم من قصره، يبقى الكتاب الاكثر غموضاً والأكثر دعوة للحيرة من بين كتب العهد القديم.

كما يمكننا القول بأن لا علاقة مباشرة له بتاريخ اسرائيل ولو أنه أتى على ذكر

(22) لأنه تزوج من أجنبيات، خلّفن له ابناء أمثال خلفه رحبعام ابن العمونية نعمة، الذي ينعته ابن سيراخ «بالسخيف الراي».

(23) سفر ابن سيراخ (47: 15 - 22) توراة المطبعة الكاثوليكية بيروت 1951.

(24) ومن قبرص الى اليونان الى روما استمرت عبادة عشتار.

(25) انظر المقطع 4 أعلاه.

تخت سليمان (3: 7) والتاج الذي توجته به أمّه[26] في يوم عرسه (3: 11)، كما أنه لا علاقة بنشيد الأناشيد في الإضافة الأخيرة التي تذكر اسم سليمان وجباته ومن ثم الحبر يوحنا هير كان الذي حكم خلال فترة (134 - 104 ق.م) والذي لقّب بسليمان[27].

ولكن نشيد الأناشيد في شكله التوراتي الذي وصلنا يبقى غنياً في إطاره الجغرافي الكنعاني فلسطين ولبنان ولكنه في الوقت نفسه ينظر الى دمشق ويعرف مركبات فرعون، ولافت للنظر فيه إشادته بجمال لبنان وسيول لبنان والعروس لبنان ورائحة لبنان وفردوس لبنان... وأقل ما يمكن قوله بهذا الصدد ان الشاعر أو الشعراء كانوا من المقدرين لما كان عليه لبنان. ومن الملاحظ أيضاً أن «نشيد الأناشيد» يحتوي على الفاظ وتعابير يعتريها الناس وتتحمّل عدة تأويلات ومعظمها لم يرد في مواضع أخرى من النصوص التوراتية.

2 ـ كثير من المؤرخين، يرون في «نشيد الأناشيد» مجموعة من أناشيد الحب «الدنيوي» أي غير الديني، ترددها العروس بمناسبة احتفالات الزواج أو تنشد بحضور العروسين اللذين كانا يُسميان «ملك» و«ملكة» كما كان يتمّ ذلك في قرى سورية وفلسطين والعراق حتى نهاية القرن الماضي. ولا تزال حتى اليوم أعراس القرى في مصر تُجلس العروسين جنباً الى جنب على «عرشين» ويتمّ أمامهما الغناء والرقص ابتهاجاً بالمناسبة.

ورأى مفسرون آخرون أن نشيد الأناشيد هو مجموعة من أناشيد الحب المتبادل بين عشيقين عبر التنهدات والشهوة ورقة العناق والمضاجعة.

كما ذهب بعضهم الاخر الى نقيض ذلك، فرأى ان نشيد الأناشيد على الرغم من احتوائه على تعابير جسدية وجنسية، فإنه أعدَّ ليعلّم بشكل أخلاقي ورفيع السعادة في الزواج.

3 ـ إلا أن «نشيد الأناشيد» لا يمكن اعتباره في جزء منه، كمجموعة من أناشيد الحب البسيطة والعفوية، بسبب بعض التفاصيل التي تعمّد الشاعر ذكرها والتي ترتبط ببلاط ملكي وبقصر لا ينقص فيه الذهب والعاج والرخام والأحجار الكريمة الى جانب الصور والتشابيه المرتبطة بالحقول وبشجر الوعر وبالكروم و«الظبي»، الراعي بين السوسن» وبقطيع الماعز وقطيع الخراف المجززة...

ويمكننا القول منذ الآن بأن نشيد الأناشيد حافظ على علاقة بملك وبراع دون إغفال الكروم والحقول وحدائق التفاح وأكداس القمح المسيجة بالسوسن...

(26) سوف نعود الى تحليل هذه الجملة والتعليق عليها فيما بعد.

(27) وردت عنه التفاصيل التاريخية المعاصرة للفترة السلوقية في سفر المكابيين اللذين لم تعترف بهما التوراة اليهودية وأوردتهما توراة القدس.

4 - وعلى هذا الأساس يمكن استشعار علاقة لنشيد الأناشيد بزواج إلهي أو زواج مقدّس وهذا التفسير، ومنذ عام 1922 تقدّم به الباحث الامريكي ميك Th. J. Meek في الاشوريات والنصوص التوراتية، معتبراً ان نشيد الأناشيد وهو ما بقي من طقوس اسرائيلية قديمة تحتفل بزواج الاله الشمس بالإلهة - الأم كما كان يتم ذلك منذ أزمنة قديمة في ما بين النهرين. وأن هذا الزواج الالهي كان يشكّل جزءاً من طقس يتعلق بالخصب ورثه الاسرائيليون عن الكنعانيين المزارعين[28]، لدى تمركزهم في فلسطين. والكنعانيون هم بدورهم كانوا قد تبنّوه عن طقوس تموز وعشتار وقبلهما: دموزي وإناتا (تموز وعشتار) من طقوس بلاد الرافيدن.

وهذا الاتجاه من قبل «ميك»، كان مصيباً في اعتماده على كل ما يشير الى الخصب والسعي لتوافره من قبل الكنعانيين وسكان ما بين النهرين قبلهم. وكما قلنا آنفاً فإن نصوص العهد القديم مليئة بالدلائل على تلك الاهتمامات وكان الانبياء. قد حكموا بقساوة على مثل هذه الطقوس التي كان الاسرائيليون هم أيضاً يمارسونها مغضبين بذلك يهوه، ودون تمكّن انبياء اسرائيل من اجتزازها بشكل كامل. وعندما أعلن الباحث «ميك» تفسيره حول نشيد الأناشيد في العشرينات لم يكن علماء الآثار في تلك الفترة يعرفون غير قصة نزول عشتار الى العالم السفلي، وموت تموز معتقدين ان الإلهة عشتار نزلت الى عالم الموت لإنقاذ عشيقها[29]، لذلك ارتكب «ميك» خطأ كبيراً حين اعتقد ان عليه ان يفتش في نشيد الأناشيد عن إله ميت وعن إلهة تسعى لإنقاذه.

5 - إلا أنه منذ عام 1964 وخلال المؤتمر العالمي السادس والعشرين لعلماء اللغات الشرقية في نيودلهي، قدّم عالم السومريات صموئيل نوح كرايمر الأناشيد السومرية الموازية لنشيد الأناشيد ونشر في عام 1969 كتابه عن طقوس الزواج الالهي مشتملاً على تلك الأناشيد، مما سهّل تقديمها باللغة العربية، وبالتالي تقديم هذه الدراسة عن توازيها مع النشيد التوراتي.

وقبل الانتقال الى مقارنة النصوص لا بدّ من التعرّض الى كيفية بقاء نشيد الأناشيد في المجموعة التوراتية المعترف بها من قبل أحبار اليهودية، متسائلين عمّا إذا كانت أصول هذا النشيد كطقس لزواج مقدس مارسه بنو اسرائيل الى جانب الكنعانيين وقد اقتبسوه من سومر وبابل. وقد تسهل الإجابة عن هذا السؤال حين نذكّر بأن

(28) تسمية الكنعانيين هنا وفيما بعد وللتبسيط تشمل كافة سكان فلسطين دون بني اسرائيل من موآبيين وعمونيين ويبوسيين وأدوميين والفلسطينيين وسكان الساحل اللبناني الحالي والساحل السوري (اوغاريت).

(29) ولكن اكتمال النصوص بعد تجميع اجزائها خلال سنين عديدة من مختلف المتاحف العالمية التي تملك هذه الاجزاء، دلّ على ان عشتار هي التي سلمت دوموزي الى الموت كبديل منها وأكدت ذلك النصوص السومرية فيماب عد.

دوموزي (تموز) لم يكن إلهاً وكان بشرياً اختارته عشتار بقصد تحقيق الخصب وبذلك يبقى يهوه الاله الوحيد المعترف به من قبل بني اسرائيل بعيداً عن علاقة الزواج المقدس بعشتروت ويمكن لملك مثال سليمان القيام بهذا الدور.

ومما لا شك فيه ان طقس الزواج المقدس الكنعاني ـ الاسرائيلي ذو الأصول السومرية والبابلية زاد انتشاره خلال حكم سليمان؛ وقد أشرنا سابقاً الى ميل قلب سليمان الى الإلهة عشتروت[30] (عشتار) وبذلك يصبح نشيد الأناشيد نصّاً بطله سليمان ونسبته لسليمان. وبعد تخليصه قدر الامكان من مظاهر الاهتمام بالخصب، تمّ إدخاله في مجموعة الكتب المقبولة بعد ان عُقم وأُبعدت عنه عشتروت الخصب وعلى الأخص التعابير الجسدية الصريحة أي «البذيئة بالنسبة للمنقحين». وبقيت المعاني الجسدية الموحية بكل ما هو مرتبط بالاتصال الجنسي واضحة، تؤكدها اليوم الأناشيد السومرية الموازية. ولكن الأحبار مفسّري التوراة وآباء الكنيسة وجدوا لأنفسهم منافذ عديدة، فإذا بالاله يهوه يحلّ محل العريس بموجب التفسير التوراتي وحبيبته هو شعب اسرائيل. أما آباء الكنيسة فاعتبروا ان النشيد يحتفل بعرس المسيح مع عروسه وحبيبته الكنيسة؛ وبهذه الطريقة رأى الطرفان ان نشيد الأناشيد هو نصّ موحى به. نص مقدس وأخذت التفسير من قبل الطرفين تملأ هوامش الصفحات التي تحمل نص نشيد الأناشيد لكي تفرض على قرائه المعنى الرسمي مهما كان اصطناعياً. وشرحت أبعاد كل كلمة وما يختبىء وراءها من حوادث شعب اسرائيل التي اعتبر التوراتيون ان الشاعر رمز اليها، وعلى هذا المنوال أيضاً اتجه آباء الكنيسة الكاثوليكيون، للتفتيش عن رموز ترتبط بالمراحل الأولى لحياة الكنيسة وبتأويلها لما سمّته عهدها القديم.

---

(30) انظر المقطع الرابع 4 اعلاه.

التـوازي

نشيد الأناشيد	الأناشيد السومرية
ليقبلني بقبلات فمه، لأن حبك أطيب من الخمر. 1: 3	آه يا آسرتي، يا مالكتي، أنت خمري المبهج، يا أحلى عسلي، يا فم أمها الطلي يا طليتي. 25: 3
نذكر حبك أكثر من الخمر 1: 4	قبلات فمك تهزني، تعالي يا أختي الحبيبة... يا فم أمها الطلي يا طليتي. 25: 6 و7
شفتاك يا عروس تقطران شهداً. تحت لسانك عسل ولبن. 4: 11	فرجها وشفاهها هي عذبة كشراب وشرابها فائق الحلاوة. 31: 21 و22
اسمُك دهن مهراق. لذلك أحبتك العذارى. 1: 3	يا ملتهم النساء، يا أخي، ياذا الوجه الجميل. كم كان إغراؤك عذباً. 25: 26 و27
أدخلني الملك الى حجاله. نبتهج ونفرح بك. 1: 4	في الحجيرة التي تطفح عسلاً دعنا نتمتع بجمالك الرائع. 30: 11و12
أخبرني يا من تحبه نفسي أين ترعى، أين تربض عند الظهيرة. لماذا أنا أهيم كشريدة عند قطعان أصحابك. 1: 7	اقترني بالراعي يا أختاه... لذيذة قشدته. ومنعش لبنه كل ما يمسّه هذا الراعي يتألق. 11: 66 - 70
صوت حبيبي هو ذا آتٍ طافراً على الجبال، قافزاً على التلال. 2: 8	هو الراعي الذي خلقه «آن» من أجلي كم هي فاتنة لحيته! انه الملك! كم هي فاتنة لحيته. 14: 45 - 47
ما أجمل خديك بسموط وعنقك بقلائد يصنع لك سلاسل من ذهب مع جمان من فضة. 1: 10 و11	لأنني انشدت، لأنني انشدت كافأني سيدي... كافأني سيدي بمنحي عقداً من الذهب وخاتماً من الفضة. 31: 9 - 11
قد سبيت قلبي يا أختي العروس، قد سبيت قلبي باحدى عينيك بقلادة واحدة من عنقك. 4: 10	اختارت إنانا اللازورد لتزيين صدرها واللؤلؤ البيضوي لتزيين رأسها وردفيها، وأحجار اللازورد الدورو لعقيصة شعرها، واقراط ذهبية لأذنيها وحجر من المرمر اللماع لسرّتها و.. لفرجها. 12: التقديم

هم الذين من أجلهم استحممتِ وكحلتِ عينيكِ وتحليتِ بالحلى وجلستِ على سرير فاخر أمامه مائدة منضضة.

حزقيال 23: 40 - 41[1]

صُرَّة المرّ حبيبي لي بين ثدييّ يبيت.

1: 13

ها أنت جميل يا حبيبي وحلو وسريرنا أخضر.

1: 16

ما دام الملك في حظيرته أفاح نارديني رائحته صرّة المرّ حبيبي لي، بين ثدييّ يبيت، طاقة فاغية حبيبي لي.

1: 13 - 14

كالتفاح بين شجر الوعر، كذلك حبيبي بين البنين تحت ظله اشتهيت ان أجلس وثمرته حلوة لحلقي.

1: 13 - 14

تحت شجرة التفاح شوّقتك، هناك خطبت لك أمك، خطبت لك والدتك.

8: 5

قومي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالي لأن الشتاء قد مضى والمطر ولّى وزال... التينة اخرجت فجّها وقعال الكروم تُفيح رائحتها.

4: 10 - 13

عندما من أجل الراعي دوموزي سوف استحمّ وبعد ان أزين ردفيّ بـ (...) وعندما أدهن شفتي بالمرهم العنبري واضع الكحل حول عينيّ.

28: 16 - 19

الملك «قرينك» الحبيب الذي دعوته الى قلبك. فليركن طويلاً على صدرك الجذاب.

27: 8 و9 عمود 2

نُصب عند ذلك فراش من أجل ملكتي طُهّر الفراش بواسطة الأسل والارز العاطر.

33: 175 و176

أيتها الغانية، عندما ستدخلين الحظيرة، الحظيرة يا انانا سوف تتهلل أمامك والنعجات الوفيات سوف تنشر صوفها أمامك لكي يتمكن «قرينك» من التأوه لذة على حضنك، وعندما تنثر الحظيرة النبيلة القشدة من أجلك سوف انضح القشدة من أجلك، سوف انضح اللبن وسوف ابهج روحك اي إنانا.

18: 19 - 27

أدخلني اليها، ادخلني اليها، أدخلني أخي الى حديقته، دوموزي ادخلني الى حديقته. أخذني معه حتى المظلّة وجعلني أركن معه على زهراء مرتفعة على الفور اتخذت وضعي تحت شجرة تفاح، بينما وصل أخي وهو يغني يتجه نحوي اعتباراً من الظلة السمراء الشجر السنديان.

يتجه نحوي تحت حرّ الظهيرة، سكبت من حضني أمامه الخضار، انتجت له خضاراً وسكبتها أمامه، انتجت له حباً وسكبت حباً أمامه.

22: 1 - 13

صدركِ يا إينّين هو حقل. أي إنانا. صدرك هو حقل: حقل ينتج الزروع، حقل فسيح يسكب الحبوب.

15: 69 - 72

(1) نستعير هذه الزينة عن حزقيال في معارضته للبغاء المقدس الذي مارسته بنات اورشليم والسامرة.

استيقظي يا ريح الشمال، وتعالي يا ريح الجنوب. هبّي على جنتي فتقطّر أطيابها. ليأت حبيبي الى جنته وياكل ثمره النفيس.

4: 16

نزلت الى جنة الجوز لأنظر الى خضر الوادي لأنظر هل أقعل الكرم، هل نوّر الرمان.

5: 11

تعال يا حبيبي لنخرج الى الحقل... لننظر هل أزهر الكرم هل تفتح القعال، هل نوّر الرمان هناك أعطيك حبّي

.12-10:7

حبيبي لي وأنا له الراعي بين السوسن الى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال، ارجع يا حبيبي واشبه الظبي.

2: 16

الى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال، اذهب الى جبل المرّ وإلى تلّ اللبان، كلك جميلة يا حبيبتي، ليس فيك عيب.

4: 6 و7

شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني. احلفكن يا بنات اورشليم... الاّ تيقظن وتُنَبِّهن الحبيب حتى يشاء.

(2: 6 و7) و (8: 3و4)

انا نائمة وقلبي مستيقظ، صوت حبيبي قارعاً. افتحي لي يا أختي، يا حمامتي... قمت لأفتح لحبيبي ويداي تقطران مراً وأصابعي مرّ قاطر على مقبض القفل. فتحت لحبيبي لكن حبيبي تحوّل وعبر.

13: 5 - 8

قد دخلت جنتي ياأختي العروس، قطفت مرّي مع طيبي. أكلت شهدي مع عسلي. شربت خمري مع لبني. كلوا أيها الأصحاب، اشربوا

وبمجرد ان تدفق من حضن الملك ماء القلب، فعلى جوانبه انبثقت الزروع وعلى جوانبه نبت الحب: وبقربه زخرت بنمو نباتها السهوب والمروج.

16: 9 - 11 عمود 3

أي أختي الجميلة، أريد الذهاب معك لتفقد حقولي.. أي أختي أريد الذهاب معك لتفقد بستاني أي أختاه اخصبي لي بستاني.

أريد الذهاب معك لتفقد بستان التفاح لكي أتناول بيدي ثمار تفاحي.. أريد الذهاب معك لتفقد شجر الرمان وأقطف منه الحلو والمعسّل.

29: 19 - 19

أي صهرنا، عندما يغيب النهار، أي صهرنا عندما يأتي الليل، عندما سيدخل «القمر» (...) بيتنا سوف أطفيء النجوم على مساراتها. عندما أطفيء القمر في الأعالي عند ذلك سوف أسحب المزلاج من أجلك.

19: 9 - 16

يا مفضل انليل، أنت لي تعال (قربي) في الليل! ابق معي الليل بكامله! تعال (قربي) في النهار! ابق معي النهار بكامله.

19: 60 - 63

سوف يضع يده في يدي وقلبه على قلبي، كم هو عذب ومريح النوم ويدي في يده، كم هي كلية، اللّذة حين يلتصق قلبه بقلبي.

12: 44 - 47

إنه التحق بي الملك صديق آن التحق بي: الملك أمسك بيده يدي (دوموزي) قبلني...

5: 2 و 5: 5

النوم بقربك منتهى سعادتي

17: 15

روحك، انا أعرف كيف أبهج روحك. بت عندنا يا حبيبي حتى مطلع الفجر.

30: 18 و19

... ثم تقدم الملك باعتزاز من الحجر المقدس. التحق بحضن إنانا وضاجعها دوموزي متلمساً برقة صدرها الجميل، وبعد ان استقرت

واسكروا أيها الأحباء[2].

1 :5

اخـرجن يـا بنـات صـهـيـون وانظرن الملك سليـمـان، بالتـاج الـذي توّجتـه بـه امّـه في يوم عرسه وفي يوم فرح قلبه[4].

فـمـا جـاوزتهم إلا قليلاً وجـدت من تحبـه نفسي، فامسكته، ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بي...

4 :3

اقـودك وادخـل بك بيت أمي وهـي تعلّمني، فاسقيك من الخمر الممزوجة من سلاف رمّاني. شماله تحت رأسي ويمينه تعانقي. احلفكنّ.

4 - 2 :8

حـبـيـبي أبيض وأحـمـر، علم بين ربوة رأسه ذهب إبريز، قصصه مسترسلة حالكة كالغراب. عيناه كالحمام على مجاري المياه، مغسولتان باللبن، جالستان في وقبيهما... يداه حلقتان

الملكة طويلاً على حضن الملك... تمتمت: ايدين . داجان[3] نعم سوف أمدد حياتك.

192 - 185 :33

الاله الذي دعوته الى قلبك الملك «قرينك» الحبيب، فليركن طويلاً على صدرك الجذاب، امنحيه حكماً ثابتاً الى الأبد، لا يتزعزع، امنحه عصا قيادة الشعوب والصولجان وعصا الرعاية.

27: 7 - 11 عمود 2

الالهة إنانا تقرر هنا مصير «قرينها» الملك: «أنت خلقت لكي تستقر باعتزاز على المنصّة المجيدة. أنت خلقت لتجلس على العرش اللازوردي. أنت خلقت لكي تثبت التاج على رأسك...

أنت خلقت لتمسك بيدك الصولجان الجليل أنت خلقت لكي تلتصق بقوة على حضني الجميل...».

65 - 57 :28

أم إنانا تشجعها على لقاء عريسها وتعلمها» «هيّا أيتها الصبية، إنه من أجلك مثل أب! هيا أيتها الصبية، إنه من أجلك مثل أم! أمه تعزك كما تعزك والدتك! وأبوه يعزك كما يعزك والدك افتحي له بيتك يا ملكتي، افتحي له بيتك.

وإنانا بناء على أوامر أمها، استحمت ودلكت جسدها بدهون ناعمة.

12: 7 - 12 عمود 2

أنت في نظري تمثال ذهب حقيقي تحفة فنان في معالجة الخشب تحفة فنان في معالجة المعدن[5].

47 - 45 :19

(2) وصف الوليمة والاحتفال مع الاصحاب والاحباء بعد الزواج المقدس اي أكل شهد العروس.

(3) اسم الملك الذي حقق الزواج الالهي مع ممثلة انانا.

(4) إذا كان الامر يتعلق فعلا بالملك سليمان التاريخي، فهذا يعني ان هذا الاخير قد ساهم فعلا في طقوس الزواج الالهي مع عشتروت التي كأمّ له وللبلاد تتوجه في يوم عرسه.

(5) التماثيل القديمة كانت تصنع من الخشب الملبّس برقائق معدنية من ذهب او فضة.

من ذهب مرصعتان بالزبرجد. بطنه عاج أبيض مغلف بالياقوت الازرق. ساقاه عموداً رخام مؤسستان على قاعدتين من ابريز. طلعته كلبنان فتىً كالأرز[6].

5: 10 - 15

اجعلني كخاتم على قلبك كخاتم على ساعدك، لأن المحبة قوية كالموت. الغيرة قاسية كالهاوية[7] لهيبها لهيب نار ولظى الرب. المياه الغزيرة لا تستطيع ان تطفىء المحبة والسيول لا تغمرها.

8: 6 و7

يا دوموزي... كم كان إغراؤك عذباً يا صورة ذهبية كم كان إغراؤك عذباً! يا تمثالاً من مرمر متوّجاً باللازورد، كم كان اغراؤك عذباً.

25: 30 - 32

يا بان الملوك، أي أخي، ياذا الوجه الجميل... أنقذت لك حياتك خارج أسوار المدينة ولكن ها أنت اصبحت هدفاً لمصير في منتهى القساوة... آه ياحبيب قلبي أنا التي بدون شك سبّبت لك هذا المصير القاسي. يا أخي يا ذا الوجه الجميل... كم كان إغراؤك عذباً يا حامل ازهاري. اغراؤك كان عذباً في الحديقة يا حامل ازهاري... يا حامل ثماري.

25: 12 - 30

---

(6) حار الشارحون الدينيون بصدد تفسير هذا المقطع الذي يصف الحبيب وكأنه تمثال (؟) ولكن الوصف السومري الموازي لا يكذب ذلك.

(7) بمعنى شيول العبري، اي ما يعادل العالم السفلي السومري والاكادي وهو عالم الاموات. وهنا نرى نشيد الاناشيد بعد ان احتفل وتغنّى بحب العروسين الحبيبين ينتقل فجأة الى لهجة جدّية ومحزنة يرتبط فيها الحب بالموت، اي موت دوموزي/ تموز بسبب حبه لإتانا/ عشتار، وهذا ما يشير اليه النص السومري الموازي رقم 25.

نص

نشيد الأناشيد السومري

أي إينّين[1] الكتّان ـ المزروع الذي ينمو
أي إنانا، الكتان ـ المزروع الذي ينمو
وتملأ بذوره الأثلام
أي أختي، أنتِ التي جعلت الاشجار الكبيرة تنمو،
أي إنين، أنت التي جعلتِ القصب الممشوق يتكاثر بسرعة،
أريد أن أعزق للحصول من أجلك على هذه النبتة
وسوف أجلب لك الكتان ـ المزروع، أي أختي!
أي إنانا، سوف أجلب لك الكتان ـ المزروع
ـ أي أخي، عندما ستقدم لي الكتان ـ المزروع
من الذي سيمشّطه لي، من سيمشّطه لي
هذا الكتان من سيمشّطه؟
ـ سوف أجلبه لك ممشّطا أي إنانا!
يا أخي، عندما ستقدمه لي ممشطا،
من سيغزله؟ من سيغزله؟
ـ سوف أجلبه لك مغزولاً، أي أختاه.
أي إنانا سوف أجلبه مغزولا!
يا أخي، عندما ستقدمه لي مغزولاً

(1) (Innin) لقب إنانا او اسم آخر لها.

من سيجد له لي؟ من سيجدله لي؟

هذا الكتان من سيجدله؟

ـ سوف أجلبه لك مجدولاً يا أختاه!

أي إنانا، سوف اجلبه لك مجدولا!

يا أخي، عندما ستقدمه لي مجدولا

من سيسدّيه لي، من سيسدّيه لي؟

هذا الكتان من سيسدّيه لي؟

هذا الكتان من سيسدّيه لي؟

هذا الكتان من سيسدّيه

ـ سوف أجلبه لك مسدّىٍ، أي أختاه!

أي انانا سوف اجلبه لك مسدّى!

يا أخي عندما سوف تقدمه لي مسدّى

من سينسجه لي؟ من سينسجه لي؟

هذا الكتان من سينسجه؟

ـ سوف اجلبه لك منسوجاً يا أختاه!

أي إنانا سوف أقدمه لك منسوجا.

ومن سيصبغه لي، من سيصبغه؟

هذا الكتان من سيصبغه؟

ـ سوف اجلبه لك مصبوغاً أي أختاه،

أي إنانا سوف اجلبه لك مصبوغا.

وهنا تعبّر إنانا عما يشغلها في المرحلة التي تلي إعداد غطاء الكتان المسدّى والمصبوغ فتسأل:

أي أخي، عندما ستقدّمه لي مصبوغاً

من هو الذي سيضاجعني؟ من سيضاجعني عليه؟

ويجيبها اوتو[2] بشكل طبيعي وبدون تردد بأن الذي سيضاجعها هو دوموزي (تموز) الذي يشير اليه بلقبه «آما ـ اوشوم چالانّا»[3] وبصفته «صديق إنليل».

(2) "Utu" التسمية السومرية للإله الشمس.

(3) چالانا، احد القاب الاله دوموزي (تموز).

ـ الذي سيضاجعكِ، انه هو!
الذي سيضاجعك ويصبح «قرينك» إنه هو!
إنه آما ـ اوشوم جالانا الذي سيضاجعك!
انه صديق انليل، الذي سيضاجعك!
سيضاجعك من وَلَدَه حضن كريم
من أنجبه ملك، انه هو الذي سيضاجعك»

ولكن إنانا تعلن بنفسها اختيارها

«كلاّ! إنه الرجل القريب الى قلبي
الرجل القريب الى قلبي
الذي سلب من روحي
والذي تطفح عنابره. دون أن يضطر للعزق
والذي في صوامعه لا يتوقف سكب الحبوب
إنه الفلاح، الذي امتلأت عنابره حباً».

وهنا نرى أوتو إله الشمس يرفض أخذ اختيار إنانا بشكل جدي ويصرّ عليها مفضلاً الراعي دوموزي:

ـ «اقترني بالراعي، يا أختاه!
إنانا أيتها الفتاة، لم ترفضيه؟
لذيذة قِشّدته ومنعش لبنه
كل ما يمسّه هذا الراعي يتألق!
اقترني اذن بالراعي يا إنانا:
أنتِ التي تتزينين بالأحجار الكريمة «اونو» و«شوبا»
لمَ ترفضينه؟
أنت حامية الملوك، لمَ ترفضينه؟».

إنانا تصرّ على رأيها:

كلاّ! لن أتزوج من الراعي:
أنا لا أريد ارتداء البسته الخشنة
أنا لا أريد لبس صوفه الصفيق
أنا الفتاة الصبية، اريد الاقتران بالفلاح:

الفلاح الذي ينتج بكثرة زروعاً كهذه،
الفلاح الذي ينتج بكثرة حبوباً كهذه!
(.....)

ومثل هذا التصريح أثار دوموزي مما جعله يدافع عن نفسه ويشيد بما لديه:

ما لدى هذا الفلاح أكثر مني،
هذا الفلاح ما لديه أكثر مني،...
ما لديه أكثر مني هذا الفلاح
إن قدّم لي طحينه «الاسود»
فأنا أعطيه نعجتي السوداء!
ان قدّم لي طحينه «الأبيض»
أعطيه، أنا نعجتي الببيضاء
إن سكب لي جعته المختارة
فأنا أصبّ له لبني (الأكثر) دسماً!
ان سكب لي جعته الفاخرة
فأنا أصبّ له لبني القسيم
إن صبّ لي جعته اللزجة
فأنا أصب له لبني المخضوض!
إن سكب لي جعته الممدة
فأنا أعطيه «لبن ـ النبات»![4]
إن قدّم لي الهاهالا[5] ذي ـ الحلاوة
فأنا أقدم له لبني ـ إيتيّردا![6]
إن قدّم لي أفضل خبزه
فأنا أعطيه ألّذ أجباني طعما
إن قدّم لي عدسه (؟)
فأنا أعطيه أجباني الفائقة النعومة!
وبعد ان أكون قد أكلت كفاية وشربت كفاية،

(4) لا يزال تعبير «لبن ـ البنات» غير مفهوم لدى علماء السومريات ولعله النبيذ.
(5) Hahala مادة سكرية نباتية المصدر.
(6) Itirda نوع من منتوج لبني المصدر.

يمكنني ان أترك له ما بقي لي من القشدة
يمكنني ترك ما بقي لي من اللبن!
أكثر منّي، ما لديه إذن أكثر منّي، هذا الفلاح!».

من المحتمل ان يكون هذاالدفاع قد أثّر على إنانا، مما أدخل البهجة الى قلب دوموزي معتبراً أنه ربح المنافسة وعاد لأعماله وهو مبتهج:

فليبتهج! فليبتهج
على الضفة، على شاطىء النهر، بينما كان يبتهج
بينما كان الراعي مبتهجاً على الضفة،
على شاطىء النهر!
كان الراعي إذن يقود أغنامه على الضفة
وبينما كان الراعي يسهر على أغنامه على الضفة
اقترب منه الفلاح، انكيمدو[7] الفلاّح اقترب!
اقترب من دوموزي، سيد الخنادق والسدود
وفي سهبه، في بريته أطلق دوموزي النزاع
أطلق الراعي دوموزي النزاع (من جديد) وهو في سهبه»

الا ان الفلاح لم يكن مستعداً للعودة الى النزاع والمنافسة بل بالعكس فإنه يهدىء من غضب دوموزي ويعرض عليه مصالحة وأخوّة:

«أنا وأنت، أيها الراعي، أنا وأنت،
ما الذي يدفعني للتنازع معك؟
دعْ أغنامك تقضم عشب الضفة،
دعْ أغنامك ترعى في حقولي المزروعة،
دعها تاكل شعيري وهو على ساقه،
دعها تقضم نباتي الحبّي عبر ريف
أوروك المنوّر
ولترتوِ جديانك وحملانك من قناتي
السوروجال»[8]

(7) Enkimdu اسم الفلاح المشتق من اسم أنكي.
(8) Surugal قناة مجاورة لمدنية اوروك.

تلك كانت النهاية السعيدة بين الراعي والفلاح[9]، بل يذهب النص الى ما هو أبعد من ذلك، حين يدعو دوموزي «صديقه» الفلاح لحضور عرسه:

«الى زواجي أنا، الراعي،
ستحضر كصديق، أيها الفلاح:
كصديق، أيها الفلاح انكيمدو
كصديق، أيها الفلاح، وسوف تُعدّ
كصديق لي».

وأجمل من هذه الدعوة هو جواب الفلاح معدداً هدايا العرس:

سوف أحمل اليك الطحين وأجلب لك البَيّقة
سوف أجلب لك العدس
أيتهاالمرأة الصبية، كل ما ترغبين به
سوف أقدمه لك أيتها الفتاة إنانا... الحب والبَيّقة

إناتا تحصل على موافقة والديها على اختيارها

«سوف يوسع لي بيتي، يوسع لي بيتي
بيتي أنا الملكة، بيتي سوف يوسعه
سوف يوسع لي الجيبار!
حيث سيُنصب فراشي المخصب
وسوف يُغطى بالقماش الازرق - دورو[10]
عند ذلك سوف أقود اليه رجل أخياري
سوف أقود اليه آما - اوشومچالانّا[11]
وسوف يضع يده في يدي
وقلبه على قلبي
كم هو عذب ومريح، النوم ويدي في يده
كم هي طلية اللذة، حين يلتصق قلبه بقلبي».

وحين يأتي دوموزي لزيارة إنانا وهي تسكن في بيت أمها محملاً بهدايا اللبن

(9) ونحن نعلم ان قصة قايين وهابيل التوراتية لم تنته على هذا الشكل.
(10) duru صفة قد تعني الشفافية او بريق اللازورد.
(11) Ama - Ushumgalanna احد القاب دوموزي.

والقشدة والجعة تتردد إنانا في استقباله ولكن أمها نينجال تشجعها لإدخال الزائر العريس وتقول لابنتها كما ورد ذلك في قصيدة مختلفة.

هيّا! أيتها الصبيّة، إنه من أجلكِ مثل أب!

هيّا! أيتها الصبيّة، إنه من أجلكِ مثل أم!

أمّه تعزّك كما تعزّك والدتك!

وأبوه يعزّك كما يعزّك والدتك!

افتحي له إذن بيتك يا ملكتي، افتحي له بيتك!»

عندئذ تستعد إنانا كما يليق بملكة لاستقبال حبيبها:

وإنانا بناء على أوامر أمّها،

استحمت ودلكت جسدها بدهون ناعمة،

لبست الرداء الملكي الكريم،

أخذت الـ... من بائنتها؛

ووضعت حول عنقها (عقداً) من اللازورد،

كما أطبقت بيدها على ختمها.

وبعد ذلك، انتظرت إنّين بلهفة

عند ذلك فتح دوموزي الباب

ودخل الى البيت مثل شعاع قمر.

فتأمّل (إنانا) وهو يشعر بفرح عظيم

شدّها الى صدره، وقبّلها...

اللقاء السرّي على ضوء القمر بين الحبيبين

«البارحة، بينما كنت أنا، الملكة، امضي الوقت،

البارحة، بينما كنت أنا إنانا، امضي الوقت،

أمضّي الوقت في الرقص،

وفي الغناء طول النهار حتى حلول الليل،

انه التحق بي، التحق بي:

الملك، صديق آن التحق بي!

الملك أمسك بيده يدي:

أوشوم چالانّا[12] قبلني...»

وبما أنها لم تكن تعلم ماذا تقول لأمّها، لذا حاولت التهرّب من قبلاته:

«هيا، أيها الراعي، دعني: يجب أن أعود الى بيتنا!

دعني إذن يا صديق انليل: يجب أن أعود الى بيتنا!

أية كذبة سوف أرويها لأمي؟

أية كذبة سوف أرويها لأمي نينچال»[13]

لكن دوموزي يجيبها بما كانت تنتظر منه:

«سوف ألّقنك (ما سوف تقولين) سوف ألقنك،

سوف ألقنك كيف تكذب النساء!

(قولي لها) «صديقتي كانت تمرح معي في الساحة

رَقَصَتْ حولي على وقع الطبلة

وغنّت لي الأناشيد الأكثر عذوبة

وهكذا أمضيت الوقت أتذوق حلاوة اللذة»

وهكذا وبهذه الحيلة تقفين أمام أمك

بينما نحن سوف نستسلم لشهوتنا على

ضوء القمر!

على الفراش المقدس، الفراش الفخم سوف

أحلّ لك شعرك

وأمضي معك أجمل اللحظات بفرح عظيم»

ويختتم الشاعر قصيدته وكان إنانا تلّقت وعداً بالزواج فتنطلق بفرح لتتحدث عن الجارة التي سوف تقدم شهادة طيبة بدوموزي أمام أمها نينجال.

«جارتنا» أتت حتى بوابة أمي

وسوف أركض اليها بلهفة

أنها أتت حتى بوابة أمي

وسوف أركض اليها بلهفة

(12) لقب دوموزي Ushumgalanna.

(13) لقب دوموزي ورد آنفاً مختصر (ana-ushumgalanna).

سوف تتحدث الى أمي لمصلحتك

جارتنا، سوف ترشّ الأرضية (لاستقبالك؟)

سوف تتحدث لمصلحتك الى أبي نينچال

جارتنا، وسوف ترش الارضية (لاستقبالك)

بيتها يفوح طيبا

وكلماتها تقطّر الفرح!

«سيدي» (قالت) هو جدير بالحضن المقدس:

آما ـ أوشوم ـ چالانا[13] سوف يصبح صهر نانّا!

السيد دوموزي هو جدير بالحضن المقدس

آما ـ أوشوم ـ جالانا سوف يصبح صهر نانا ...»[14]

المشاكسة بين الحبيبين

....

«لا تباشري النزاع، أيتها المرأة الفتية

لنتحدث عن ذلك فقط، زي إنانا

أي إنانا، لا تباشري النزاع

فلنتفكّر معاً في الأمر، يا ملكة القصر

أبي جدير بالاحترام كمثل أبيكِ:

لنتحدث عن ذلك، أي إنانا

أمي جديرة بالاحترام كمثل أمكِ:

يا ملكة القصر، فلنتفكّر في الأمر!

جيشتينانّا[15] أختي، هي أيضاً جديرة

بالاحترام (مثل أختك)[16]

فلنتحدث عن ذلك، أي إنانا

وسيرتور[17] (أمي) لا تقل احتراماً عن نينچال:[18]

---

(14) نانا الاله القمر، والد إنانا، كان يعبد في مدينة اور مدينة ابراهيم.

(15) Geshinanna، هو اسم اخت دوموزي وكانت مشهورة بمعرفتها بتفسير الاحلام.

(16) ينقص هنا اسم أخت إنانا الذي تجهله.

(17) (sirtur) أم دوموزي.

(18) nin-gal، بمعنى السيدة الفائقة السمو.

يا ملكة القصر، فلنتفكر في ذلك».

وبحسٍ عميقٍ لنفسية العاشقين يضيف الشاعر:

«الكلمات التي تلفّظ بها هكذا
لم تكن سوى كلمات رغبة:
ومثل هذه المشاكسة
تدفع الى تجاذب القلوب».

ويتبع هذا التعليق خلوة غرامية مملوءة بالتلميحات والتشابيه التي إذا ما بقيت غامضة بالنسبة لإنسان اليوم فإنها كانت حتماً تدخل في لغة الأدب الغزلية او الجنسية لذلك الوقت:

«من غيره (ان لم يكن هو) صُنع من أجلي؟
من غيره اذن صنع من أجلي
كم هي فاتنة لحيته
هو، الراعي، الذي خلقه آن من أجلي،
كم هي فاتنة لحيته!
انه الملك (؟) كم هي فاتنة لحيته!
كم هي فاتنة لحيته!».

نشيد لفراش العرس

«في الإيانا[19]، أعد «لابسو الكتان» من أجله هيكلاً
ووُضع عليه الماء من أجل الملك. وكلّموه.
كما وُضع أيضا خبز. وكلّموه
خذ راحتك في القصر، قالوا له
أي دوموزي، أنت الذي تتألق في القصر وفي البلاء
إنانا الجليلة التي هي زينتك، زينتك
إنانا الجليلة، إنانا الجليلة، لباسك، لباسك
ثوبك الأسود، ثوبك الأبيض
اقترب منها، سيدي، بعد ان قَدِمْتَ الى هنا

(19) Eanna بمعنى بيت آنو (هي وانليل) وهو معبد إنانا.

تقدّم منها مُردداً نشيداً يسلب الروح
تقدم نحو عرشها(؟)، العرش الذي يحتلاّنه
(هي وانليل)
تقدم نحو مكانهما، المكان حيث يوجدان:
لأنه هنا تمت إقامة، تمت إقامة
تمت إقامة إنليل (مع إنانا) في الكيؤر»[20]

تلا ذلك مباركة من قبل إنانا موجّهه الى دوموزي لدى اقترابه منها:

«أيها الثور الوحشي! حياة البلاد، سوف امنح
الحياة لشعبك
سوف أحقق كل رغباتهم
سوف أجعلهم يحكمون بالعدل في المقر الاميري
وسوف اجعل كي تلفظ بصددهم
في القصر القرارات المنصِفَة».

وينتهي النص بطلب من دوموزي موجّه الى رنانا:

صدرَك يا إينّين هو حقل
أي إنانا صدرك هو حقل
حقل متسع ينتج الزروع
حقل فسيح يسكب الحبوب
انشري من أجل الملك (...)
الشراب بوفرة، (انشري) من أجل الملك،
فيضاً من الأطعمة
الشراب بوفرة من أجل الملك والأطعمة (انشري)
فيضاً من الأطعمة:
تقبّلي أن أحصل عليها من قبلك»!

(20) (كي. اور) جزء من المعبد وخاصة معبد انليل في نفر الايكور Ekur.

إنانا تقترن بدوموزي

وتجعل منه إلهاً للبلاد

«بعد ان استعرضتُهم جميعهم
فإن دوموزي هو الذي دعوته ليصبح «إله البلاد»
دوموزي المفضل لدى انليل
والذي كانت تميل اليه أمي
وكان أبي يشيد به».

إنانا تستحم وترتدي ملابس السلة الخاصة بها وحدها وتطلب بأن يؤتى بدوموزي الى معبدها الذي كانت تملؤه الأناشيد والتضرعات وذلك لكي تتذوق السعادة برفقته، فتقول:

أما بالنسبة لي أنا، بالنسبة لفرجي، أنا،
التلّة المنتفخة،
فرجي، أنا الصبية، من سيحرثه لي؟
فرجي أنا، هذه الأرض الرطبة التي هي أنا
أنا الملكة، من الذي سيضع فيّ
ثيرانه (للحراثة؟)»

ويأتي الجواب سواء من دوموزي متحدثاً عن نفسه بصفة الغائب أم من قِبل الكوروس:

«أي إينين، إنه الملك، الذي سوف يحرثك
انه الملك دوموزي الذي سوف يحرثك

وتجيب إنانا وهي في قمة الشهوة

«إحرث اذن فرجي، يا رجل قلبي!»

ثم تغسل جسدها الجميل ويضطجعان معاً

«وبمجرد ان تدفق من حضن الملك «ماء ـ القلب»[21]
فعلى جوانبه انبثقت الزروع، وعلى جوانبه نبت الحَبّ:

(21) تعبير «ماء ـ القلب» هو تسمية شعرية سومرية لمنيّ دوموزي الذي يتدفق من «حضنه».

وبقريه زخرت بنموّ نباتها السهوب والمروج
بينما في بيت ـ الحياة، في القصر الملكي،
ركنت قرينته الى جانبه تملأ قلبها البهجة؛
في بيت ـ الحياة، في القصر الملكي
بقيت إنانا الى جانبه مكتملة البهجة»

وأثناء وجود إنانا بقرب دوموزي، تقدمت منه بطلب وارفقته بعد ذلك بوعد منها:

قدّم لي اللبن الدسم، أي (قريني) قدّم لي اللبن الدسم:
أريد شرب اللبن الطازج من يدك أي «قريني»!
أيها الثور الوحشي، دوموزي، قدّم لي اللبن الدسم:
أريد شرب اللبن طازجاً من يدك، أي «قريني»
في وسط الحظيرة دفّق من أجلي لبن ماعزك
إملأ مخضتّي المقدسة بـ (....) الجبن
أريد ان أشرب معك اللبن الطازج، أيها
السيد دوموزي»....

وتتعهد إنانا بالقابل «بحراسة مستودعه»:

أي «قريني»، المستودع الجميل والحظيرة المقدسة
سوف احفظهما لك، أنا إنانا
سوف أسهر على بيت ـ الحياة
المكان الأكثر سطوعاً والأكثر روعة على الأرض
القصر حيث تقرر مصائر كافة الناس
ومنه تتم ادارة كافة البشر والكائنات الحيّة:
أنا إنانا سوف احفظهما لك.
سوف أسهر على بيت ـ الحياة خاصتك
بيت ـ الحياة هذا ومستودع ـ الحياة ـ المديدة...
أنا إنانا سوف احفظهما لك!..

سعادة النوم بقرب الحبيب

في هذا النشيد القصير من نغم «بالْبال»[22] مرافقات إنانا يشيدون بدوموزي الصهر، صهر نانا الآله القمر وصهر الأم نينجال، السيدة العظيمة:

(....)
أنت أخ لنا! أنت أخ لنا!
أنت الـ (...) أخ القصر
(أنت) قائد السفينة ـ ماجور[23]
أنت سائق عربه (....)[24]
أنت الأب وأنت قاضي المدينة
(....)
أيها الأخ لنا: أنت صهر لأبينا
الصهر الأكثر امتيازاً
الذي يزوّد أمّنا بكل الخيرات

وهنا تجيب إنانا مكلمة الحبيب:

قدومك يبعث الحياة
قدومك الى «البيت» يحمل الكثرة
النوم بقربك، منتهى سعادتي!...

إذا ما دخلت إنانا الحظيرة

«يا للنغم العذب، مثل (صوت) بقرة!
يا للصدى العذب مثل (صوت) عجل!
أي إنانا، أنت التي تطوفين في الحظيرة،
ما ان تصلي اليها أيتها الصبيّة،
حتى تُسْمِع المخضة نغمها أي إنانا!
مخضّة حبيبك سوف تسمع نغمها

---

(22) Balbal تسمية لنغم او لنوع من القصائد والاناشيد.
(23) Magur: سفينة ذات قياسات كبيرة تستعمل لنقل المواكب الدينية في النهر.
(24) يمكن محاول الاستكمال بعربة «الشعب» بالمقارنة مع نشيد الاناشيد (6: 12).

مخضة دوموزي سوف تسمع نغمها
المخضة سوف تسمع نغمها أي إنانا
مخضة دوموزي سوف تُسمع نغمها

سوف أجعل نَغَم المخضّة المهزوزة يتردّد من أجلك
علّني أنقل الفرح (الى قلب) إنانا
المخضة النبيلة، سوف يتردد نغمها من أجلكِ
علّني أستطيع جعلك تفرحين ياسيدة القصر
والراعي ذو الصوت المتناغم
سوف يردّد لك لحناً ممتعاً!
هذا النشيد الأكثر عذوبة، أي إنانا
سوف يجعل قلبك فرِحاً!

أي إينّين، عندما ستدخلين الحظيرة،
سوف تكون الحظيرة يا إينّين مبتهجة أمامك
أيتها الغانية، عندما ستدخلين الحظيرة
الحظيرة يا إنانا، سوف تتهلل أمامك
وعندما ستقتربين من المعالف(؟)
فالنعجات الوفيّات سوف تنشر
صوفها أمامك!
لكي يتمكن آما ـ أوشوم جالانا «قرينك»
من التأوه (لذّة) على حضنك
وعندما تنثر الحظيرة النبيلة القشدة على الأرض من أجلك!
سوف أنضجُ الشدة، سوف أنضج اللبن،
وسوف أبهج روحك إي إنانا
ولئن تنثر الحظيرة النبيلة على الأرض القشدة من أجلك
فسوف أبهج روحَك ياسيدة القصر!
من أجل الملك الذي دعوت الى قلبك
من أجل دوموزي «ابن انليل»

فلتنتج الحظيرة القشدة واللبن (بكثرة)!
ولتكن الحظيرة خصبة
وليتمكن الراعي الأمين من تمديد حياته
وليمدد دوموزي الراعي الامين أيام الكثرة

الإلهة تطلب من الحبيب الالتحاق بها ليلاً بعد أن تطفىء القمر وتسحب المزلاج من أجله

(......)
« ..... والده مثل رسول...
.... رسولي....!
أي صهرنا، عندما يغيب النهار
أي صهرنا، عندما يأتي الليل
عندما سيدخل القمر بيتنا
سوف اطفىء النجوم على مساراتها
أي صهرنا، عندما يأتي الليل
أي صهرنا، عندما يكون قد انتهى النهار
وعندما سيدخل بيتنا القمر،
وعندما اطفىء القمر في الأعالي
عند ذلك، سوف أسحب المزلاج من أجلك...»

يلي تشويه في حوالي 16 سطراً وحين يتضح النص نشهد الإلهة، تظهر إعجاباً شهوانياً بهلبته الكثيفة الشعر وترجوه ان يشدّها على صدرها أو حضنها؟.

«يا ذا الشعر الكثيف، يا ذا الشعر الكثيف، أنت لي
يا حبيبي، يا ذا الشعر الكثيف، أنت لي
يا ذا الشعر الكثيف مثل (أغصان) طرفاء ملتفة
يا صاحبي، يا ذا الشعر الكثيف، ستة أضعاف
شدّه على حضننا، يا حبيبي
يا أسَدي ذا اللبدة الكثيفة، أربعة أضعاف
شدّها على حضننا يا أخي، يا ذا الوجه الجميل
يا ذا الشعر البراق، يا ذا الجزّة الكثيفة

يا ذا الشعر الكثيف، الخلاّب مثل بلاد مصقول
يا... المتين، ذا الشعر الكثيف
أنتَ... المتين، ذا الشعر الكثيف
أنتَ في نظري تمثال ذهب حقيقي:
تحفة فنّان في معالجة الخشب
تحفة فنّان في معالجة المعدن[25]
بودي ان أضعك أمام تحدّ، يا حبيبي»

سبعة أسطر مفقودة....

«كنْ... سعادة!
كن ملكية مولّدة لأيام سعيدة!
كن عِيداً يجعل الوجوه مشرقة
كن معدن الشَبَه يزيّن اليد (التي تحمله)
يا مفضّل إنليل، أنت لي!
فليجد فيك قلب الهك تغاضبه!
تعال (قربي) في الليل! ابق (معي) الليل (بكامله)!
تعال (قربي) في النهار! ابق (معي) النهار (كله)!
فلمهد لك إلهك[26] الطريق
وليقم بتسويته لك حمله المعازق والقفف»[27]

الرجل ـ العسل

ورد تعبير الرجل ـ العسل بالسومرية في وصف الحبيب بمعنى الحبيب الفاتن والساحر والجذاب.

(....)
«أيها الرجل ـ العسل! الفاتن الذي يغمرني
بالحلاوة الى الأبد!
أيها الإله الأكثر سحراً بين الآلهة

(25) التماثيل القديمةكانت تصنع من الخشب المنحوت الملبس برقائق معدنية من ذهب او فضة...
(26) المقصود هو الاله الشخصي لدوموزي.
(27) حملة القفف لنقل المواد هم العاملون في مجالات البناء وهنا في تمهيد الطريق تسهيلا لمرور الحبيب.

يا حبيب ـ أمه، أنت لي!

أنت ذو اليدين الناعمتين والرجلين الجميلتي الشكل

أغمرني بحنّوك الى الأبد

أنت الذي بحيوية وإقدام، سحرت لي

سُرّتي (يا حبيب ـ أمه، أنت لي)

أي... ذو حلقات الشعر الجميلة: الخسّة[28]

التي تنمو قرب الماء!».

حوارية بين حبيبين

في هذه الحوارية بين الحبيبين وبين الحبيبة ومرافقاتها أو تابعاتها[29] متحدثة امامهن عن الحبيب وعن شوقها للقائه، نشهد إنانا «الأخت» تعدّد لنا تفاصيل استعداداتها وتبرّجها قبل قدوم الحبيب «الأخ» ولا تخفي عن مرافقاتها فرح جسدها بهذا اللقاء. وتسهيلاً لمتابعة، النص في انتقاله بين المتحاورين أضفنا في هوامشه اسم المتحدث وتوجّه الحديث:

الحبيب: ماذا عملتِ في دارك يا أختاه؟

ماذا عملتِ في دارك ياجميلتي؟

الحبيبة: استحممت واغتسلت

استحممت في البركة المتلألئة

واغتسلت في الحوض الأبيض!

وفي الحوض دلكت جسدي بالدهون

ثم اكتسيت بردائي الملكي، رداء ملكة السماء والأرض

ولهذا السبب احتبست في داري

ثم زينت بالكحل عينيّ

أما شعري الأشعث فقد لمعته على نقرتي

مشطت خصل شعري غير المرتبة:

أنا أعرف المِشبك(؟) ودبوس الشعر اللذين يعجبانه

على رأسي، رطّبت شعري المجعّد

وجمّلت جدائلي المشتّتة

(28) وفي مناسبات اخرى يشبه شعر الحبيبة المعقوص نحو الاعلى بالخسه.

(29) ما يوازي بنات اورشليم في نشيد الاناشيد.

لكي تغطّي نقرتي

ولبست في معصميّ أساور من فضة

كما ربطت حول عنقي عقداً من اللآلىء الصغيرة

وأصلحت في مقدمة رقبتي موضع الجوهرة المتدلية

وبعد كل هذه الاستعدادات تفتح الباب للحبيب الذي يدخل محملاً بالهدايا:

الحبيب: «يا أختاه (انظري) ما جلبته مما يلائم «عين ـ قلبك»[30]

(وفقاً) لقلبك، لقلبك الحبيب (انظري) ما جلبت:

أتيت بالأطايب بكميات من أجلك

يا أختاه، يا نور الكواكب ويا بهجة أمّها التي ولدتها:

أختي التي من أجلها أتيت بخمسة أرغفة

أختي التي من أجلها أتيت بعشرة أرغفة

وضعتها بترتيب جميل حول صورتك...»

الحبيبة: «عندما سيعود أخي من القصر

فليعزف الموسيقيون من أجله

وأنا سوف أسكب له الخمر

وبذلك سوف يبتهج قلبه

وسوف تملأ قلبه السعادة

احضرن، احضرن، احضرن القشدة كثيفة

والجعة مثمِلة»

الحبيب: «يا أختاه (انظري) ما أتيت به لعندك:

حِملان تضاهي جمالاً، تضاهي جمالاً النعجات

(انظري) اختاه، ما أتيت به لعندكِ:

جِديان تضاهي جمالاً، تضاهي جمالاً العنزات

(انظري) يا أختاه، ما أتيت به لعندك

نعم، حملان تضاهي النعجات بظرافتها

(انظري) يا أختاه، ما أتيت به لعندك

نعم، جديان تضاهي العنزات بظرافتها

(30) التعبير السومري وفق «عين ـ قلبك» يعني وفقاً لما تحبين او تفضلين.

انظري، يا أختاه ما أتيت به لعندكِ»!

الحبيبة: آه، كم هو منتفخ صدري

وأية فروة كست فرجي

لنكن سعيدات، أنا ألتحق بحضن حبيبي

سيّد الكرم والجود

ارقصن، ارقصن (جميعكن)!

قسماً بباؤ[31] لنكن مبتهجات من أجل فرجي

ارقصن، ارقصن (جميعكن)!

سوف تكون خاتمة (هذا اللقاء) جيدة

بل ممتازة من أجله».

أحْضِرن، أحْضِرن، احضرن القشدة كثيفة

والجعة مُثمِلة».

الى حديقته أدخلني دوموزي

«ادخلني اليها! ادخلني اليها

ادخلني أخي، الى حديقته

دوموزي ادخلني الى حديقته

أخذني معه حتى المظلّة

وجعلني أركن معه على زهراء مرتفعة

على الفور اتخذت وضعي تحت شجرة تفاح

بينما وصل أخي وهو يغني

وبينما كان دوموزي يتجه نحوي

يتجه نحوي اعتباراً من الظلّة السمراء لشجرة السنديان

يتجه نحوي تحت حرّ الظهيرة

سكبت من حضني أمامه الخضار

أنتجت له خضاراً وسكبتها أمامه

أنتجت له حباً وسكبت حباً أمامه».

(31) Bu'u المقصودة هي الالهة «باوا» Bawa الهة مدينة لغش ومن الصعب تفسير ذكرها في هذه المناسبة.

وفي نشيد آخر وصلنا في حالة سيئة، أمكن التعرف على مقاطع من نَفَس مماثل لما سبق حيث تذكر إنانا بأن الحبيب «وضع يده على يدها»، و«رجله فوق رجلها»، وضغط بشفتيه على فمها «وبعد ان «أخذ معها لذّته» قادها الى حديقته حيث كانت توجد «أشجار ذات جذوع عمودية». وأخرى «منحنية».

دوموزي يمازح شقيقته جيشتينانّا

«كانت تلك أيام كثرة وليالي وفرة،
أشهر رخاء وسنوات سعادة
عند ذلك، ومن أجل إدخال الفرح الى قلوب الناس
قرر الراعي دوموزي في قلبه النبيل
التوجه نحو الحظيرة لجعل البهجة تنوّرها
وتضىء كالشمس الحظيرة المباركة».

أريد الذهاب الى السهوب أي «قرينتي»
لزيارة حظيرتي الجميلة
والتعرّف على حالة قطعاني النبيلة
ولكي أقدم لنعجاتي ما تأكله
وإيجاد ماء بليل لتشربه

«ملأ الحظيرة بكل ما يلزم
وعمّت الحظيرة حركة (تأمين) الكثرة
ودوموزي وجيشتينانا تناولا عند ذلك
وقعة شهية
سكبا لأنفسهما العسل والسمن
وشربا الجعة والخمرة
ثم (قرر) دوموزي، الراعي دوموزي
قرر في نفسه، تسلية شقيقته».

جعل (دوموزي، النعجات) تدخل الحظيرة في رتل أحادي
عند ذلك، ركب حمل أمّه،

سَفَدها ونزا عليها
فقال الراعي لشقيقته:
انظري يا شقيقتي، ماذا عمل الحمل بأمّ!
وببراءة أجابته شقيقته
صعد عليها وها هي تثغو لذّه!
إذا ما ثغت لذة (قال دوموزي) بعد ان صعد عليها
فلذلك لأنه أغرقها بمنيّه
ثم بعد ذلك، عندما ركب جدي أخته سفدها ونزا عليها
قال الراعي لشقيقته
انظري يا شقيقتي، ماذا عمل الجدي بأخته
وأجابت شقيقته ببراءة
صعد عليها وها هي تثغو لذّة
إذا ما ثغت لذة (قال دوموزي) بعد ان صعد عليها
فلذلك لأنه أغرقها بمنيّه المخصب
(....)

تلي بعد ذلك عدة أسطر مشوّهة ومبهمة المعنى وتنتهي اللوحة بتعبير «قالت له شقيقته»....

العودة الى القصر

«كان حبيبي قد قدم للقائي:
فبلغ معي لذته وكنا سعيدين معاً!
كان أخي قد قادني الى داره
وجعلني أتمدد على فراشه الناعم المضمخ بالعطر
وعند ذلك تمدد حبيبي العذب فوق «قلبي»
وبضربة لسان بعد أخرى، وبـ (....) بعد آخر
ولكنه بعد ذلك، ويداه على خصريه
بعد ان أشبع شهوته، حبيبي العذب (قال لي)
دعيني اذهب يا أختاه، دعيني اذهب
بلى! أي أختي الحبيبة، أنا عائد الى القصر...»
(....)

الحب الذي أضاعه دوموزي

دوموزي يتغزّل بجسد حبيبته

«آه يا نزوتي، يا نزوتي، يا نزوتي المسيطرة
آه يا آسرتي، يا اسرتي يا مالكتي
أنتِ خمري المبهج، يا أحلى عسلي، يا «فم ـ
أمها» يا طليتي
نظرة عينيك تسحرني: تعالي يا أختي الحبيبة
كلمات الاستقبال على شفتيك تحرّك مشاعري
قا «فم ـ امّها» الطلي، ياطليتي
قبلات فمكِ تهزني: تعالي يا أختي الحبيبة
و«جعَتُكِ» المصنوعة من الحب ممتع شربها
يا «فم ـ أمها» الطلّي، ياطليتي!
ومنتشتكِ الـ...، لذيذة الطعم: تعالي
يا أختي الحبيبة
رشاقتك في دارك (تحرك عواطفي)
يا أختاه، رشاقتك (تحرك عواطفي)
يا «فم إمها الطلي، ياطليتي
تعالي يا أختي الحبيبة
مسكنك ثابت لا يتزعزع... يا «فم ـ أمها»
الطليّ، يا طليتي».

يا ابن الملوك، يا (أخي، يا ذا الوجه الجميل)
لقد أنقذتُ حياتك، لقد أنقذت حياتك
ولكن ها أنت أصبحت هدفاً لمصير في منتهى القساوة!
أنقذت لك حياتك خارج أسوار المدينة، أي أخي
ولكن، ها أنت أصبحت هدفاً لمصير في منتهى القساوة أنت الذي لم يستطع العدو بذاته رفع يده ضده!
ها أنت أصبحت هدفاً لمصير في منتهى القساوة!
أي (...)

آه يا حبيب (قلبي)
أنا التي بدون شك سبّبت لك هذا المصير القاسي
يا أخي، يا ذا الوجه الجميل
يا أخي، أنا بدون شك سببت لك مثل هذا المصير
القاسي، يا أخي، يا ذا الوجه الجميل
لقد وضعت يدك اليمنى على فرجي
وكانت يدك اليسرى تداعب شعري
وفمك كان ينضغط على فمي
وعلى فمك كانت شفتاي منضغطتين
ولهذا السبب، أصبحت هدفاً لمصير في منتهى القساوة!
هذا ما سيكون يا «ملتهم» (؟) النساء يا أخي
يا ذا الوجه الجميل
كم كان إغراؤك عذباً، يا حامل ـ أزهاري
يا حامل أزهاري

اغراؤك كان عذباً، في الحديقة يا حامل
ـ أزهاري
اغراؤك كان عذباً في حديقة شجر الميس
يا حامل ـ ثماري
يا دوموزي ـ أبزو... كم كان اغراؤك عذباً؟
يا صورة ذهبية لي، يا صورة ذهبية لي
كم كان اغراؤك عذباً
ياتمثالاً من المرمر متوجاً باللازورد، كم كان
اغراؤك عذباً

قصة شوبشي يشري شافان

أو

الصالح المتألم

المنتحل في التوراة تحت اسم

«أيوب»

1 ـ عرف هذا النص جزئياً، منذ عام 1875، إلا أنه في عام 1954 فقط، أُعلن رسمياً على أن محتوى كُسر لوحات فخارية عثر عليها في نفّر (مدينة انليل ـ نيبور ـ والعاصمة الدينية لسومر) يتوازى مع قصة أيوب التوراتية ويسبقها بأكثر من ألف عام.

2 ـ أمكن تجميع النص الذي نحن بصدده عن ست لوحات أو أجزاء لوحات، اثنتان منهما هما محفوظتان في متحف استنبول والأجزاء الأخرى في متحف فيلادلفيا. وشاءت الصدف ان تتكامل لوحتا متحف استنبول مع لوحتين من لوحات متحف فيلادلفيا، ما سهل على الباحثين التعرف على تفاصيل هذا النص المهم على الرغم من بعض النقص والتشويه.

3 ـ أطلقت على هذا النص منذ البداية تسمية مطلعه ومعناه «لامجدنَّ سيد الحكمة» كما عرف أيضاً تحت عنوان «العادل المتألم» أو «العادل المعذّب» وهو كما ورد في قصة أيوب يثير مشكله الألم والمرض والتساؤل عما إذا كان يحق للرجل العادل التقي الذي يتألم وتلم به المصائب ان يلوم الإله على مثل هذه المعاملة غير المستحقة؟ كما يتساءل إذا ما كان يحق للبشري الحكم على العدالة الالهية والشك فيها ويجيب النص بنفسه عن هذا التساؤل في تمجيده الأخير للإله مردوك والإلهة قرينته.

4 ـ والرجل العادل والتقي، الذي يجتاز بنجاح تجربة الألم وتحمّل المصائب وفقدان كل شيء، ورد اسمه في النص وهو على ما يظهر كان رجلاً مهماً في بلاط أحد ملوك بابل في نهاية الألف الثاني لما قبل الميلاد. ويتضح ذلك أيضاً من اسمي محاوريّه في هذه السردية واحدهما من نفّر والثاني من بابل، وهذان الاسمان هما معروفان بواسطة لائحة وصلتنا، عرفت بلائحة «كبار مثقفي الأزمنة القديمة» تشتمل على اسماء رجال المعرفة والعلم في ذلك الوقت.

5 - يشكو الرجل العادل في اللوحة الأولى من أنه فقد ثروته وممتلكاته ومركزه الاجتماعي وثقة الملك وثقة ذويه ومواطنيه وتحوّل الى فقر وازدراء لم يكن يستحقهما. ويصف في اللوحة الثانية الأمراض والآلام التي أصابته لدرجة جعلت عائلته تبكيه وتعدّ لدفنه.

وفي اللوحة الثالثة تظهر بارقة أمل بشفائه مكافأة على صبره وتقاه فتظهر له في ثلاثة أحلام متتالية شخصيات تعمل على تطهيره وتتوسط من أجله. كما يحمل اليه شخص رابع مرسل اليه من الاله مردوخ الغفران والوعد باستعادة الصحة ويتم ذلك فعلاً، ونشهد في النص عجائب شفاء التدخل الالهي وقدرة مردوخ على إحياء الأموات ولم يبق على الرجل العادل إلا الشكر وتمجيد الاله مردوخ والاشادة بعظمته وصنيعه أمام البابليين والحج الى معبد الايساجيل بيت مردوخ في بابل والطواف عبر أبوابه ونيل البركات ومراسم التطهير في مختلف المراحل وتقديم قرابينه البخورية وتضحياته الحيوانية دون التوقف أمام كل من مردوخ وقرينته عن الصلاة والابتهال والرجاء والدعاء.

6 - على الرغم من كون قصة أيوب التوراتية تحتوي على تفاصيل، تعيد مسرح أحداثها الى منطقة حدود الجزيرة العربية وبلاد ايدوم الفلسطينية التي كانت مشهورة بحكمائها ومن بينهم أيوب ومحاوريه الثلاثة، وهم أليفاز التيماني، ويَلدَدْ الشوحيّ، وصوفر النعماني والمتدخل الاخير وهو إيليهو من برخئيل البوزي من عشيرة رام، وهذه الاسماء هي كنعانية الأصول مثال داتل وكيريت الاوغاريتيين، فإن تبنيها من قبل التوراة اليهودية تم بعد انتهاء السبي، أي خلال القرن الخامس لما قبل الميلاد ويدل على ذلك أيضاً التأثر الآرامي في لغتها، كما يعتقد بوجود أكثر من مؤلف واحد وراء نص هذا السفر التوراتي الذي أدْخَلَتْ عليه المدرسة اليهودية تعديلاتها الخاصة. ونترك للقارىء مهمة التعرف بنفسه على النص التوراتي او إجراء بحث لا يدخل في مجال هذا الكتاب.

اللوحة الأولى

1 لأمجدنّ سيد الحكمة، الاله (العليم)
أنت الذي تقهر الليل وتنشر أنوار (النهار)
مردوخ، سيد الحكمة الاله (العليم)
الذي يقهر الليل وينشر أنوار النهار
ولكن مثل نسيم الصباح نعمة نفيسة
5 وهو الذي مثل دوّار عاصفه يلفّ بغضبه كل شيء

لا يقاوم احتدامه، ومثل طوفان غضبه
ولكن قلبه يتحول دائماً وتعود اليه طيبته
وهو الذي لا قدرة السماوات على تحمّل لطمة يديه.

10 ولكن راحته مهدّئة وهي تحيي الأموات [1]
(.......)[2]
آلهي أهمَلَني وغاب الى الأبد
إلهي تحوّلت وابتعدت (عني)!

45 و(عني) افترق الملهم الخيّر الذي كان يرافقني
وهرب ملاكي الحارس مفتشاً عن غيري
سلبت مني حيويتي واعتمّ مظهر رجولتي
ذهبت صحتي الجيدة، ودفعة واحدة،
رُفعت عني كل جماية!
وعندما تعرّفت على إشارات مخيفة تمثلت أمامي

50 غادرت بيتي وفي الخارج، مشيت هائماً على وجههي.
المنذرات لدى استشارتها، كانت مليئة
بالاضطراب وأيامي كلها ملتهبة
تركت العرّاف ومفسّر الأحلام ولم أكن عند ذلك
أكثر معرفة للطريق الذي عليّ ان أسلك
والكلمات التي سمعتها في الشارع، كانت نذير
شؤم من أجلي،[3]
مخيف هو حلمي، عندما أنام ليلاً

55 والملك (نفسه)، الكائن الالهي[4] وشمس شعبه
لسوء طالعي، لم أستطع تهدئة غضب قلبه
رجال البلاط، لا يكفوّن عن مراكمة العداء ضدي
يجتمعون ليتبادلوا فيما بينهم اشياء لا يحسن قولها
كان يقول الأول: «سوف أقفي على حياته»[5].

---

(1) بمعنى تشفي المريض المشرف على الموت.
(2) مطلع اللوحة مشوه. ولا يزال هناك نقص حوالي 30 سطرا.
(3) الكلمات المسموعة صدفة في الشارع تستعمل العرافة.
(4) حرفيا: جسد اله.
(5) حرفيا: سوف اسكب حياته او بتعبير اصح ارهق حياته.

60 ويصرخ الثاني: «سوف أفقده مركزه»
وأما الثالث (فيقول): «سوف أستولي على
ما أسند اليه»
«سوف أنفذ الى بيته» يعلن الرابع
أما الخامس: «سوف أضرّب (....)
والسادس والسابع ضايقا ملاكي الحامي (؟)[6]
65 عصابة السبعة [7] جنّدت قواها
ومنعدمو الشفقة مثل الشيطان ـ آلو،
انهم يشبهون (....)
انهم جسم واحد وليس لهم سوى فم واحد
موجه ضدي، الحقد في قلوبهم ويلتهبون
مثل نار الغضب
والمنحة (الوحيدة) التي ينعمون بها عليّ هي
الاستغابة والنميمة
70 ولساني الذي كانت الثقة تميّز تمكنوا من لجمه
أنا الذي كانت شفتاي سهلة الحديث، أصبحت
مثل أصم ـ أبكم
ونداءاتي التي كانت مرفوعة الصوت أجبرت على الصمت.
رأسي الذي كنت أحمله عالياً، إنحنى حتى الارض
وقلبي الممتلىء قوة، اضعفه الرعب.
75 صدري العريض، يستطيع (اليوم) طفل[8] دفعه
ذراعاي المملوءتان نشاطاً، شلتا الواحدة تلو الأخرى
وأنا الذي كنت أتنقّل متبختراً كسيّد، تعلّمت
أنا أسير متستراً بالجدران
من السيد الرائع الذي كنته تحوّلت الى عبدٍ،
أصبحت أعيش في عزلة عوضاً عن عائلتي الكبيرة

(6) هو الاله الشخصي الذي كان يعتقد انه يرافع كل بشري ويتوسط من اجله.
(7) هم فرقة إيّرا التخريبية.
(8) حرفيا: ممتهن مبتدىء.

80 الأصابع توجه نحوي، عندما أسير في الشارع
وحين أدخل الى القصر تتغامز الأعين بصددي
المدينة بقساوة، تنظر اليّ كعدو
وكأنه خضم لي، لم يعد بلدي سوى سورة غضب
وأخي مثل غريب تحوّل عني
85 و«تحول» رفيقي الى شرير وإلى شيطان
وغضب صاحبي لا يتوقف عن اتهامي،
وزميلي، يشهر دوماً سلاحه (في وجهي)
واعزّ اصدقائي يريد اختصار حياتي
وعلانية، وفي قلب المحكمة لعنني عبدي
90 وأمام جمهور، روت خادمتي (عني) اشياء مشينة!
وعندما يراني أحد معارفي، فإنه يبتعد عني!
وتعاملني عائلتي، كأني لم أكن من لحمها!
الذي يتحدث عني بلطف، تعدّ له حفرة (قبره)
ويُرفع الى القمة من يعلن المخازي بصددي
95 يُعين الإله من يتحدث عني بأقوال لا يستحسن قولها
ولكن الذي يتشفع لي، يستعجل الموت طريقه اليه
وأما الذي يردّد المخازي بشأني، فملاكه الحارس
يحتفظ له بصحة جيدة
ولم أجد أحداً يرافقني، ولم أرَ أحداً يشفق
على حالي.
ووُزع كل ما كنت أملك على العوام والرعاع
100 (..........)
طردوا من حقولي الإلالا[9]، نشيد (الحصادين) المبهج
ومثل نطاق عدو، أحالوا الى الصمت مُلكي
جعلوا شخصاً آخر يأخذ مكاني في الطقوس المقدسة
وسمحوا لغريب إقامة طقوسي
105 لم يعد النهار غير تحسّر والليل شاغله النحيب

(9) (Alala) هو وقع نشيد الحصارين المبهج.

الشهر كله أنين والسنة بكاملها يملؤها الأسى
طول أيام حياتي أنوح مثل حمامة
(وعوضاً) عن الانشاد أصرخ عالياً شكاوي
عيناي دوماً (في حال) البكاء دون توقف
110 وقد أحرقتُ دموعي (المتواصلة) وجنتي
و(يظهر) على وجهي ما ينذر به قلبي
ولم تعد (تقاطيع وجهي) تعبّر إلاّ عن الخوف و(الرهبة)
(..........)

اللوحة الثانية

1 الزمن المحدد[10] مرّ من هذه السنة الى السنة التالية
وأنّي حوّلت (وجهي) فهناك مصيبة تليها مصيبة
الشرّ يتفاقم حولي، ولا أجد أي بارق لعدالة
صرخت متوجهاً نحو الهي، ولكنه صدّ عني وجهه
5 رجوت إلهي ولكنها لم ترفع رأسها
العرّاف لم يتمكن في تكهّنه من تقرير مستقبلي
وعلى الرغم من إراقته قربانه السائل[11]، فإنّ
مفسر أحلامي لم يتمكن من كشف سبب لحالتي
توسلت الي روح[12] الأموات، فلم يعلمني[13] شيئاً
كما ان المعزّ في تدخله لم يحل عقدة
الغضب الآلهي صندي
10 كم هي غريبة حالته، يقال من حولي في كل مكان
وإذا ما نظرت خلفي، فلا أرى غير الاضطهاد
والاضطراب.

(10) او الزمن المرتقب، المأمول ان تزول معه المصائب وسوء الطالع.
(11) اي الزيت او الخمر.
(12) ان هذه الكلمة. (طيمو الاكدية) تشمل: ما ليس له في البشر اساس مادي، ويبقى بعد الموت الجسد. ولا نرى افضل من هذا التفسير الذي يقدمه لنا مؤلف هذا النص للتعبير بلغة العصر عن كلمة «روح» التي اعتمدناها. مع ان كلمة نَفْش (nphs) «نفس» هو مستعمل في الاكدية وهو يوازي روح او «رح».
(13) حرفياً: لم يفتح لي اذن.

مثل شخص لم يقدم قرابينه السائلة[14] الى إلهه
أو مثل شخص لم يناد إلهته لتناول وقعة طعامها
ولم يحنِ وجهه أو لم يسجد علانية.
15 مثل شخص توقفت في فمه الأدعية والصلوات،
أو أغفل يوم الاله وأهل الأعياد الشهيرة،
وبسبب اهماله نسي اقامة طقوس الآلهة،
ولم يعلّم أهله خشية الآلهة واحترامها
أو باشر تناول طعامه قبل ذكر إلهه
20 أو ترك إلهته دون أن يقدّم لنا قربان الطحين
ومثل شخص، وبشكل جنوني، نسي إلهه
أو أقسم بخفة وبلا تواضع باسم إلهه
قائلاً هوذا أنا صاحب الأهمية
مع أني بشكل عفوي، بالأدعية والصلوات:
كان الدعاء بالنسبة لي حكمة، وكانت
التقدمات شرعتي
25 يوم تبجيل الإله كان يوم بهجتي
ويوم تطوف الإلهة كان كسباً وفائدة لي
وكنت أجد كل فرحي في الصلاة من أجل الملك
وكانت سعادتي في الاستماع الى الموسيقى
الموجهة اليه
عوّدت بلدي على احترام طقوس الإله
30 وعلّمت أهلي على محبة اسم الإلهة
وجعلت مديح الملك يماثل تسابيح الإله
وعلّمت الشعب خشية القصر
وكنت أعتقد حقاً ان كل ذلك كان
مرضياً للإله
ولكن ما هو حسن لنا، هل يكون إذن

(14) يقصد الزيت او الخمر.

مسيئاً للإله

35 وهل ما تكرهه أنفسنا يمكن أن يكون

مرضياً للإله!

من الذي يمكنه التعرف على إرادة الآلهة

في السماء

ومن يستطيع تفهّم المقاصد الإلهية

في الأعماق السحيقة؟

أين يمكن للبشر، معرفة طرق الإله؟

مثال من كان البارحة يتمتع بوافر الصحة

وهو اليوم في نزعه الأخير.

40 ومثال من كان منكمداً فجأة ثم يسترجع

ابتهاجه دفعة واحدة

ولزمن عطسة، ينشد لحناً مفرحاً

وفي الخطوة التالية يتفجّع مثل نائح.

الناس في لمحة بصر، يُبدّلون رأيهم.

انهم كالجثث حين يجوعون

45 ولئن أتخموا يريدون مضاهاة الآلهة

يتحدثون عن بلوغ السماء في سعادتهم

يشكون عند الألم بأنهم ينزلون

الى العالم السفلي

أسائل نفسي أمام هذه (التناقضات)

دون التعرّف على مغزاها العميق

وأنا، المرهق تعباً، فإن عاصفة

تلاحقني

50 استولى عليَّ مرض موهن

وهبّت نحوي ريح شريرة من أعماق الأفق

ومن سطح العالم السفلي انتشرت نحوي

الحمّى دي ـ أو[15]

(15) di - ou يعتقد انها حمى الجدري.

ومن (مكمته) في الأبسو[16] خرج الزكام السيء
ومن الايكور[17] ظهر فجأة اوتوكّو
الشيطان الذي لا يقاوم
55 ونزلت الشيطانية لاماشتو من قلب الجبل[18]
وكأنه من فيض (النهر) جاءت القشعريرة المثلِجة
ومع الخضرة نبت السقم على الأرض:
كل هذه الأوجاع (مجتمعة) اقتربت مني،
أصابت رأسي وشدّت على جمجمتي،
60 كمد (وجهي) وسالت عيناي،
امتدت الأوجاع الى عنقي وشلّت رقبتي
ثم أصابت صدري وضربت ثديي،
عذّبت جسدي وأوقعتني في التشنجات،
وفي الجهة العلوية من بطني، أشعلت ناراً،
65 قَلَبَت أحشائي، وجعلت اعضائي (تضطرب)
مما أسال ريالي، ونقل الحمى الى رئتيّ
كما أصابت الحمى أعضائي، وجعلت شحمي يرتجف
هدمت الأوجاع قامتي العالية (فانهارت) مثل جدار
ومثل عود قصب محنّي، أناخت علي منكبيّ العريضين
70 أنا متهالك مثل عشب مطويّ وتمددت منبطحاً ووجهي على الأرض
دخل الشيطان آلو جسدي وارتداه مثل كساء
كما غمرني الخدر وكأنه الشبكة،
تنفتح عيناي ولكنهما لا تريان
أذناي مفتوحتان ولكنهما لا تسمعان[19]
75 تملّك الشلل كل جسدي
وسقطت الصدمة على بشرتي

(16) Apsu محيط المياه العذبة الباطنية ومقر الاله إيا.
(17) E - kut بمعنى بيت الجبل ويشير هنا الى العالم السفلي.
(18) المقصود بالجبل العالي السفلي.
(19) انظر سفر ارميا (5: 21) في: الذين لهم أعين ولا يبصرون، لهم اذان ولا يسمعون.

واستولى التصلّب على ذراعي،
وجاء انتشار التفسّخ متلفاً ركبتي
ونسي قدماي انهما كانا يمشيان
80 هجمت عليّ نوبة، وفجأة أنا أختنق
الموت (هنا حاضر) وقد غطى وجهي
لم أعد أجيب مفسّر الأحلام عندما
يهتم بحالتي
(عائلتي) تبكيني. فقدت وعيي
وُضعت كِمامة على فمي
85 ومزلاج يغلق على شفتي
«بابي» ممترس و«نبعي» موصد عليه
طاتل عدم تقبّلي للطعام وانسدّ حلقي
لئن أُعطيت حَبّاً، فكأنني أبتلع نتانة
والجعة، المحببة للبشر صارت، ممجوجة بالنسبة إليّ
90 وبالإضافة الى ذلك فإن مرضي طال زمنه
وبسبب نقص الغذاء، تبدّلت تقاطيع وجهي
استرحى بدني وانسكب دمي
وارتسمت عظامي تحت جلدي الذي وحده كان يغطيها
والتهبت عضلاتي لأنها أصيبت بمرض الاوريقتو
95 طُرحت في فراشي وكأنه السجن لم يعد (الخروج)
يمثّل سوى أنيني،
وإلى معتقل تحوّل بالنسبة لي بيتي
صار جسدي غلاف شوائب، (حيث)
توقفت حركة ذراعيّ،
أصبحت أنا نفسي سلاسل كبّلت رجليّ
مؤلمة الصدمة التي أصابتني والجرح
الذي سبَّبتْه خطر
100 لسعني سوط مملوء شوكاً
والمنخس الذي طعنني كان ذا رؤوس حادة

طول اليوم مضطهد يعذّبني
وفي الليل لا يترك لي لحظة لأتنفّس
الاضطراب الذي أنا فيه، عطّل حركة عضلاتي
105 أطرافي المقطّعة الأوصال ممدودة في جهة أخرى،
في مزبلتي، مثل ثور أمضيت لياليّ
ومثل خروف تمرّغت في البراري
أخافتْ أعراض مرضي معزّمي
وجعلت منذرات فألي السيئة عرّافي يضطرب؛
110 لم يستطع المعزّم كشف طبيعة مرضي
ولا الصرّاف تمكن من وضع حدّ لآلامي
وللمرة الثانية (أتاني حلم)،
وفي الحلم الذي رأيته (تلك الليلة)،
(ظهر أمامي) كاهن مكلّف بالتطهير[20]
وكان يمسك بيده غصن الطرفاء[21] المُطَهِّر
25 «لال ـ أور ـ آليما»[22]، المكلف بالتطهير في نفّر[23]
أرسلني اليك لتطهيرك»
(سكب) عليّ الماء الذي كان يحمله
ثم تلا تعويذة الحياة[24] ودلك لي جسمي.

الحلم الثالث:

وللمرة الثالثة رأيت حلماً
30 وفي الحلم رأيت في تلك الليلة
فتاة جميلة المظهر
ملكة الشعوب، الشبيهة بإلهة
دخلت عليّ وجلست (قرب فراشي) (قلت لها):

---

(20) الكاهن المكلف بتطهير المكان او الاشخاص.
(21) غصن الطرفاء يستعمل في التطهير اذ يرش بواسطة الماء المقدس.
(22) lad-our-alimma يحافظ النص هنا على الشكل السومري للأسم كما هي العادة في فترة الاحتلال الكوشي حوالي (1550 . 1300 ق.م) التي عرفت نشاطاً ثقافياً كبيراً.
(23) nippur مدينة انليل التي كانت لها الزعامة الدينية في الفترة السومرية.
(24) اي التعويذة التي كان المريض او الميت يدعى بواسطتها الى الحياة.

«اطلبي الرحمة من أجلي، (أنا الذي لا تحتمل (آلامي)

35 ـ «لا تخش شيئاً[25]، قالت لي، (سأتشفع لك)...».

ثم قالت: «الرحمة لمن أمله كأملك،

أيّاً كان، والذي خلال الليل أتته هذه الرؤيا»

وفي الحلم (ظهر أيضاً) اور ـ نيندين ـ لوجّا[26]

البابلا (لمي (؟))

40 شاب ملتح وعلى رأسه (عمامة)

إنه معزّمٌ في المملكة ويحمل بيده لوحة

«مردوخ» بالذات قال لي، أرسلني لأقول لك:

«الى شوبشي ـ ميشري ـ شاكّان أحمل اليسر»

45 هكذا عهد بي (مردوخ) للمكلف بشفائي...

(وفي) حالة اليقظة، وجّه اليّ رسالة منه،

إذ أعطى أهلي اشارة واضح منه لمنح نعمته

(فانتشلني عاجلاً) من السوء الذي طال أمده

وانتهى فجأة مرضي، وكسرت (قيودي)

50 وبعد ان (ارتاح) قلب إلهي

وبعد ان هدأت روح مردوخ الرحيم

واستمع الى توسلاتي (تقبّل صلواتي)

(وعبّر بصددي) عن تبد(يل) موقفه الى الرفق بي

54 فمنحني نعمته، أنا الذي طالما برّح بي الألم

السطران (55 و56) مشوهان وقد أهملا كلية. أما الأسطر (57 - 59) فقد أعطي بصددهما وبشكل تقريبي المعنى العام.

57 (فحلّ عقدة الخطايا التي كنت ارتكبتها....)

و(أبعد) العقاب الالهي، الذي (تحملته...)

و(غفر) لي التجاوزات التي (كنت ارتكبتها...)

---

(25) هو التعبير الذي يستعمل عادة في بداية كل تدخل الهي.

(26) Shubshi - Meshre Shakkan هو اسم الرجل العادل المريض والمتألم.

60 وجعل الريح تحمل جميع هفواتي

وتساعد كسرة اللوحة المسجلة تحت رمز (55 - 81) للتعرّف على تدخل الإله مردوخ لشفاء الرجل العادل من أمراضه الواحد تلو الآخر.

(......................)

وضع (بالقرب) مني التعويذة التي تقيّد (المرض)

5 وطرد (بعد ذلك) الريح الشريرة حتى أعماق الأفق[27]

ومن على سطح العالم السفلي جعل (الحمّى دي.. أو) تختفي

وإلى مكمنه في الابسو[28]، جعل الزكام السيء ينزل،

وأرسل الى الايكو[29]، الشيطان

اوتوكّو الذي لا يقاوم

كما طرد حتى بلوغ الجبل الشيطانة لاماشتو

وإلى النهر في فيضانه وإلى البحر أودى

بالقشعريرة المثلجة،

10 ثم اقتلع مثل عشبة جذور التفسّخ

وأجبر الخَدَرَ الشرير الذي كان يستولي على نومي

على التبدد مثل دخان يملأ السماء

«مصائبي» و«تأوهاتي» (........)

جعلها مثل ضباب تنهض ثم (تختفي في) الأرض

وألم الراس المتواصل الذي كان

يثقـ (لني مثل سحاب (؟)).

15 فقد أسقطه كما ينزل ندى الليل وطرده من فوقي

وعيناي المعميتان اللتان انسدلت عليهما رواسب الموت

عاد اليهما وضوح الرؤية عندما أبعد الرواسب

الى بعد 3600 (مسافة)[30]

---

(27) هذا السطر وما يليه، هو نص جوابي اي مكمل لما ورد في اللوحة الثانية الاسطر (51 - 55).

(28) Apsou محيط المياه العذبة الباطنية.

(29) E. kur بمعنى بيت الجبل وهنا بمعنى العالم السفلي.

(30) لم يشر النص المعتمد الى التسمية الاكادية للمسافة. وقد استعملنا لها تعبير فرسخ في مناسبة اخرى، النص رقم 74.

وأذناي اللتان كانتا مسدودتين ومسطومتين
(مثل أذني) أصمّ ـ أبكم
نزع منهما أفّهما وفتح لي سمعي
20 وأنفي الذي كان بسبب استمرار الحمّى
مختنفق التنفس،
أسْكَنَ إصابته لكي أتنفس (بارتياح)
ومن على شفتي اللتين كانتا لاهيتين[31] وأصيبتا بـ (......)
مَسَح الرعب وحلّ عقدة التقلّص؛
وفمي الذي كان مغلقاً وغير
قادر على الحديث؛
25 نظّفه كما ينظف النحاس وأعاد اللمعان الى كمده
وأسناني التي كانت محشورة ومتقلّصة مثل كتلة
فتحها بمباعدتها و(حرّر) جذورها
ولساني الذي كان مشنّجاً وغير قادر على الحركة
فقد نظفه من دَنَسه(؟) واستعاد لساني طلاقته
30 وحلقي[32] الذي كان منسداً وكان
يختنق لانسطامه
فقد أعاده الى حالة (جيدة) وأصبح صدره[33]
يغني مثل ناي؛
وقاعدة لساني التي كانت منتفخة وما عادت تتلقى (الهواء)
اختفى عنها قدرها [34] وإنفرج حصارها
(...........)

يتوقف هذا المقطع بعد بعض الأسطر المشوّهة أمام فقدان تتمة هذاالجزء من اللوحة. وهناك بقايا لتدّخل الإله مردوخ يمكن تقديمها فيما يلي بشكل منعزل ودون ترقيم، مأخوذة عن كسرة لوحة ترتبط بمحتوى النص.

---

(31) حرفيا بمعنى مسعورتين (؟)
(32) او قصبة تنفسي.
(33) صدر المريض او صدر القصبة.
(34) طبقة تعلو اللسان في بعض الامراض.

وهنا، الرجل العادل هو المتكلم:

(..........)

وعلى ضفاف النهر (القاضي) حيث يتقرر الحكم على الناس[35]

تمّ تدليك جبهتي وحُررت من عبوديتي[36]

واجتزت بعد تحرري الطريق كونوش ـ قادرو....[31]

وعلى الذي ارتكب خطيئة ضد الايساجيل

ان يتعلم من مثالي[38]

مردوخ هو الذي كمّ فم الاسد الذي كان يفترسني

مردوخ الذي انتزع مقلاع من كان يطاردني

وأعاد اليّ حجره

(..........)

اللوحة الرابعة

القسم الأول من هذه اللوحة إما مشوّه أو مفقود.

(............)

شاهد البابليون كيف (مردوخ) يعيد الحياة

30 وفي جميع المناطق، مجّد البشر عظمته:

من هو الذي قال بأنه سيرى شمسه؟

ومن الذي بمقدوره التفكير بأنه سيذهب

الى نهاية طريقه؟

من غير مردوخ يمكنه احياء (أحد)

من حالة موته؟

35 مردوخ يمكنه من القبر إعادة الحياة،

وتعرف زربانيتو[39] كيف تنقذ من الكارثة

---

(35) يذكر هذا السطر بالاحتكام الى النهر للمقاضاة.

(36) حرفياً من خصلة لاشعر الابوتو التي كانت ترمز الى حالة العبودية.

(37) كونوش. قادرو، وهو اسم طريق الطواف في بابل ومعناه الاكادي «احن رأسك ايها القادر» وحافظت العربية على فعل كنش في: كنش المسواك اي ليَن رأسه.

(38) حرفيا ليشاهدها في يدي.

(39) زربانيتو: قرينة الاله مردوخ.

أنّي تتبسط الأرض وتمتد السماوات
وأنى تتألق الشمس وتشتعل النار،
وأنّى يجري الماء وتنفخ الريح.
فالذين ذبَّحتهم آرورو[40] من الصلصال البدئي[41]
المخلوقات الذين مُنحوا الحياة ويسعون[42]
أيها البشر في كل الأحوال، انشدوا
مجد مردوخ.
(.............)

بعد نقص حوالي ثلاثين سطراً يتابع خلالها الرجل العادل كما هو مرجّح إنشاد المدائح لمردوخ ولقرينته زربانيت. وعندما يستأنف النص، يذكر الرجل العادل طوافه للشكر في معبد الايساجيل[43] في بابل واستكمال استعادته للصحة والسعادة.

(.............)
(في متابعة) السجود والرجاء، (ذهبت
الى الايساجيل[44]
(أنا الذي كنت نزلت الى القبر، وعدت الى
بوابة - شمـ(س - الشروق)[45]
على بوابة - الرخاء، (أعيدت اليّ) الوفرة
80 وعلى بوابة - الملاك - الحارس[46] عاد (لقربي)
ملاكي الحارس
وعلى بوابة - الخلاص، وجدت خلاصي،
وعلى بوابة - الحياة مُنحت هبة الحياة.
وعلى بوابة - شمس - الشروق عُدت
(من جديد) من بين الاحياء؛

(40) Aruru إلهة - أم خلقت البشر من الصلصال.
(41) حرفياً: قرصت قطعة صلصال.
(42) حرفياً: تتحرك ارجلهم.
(43) Esagil معبد الإله مردوخ في بابل ومعناه: البيت ذو الرأس الشامخ.
(44) إسم احدى بوابات معبد الإيساجيل في بابل.
(45) إسم احدى بوابات معبد الإيساجيل في بابل.
(46) هو الإله الشخصي الذي يرافق كل فرد ويتوسط من أجله ويتشفع له أمام الآلهة.

وعلى بوابة ـ وضوح ـ النذير، توضحت
المنذرات بصددي
85 وعلى بوابة ـ حل ـ الخطايا، غُفِرت
لي خطاياي
وعلى بوابة ـ المدائح، تمكن فمي من السؤال
وعلى بوابة ـ وقف التحسر، توقف تاوهي
وعلى بوابة ـ الماء، رششت
نفسي بالماء المقدس
وعلى بوابة ـ الخلاص، التقيت بمردوخ
90 وعلى بوابة ـ منتهى ـ الكمال
قبلت رجل زربانيتو
ولم أتوقف أمامهما عن الصلاة
والرجاء والدعاء
وضعت أمامي البخور ذا الرائحة الذكية
كدست الهدايا والقرابين والهبات
ضحيت بثيران سمينة وذبحت خرفاناً وازنة(؟)
من الجعة الممزوجة بالعسل والخمر الصافي
وإلى ملهم الخير، وإلى الملاك الحارس
وإلى المساعدين الإلهيين ضمن جدران الايساچيل
بواسطة تقدمات (غزيرة) نوّرت مزاجهم
وبواسطة موائد طعام وفيرة
أبهجت قلوبهم
(................)

الأسطر الثلاثة الأخيرة مشوّهة.

سفر
نشيد الأناشيد التوراتي

هذا سفر ينسب تأليفه الى سليمان، واسمه في العبرانية شير هَشّيريم أي أغنية الأغاني أو أعظم الأغاني وأشرفها. وهو في الفاظه يشبه غزلاً عشقياً بين حبيب وحبيبته، ولذلك كان عند اليهود محرمة قراءته على الأحداث. والكنيسة المسيحية أيضاً تأمر أولادها ان يقرأوه بتحفظ جزيل وبطهارة النيّة.

الاصحاح الأول

1 ـ نشيد الانشاد الذي لسليمان. ليقبلني من قبلات فمه. فإنّ ثدييك أطيبُ من الخمر.

2 ـ لأريج أطيابك الذكية. اسمك دهنٌ مهراق. لهذا أحبتك العذارى.

3 ـ اجذبني وراءك فنسعى. أدخلني الملك خزانته. نبتهج ونفرح بك. ونذكر ثدييك أفضل من الخمر. بالصواب احبوك.

4 ـ يا بنات اورشليم انا سوداء وجميلة. كمساكن قيدار. مثل شقَق سليمان.

5 ـ لا تَنظُرْنَ اليّ لأنّي سوداء. لأنّ الشمس قد لوّحتني. ابناءُ أمي غضبوا عليّ. جعلوني في الكروم ناطورة. وما نظرتُ كرمي.

6 ـ أخبرني يا من أحبته نفسي. أين ترعى أين تربض في الظهر. لماذا أنا أكون كالمتلثمة وراء قطعان أصحابك.

7 ـ أيتها الجميلة في النساء. إنْ لم تعرفي ذاتك. فاخرجي في أعقاب الغنم. وارعي الجداء التي لك عند مساكن الرعاة.

8 ـ لقد شبهتكِ يا حبيبتي بفرس في مركبات فرعون.

9 ـ ما أجمل وجنتيكِ بالسُمُوط وعنقك بالقلائد.

10 ـ نعمل لكِ سلاسل من ذهب بجمان من الفضة.

11 ـ إذ كان الملك في مضجعه. النردين الذي لي أفاح نسيم طيبه.

12 ـ صرّة مرٍّ حبيبي هو لي. يبيت في ما بين ثَدْيَيَّ.

13 ـ طاقة فاغية حبيبي هو لي في كروم عين جدي.

14 ـ ها أنتِ يا حبيبتي جميلة. ها أنتِ حسنة. وعيناك حمامتان.

15 ـ ها أنت جميلٌ ياحبيبي وحلوٌ وسريرنا مزهر.

16 ـ جوائز بيتنا أرز. وروافدنا شربين.

الاصحاح الثاني

1 ـ أنا زهرة البقعة. وسوسنة الأودية.

2 ـ كالسوسنة بين الشوك. هكذا حبيبتي بين الفتيات.

3 ـ كتفاحة في شجر الغيضة. هكذا حبيبي بين الفتيان. تحت ظلّه اشتهيت ان أجلس وثمرته حلوة في حلقي.

4 ـ أدخلني الى بيت الخمر. وعَلَمَه عليّ محبة.

5 ـ أسندوني بالزهور. انعشوني بالتفاح فإني مريضة من المحبة.

6 ـ شماله تحت رأسي. ويمينه تعانقني.

7 ـ استحلفكن يا بنات اورشليم بالظباء وبغزلان البراري. ان لا توقظن ولا تنبهّن الحبيبة الى ان تشاء هي.

8 ـ صوت حبيبي. ها هوذا يجيء وهو يطفر على الجبال ويقفز على التلال.

9 ـ حبيبي هو شبيه بالظبي أو بخِشْف الأيل. هاهو ذا قد وقف وراء حائطنا مستشرقا من النوافذ مُوصوصا من الشبابيك.

10 ـ فأجابني حبيبي وقال: يا حبيبتي انهضي وتعالي ياجميلتي.

11 ـ فها ان الشتاء قد مضى والمطر ذهب وزال.

12 ـ الأزهار ظهرت في أرضنا. وقد بلغ أوان التغريد. وصوت اليمامة في أرضنا.

13 ـ التينة أخرجت فجاجتها. وسَرْع الكروم أفاح عَرْفه. انهضي ياحبيبتي. ياجميلتي وهلمّي.

14 ـ يا حمامتي في أكناف الصخر في خفاء الكهوف أريني وجهكِ واسمعيني صوتك. لأن صوتك لذيذ ووجهك جميل.

15 ـ اصطادوا لنا الثعالب. الثعالب الصغار المفسدة الكروم. لأن كرومنا قد أقلعت.

16 ـ حبيبي لي وأناله. الذي يرعى في السوسن.

17 - الى ان يهيّب النهار. وتنهزم الظلال. أرجع أنت شبيهاً ياحبيبي بالظبي وبخِشف الأيل على الجبال المشعَّبة.

الاصحاح الثالث

1 - في الليل على مضجعي طلبتُ من أحبته نفسي طلبته فما وجدته.

2 - فأنهضُ وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع. أطلب من أحبته نفسي. طلبتُه فما وجدتُه.

3 - فوجدني الحراس الذين يطوفون المدينة. فقلت: أرأيتم من أحبته نفسي.

4 - فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من أحبَّته نفسي. فأمسكته وما خلّيته الى ان أدخلته الى منزل أمي وإلى خزانة من حبلت بي.

5 - أقسمُ عليكن يا بنات اورشليم بالظباء وبغزلان الحقل ان لا توقظن ولا تنبّهن الحبيبة الى ان تشاء هي.

6 - من هذه الصاعدة من القفر. كأنها عمود بخور من طيوب ومرّ وكُنْدُرٍ ومن جميع ذرائر العطَّار.

7 - ها سرير سليمان. وحوله ستّون بطلاً من أقوياء اسرائيل.

8 - كلهم ماسكون سيوفا. ومتعلّمون الحرب. كل رجل منهم سيفه على فخذه من الأهوال التي في الليل.

9 - سليمان الملك عمل له عمارته من خشب لبنان.

10 - فعمل عُمُدها فضّة. ومتكأها ذهبا. وجلالها ارجواناً. وباطنها مرصّعاً. محبة من بنات اورشليم.

11 - يا بنات صهيون. اخرجن وانظرن الى سليمان الملك وإلى الأكليل الذي كلَّلته به أمّهُ في يوم عرسه وفي يوم سرور قلبه.

الاصحاح الرابع

1 - ها أنتِ جميلة يا حبيبتي. ها أنتِ جميلة. عيناكِ كحمامتين من تحت نقابكِ. شعركِ كقطيع معزٍ رابض على جبلِ جلعاد.

2 - أسنانك كقطيع الجزائر الصادرة من الاغتسال. التي هي كلها متئمة. وليس فيها عقيم.

3 - شفتاك كسلكة قرمزية. وفمك حلوٌ. وخدّك كفلقة رمانة تحت نقابك.

4 - عنقك كبرج داود المبنيّ بالمحاصن المعلَّق اليه ألف ترس وكلها أسلحة الأبطال.

5 - ثدياك كخشفي ظبية توأمين يرعيان في السوسن.

6 ـ الى ان يفيح النهار وتنهزم الظلال سأمضي الى جبل المرّ وإلى تلّ الكُنْدُر.

7 ـ كلك جميلة ياحبيبتي. وليس فيك عيب.

8 ـ تعالي معي من لبنان يا عروستي. معي من لبنان. انظري من راس الأمانة من راس ساتير وحرمون. من صيرَ الأسود، من جبال النمور.

9 ـ قد سبيتِ قلبي يا أختي العروس. قد سبيتِ قلبي باحدى عينيك، بقلادة واحدة من عنقك.

10 ـ ما أهنأ محبتكِ يا أختي العروس. لكم محبّتُك أطيب من الخمر. ورائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب.

11 ـ شفتاكِ يا عروس تقطران شهداً. تحت لسانك عسل ولبن. وطيب نسيم ثيابك كنسيم لبنان.

12 ـ جنة مغلقة أختي العروس، عين مقفلة. ينبوع مختوم.

13 ـ أغراسكِ فردوس رمان ذو ثمر نفيس من الفاغية والنردين.

14 ـ نردين وزعفران قصب ذريرة وقرفة مع سائر شجر الكُنْدُر مرٌّ وصبر مع جميع اوائل الطيوب.

15 ـ مَعين جنّات. بئر الماء الحي الذي بخّر من لبنان على جنتي فتقطر طيوبها. ليأتِ حبيبي الى جنته. وليأكل ثمره النفيس.

الاصحاح الخامس

1 ـ قد دخلتُ الى جنتي، يا أختي العروس. اقتطفت المُرّ الذي لي مع طيوبي. أكلتُ شهدي مع عسلي ـ شربت خمري مع لبني. كلوا أيها الأحباء ـ اشربوا واسكروا أيها الاخوان.

2 ـ أنا نائمة وقلبي ساهر. صوت حبيبي يقرع على الباب. افتحي لي يا أختي. يا حبيبتي. يا حمامتي. ياكاملتي. لأنّ رأسي امتلأ من الظّلّ. وقصص من ندى الليل.

3 ـ قد خلعتُ ثوبي ـ فكيف البسه ـ قد غسلت قدميّ. فكيف أوسّخهما.

4 ـ حبيبي أرسل يده من الكوّة. فأنت عليّ أحشائي.

5 ـ قمت لأفتح لحبيبي. ويداي قطرتا مرّاً. وأصابعي مرٌّ يقطر على مقبض الغلق.

6 ـ فتحت لحبيبي ـ وحبيبي قد حاد وجاز. نفسي خرجتْ عند تكلّمه ـ طلبته فما وجدته. دعوته فما أجابني.

7 ـ وجدني الحراس الذين يطوفون المدينة. فضربوني وجرحوني. أخذ جلالي مني حرّاس الأسوار.

8 - يا بنات اورشليم استحلفكنّ إذا وجدتنّ حبيبي ان تخبرنه بأني من المحبة ضعيفة.

9 - أيتها الجميلة في النساء ما حبيبك من حبيب. ما هو حبيبك من حبيب، حتى استحلفتنا هكذا.

10 - حبيبي أبيض وأشقر. منتخب من بين ربوات.

11 - راسه ذهب فائق. ضفائره منسدلة، سود كسواد الغراب.

12 - عيناه كحمامتين على مجاري المياه. تستحمّان في اللبن. جالستين في وقبيهما.

13 - خدّاه مثل خميلة الطيب وأبراج رياحين ذكية. شفتاه سوسن تقطران مرّاً مائعاً.

14 - يداه مخروطتان من ذهب مرصّعتان بزبرجد. بطنه عاج أبيض مرصع بالعقيق.

15 - ساقاه عمودا رخام، مؤسسان على قاعدتين من ذهب ابريز. طلعته كلبنان، منتخب كالارز.

16 - حلقه حلو. وكلّه شهوة. هذا حبيبي - وهذا خليلي يابنات اورشليم.

17 - أيتها الجميلة في النساء. أين ذهب حبيبك - الى أين حاد حبيبك. فنطلبه معك.

الاصحاح السادس

1 - حبيبي انحدر الى جنته الى خمائل الطيب. ليرعى في الجنان ويجمع السوسن.

2 - أنا لحبيبي وحبيبي لي. الذي يرعى في السوسن.

3 - ياحبيبتي. جميلة أنت كترصة. حسناء كأورشليم. مرهبة كالصفوف المرتّبة.

4 - ردّي عينيك من مقابلتي. فأنّهما سبتاني. شعركِ كقطعان المعزى الرابضة من جلعاد.

5 - أسنانك كقطعان الضان الصادرة من الاستحمام التي كلها مُتئِم وليس فيها مُثْكِل.

6 - خدّاكِ كفلقةِ الرمّانة تحت نقابك.

7 - الملكات ستون. والسريّات ثمانون. والعذارى لا عدد لهن.

8 - حمامتي كاملتي واحدة هي. واحدة هي لامّها. عقيلة هي لوالدتها. أبصرتها الفتيات فهنانها - الملكات والسريّات فمجّدنها.

9 - من هذه المشرقة كمطلع الصبح جميلة كالقمر. منتخبة كالشمس. مرهبة كالصفوف المرتّبة.

10 - الى جنّة الجوز انحدرت لأنظر الى فواكه الأودية. ولأبصر هل أفعل الكرم وهل حنّن الرمّان.

11 - فما شعرتُ الاّ وقد اقامتني نفسي في مركبات قومي الشريف.

12 - ارجعي ارجعي ياشوليت. ارجعي ارجعي فننظر اليك.

الاصحاح السابع

1 - ماذا ترون في شولّيت. الاّ رقص صفّين. ما أحسن خطواتك في الحذاء يا بنت الكريم. أرداف فخذيك تضاهي قلائد الجوهر من أعمال يَدَي صناع.

2 - صرتّك كأس مخروطة. لا يعوزها شراب ممزوج - بطنك عرَمَة حنطة مسيجة بالسوسن.

3 - ثدياك كخشفي ظبية توأمين.

4 - عنقك كبرج العاج. عيناك كبرك حشبون التي عند باب بنت الجماعة. أنفك كبرج لبنان الناظر تجاه دمشق.

5 - راسك عليك كجبل الكرمل - وشعر رأسك كبرفير الملك المربوط بضفائره.

6 - ما أميحلك وما أحلاك أيتها الحبيبة في اللذات.

7 - قامتك هذه شبيهة بالنخلة. وثدياك يضاهيان العناقيد.

8 - قلت: لاصعدّن الى النخلة ولأمسكنّ بعراجينها. فيكون ثدياك كعناقيد الكرم. وريح فمك كنسيم التفاح.

9 - حلقك كالنبيذ الجيّد السائغ لحبيبي المرقرق السائل على شفاه النائمتين.

10 - أنا لحبيبي، وإليّ اشتياقه.

11 - يا حبيبي. هلمّ نخرج الى الحقل ونبت في الضياع.

12 - ولنبتكرنّ الى الكروم. وننظر هل أزهر الكرم. هل تفتّح السرع. هل حنّن الرمان. هناك أدفع اليك ثدييّ.

13 - اللفّاح فاح نسيمه. وفي أبوابنا كلّ النفائس الجديدة والعتيقة قد حفظتها لك يا حبيبي.

الاصحاح الثامن

1 - من ذا يعطيني يا أخي الراضع ثديي أيّ ان أجدك خارجاً وأقبّلك. ومع ذلك لا يخزيني أحد.

2 - أتناولك فادخلك الى بيت أمّي. هناك تعلّمني فاسقيك من الخمر المطيّبة ومن سُلاف رمّاني.

3 ـ يساره تحت رأسي، ويمينه تعتنقي.

4 ـ استحلفكنّ يا بنات اورشليم ان لا توقظن ولا تنبهّن الحبيبة الى ان تشاء هي.

5 ـ من هذه الصاعدة من البرية مدلّلة مستترة على حبيبها. انهضتُك تحت شجرة التفاح. هناك طلقت بك أمّك. هناك وضعتك والدتك.

6 ـ ضعيني على قلبك كخاتام. وعلى ساعدك كخاتم. فان المحبة معتزمة كالموت. والغيرة قاسية كالجحيم. لهيبها لهيب نار لظى الرب.

7 ـ فالماء الكثير لا يستطيع ان يُطفىء المحبة. والأنهار لا تغمرها. إنْ بدّل الانسان كل ثروة بيته بالمحبة. فإنه يحتقرها احتقاراً.

8 ـ الأخت عندنا صغيرة وليس لها نهدان. فماذا ننصع باختنا يوم تُخطب.

9 ـ فإن كانت هي سوراً. نبني عليها برج فضة. وان كانت باباً. نحصرها بدقّات أرز.

10 ـ أنا سور. وثدياي كبرجين. فكنتُ أنا حينئذ في عينه كواجدة سلامة.

11 ـ كان لسليمان كرمٌ في بعل هامون فدفع الكرم الى خَوَل. يودّي كل منهم عن ثمره ألفاً من الفضة.

12 ـ ان كرمي الذي لي هو أمامي. الألف لك ياسليمن. والمائتان لخول الثمر.

13 ـ أيتها الجالسة في الجنان. الأصحاب يصغون. فسمعيني صوتك.

14 ـ فرَّ ياحبيبي وتشبّه بالظبي أو بخشف الأيل على جبال الطيوب.

أنبياء عراقيون

تخبرنا التوراة عن انبياء ولدوا وعاشوا، أو نشأوا في العراق، ونحن لا نرغب في الوقوف على سيرتهم الحياتية المفصلة ولا الى مكانتهم في التوراة فهي معروفة، انما هي التأكيد على أبرزهم وأهمهم من حيث المكانة والرسالة؛ فآدم أبو البشرية وجنة عدن، ونوح والطوفان ومن ثم ابراهيم أبو الاباء والأنبياء الذي خرج من مدينة اور في جنوب وادي الرافدين بآمر من الله تعالى: «وعاش تارح سبعين سنة، وأولد أبرام وناحور وهاران. وهاران أولد لوطا، ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده اور الكلدانيين. فتزوج ابرام ساراي... فكانت عاقرا، ولم يكن لها أولاد. وأخذ تارح ابرام ابنه ولوط بن هاران ابن ابنه... وخرجوا معا من اور الكلدانيين ليذهبوا الى أرض كنعان، وأتوا حرّان، وسكنوا هناك...» (تكوين 11: 26 ـ 31).

ثم هاجر أبرام من وطنه بأمر الله يصحبه لوط ومواعيد الله له: «وقال الرب لابرام، امض من أرضك ومن قبيلتك ومن بيت أبيك الى الأرض التي أريك. فاصيّرك لشعب عظيم. وأباركك وأعظم اسمك. وكن مباركاً... فمض ابرام كما قال له الرب ومضى معه لوط، وكان ابرام ابن خمس وسبعين سنة حين خرج من حرّان...» (تكوين 12: 1 ـ 4).

ومن بعد أربع وعشرين سنة يتم تبديل اسم ابرام وساراي كما ورد في التوراة: «ولما صار ابرام ابن تسع وتسعين سنة. تراءى الرب لأبرام. وقال له: أنا الله القدير. سِر أمامي وكن تاما... فلا يدعى من بعد الآن اسمك ابرام، بل يكون اسمك ابراهيم. لأني أقمتك أبا لأمم كثيرة.... ساراي امرأتك لا تدعى اسمها ساراي بل اسمها سارة» (تكوين 17: 1 ـ 5، 15).

ان دراستنا هنا تتناول بعض الانبياء الذين عاشوا فترة من حياتهم في العراق فتثقفوا بثقافته وتأثروا بتراثه وأفكاره الروحية ومن ثم نقلوها الى التوراة بحسب ما

تأثروا وانتخبوا م منتخبات الفكر العراقي وأساطيره مع قصصه وأخباره وكالوجه التالي:

«1» حزقيال النبي

أحد الأنبياء الكبار. نشأ في فلسطين، ثم سبي من يهوذا مع يهوياكين عام 597 قبل الميلاد، بعد ثماني سنوات من نفي دانيال. وتفرغ حزقيال في المنفى لدراسة النصوص الدينية وتأثر بالحضارة الدينية البابلية أسوة بدانيال، وهو صاحب أحد أسفار كتاب العهد القديم.

وحزقيال: اسم عبراني معناه «الله يقوي» ابن بوزي، من عشيرة كهنوتية (حزقيال 1:3). ولد وكبر ونشأ في فلسطين وربما في اورشليم في بيئة الهيكل، اثناء خدمة النبي إرميا. عاش مع المسبيين على نهر الخابور او «كبار» وهو قناة في أرض بابل. تزوج ربما مبكراً في السنة السادسة او على الأكثر في السنة التاسعة من السبي، وكان له بيت (8: 1 و24: 1 و18).

بدأت خدمته النبوية، وهو ساكن على ضفاف الخيبر (الخابور) (1: 1 و2) وكان في السنة الثلاثين من عمره او، من اعتلاء نبوبلاسر، أبي نبوخذ نصر، العرش. ومع أنه كان مسبياً في أرض العراق، الا انه كانت له الحرية ان ينطق بنبواته.

وسفر حزقيال: يقوم في الكتاب العهد القديم العربي بين مراثي إرميا ودانيال. ويأتي مباشرة في الكتب العبرية بعد إرميا. وينقسم الى ثلاثة أقسام:

أولاً: نبوات القيت قبل غزو أورشليم: وهي تنبيء عن سقوطها بسبب خطاياها (1: 1 - 3: 21) ثم أفعال رمزية وتفسيرها، عن خراب المدينة (3: 22 - 7: 27). حصار اورشليم وتشتت الشعب بقدر (الاصحاح 24) وان خراب اورشليم مؤكد (الاصحاح 15 - 17) وغيرها من النبوات التي تدلّ على فساد اسرائيل ودناستها.

ثانياً: نبوات الحكم على الأمم: في السنة التاسعة، على آمون ومؤآب وآدوم وفلسطين (الاصحاح 25) في السنة الحادية عشرة، على صور وصيدا (الاصحاح 26 - 28) وفي السنوات العاشرة، والسابعة والعشرين، والحادية عشرة، على مصر (الاصحاح 29 - 32).

ثالثاً: نبوات متعلقة بالرجوع من السبي: القيت بعد دخول نبوخذ نصر لأورشليم وخرابها. في السنة الثانية عشرة، في المساء، قبلما وصلت أخبار سقوط المدينة الى النبي، كانت يد الربّ عليه، وعندما تلقى هذه الأخبار، بدا نشاطه من جديد (33: 1 - 22). ويتعلم ان الشعب بعد الدينونة سيدرك ان يهوه هو الله، وان نبياً صادقاً قد كان بينهم (33: 23 - 33) وسيقوم راع صالح هو داود (الاصحاح 34) وسيعاقب اعداءهم (ص 35). وغيرها من النبوات.

«2» دانيال النبي

شخصية رئيسية لأحد أسفار كتاب العهد القديم. كان في عداد أسرى السبي البابلي. حسن في عين الملك نبوخذ نصر فخشي المجوس من هذا الأمر وألقوه في بئر (جب) الاسود. ولكنه وجد سالماً في اليوم التالي.

دانيال، اسم عبري معناه «الله قضى» وهو اسم أحد الأنبياء الاربعة الكبار، وكان من عائلة شريفة ويظن انه ولد في اورشليم (دانيال 1:3) (قابل يوسيفوس) وأتي بأمر نبوخذ نصر الى بابل مع ثلاثة فتيان من الأشراف هم: حننيا وميشائيل وعزريا سنة 605 قبل الميلاد. فتعلم هناك لغة الكلدانيين ورشّح مع رفاقه الثلاثة للخدمة في القصر الملكي (دانيال 1: 1 ـ 4 وارميا 1:25) فغيّر رئيس الخصيان اسماءهم، فسمّى دانيال بلطشاصر ورفقاءه شدرخ وميشخ وعبد نغو. وأبى هؤلاء الاربعة ان يأكلوا من طعام الملك او ان يشربوا من خمره واختاروا القطاني والماء. ومن بساطة هذا المأكل والمشرب فإن مناظرهم ظهرت أحسن من بقية الفتيان الذين تناولوا من أطايب الملك وخمره[1].

تفرّغ دانيال للدراسات الدينية اثناء اقامته في بابل وتأثرت تأملاته على هذا الصعيد بالأفكار الدينية لبلاد ما بين النهرين مما أدى الى انعكاس ذلك على كتاب العهد القديم وتطعيمه بآلهة بابلية مثال الملائكة والساروفيم، وأساطير سومرية بابلية أمثال الطوفان.

ثم بعد ما تعلّم دانيال ثلاث سنين أعطاه الله فرصة لإظهار علمه وحكمته ففسّر حلماً لنبوخذ نصّر كان قد أزعجه (دانيال الاصحاح 2) ومكافأة له على هذه الخدمة نصبه حاكماً على بابل ورئيساً على جميع حكمائها. وفي هذا المنصب اشتهر بني أهل جيله (انظر سفر حزقيال 14: 14 و20 و28: 3)[2] ثم أبان للملك في وقت آخر ما كان الله قد قصد ان يقاصه به لأجل عنفوانه وكبريائه، (دانيال الاصحاح 4). ووقع له أيضاً مثل ذلك مع بيلشاصر ابن ابنة نبوخذ نصر وابن نبونيدس والذي حكم بابل نيابة عنه. وقد قرأ دانيال الكتابة على الحائط (دانيال الاصحاح 5).

وفي أيام داريوس المادي[3] جعل دانيال اول الوزراء الثلاثة في دولة مادي وفارس،

---

(1) ان اسم دانيال العبري، صار باللغة الاكدية «بلطشصر» (دانيال ٤: ١٦) ومعناه «بيل ـ شار ـ اوصر» ومعناه «حفظ البعل الملك» ولم يرد اسمه في القرآن الكريم.

(2) مع ان بعض العلماء يظنون ان في هذه الكلمات اشارة الى شخص آخر اسمه داينال عاش في عصر مبكر قبل داينال صاحب السفر.

(3) داريوس الاول: ملك فارس (521 - 486 ق.م) احتل بابل والسوس وميديا ونظم شؤون الدولة. أخضع تراقيا ومقدونيا. انتصر عليه اليونان في معركة ماراون عام 490 ق.م. وتوفي في مصر.

فدسّ أعداء دانيال له وحملوا داريوس على ان دانيال يفسّر حلم الملك عن الشجرة العظيمة التي قطعت. (الاصحاح 4).

5) ـ دانيال يفسّر الكتابة، على الحائط في الوليمة التي أقامها بيلشاصر (الاصحاح 5).

6) داريوس المادي يرفع دانيال الى أسمى المناصب في المملكة فيثير هذا حسد اعدائه فيكيدون له ويلقى في جب الأسود. ولكن الرب ينجبه من جب الأسود. (الاصحاح 6).

ونجد في القسم الثاني أربع رؤى عظيمة يراها دانيال هي:

1) رؤيا تمثل قوى العالم الاربع العظمى في شكل أربعة حيوانات ثم تزول هذه القوى من بعدها تثبت مملكة شعب قديسي العلي وهي ملكوت أبدي (الاصحاح 7).

2) الرؤيا التي فيها يرى القوة التي يمثلها تيس المعز تتغلب على قوة أخرى هائلة يمثلها كبش، والقوة التي يمثلها تيس المعز تنقسم الى أربعة أقسام، ملك أحد هذه الأقسام ينجس الهيكل (الاصحاح 8).

3) أما الرؤيا الثالثة فقد جاءت استجابة لصلاة التوبة التي قدّمها دانيال. وهي عبارة عن رسالة حملها اليه الملاك جبرائيل تتعلق بمملكة المسيح العتيدة التي تأتي بعد سبعين اسبوعاً (الاصحاح 9).

4) في الرؤيا الرابعة تأتيه رسائل من الله تؤكد له محبة الله للمؤمنين الامناء في شعبه. وفيها يرى صورة للمظالم التي يرتكبها ملك الشمال (الاصحاح 10 ـ 12).

شخصية النبي دانيال ودوره وأثره:

دنيال النبي هو فتىً يهودي عراقي شجاع ومستقيم. عاش في مدنية بابل العظيمة، وكان يصحبه ثلاثة من رفاقه الفتيان الشجعان. وكان أربعتهم قائمين على خدمة الملك البابلي يصدر أمراً بأن لا تقدّم صلاة إلا للملك مدة 30 يوماً، أما دانيال فلم ينقطع عن الصلاة ولذلك طرح في جبّ الأسود حسب أمر الملك (ص: 3 ـ 23. ثم انظر امكابيين 2: 60).

وفي السنة الثالثة لملك كورش ملك الفرس[4] رأى دانيال في رؤيا النزاع الأخير بين قوات العالم وملكوت الله (الاصحاح 10 ـ 12).

---

(4) كورش (قورش) الثاني الملقّب الكبير (3558 - 528 ق.م) ملك فارس. استولى على بلاد مادي الصغرى وبابل. اذنَ لليهود بالعودة الى فلسطين.

سفر دانيال: يوضع سفر دانيال بحسب ترتيب الأسفار في العهد القديم كما جاء في الأصل العبري في القسم الذي يسمى «الكتوبيم» أي «الكتب» وهو القسم الثالث من العهد القديم في اللغة الأصلية. أما في الكتاب المقدس باللغة العربية واللغات الحديثة فضمن الانبياء الكبار، فيأتي في الترتيب بعد حزقيال.

وينقسم السفر بالنسبة الى محتوياته الى قسمين رئيسيين وهما :

أولاً الاجزاء التاريخية.

ثانياً : الاجزاء الرؤيوية أو النبوية.

وفي القسم الأول نجد :

1) مقدمة السفر كلّه، وفيها نرى صورة لدانيال ورفاقه الثلاثة وكلهم من ابناء الأشراف في يهوذا الذين أخذوا في السبي الى بابل، وكيف انهم رفضوا ان يتنجسوا بأطايب الملك ويخمر مشروبه (الاصحاح 1).

2) دانيال يفسّر حلم نبوخذ نصر عن التمثال الهائل العجيب (الاصحاح 2).

3) رفض رفاق دانيال ان يسجدوا لتمثال الملك، والقاؤهم في آتون النارالمتقدة، ونجاتهم العجيبة من الاحتراق بنيرانه الملتهبة (الاصحاح 3) في بلاطه، وذلك في عهد آخرهم بلطشصر نبونيد. ولقد لعب هذاالنبي الشاب دوراً كبيراً جداً وترك أثراً خالداً في تطور الفكر الديني والروحي. انه جاء من أجل بعث الرجاء وتقوية الايمان بالخلود الروحاني لدى اليهود سواء في بابل او في مصر او في فلسطين بنوع خاص. حيث كان الملك اليوناني انطيوخس ابيفانوس يحاول اجبارهم على اداء واجبات الولاء للأصنام.

يحدثنا سفر دانيال فيروي لنا قصة جنون الملك الكلداني نبوخذ نصر[5]. ويصف الوليمة العظيمة التي أقامها الملك بلطشصر.

بقي ان نقول بأن هناك اعتقاد بوجود قبر النبي دانيال في مدينة كركوك[6].

---

(5) لم يرد في التاريخ ان الملك نبوخذ نصر (605-562 ق.م) اصيب بالجنون. إلا ان الملك نبونيد (555-538 ق.م) الذي كان غريب الأطوار نقل قاعدة ملكه من بابل الى التيماء في شمال الجزيرة العربية. الامر الذي جعل بعضهم يصفونه في قصائد هجائية بالشذوذ او بالجنون استناداً الى تقاليد مروية، عن ذلك، فقط اختلط الأمر على مؤلف سفر دانيال ما بين الملكين. فانتقال نبونيد من بابل العظيمة الى التيماء في الصحراء، حمله على الكتابة والإعتقاد بأن هذا الملك فقد صوابه وإنطلق ليعيش كثور وحشي بين البهائم والطيور في البراري. (دانيال 3:4).

(6) يعتقد اهالي كركوك من مسيحيين ومسلمين بأن المزار الواقع في قلعة كركوك (وهو مقام على اسم النبي) هو مرقد النبي وضريحه لذا فهم يزورونه. اما نحن فاننا نشك في مدى صحة هذا الإعتقاد.

أنبياء صغار

هناك أنبياء عديدون يقترن اسمهم بالعراق، إما لأنهم عاشوا فيه فترة من أيامهم، أو انهم دفنوا فيه، أو درسوا بمدارسه وعلى تراثه ومنهم:

يونان:

خامس الانبياء الصغار (القرن الثامن قبل الميلاد). أبوه امتاي من سبط زبولون. كان معاصراً لِعُزِيّا ملك يهوذا ويربعام ملك اسرائيل. وان سفر يونان المنسوب اليه ليس من وضعه هو. بل يعود تاريخ كتابة هذا السفر الى القرن الخامس قبل الميلاد. وهو يتحدث عن مهمة قام بها رجل اسمه يونان لدى أهل نينوى لكي يدعوهم الى التوبة.

أما قصة الحوت الذي ابتلع يونان وحفظه في جوفه مدة ثلاثة أيام فهي من الفولكلور العالمي.

بقي ان نقول ان «يونان» صيغة سريانية والعربية للاسم العبري «يونه» ومعناه حمامه. وقد يأتي بصيغة «يوناثان». تنبأ في أيام يربعام الثاني ملك السامرة.

طوبيا:

يهودي. عاش في بلاد آشور. كان له ابن سمّي باسمه طوبيا، عاشا في نينوى، وهما بطلا سفر طوبيا أحد أسفار العهد القديم. وصل الينا في الترجمة اليونانية فقط يروي قصة طوبيا البار ومغامرات ابنه خلال سفره قام به مع الملاك روفائيل، وإذ بلغ السادسة والخمسين من عمره أصيب بالعمى وخشي ان يدركه الموت، ولكن الله شفاه من عماه بواسطة شخص يدعى عُزريا اتضح انه لملك روفائيل.

ناحوم:

ناحوم، معنى الكلمة «المعزّي» سابع الانبياء الصغار في العهد القديم. ولد في القوش[7] من بلاد أرض الرافدين حوالي العام **693** قبل الميلاد. وموضوع نبوءته سقوط نينوى الذي تمّ عام **612** قبل الميلاد. وسفره نشيد شعري يتغنى بقوّة الله التي لا حدود لها. مرقده ما زال موجوداً في بلدة القوش العراقية شمال الموصل بـ **65** كيلومتراً، كان يزوره اليهود في العراق بموسم خاص، وما زال يزوره المسيحيون أيضاً ويتبركون به.

وتحدث عن دمار مدينة نو آمون (أي طيبة) في مصر (ناحوم **3**: **8** ـ **10**) التي احتلها الاشوريون عام **663** قبل الميلاد. ويعتقد انه كان ممن سبوا الى بابل ومات في القوش العراقية.

---

(7) القوش لفظة آرامية «ايلقوشتا» أي قوس الرب. بلدة تربض عند لحف جبل القوش شمال الموصل وهي مركز ناحية تابعة لقضاء الشيخان في محافظة نينوى. يقطنها أكثر من عشرين الف كلداني بالقرب منها دير الزيان هرمزد القديم الايام.

عزرا:

رئيس كهنة يهودي (القرن الخامس قبل الميلاد) اشترك في تدوين الشريعة.

كان عزرا يقيم في بابل، في البلاط الفارسي، حيث كان يعمل موظفاً مُوكلاً بالقضايا اليهودية.

في العام 398 ق.م[8] (أو 427 ق.م؟) توجه عزرا الى اورشليم صحبة قافلة تتألف من بضعة آلاف من الاشخاص. وعمل على فرض شريعة موسى التي دونتها الشخصيات الدينية المقيمة في المنفى مستعينة بالأعراف القديمة ولا سيما بتراث وادي الرافدين الروحي.

حمل عزرا معه مالاً وكنوزاً وفيرة ومجوهرات، من اليهود الباقين في بابل ومن البلاط الفارسي نفسه لتأتيت الهيكل وشراء الزينات له. ولقد عاد عزرا الى بابل مطروداً من القدس ومكث فيها حتى من الارجح انه توفي بأرض العراق. وهناك مزار كان يقصده اليهود اسمه «العزير» يظنونه قبر عزرا.

هو الذي جمع أسفار العهد القديم، وحمل معه الى فلسطين الأحرف الارامية المربعة الشكل المعروفة بالخط الاشوري، التي مهدت لنشوء الابجدية العبرية الحالية.

وعزرا اسم عبري معناه «عون» والاسم نشأ كاختصار الاسم عزريا. وقد قام بمجرد عودته الى القدس بقراءة ناموس موسى أمام اليهود وتفسيره لهم بمعونة اللاويين، مستعينا بالترجمة الارامية للأصل العبراني، فاعتبروه زعيما لهم بعد موسى، ولقبوه بالكاهن وبالكاتب، لأنه كان دارساً مجتهداً، ومفسراً للعهد القديم (عزرا 7: 11) فكان بذلك أول «كاتب» بهذا المعنى، وقد تعاقب من بعده الكتّاب، الذين كانوا يشكلون جهاز المجمع الكبير الذي وضع عزرا أسسه، والذي يقوم فيه الربائيون اليوم مقام الكتبة في تلك العصور.

وسفر عزرا هو الخامس عشر من أسفار العهد القديم حسب ترتيب الأسفار الحاضرة، وهو يتمم سفري أخبار الأيام والأسلوب فيها كلها اسلوب واحد، ويعتبر سفر عزرا ونحميا سفراً واحداً في عداء الأسفاء العبرية في العهد القديم. ولغته في الأصل خليط بين الارامية والعبرانية. وتتناول مادة السفر فترة الحكم الفارسي في فلسطين في حوالي ثمانين عاماً. وهي فترة غامضة بعض الغموض من الوجهة التاريخية.

---

(8) عاصر عزرا نحميا في القدس وبذلك نستطيع ان نؤرخ عودته الى القدس حوالي سنة 458 او 457 قبل الميلاد، اي في حكم ارتحشستا الاول او سنة 398 قبل الميلاد، اي في حكم ارتحشستا الثاني وهو الارجح.

الإينوما ايليش

قصيدة التكوين والخلق البابلية

1 ـ هذه القصيدة الشمولية التي تتألف من 1100 سطر أمكن تجميعها من حوالي ستين نسخة لأجزاء منها مختلفة، تمّ اكتشافها في أماكن عديدة وخلال فترات زمنية متباعدة. أما عن التعريف باكتشاف مثل هذه القصيدة، فقد أشير منذ عام 1875 م، الى وجود نص بابلي يحتوي على قصة التكوين والخلق. وأكمل نسخة نشرت عن الاينوماايليش، حتى اليوم بلغتها الاكادية وبمقاطعها المسمارية، تمّت في عام 1966 م. كما تمّت ترجمتها منذ بداية هذا القرن الى أكثر من لغة، وأقدم ترجمة فرنسية لها ترجع الى عام 1935 م، وبما أنها لم تعد صالحة اليوم، فقد أعيد النظر فيها ضمن نشرة 1970. وأحدث ترجمة لهذه القصيدة تعود لعامي 1985 و 1989 م.

2 ـ قلنا، ان تاريخ تأليف قصيدة الاينوماايليش اعتماداً على الرأي الذي يجعل منها أكثر حداثة، أي أقل قدماً، أعيد الى فترة حكم نبوخذ نصّر الأول (حوالي - 1103 1124 قبل الميلاد) وأقدم نسخ منها، وهي التي عثر عليها في آشور لم تكن سابقة لبدايات الألف الأول لما قبل الميلاد، كما أن اجزاء كثيرة منها، عثر عليها في مكتبة آشور بانيبال (672 - 668 ق.م) في نينوى ولكن نسخاً أخرى تمّ اكتشافها في كل من كيش Kish وسيبار Sippar وسلطان ـ تيبي Sultan على الخابور شمالي البلاد. وحتى بعد سقوط بابل في عام (539 ق.م) استمرت البلاد على نسخ وتداول هذه القصيدة، حتى النصف الأول من الألف الأول للميلاد (أي حتى عام 500 م).

3 ـ وممّا يلفت النظر، ان هذا النص لم يعدّل خلال الفترات الزمنية اللاحقة لتأليفه، بل كان يعاد نسخه فقط. والجدير بالذكر أيضاً، بأنه يوم أراد الاشوريون في فترة حكم استبدلوا اسم مردوخ باسم آشور وأعادوا نشر قصيدة الاينوماايليش، دون أي تعديل آخر ـ أي فيما يتعلق بعمليتي التكوين والخلق ـ ليصبح الاله آشور بطل التكوين والخلق وسيّد الآلهة والبشر.

4 ـ ولا بد من الإشارة، قبل الدخول في تفاصيل محتوى الاينوماايليش ان هذه القصيدة تمّ تأليفها، من قبل مفكر أو مفكرين بابليين، كانوا على اطلاع كامل وعميق على تراثهم السومري ـ الاكدي الذي تناقلته التقاليد الشفهية منذ أكثر من سبعة عشر قرناً والذي تمّ تسجيله على اللوحات الفخارية باللغتين السومرية والاكادية منذ أكثر من عشرة قرون، هذا التراث اتخذ كأساس في ذلك الوقت، وتمّ استحياؤه بذكاء وخيال لا يمكن معهما التشكيك بعبقرية مؤلف الايناماايليش الذي تصوّر خدمة لقضية الاله مردوخ وبقصد اعطائه الاولوية والأفضلية في كل شيء، تصوّر ان خطراً بدئياً كان «يتهدد» جميع الآلهة، وان مردوخ هو البطل الوحيد الذي أنقذهم منه.. وبكل ذكاء بعد ذلك، عمد الى الاستفادة من انتصاره، فخلق الكون وخلق البشر ووضع كل شيء في مكانه وحدد الأدوار وقرر المصائر. فأصبح الهاً وسيداً لجميع الآلهة والبشر واستحق مركز الصدارة، فاعتُرِفَ بمجده من قبل الآلهة جميعاً وأغدقت عليه جميع الألقاب والأمساء الآلهية الخاصة.

5 ـ هذه القصيدة البدئية هي بمثابة الميتوس لأصول الاشياء كلّها. فهي تروي قصة ولادة الآلهة وتحديد الأدوار، أدوار الآلهة، وقصة التكوين واطلاق عناصر الكون على مساراتها وفق نظام أقرّه الاله مردوخ. كما تروي قصّة خلق البشر وتقرير مصيرهم ودورهم كبشر.

وليس من المستغرب، حين كان البابليون وهم يحتفلون بعد رأس السنة «الاكيتو»[1] يعودون الى حالة الفوضى، «العماء البدئي»، ثم يسيطرون على هذا العماء، ويعيدون بناء المملكة بعد ذلك في حلّة جديدة ومتجددة، تحمل كل الخير والرخاء لشعبها، لم يكن من المستغرب ـ ان يُتلى في هذا العيد، أمام جماهير الشعب المختلفة، النص الكامل لقصيدة التكوين والخلق الاينوماايليش تمجيداً لمردوخ إله جميع الآلهة والبشر، وذلك في مدينة بابل التي يضاهي قدمها قدم الآلهة[2]. وليس بالمستغرب بالتالي ان يحمي مردوخ مدينته وملكها ويغمرها بالأمجاد، وان يَحْمِلَ لها «الزواج الالهي»، الزواج المقدس الذي يحققه الملك[3]، الخصبَ والكثرة لكامل المملكة.

6 ـ تتوزع قصيدة الاينوماايليش على سبع لوحات، تحوي كل لوحة حوالي 150 سطراً أو بشكل أدق فإن عدد الأسطر من اللوحة الأولى حتى السابعة هو كما يلي:

162/1، 150/2، 138/3، 146/4، 155/5، 166/6، 163/7، أي بمجموع 1079 سطراً

(1) آكيتو (Akitu) الموافق اول نياسن (فصل الربيع) بشكل عام. راجع الملحق رقم 2 من هذا الكتاب.

(2) سوف يفهم ذلك من خلال نص القصيدة (اللوحة السادسة).

(3) راجع حول الزواج الالهي «ديوان الاساطير» نقله الى العربية قاسم الشواف، الكتاب الاول، الفصل الثاني، الفقرة (2 - 3).

لكامل القصيدة. أما محتواها الاجمالي، وقبل التعرض للنص بحد ذاته، فيمكننا عرضه وتلخيصه كما يلي:

اللوحة الأولى: العماء البدئي وولادة الآلهة ـ نشوب الأزمة الأولى وتدخل الاله إيا ـ نشوب الأزمة الثانية والاستعداد للمجابهة.

اللوحة الثانية: الآلهة المهددون يفتشون عن منقذ، وتوجه الأنظار نحو الإله مردوخ.

اللوحة الثالثة: مردوخ يُمنح جميع الصلاحيات بناء على طلبه.

اللوحة الرابعة: المعركة والنصر.

ـ مردوخ يكوّن وينظّم.

اللوحة الخامسة: متابعة تنظيم الكون ومبايعة مرودخ.

ـ مشروع بناء بابل وخلق البشر.

اللوحة السادسة: خلق البشر ثم إقامة بابل.

ـ تنصيب مردوخ والبدء بتعديد اسمائه.

اللوحة السابعة: متابعة تعديد القاب وأسماء مردوخ الخمسين والتمجيد الأخير.

تلك هي بصورة مقتضبة العناوين العريضة لمحتوى اللوحات وسوف يتمّ على أهم تفاصيل هذا المحتوى من خلال عرض النص.

اللوح الأول

المياه البدئية (الغمر):

1 بينما في الأعالي
لم تكن السماء قد وجدت بعد
والأرض اليابسة في الأسفل
لم يكن أطلق عليها أي اسم
وحدهما، أبسو[1] ـ الأول
والدهم
والأم (؟) تيامت[2]
والدتهم جميعاً

5 كانا معاً يمزجان
مياههما
فلا منابت القصب كانت قد تكتلت بعد
ولا المقاصب كانت فيها مُميّزة

---

(1) ابسو APSU هو احد عنصري المياه البدئية وهو هنا بمثابة عنصر الذكورة.
(2) تيامت TIAMAT هو العنصر الثاني للمياه البدئية، عنصر الامومة، انهما يحملان رمز الألوهية قبل اسميهما. وهما هنا ممتزجان كمياه عذبة ومياه مالحة يمثل مزيجهما وسطا هو أساس كل شيء.

ظهور الآلهة

آنذاك لم يكن أيّ من
الالهة قد ظهر بعد
ولم تكن أطلقت عليهم أسماء
ولم تكن مصائرهم قد قُرّرت بعد.
ففي وسط (أبسو - تيامت) الالهة
شُكّلوا[3]
(لحمو) و(لحامو)[4] ظهرا[5]،
وأطلق اسم على كل منهما
وقبل ان يكبرا
ويصبحا قويين[6]
تمّ تشكيل[7] أنشار[8] وكيشار[9]
وكانا يفوقانهما مرتبه[10]
وبعد ان مددا أيامهما
وضاعفا سنيهما،
كان آنو[11]، أول مولود لهما
مماثلاً لوالده
وكما عمل أنشار شبيها له
كذلك عمل ان، ولده
آنو كما والده أنجب

---

(3) التعبير الاكادي المستعمل هو: الآلهة «إبّانو» وسط المياه البدئية الممتزجة.
(4) لحمو (Lahmu) ولحامو (Lahamu) هما مخلوقان مميزان وليسا زوجين على ما يظهر.
(5) يستعمل النص الاكادي لظهورهما تعبير «أوشتافو» بصيغة المجهول، بمعنى أمكن رؤيتهما، وحافظت اللغة العامية على هذا المعنى في «شافهُ» أي رآه ونظر اليه.
(6) يبدأ النص هنا بالاعداد لفكرة اهمال مصير هذين المخلوقين قبل نموّهما، وقبل الانتقال الى الزوج الالهي الذي ظهر بشكل مستقل عنهما.
(7) يستعمل النص الاكادي هنا ايضا كما في السطر التاسع أعلاه تعبير «إبّانو».
(8) انشار (Anshar) اي (آن - شار) ومعناه كل ما هو (فوق): السماء بمختلف طبقاتها وما سوف تحتوي عليه.
(9) كيشار (Kishar)اي (كي - شار) ومعناه كل ما هو (تحت): الارض والمياه الباطنية (الابسو) والعالم السفلي ومع هذين الالهين تبدأ فكرة ثنائية الكون في بعديه الاعلى والاسفل.
(10) تظهر هنا فكرة ارتقاء وتطور مرتبة المخلوقات الالهية من خلال تدرج عملية الظهور والخلق.
(11) آنو (anu) وهو ابن آنشار الذي سوف يبقى فيما بعد جداً بعيداً لآنو إله السماء.

(إيا) نوديمّود شبيها له
إلاّ ان نوديمّود[12]، وهو
المنظم المستقبلي لوالديه
كان واسع الفهم والحكمة
ومتحليا بقوة فائقة،
وكان حقاً أكثر قدرة
من أنشار والد أبيه

20 لم يكن له معناهٍ قط
إذا قورن بالالهة إخوته[13].

نشوب الأزمة الأولى

هؤلاء الآلهة إخوته، حين
شكّلوا تجمّعا،
أثاروا قلق تيامت
وحين أحدثوا الجَلَبة(؟)
وجعلوا داخل
تيامت يضطرب
أزعجوا بألعابهم
قلب «المسكن الالهي»[14]

25 لم يتمكن أبسو
من إخماد ضجيجهم
بينما بقيت تيامت
هادئة الأعصاب تجاههم:

---

(12) نوديمود هو ايا، او انكي آله الفطنة والذكاء والماء العذب. ومعناه بالسومرية: الذي هو مختص بالخلق والانجاب او الصنع.

(13) يتابع النص هنا فكرة الارتقاء والتطور بمجرد تسلسل أجيال الالهة، وذلك اعداداً لبلوغ قمة التفوّق مع مردوخ عند ولادته في الفترة التالية، وتعبير «الالهة اخوته» يُعِدُ منذ الآن لفكرة مجمع الالهة المستقبلي.

(14) يعتبر النص حتى الآن ان الالهة لا يزالون يعيشون في وسطهم البدئي داخل تيامت، او داخل المياه البدئية ابسو. تيامت.

كانت أعمالهم
مكروهة لديها
وتصرفاتهم تستحق اللوم
ولكنها كانت متساهلة معهم
عند ذلك، عمد أبسو
مولّد الالهة ـ العظام

30 الى مناداة مومّو[15]
قائلاً له:
«أي مومّو، أنت حاجبي
الذي يبهج قلبي
تعال،
ولنذهب لمقابلة تيامت»!
توجّها إذن إليها
وهما جالسان أمام تيامت
تكلّما وناقشا
بصدد الالهة ابنائهما

35 فتح أبسو فمه
رفع صوته
وقال لتيامت:
«تصرفاتهم
تزعجني
أنا لا أرتاح نهاراً
وفي الليل لا أنام
أريد إفناءَهم[16]

(15) مومّو (Mummu) هو هنا حاجب ابسو ويُمثّل مع ابسو الآلهة القدامى الذين أزعجهم حيوية الآلهة الجدد الذين شكّلوا تجمّعهم.
(16) التعبير الحرفي: تحويلهم الى العدم.

والغاء نشاطاتهم

40 لكي يُستعاد الهدوء
ولكي نتمكن نحن من النوم
تيامت
لدى سماعها ذلك
اشتد غضبها
وأطلقت الشتائم ضد قرينها،
علا هياجها
ووجهت اللوم بمرارة الى أبسو
لأنه لمّح وضمر
الشرّ في قلبه:

45 «لماذا تريد ان تهدم بأنفسنا
ما نحن صنعناه؟
نعم، تصرفاتهم بغيضة جداً؟
فلتحلّ بالصبر والتسامح»[17].
آنئذٍ بادر مومّو بالكلام
ناصحاً أبسو
ومع أنه لم يكن سوى حاجب
فإنه ناقض رأي مولدته:
«أخمد إذن يا أبي
هذا النشاط الكثير الشغَب

50 لكي ترتاح نهاراً
وفي الليل لكي تنام»!

---

(17) يتضح من خلال هذه المواجهة بين أبسو وتيامت انهما لم يعودا ممتزجين كما في البداية وان لكل منهما شخصية كما يتضح ان السلطة تمثلها تيامت الام.

ابتهج ابسو لسماع ذلك
وانفرجت معالم ـ وجهه،
متمثلاً الشرّ الذي أعده
ضد ابنائه الآلهة
أحاط بذراعه
عنق مومّو
الذي جلس على ركبتيه
وقبّله أبسو

تدخل الإله إيا

55 الا ان كل ما أعدّه (أبسو)
خلال اجتماعهما[18]
تمّ نقله
للآلهة ابنائهما
ولدى اطلاعهم على ذلك
اهتاج هؤلاء الآلهة
ثم ركنوا الى الهدوء
ولاذوا بالصمت
غير ان الفائق الذكاء
المجرب والنافذ البصيرة

60 إيا الذي يتفهّم كل شيء
كشف مخططهم
وأعدّ بصدد أبسو
مشروعاً كاملاً
وحين جهّز ضده رقية

(18) أي اجتماع ابسو وتيامت ونية ابسو التي تلت ذلك.

سحره الأقوى
تلاها أمامه،
وبواسطة شراب سحري هدّأه
فاستولى عليه النعاس
ونام بغبطة ساذجة

65 أما مومّو مستشاره، فقد كان
غبياً لدرجة حالت دون تدخّله(؟)
عند ذلك عمد إيا الى نزع عصابة جبين أبسو
وجرّده من تاجه
كما صادر تألقه الخارق ـ للطبيعة[19]
وأحاط نفسه به،
ثم طرح (أبسو) أرضاً
وانتزع حياته
ثم سجن مومّو
وأحكم إغلاق باب (سجنه).

إقامة إيا مقره فوق أبسو:

أقام بعد ذلك فوق أبسو[20]
مسكنه
وجرّ مومّو ممسكاً إياه
بزمام ـ في ـ أنفه
وهكذا، بعد ان أبطل إيا
وأعدم حركة ـ مُضمرَيْ الشرّ هذين
وحقق هذا
النصر على خصميه

(19) يقصد بذلك تألق الآلهة وهو بهاء لا يملكه سوى الالهة العظام.
(20) نرى هنا أن ابسو بعد القضاء عليه من قبل إيا، يتحول أو يعود الى مادته الأساسية التي هي المياه العذبة وفيها بنى إيا مقرّه ومن الآن فصاعداً يتخذ ابسو هذا المعنى في مختلف النصوص الأخرى.

75 وبداخل مقرّه
عمد الى الراحة بهدوء تام:
أطلق على هذا القصر تسمية أبسو
وعيّن فيه قاعات ـ الاحتفال
وفيه أيضاً، أعدّ
حجرة ـ زفافه
حيث استقر إيا، مع دامكينا[21]
قرينته بكل جلال

ولادة الإله مردوك وإعجاب جدّه به:

ففي حرم ـ الأقدار هذا،
في هذا الهيكل ـ لتحديد ـ المصائر

80 تمت ولادة الاله الأكثر ذكاء
الحكيم بين الآلهة والسيّد
في وسط الابسو
تمت ولادة مردوخ،
في قلب الابسو ـ المقدس
تمت والدة مردوخ
مولّده
إيا أبوه
ومولّدته
أمّه دامكينا

85 لم يرضع قط
سوى الأثداء الالهية
والمرضعة التي ربّته

(21) دامكينا Damkina قرينة إيا وتذكر هنا للمرة الاولى اعداداً لولادة مردوخ.

ملأته بحيوية فائقة
طبيعته كانت طافحة
ونظرته ساطعة
كان رجلاً ـ كاملاً منذ ولادته
وبكامل قوته منذ البداية
وحين رآه آنو
والد أبيه

90 إمتلأ بهجة وأشرق وجهه
وكان قلبه عظيم الارتياح
وعندما نظر اليه مليّا، (قال)
«ألوهيته مختلفة
إنه أكثر روعة (من بقية الالهة)
ويفوقهم في كل شيء
تكوينه لا مثيل له
ومدهش شكله
من المحال تصوّره
لا أحد يتحمل النظر اليه.

95 عيونه أربع
وآذانه أربع
وعندما يحرك شفتيه
فإن ناراً تتوهج
أربع آذان
نبتت له
وعيونه ذات العدد المماثل
تراقب الكون
إنه حقاً الأسمى بين الآلهة
وذو القامة الأكثر علواً

100 ضخمةٌ هي أعضاؤه
وهو فائق السمو منذ ولادته
إبني هو أوتو[22]
ابني هو أوتو
ابني هو شمس:
شمس الآلهة الحقيقية
يحيط به التألق الخارق للطبيعة لعشرة آلهة
إنه متوج به بشكل رائع
وخمسون إشعاعاً رهيباً
يصدر عنه».

هدية الجدّ آنو لمردوخ ونشوب الأزمة الثانية:

101 عند ذلك شكّل آنو، وأوجدَ
الرياح الأربع
التي أهداها لمردوخ (قائلاً)
«لكي يلعب بها ولدي»!
وهكذا صنع مردوخ الغبار
وجعل العاصفة تحمله
وإذ سبّب الهياج
جعل تيامت تضطرب
وباضطرابها، كانت تيامت
تهتز ثائرة ليل نهار

110 والآلهة (أبناؤها) دونما انقطاع
كانوا يتلقون ضربات ـ الرياح(؟)
وحين ضمروا الشرّ
في قلوبهم

(22) منذ مقابلة ابسو تيامت للاحتجاج، وقبل القضاء على ابسو، بطل مفهوم المياه البدئية الممتزجة وأصبح لكل من ابسو وتيامت شخصيته المستقلة.

توجهوا لأنفسهم
الى تيامت أمهم (قائلين)
«عندما تمّ القضاء
على قرينك أبسو
لم تدافعي عنه
وبقيت خرساء والآن، بعد ان صنّع آنو
الرياح ـ الأربع الرهيبة
فإن داخلك أصابه اضطراب كبير
ولم نعد نستطيع النوم.
أبسو قرينك
لم يعد فيك[22]
ولا مومّو الذي قُيّد
وهكذا بقيت وحدك
(الـ)ـتِ إذن (أمـ)ـنا؟
فها أنت مهتزة وعظيمة الاضطراب

120 ونحن الذين لا نستريح قط
أنت ألم تعودي تحبّيننا إذن؟
لقد جمدت أعيننا
ونحن (دون نوم) على أسرّتنا(؟)
خلّصينا من هذا النير المستمر
لكي نتمكن أخيراً من النوم
انهضي اذن (وثوري عليهم(؟))
انتقمي منهم
(أحيليهم الى العدم(؟))
وحوّليهم الى أشباح»[23]

(23) وفقاً للاعتقاد الذي يجعل البشر يتحولون الى اشباح بعد الموت وقد طبق هنا على الآلهة أنفهسم.

تيامت تستعد للحرب

125 حاز هذا الخطاب رضى تيامت
لدى سماعها إياه و(قالت):
«بما أنكم قررتم ذلك مجتمعين
فلنصنع العواصف»
وبما ان آلهة آخرين
(كانوا انضمّوا) الى الداخل[24]
وكانوا هم أيضاً ضمروا (الشر)
ضد ابنائهم الآلهة[25]
وهم ملتفّون في دائرة
حول تيامت

130 غاضبون ومتآمرون دون كلل
ليل نهار
يحمّس للقتال بعضهم بعضاً
يضربون الأرض بأرجلهم وهم مهتاجون
عقدوا مجلساً
بقصد إعداد الحرب
والأم - الهَوّر
التي شكّلت كل شيء
أعدت لنفسها أسلحة لا تقاوم
إذ ولدت تنينات عملاقة[26]

135 ذات أسنان (حا) دة
وأنياب لا ترحم

(24) اي داخل تيامت.
(25) يتضح ان آلهة قدامى انضموا الى تيامت، ونستبعد ان يكون الصراع القائم صراعاً بين الأجيال، بل كان صراعاً على السلطة.
(26) نلاحظ هنا تيامت تولّد وتخلق بمفردها دونما حاجة لأبسو، قرينها السابق، الكائناتالرهيبة والمخيفة.

ملأت أجسادها
بالسمّ عوضاً عن الدمّ،
(كما ولّدت) حيّات شرسة.
ألبستها ثوب الرعب
وحمّلتها بالتألّق الخارق الطبيعة
مما جعلها مثيلة الآلهة:
«من يرها
تنهار قواه

140 ويمجرد دفعها للانقضاض (قالت)
فإنها لا تتراجع قط»!
كما فتّقت أيضاً وحوشاً مائية
وتنّينات ـ هائلة ومسوخاً بحرية
وكذلك أسوداً جبارة
وكلاب حراسة هائجة وبشراً وعقارب
ومسوخاً هجومية
وبشراً ـ أسماكاً وثيراناً وحشية ـ ضخمة:
جميعهم شاهرون أسلحة لا ترحم، (وهم)
لا يعرفون الخوف في المعارك

145 لا حدّ لما خُوّلوه من قدرات
ومقاومتهم غير ممكنة
هكذا حقاً، صنعت
هؤلاء الأحد عشر
ثم بعد ذلك وفي وسط الآلهة ابنائها
الذين عقدوا مجلسهم معها
رفعت من قدر كنغو[27]

(27) كينغو (Quingu) الشخصية التي سلمتها تيامت القيادة والسلطة.

مانحة إياه، أعلى مرتبة بينهم:
(وهي) السير على رأس الجيش
وادارة مجلس ـ الحرب

150 (وكذلك) إصدار الأوامر للالتحام
وقيادة المعركة
والسلطة التامة
على المحاربين
كل ذلك سلّمته إياه
وأجلسته على كرسي ـ الشرف
(قائلة): «لقد لفظت من أجلك العبارة (السحرية)
منحتك
الامارة عليهم جميعاً

155 كن إذن الأعظم بينهم
وكن قريني الوحيد
وليشد باسمك
أمام جميع الانوناكي»![28]
ثم سلمته لوحة ـ الاقدار
التي ثبتها على صدره (معلنةً):
«لتكن أوامرك غير قابلة للرد
ولتتحق (كلمتك)!»[29]
هكذا تمّ إعلاء شأن كينغو
ووضِعَت بيده السلطة العليا

160 ومن أجل الآلهة ابنائها

(28) Anunnaki
(29) تيامت، هي تملك لوحة الاقدار وهي التي تمنح السلطة.

(قررت لهم (تيامت) هذا المصير
«بمجرد ان تفتحوا أفواهكم
تطفئون النار
وليتمكن سمّكم المكثف
من التغلّب على الظلم».

اللوحة الثانية

وصول أخبار استعدادات تيامت الى إيا وتوجهه الى أنشار

1 وإذ استنهضت
تيامت صنائعها
جمعت جيوشها من أجل المعركة
ضد ذريتها من الآلهة
ومنذ ذلك الحين(؟) وأكثر من أبسو
أظهرت تيامت علائم الشرّ!
ونُقلت الأخبار الى إيا
بأنها استنفرت ـ قواها ـ للقتال

5 وعندما تعرّف إيا
على هذه القضية
بقي في البداية مشدوها، دون حركة
وبقي صامتا
إلا أنه بعد ان عمد الى التفكير
وبعد هدوء غضبه
توجّه شخصياً
لمقابلة جدّه أنشار
دخل الى حضرة أنشار
والد. مولّده

10 وكرر على مسامعه

المؤامرة التي أعدّتها تيامت:
«أي أبي، مولّدتنا تيامت
وجّهت نحونا حقدها
عندما عقدت مجلسها
ازبدت غضباً
والآلهة جميعهم
أحاطوا بها؛
وحتى الآلهة الذين صنعتهم أنت
انحازوا اليها!

15 وهم ملتفون في دائرة
حول تيامت
غاضبون ومتآمرون دون كلل
ليل نهار
يحمّس للقتال بعضهم بعضا
يضربون الأرض بأرجلهم وهم مهتاجون
عقدوا مجلسا
بقصد إعداد الحرب
والأم - الهور
التي شكّلت كل شيء

20 اعدت لنفسها أسلحة لا تقاوم
إذ ولّدت تنينات عملاقة
ذات أسنان حادة
وأنياب لا ترحم
ملأت أجسادها
بالسم عوضا عن الدمّ،
(كما ولّدت) حيّات شرسة
ألبستها ثوب الرعب

وحمّلتها بالتألق الخارق الطبيعة
مما جعلها مثيلة الآلهة

25 «من يرها
تنهار قواه
وبمجرد دفعها للانقضاض (قالت)
فإنها لا تتراجع قط
كما فتقت أيضاً وحوشاً مائية
وتنّينات ـ هائلة ومسوخاً بحرية
وكذلك أسودا ـ جبارة
وكلاب حراسة هائجة وبشراً ـ عقارب
ومسوخاً هجومية
وبشراً ـ أسماكاً ـ وثيراناً وحشية ـ ضخمة

30 جميعهم شاهرون أسلحة لا ترحم، (وهم)
لا يعرفون الخوف في المعارك
لا حدّ لما خُوّلوه من قدرات
ومقاومتهم غير ممكنة
هكذا صنعت حقا
هؤلاء الأحد عشر
ثم بعد ذلك وفي وسط الآلهة ابنائها
الذين عقدوا مجلسهم معها
رفعت من قدر كنغو
مانحة أياه، أعلى مرتبة بينهم
(وهي) السير على رأس الجيش
وادارة مجلس ـ الحرب
(وكذلك) إصدار الأوامر للالتحام
وقيادة المعركة
والسلطة التامة

على المحاربين
كل ذلك سلّمته إياه
وأجلسته على كرسي ـ الشرف
(قائلة): «لقد لفظت من أجلك العبارة (السحرية)
وجعلتك على رأس مجمع الآلهة

40 منحتك
الامارة عليهم جميعاً
كن إذن الأعظم بينهم
وكن قريني الوحيد
وليشد باسمك
أمام جميع الانوناكي
ثم سلمته لوحة ـ الأقدار
التي ثبتتها على صدره (معلنةً):
لتكن أوامرك غير قابلة للردّ
ولتتحقق كلمتك

45 هكذا تمّ إعلاء شأن كينغو
وضعت بيده السلطة العليا
ومن أجل الآلهة ابنائها
قررت لهم تيامت هذا المصير
بمجرد ان تفتحوا أفواهكم
تطفئون النار
وليتمكن سمّكم المكثّف
من التغلّب على الظلم»!
عندما تعرّف انشار
على هذه القضية الخطيرة(؟)
ضرب بكفّه على فخذه(؟)
وعضّ على شفتيه:

وكان داخله غير مرتاح
وقلق خاطره
ولكن لدى رؤيته لإيا حفيده
تبددت مخاوفه
«أنت شخصياً (قال له) (؟)
كن أنت خصمها في المعركة
ردّ صدمة
الهجمات التي تشنّا ضدك
أنت الذي قيدت مومّو
وقضيت على أبسو:
وأمام تيامت الغاضبة
أنّى لنا نجد ندا أفضل منك؟
الست انت
الذي تتفوّ بالحكمة
مستشار الآلهة
نوديمّود؟

هنا سطرين لم يمكن قراءتهما.

60 عند ذلك فتح إيا
فمه قائلاً:
«يا أنت المفكر العميق
الذي يقرر المصائر
أنت وحدك مالك السلطة
الخلق والابادة
انشار يا ذا الفكر العميق
الذي يقرر المصائر
لك وحدك السلطة
الخلق والإبادة.

65 الأمر الذي أصدرته لي
نحن ننفذه على الفور
وبمجرد ان قمت

هنا تسعة أسطر لا يمكن قراءتها بوضوح

تكليف إيا وعزوفه

عندما سمع أنشار هذا الخطاب
رضي به
ابدى موافقته
قائلاً لإيا
«فليبتهج...
قلبك
تصرّف تيامت المعيب
يجب ان يعاقب
خض إذن المعركة
ضد تيامت

سطران ممحيان

ذهب إيا، عند ذلك محاولاً كشف
مخططات تيامت
ولكنه...
قفل راجعاً
ولم يتمكن إذن
أن يكون منتقم الآلهة

80 ثم عاد لمقابلة أنشار
وتوجه اليه قائلاً:

سبعة أسطر غير واضحة للقراءة...

من اذن بمقدوره ان يتقدم نحوها

85 ويحيلها الى الصمت

....

هذا ما حدا بي

ان أرجع أدراجي

ومع ذلك يبقى آنو

أرسله عوضاً عني».

هنا عشرة أسطر ممحية كلياً لا يمكن قراءتها.

تكليف آنو بالمجابهة وعجزه

وجّه إذن أنشار هذه الكلمات

الى آنو ابنه:

أي آنو، هذا هو

سلاح الأبطال الخارق للطبيعة

95 قدرته عجيبه

وضرباته لا تقاوم

اذهب اذن شخصياً

وانتصب لمجابهة تيامت

لكي تهدأ نفسها

وينفرج قلبها

وإذا ما رفضت

سماع كلماتك

استعذ برقية (...)

سوف تسكّنها

100 بعد ان سمع آنو

ما وجهه اليه أبوه أنشار
اتخذ طريقه نحوها
نحو تيامت وجه خطاه
ذهب آنو
ولكنه عندما اكتشف مخططات تيامت
تملكه الخوف
وقفل راجعاً
ولدى عودته لمقابلة
انشار أبوه ومولّده

105 انه....
ووجه كلامه اليه
«.....
كانت لها الغلبة عليّ».

نقص في اللوحة يقدر بحوالي عشرة اسطر...

إنها.... يدها
ووضعتها عليّ»
كان أنشار مأخوذاً
ينظر الى الأرض
وَيِهَزُّ رأسه
كان يوجه اشارات لإيا
ولما كان الايجيجي[30] حاضرين جميعهم
مع الانورناكي هذا المجلس العمومي:
كانت شفاههم مغلقة
وظلوا صامتين
لا أحد من الآلهة
عمد الى التقدم....

(30) الايجيجي (Igiggi) هم مع الانوناكي (Anunnaki) مجموع آلهة ما فوق وما تحت.

ولا الخروج
لمجابهة تيامت
وأبو الآلهة العظام
انشار كان....

مشجعاً من قبل والده إيا، الاله مردوخ يعرض نفسه للمجابهة

عند ذلك، نادى إيا الخفيّ
والحامي للجميع
وليّ العهد الكلي - القدرة
المنتقم لآبائه
مردوخ البطل
المتعطش للقتال
ناداه إيا
حيث كان في صفّ خلفي[31]
شارحاً له
الخطة التي تصوّرها في قلبه
«أي مردوخ
استمع الى نصيحة والدك

120 انت يا ولدي
الذي تفرج نفسي
تقدم نحو انشار
مقتربا منه كثيراً وأمامه
أعلن عن نفسك، وأنت واقف
وسوف يرتاح لرؤيتك
ابتهج الإله مردوخ
كلمات أبيه
وباقترابه

(31) في مجمع الآلهة كان مردوخ بالنسبة لسنّه يقف أو يجلس في الصفوف الخلفية.

وقف مقابل أنشار

125 رآه انشار،
فامتلأ قلبه ارتياحاً
قبّل مردوخ شفتيه
وبدّد قلقه (قائلاً):
يا أبتي لا تغلق شفتيك
بل اجعلهما تنفتحان

?130 أريد الذهاب
لتحقيق كل ما ترغب
أي ذكر قام حتى الآن
بخوض القتال من أجلك»؟
(انشار) - «يا ولدي، تيامت الانثى[32]
سوف تتقدم نحوك بأسلحتها»
مردوخ - «أي أبي ومولّدي
ابتهج وتهلّل:
قريباً سوف تدروس شخصياً برجليك
رقيه تيامت

?135 أي انشار أبي ومولدي
ابتهج وتهلّل
سريعاً سوف تدوس شخصياً برجليك
رقية تيامت
أنشار - إذهب إذن يا ولدي
التامّ الحكمة
اجعل تيامت تهدأ

(32) تبدأ هنا بالانضاح معالم المعركة بين الذكورة والانوثة أي بين النظام الابوي ونظام الأمومة الذي كان بيد تيامت.

بواسطة سحرك الرفيع
قُد باقصى سرعة
عربة الحرب ذات العواصف

140? ولكن إذا لم ترضخ(؟) بعد الهجوم
عُدْ على عقبيك»

مردوخ يطالب بسلطات مطلقة

فَرِحَ الإله السيد
لسماع خطاب أبيه
وبقلب تملؤه البهجة
أعلن لهذا الأخير:
«أي سيّد الالهة
الذي يقرر مصير الآلهة ـ العظام
إذا كان عليّ انا
الانتقام لكم:

145? والإحاطة بتيامت
لأنقاذكم
اعقدوا مجلساً
وامنحوني سلطة فائقة
في قاعة ـ اتخاذ ـ القرارات
اجتمعوا بكاملكم مسرعين
وأقروا فـ يمكان ـ اجتماعكم، بكلمة واحدة منكم،
ان أفوّض بتقرير المصائر
وان لا يُبدّل أي شيء
في ما سوف أنظمة بنفسي

150? وان يبقى كل قرار صادر عن شفتي

دون معارضة، وغير قابل للنقض».

اللوحة الثالثة

مجمع الآلهة يقرر

1 عند ذلك، فتح
أنشار فمه
موجّها هذه الكلمات
الى كاكا[33] حاجبه
«كاكا يا حاجبي
الذي يُرضي قلبي
نحو جميع لحمو ولحامو
أريد ايفادك

5 انت الذي يتقن محاكمة الامور
والذي هو قادر على الخطابة
اعمل لكي تحضر أمامي
الآلهة آبائي
وليُؤتَ اليّ إذن
بالآلهة بكاملهم
لعقد مؤتمر (عام)
واتخاذ أماكنهم في الوليمة
آكلين خبزهم
وشاربين جعتهم
ولا قرار مصير مردوخ
المنتقم لهم
آذهب يا كاكا
وأمامامهم واقفا
كرر لهم

(33) كاكا (Kaka) اسم حاجب انشار.

كل ما أقوله لك هنا:
«ابنكم انشار
أوفدني
لأعرض عليكم بالتفصيل
المنتقم لهم
اذهب ياكاكا
وأمامهم واقفاً
كرر لهم
كل ما أقوله لك هنا:
«ابنكم انشار
أوفدني
لأعرض عليكم بالتفصيل
ما أملاه عليه قلبه

15 مولّدتنا تيامت
وجهت نحونا حقدنا
عندما عقدت مجلسها
ازبدت غضبا
والآلهة جميعهم
أحاطوا بها
وحتى الآلهة الذين صنعتموهم
انحازوا لجهتها
وهم ملتفون في دائرة
حول تيامت

20 غاضبون ومتآمرون دون كلل
ليل نهار
يحمّس للقتال بعضهم بعضا
يضربون الأرض بأرجلهم وهم مهتاجون

عقدوا مجلساً
يقصد اعداد الحرب
والأم ـ الهور
التي شكّلت كل شيء
أعدت لنفسها أسلحة لا تقاوم
إذ ولّدت تتينات عملاقة

25 ذات أسنان حادة
وأنياب لا ترحم
ملأت أجسادها
بالسُمّ عوضا عن الدم
(كما ولّدت حيّات شرسة
ألبستها ثوب الرعب
وحمّلتها بالتألق الخارق للطبيعة
مما جعلها مثيلة الآلهة
«من يرها
تنهار قواه

30 وبمجرد دفعها للانقضاض (قالت)
فإنها لا تتراجع قط»
كما فتّقت أيضا وحوشاً مائية
وتنّينات ـ هائلة ومسوخاً بحرية
وكذلك أسوداً ـ جبارة
وكلاب حراسة هائجة وبشراً ـ عقارب
ومسوخاً هجومية
وبشر ـ اسماكاً وثيراناً وحشية ـ ضخمة:
جمكيعهم شاهرون اسلحة لا ترحم (وهم)
لا يعرفون الخوف في المعارك

35 لا حدّ لما خُوّلوه من قدرات
ومقاومتهم غير ممكنة
هكذا حقا صنعت
هؤلاء الاحد عشر
ثم بعد ذلك وفي وسط الآلهة ابنائها
الذين عقدوا مجلسهم معها
رفعت من قدر كينغو
مانحه إياه، أعلى مرتبة بينهم
(وهي) السير على رأس الجيش
وادارة مجلس ـ الحرب

40 (وكذلك) اصدار الاوامر للالتحام
وقيادة المعركة
والسلطة التامة
على المحاربين
كل ذلك سلمته إياه
وأجلسته على كرسي ـ الشرف
(قائلة): لقد لفظت من أجلك العبارة (السحرية)
وجعلتك على رأس مجمع الآلهة
منحتك
الامارة عليهم جميعا

45 كن اذن الاعظم بينهم
وكن قريني الوحيد
وليشد باسمك
أمام جميع الانوناكي».
ثم سلمته لوحة ـ الأقدار
التي ثبتتها على صدره (معلنةً):
لتكن اوامرك غير قابلة للردّ

ولتحقق كلمتك»!
هكذا تمّ اعلاء شأن كينغو
ووضعت بيده السلطة العليا

50 ومن أجل الآلهة ابنائها
قررت لهم تيامت هذا المصير
بمجرد ان تفتحوا أفواهكم
تطفئون النار
وليتمكن سمّكم المكثّف
من التغلّب عن الظلم»
أرسلتُ آنو
ورلكنه لم يتمكن من الصمود أمامها
ونوديمّود، مرعوبا
عاد على عقبيه

55 عند ذلك تقدّم مردوخ
حكيم الآلهة، ابنكم:
دفعته بسالته
للذهاب لمجابهة تيامت
الا انه وبشكل صريح
أعلن لي شخصياً:
«إذا كان عليّ أنا
الانتقام لكم
والاطاحة بتيامت
لانقاذكم،

60 اعقدوا مجلساً
وامنحوني سلطة فائقة
في قاعة ـ اتخاذ ـ القرارت

اجتمعوا بكاملكم مسرعين
وأقرّوا في مكان ـ اجتماكم بكلمة واحدة منكم
ان افوّض بتقرير المصائر:
وان لا يبدّل أي شيء
في ما سوف أنظمه بنفسي
وان يبقى كل قرار صادر عن شفتيّ
دون معارضةٍ، وغير قابل للنقض».

65 أسرعوا إذن بالمجيء
لكي تصدروا له، دون تأخير، قراركم
حتى يتوجه للقاء
عدوتكم الشرسة»
ذهب كاكا
موجها خطاه
نحو اللحمو واللحامو
الآلهة آبائه
سجد أمامهم
وقبّل الأرض

70 ثم انتصب
ووقوفا توجه اليهم (قائلاً):
«ابنكم أنشار
أوفدني
لأعرض عليكم بالتفصيل
ما أملاه عليه قلبه
مولدتنا تيامت
وجهت نحونا حقدها
عندما عقدت مجلسها
أزبدت غضباً

75 والالهة جميعاً
أحاطوا بها
وحتى الآلهة الذين صنعتموهم
انحازوا اليها
وهم ملتفون في دائرة
حول تيامت
غاضبون ومتآمرون دون كلل
ليل نهار
يحمّس للقتال بعضهم بعضاً
يضربون الارض بأرجلهم وهم مهتاجون

80 عقدوا مجلساً
بقصد اعداد الحرب
والأم - الهور
التي شكّلت كل شيء
أعدت لنفسها اسلحة لا تقاوم
إذ ولّدت تنينات عملاقة
ذات أسنان حادّة
وأنياب لا ترحم
ملأت أجسادها
• بالسُمّ عوضا عن الدم،

85 (كما ولّدت) حيّات شرسة
ألبستها ثوب الرعب
وحملتها بالتألق الخارق الطبيعة
مما جعلها مثيلة الآلهة
« من يرها
تنهار قواه
وبمجرد دفعها للانقضاض (قالت)

فإنها لا تتراجع قط»!
كما فتّقت أيضاً وحوشاً مائية
وتنّينات ـ هائلة ومسوخاً بحرية

90 وكذلك أسوداً ـ جبارة
وكلاب حراسة هائجة وبشرا ـ عقارب
ومسوخاً هجومية
وبشراً ـ أسماكاً وثيراناً وحشية ـ ضخمة
جميعهم شاهرون أسلحة لا ترحم، (وهم)
لا يعرفون الخوف في المعارك
لا حدّ لما خولوه من قدرات
ومقاومتهم غير ممكنة
هكذا حقاً صنعت
هؤلاء الاحد عشر

95 ثم بعد ذلك وفي وسط الآلهة ابنائها
الذين عقدوا مجلسهم معها
رفعت من قدر كينغو
مانحة إياه، أعلى مرتبة بنيهم:
(وهي) السير على رأس الجيش
وادارة مجلس ـ الحرب
(وكذلك) اصدار الأوامر للالتحام
وقيادة المعركة
والسلطة التامة
على المحاربين:

100 كل ذلك سلّمه إياه
وأجلسته على كرسي ـ الشرف
(قائلة): لقد لفظت من أجلك العبارة (السحرية)

وجعلتك على رأس مجمع الآلهة،
منحتك
الامارة عليهم جميعاً
كن اذن الاعظم بينهم
وكن قريني الوحيد
وليشد باسمك
أمام جميع الانوناكي

105 ثم سلمته لوحة ـ الاقدار
التي ثبتتها على صدره (معلنة):
لتكن أوامراك غير قابلة للرد
ولتتحقق كلمتك
هكذا تمّ اعلاء شأن كينغو
ووضعت بيده السلطة العليا
ومن أجل الآلهة ابنائها
قررت لهم تيامت هذا المصير
بمجرد ان تفتحوا أفواهكم
تطفئون النار

110 وليتمكن سمّكم المكثّف
من التغلّب على الظلم
أرسلت آنو
ولكنه لم يتمكن من الصمود أمامها
ونوديمّود، مرعوبا
عاد على عقبيه
عند ذلك تقدم مردوخ
حكيم الالهة، ابنكم:
دفعته بسالته
للذهاب لمجابهة تيامت.

115 إلا أنه وبشكل صريح
أعلن لي شخصيا
«إذا كان عليّ شخص
الانتقام لكم
والإحاطة بتيامت
لأنقاذكم
اعقدوا مجلساً
وامنحوني سلطة فائقة
في قاعة ـ اتخاذ ـ القرارات
اجتمعوا بكاملكم مسرعين

120 وأقروا في مكان ـ اجتماعكم، بكلمة واحدة منكم
ان أفوّض بتقرير المصائر:
وان لا يبدّل أي شيء
في ما سوف أنظمه بنفسي
وان يبقى كل قرار صادر عن شفتيّ
دون معرضة، وغير قابل للنّقض»
اسرعوا اذن بالمجيء
لكي تصدروا له، دون تأخير قراركم
حتى يتوجه للقاء
عدوتكم الشرسة»

125 لدى سماع لحمو ولحامو ذلك
أطلقا صراخاً عالياً
وجميع الايجيجي
تساءلوا بمرارة متعجبين
أي عمل عدائي ارتكبنا
لكي تتخذ ضدنا مثل هذا القرار

نحن نجهل من جهتنا
مؤامرة تيامت».
ركضوا (لتوّهم) وبدون نظام
ليكونوا قرب أنشار

130 جميع الآلهة - العظام
الذين يقرّون المصائر
حين وصلوا أمام أنشار
ملأتهم البهجة
وتعانقوا فيما بينهم (للتحية)
وفي مؤتمرهم العام
عقدوا اجتماعهم للتداول
واتخدوا اماكنهم في الوليمة:
أكلوا خبزهم
وشربوا جعتهم
وبالشراب - العذب - المثمل
ملأوا مصاصات - شربهم
وهم يرتشفون هكذا شرابهم - المسكر
كانوا يشعرون بارتخاء اجسادهم
وبدون أي همّ شاغل
كانت نفوسهم جذلة

138 وهكذا قرروا المصير
لمردوخ المنتقم لهم.

اللوحة الرابعة

مردوخ يُمنح جميع الصلاحيات

1 أقاموا من أجله
المنصه - الملكية

ومقابل آبائه
استقر عليها كمليك
«وحدك (أعلنوا أمامه) أنت الاسمى
بين الآلهة ـ العظام
قدرك لا مثيل له
وسائدة أوامرك

5 أي مردوخ، وحدك أنت الأسمى
بين الآلهة ـ العظام
قدرك لا مثيل له
وسائدة اوامرك
من الآن فصاعداً
لا مردّ لقراراتك
ترفع وتخفض شأن من تشاء،
سوف يكون ذلك طوع ارادتك
والكلمة التي تخرج من فمك ستتحقق
ولن تكون قط اوامرك مضلّلة

10 لا أحد، بين الآلهة
سيتجاوز الحدودو التي تضعها
وبما ان اماكن ـ اقامة ـ طقوسنا
تحتاج الى قيّم
سوف يكون لك مكانك الخاص
في جميع هياكلنا
أي مردوخ، انت وحدك
أنت المنتقم لنا،
نخصك بالسيادة
على كامل الكون

15 سوف تكون كلمتك هي النافذة
عندما تعقد مجلس مجمع الآلهة
وأسلحتك بلا ريب
سوف تمزّق اعداءك
أيا الاله السيد، انقذ حياة
من لجأوا اليك.
وكل من ضمر الشر
اهرِق دمه»
وبعد ان أحدثوا في وسطهم
كوكبة وحيدة [34]،

20 وجهوا هذه الكلمات
الى مردوخ ابنهم:
«إذا كان قدرك أيها الاله
يوازن حقاً قدر بقية الآلهة
أصدر امرك لكي يتحقق
اختفاء ثم ظهوراً
بكلمة من فمك
فلتختف هذه الكوكبة
وبأمر آخر فلتعد
للظهور ـ كاملة»

25 بكلمة منه أمر مردوخ
فاختفت الكوكبة
ثم أصدر أمراً جديدا
فأعيد تشكيل الكوكبة
عندما تعرّف الآلهة آباؤه

(34) يتعمد النص ان تكون الكوكبة وحيدة لاختبار قدرة مردوخ ولانه هو الذي فيما بعد سوف يحدث وينظم سير «مصابيح السماء».

على تأثير ما يصدر عن فمه
حيّوه بفرح (معلنين)
«مردوك وحده، هو الملك
وسلّموه بعد ذلك
الصولجان والعرش وعصا ـ الملكية

30 ثم منحوه السلاح ـ الذي ـ لا يضاهى
والذي يطرح ـ الاعداء ـ أرضا
«اذهب الآن
واقطع عنق تيامت
ولتحمل الرياح
دمها الى مكان السرا»[35]
بعد ان حددوا هكذا للاله مصيره
وضعه الآلهة آباؤه
على طريق
النجاح والنصر

مردوخ يستعد للقتال

35 أعد (مردوخ) لنفسه قوسا
وعيّنها سلاحاً له
صَلّى عليها سهما
وشدّ من وترها
ولكي يشهر كتلة ـ سلاحه[36]
قبض عليها بيمينه.
علّق على جنبه
القوس والجعبة

(35) مكان السرّ هو المكان الذي لا يعرفه الا صاحبه حيث يتم اخفاء دمّ العدو منعاً لعودته الى الحياة وسوف يرد هذا التعبير فيما بعد بصدد جناح الطائر انزو الذي اغتصب السلطة.

(36) عبارة عن هراوة تتألف من قبضة وكتلة متعددة الرؤوس.

كما حمّل بالبروق
وجهه

40 وكسا جسده
بشُعَلٍ ملتظية
ثم صنع شبكة
لكي يأسر فيها تيامت
وجمع الرياح الاربع
لكي لا يفلت منها أي شيء
ريح ـ الجنوب وريح ـ الشمال
ريح ـ الشرق وريح ـ الغرب
وعلّق هذه الشبكة الى جانبه
وبالهدية من جده آنو

45 صنع مرّة أخرى ريحاً خبيثة
وعواصف دوّامية
وريحا ـ رباعية القوة، وريحا ـ سباعيتها
وريحا جانحة، وريحا لا تقاوم
وعندما أطلق عنان هذه الرياح
السبع التي شكّلها هبّت جميعها لمواكبته
لكي تقلب تيامت من الداخل.
ثم شهر الإله
سلاحه ـ الأعظم «الطوفان»

50 وركب العربة المرعبة
«الزوبعة التي لا تقاوم»
مُسرجا، مجموعة جرّ رباعية
أعدَّها لها (وهي)
«القاتل» والـ «بلا رحمة»

و«العدو السريع» و«الطيار»
فاغرة فكوكها
ومحمّله بالسمّ أسنانها
مدرّبة على الدرس
ولا تعرف التعب

55 المساعدون الذين اعتمدهم لمؤازرته: على يمينه
«المرهب ـ عند ـ الالتحام» و«القتال»
وعلى يساره: «المعركة ـ التي ـ
تطيح ـ أرضا ـ بالطوابير»(37)
ومرتديا فوق لباسه
درع الرعب
يكسو رأسه
بريق رهيب خارق ـ للطبيعة
ومتوجها نحو الامام
باشر الإله (مردوخ) طريقه

60 توقف حيث
كانت تيامت الهائجة
وكانت على شفتيه
تعويذة سحر
وقبضته مغلقه
على عشبة ـ اطفاء ـ السمّ
ومع ذلك فالآلهة كانوا يحومون حوله
كانوا يحومون حوله
الآلهة آباؤه كانوا يحومون حوله
الالهة كانوا يحومون حوله

(37) تقليد حافظت عليه بلاد اليونان القديمة حيث كان يرافق المحارب في عربته مساعدون ثلاثة اثنان الى يمينه وواحد الى يساره.

وصف المعركة:

65 عند ذلك اقترب الإله
ودرس نوايا تيامت
وكينغو قرينها
محاولا كشف خططهما
ولكن لدى اقترابه منهما
اضطرب تفكيره
وتشتت ارادته
وارتبكت قدرته ـ على ـ التصرف
كذلك الآلهة حلفاؤه
وأنصاره

70 حين شهدوا (وَضْعَ) بطلهم وزعيمهم
تشوشت عقولهم
مما جعل تيامت العنيدة
توجّه اليه سحرها
ومن شفاه هذا الكائن ـ البدائي
ترددت نحوه اكاذيبها (قائلة):
«... ومع انك(؟) لهم(؟) سيد
فالآلهة سوف ينقلبون ضدك(؟) أنت!
هل لمصلحتك أم لمصلحتهم
قد اجتمعوا من حولك؟»

75 ولكن الاله (مردوخ)، حين شهر
«طوفان» سلاحه، الاعظم
وجّه انذاره هذا
الى تيامت، التي كانت ـ تتعمّد ـ اللطافة:
«لماذا انت تتسترين بسيماء ـ الطيبة

في الظاهر
بينما قلبك
خوض المعركة؟
بسبب اخطائك أنتِ، فرّ ابناؤك
واستهزأوا بآبائهم

80 وأنتِ مولّدتهم
تتبذين كل رحمة
لقد سميت لنفسك كينغو
ليكون قرينا لكِ؛
وأجلسته دون حق
على المنصة ـ السامية!
وإلى انشار، ملك الآلهة الحقيقي
تحاولين الاساءة
وقت اثبتّ أذيّتك
للآلهة آبائي

85 فليتأهب جيشك وأعوانك
وليتقلدوا أسلحتهم
وتعالي ـ للقائي
لكي نتشابك أنا وأنت»
سمعت ذلك
تيامت
فجنّ غضبها
وفقدت عقلها
وأخذت تصرخ
هائجة وبأقصى قدرتها:

90 ومن أسفلها الى أعلاها، ومن كل جهة

بدأت تهتز أطرافها
وكانت تتمتم تعويذاتها
ولا تتوقف عن استجلاب الاذى بسحرها
بينما الآلهة المحاربون (أعوانها)
كانوا يشحذون أسلحتهم بأنفسهم
وعندما تقاربا
فإن تيامت ومردوخ حكيم الالهة
تقابلا وتشابكا
وتوصّلا الى الالتحام

95 ولكن الاله، قام بنشر شبكته
وأحاط بها (تيامت)
ثم أفلت ضدها الريح ـ الخبيثة
التي كانت تحرس مؤخرته
وعندما فتحت تيامت
فمها لابتلاعه
أقحم فيه الريح ـ الخبيثة
فمنعها ـ من اغلاق شفتيها
وعند ذلك هبّت كل الرياح الثائرة
فملأت جوفها

100 بحيث أصبح جسدها منتفخاً
وفمها فاغراً
أطلق عند ذلك سهمه
فمزّق به جوفها
ثم شقّ جسدها من منتصفه
وفتح لها بطنها

انتصار مردوخ

هكذا انتصر مردوخ على (تيامت)
مبيداً حياتها
ثم رمى بجثّتها أرضاً
وانتصب فوقها

105 وعندما قام القائد
بالقضاء على تيامت
تفككت فرقها
وتشتتت أركان حربها
بينما الالهة حلفاؤها
ونصراؤها
خائفين ومرتجفين
كرّوا متراجعين
وولّوا أدبارهم
لانقاذ حياتهم

110 ولكنهم كانوا مطوقين من ـ كل ـ جانب
دون امكانية الفرار
أحاط بهم (مردوخ) عند ذلك
وحطّم اسلحتهم
وهم مرميون تحيط بهم الشبكة
غير قادرين على الحركة وهم في فخهم
محشورون جانباً
يملؤهم الأنين
نالوا عقابهم
إذ طُرحوا في السجن

115 أما المخلوقات الاحد عشر

التي يحيط بها الرعب
الحاشية البغيضة
فاقرارها الذين رافقوها جميعهم
وضع لهم أزمّةً ـ في ـ أنوفهم
وقيد سواعدهم
وعلى الرغم من عدوانيتهم
فقد داسهم برجليه
وأخيراً، فإن كينغو
الذي كان رُقيّ من بينهم جميعهم

120 فأطاح به
وجعل منه «الها ـ محكوماً ـ بالموت»
نزع عنه لوحة ـ الاقدار
التي لم تكن تلائمه
وبعد ان طبع عليها ختمه
علّقها على صدره
وبعد ان جمّد حركتهم، وأطاح
بهؤلاء الأشرار
وبعد ان جعل خصومه المتصلّفين
يحنون (؟) رؤوسهم

125 وبعد ان حقق بشكل كامل
نصر أنشار على أعدائه
وبعد ن حقق مردوخ البطل
رغبة نوديمّود
وحين أصبحت سيطرته على
الآلهة المغلوبين وثيقة
عاد في نهاية الامر
الى تيامت التي أطاح بها

فصعد الاله عند ذلك
على القسم السفلي من تيامت

130 وبكتلة ـ سلاحه التي لا ترحم
شدخ جمجمتها
ثم قطعِ
مجاري دمها
وجعل ريح ـ الشمال
تحمله الى السر
وعندما شاهد ذلك آباؤه
هلّلوا وابتهجوا
ومن تلقاء أنفسهم، امروا ان تحمل اليه
التقدمات والهدايا

مردوخ يباشر التكوين وينظّم الكون

135 وبارتياح، عمّد الاله
الى التامل في جثة تيامت
كان ينوي تقطيع (هذا) الجسم الهائل[38]
ليصنع منه العجائب
فشطره الى نصفين
مثل سمكة يُقصد تجفيفها
وتناول نصفها
وقَنطَرَهُ وجعل منه شكل سماء
(ثم) بسط جلده
ووضع عليه حراساً
140 عيّن لهم مهمة
منع تدفق المياه
اجتاز السماء بعد ذلك

(38) بعد القضاء على تيامت فإنها مثل ابسو، تتحول الى مادة السماء وكما أشاد إيا على أبسو مقره، كذلك مردوخ سوف يشيّد على تيامت، على نصفها المشكل كقبة للسماء معبد الايشارا.

ودرس أماكن قاعات ـ الاحتفالات
لكي يقيم فيها نسخة مطابقة للأبسو
مقر نوديمّود[39]
وبعد ان قاس الاله مردوخ أبعاد
مخطط الابسو
أشاد على غراره

145 معبد الايشارا[40] الكبير
الذي أشاده هكذا، وهو السماء
التي جعل آنو وانليل وإيا[41]
يشغلون فيها اماكنهم

اللوحة الخامسة

بعد اقامة السماء، مردوخ يتابع تنظيم الكون

1 كما أعد[42] فيها منازل
الالهة ـ العظام
ثم احدث في مجموعات كوكبية
النجوم التي هي صور لهم؛
عيّن السنة
ورسم لها إطارها
ومن أجل الاشهر الاثني عشر
أحدث لكل منها ثلاث نجوم

5 وعندما أنهى بالنسبة لتتمة السنة
رسم مخططها على هذا الشكل
عمد الى تثبيت المحطة القطبية (؟)

(39) نوديمّود، لقب الاله إيا ومعناه المختص بالخلق والصنع.
(40) الايشارا، ومعناه بيت الكون.
(41) هذه هي المرة الاولى هنا التي يذكر فيها الاله انليل ويلتقى هنا مؤلف او مؤلفو الاينوماايليش مع ثالوث الآلهة الذين تعرّفنا اليهم في قصص التكوين السابقة. والتي يعرفها جيداً مبتدع هذه القصيدة.
(42) اي السماء.

بقصد تعيين تماسك (؟) الكواكب
ولكي يحول دون تمكين أي منها من ارتكاب
خطأ أو إهمال في مسارها
أقام بجوار المسمّاة بالقطبية (؟)
منزلي انليل وإيا
وإذ فتح بعد ذلك من جهتي
السماء بوّابات ـ كبيرة

10 زوّدها بمتاريس قوية
الى اليسار والى اليمين
وفي موضع كبد تيامت
أحدث المناطق ـ السماوية ـ العلوية
ثم جعل نانا (ـ القمر)[43] يظهر
وعهد اليه بالليل
الذي عيّن له الجوهرة الليلية
لتحديد الايام
«في كل شهر، (قال له)» وبدون انقطاع
فليمض قرصك في مسيرته

15 في الأول من الشهر
أضيء بنفسك فوق الارض
ثم حافظ على قرنيك اللامعين
للاشارة الى الأيام الستة الاولى
وفي اليوم السابع
يجب ان يكون قرصك في نصفه
وفي اليوم الخامس عشر، وفي كل منتصف ـ شهر

(43) نانا (Nanna) هي التسمية السومرية للاله القمر لاذي هو سين بالاكادية.

ضع نفسك في اقتران مع شمش[44]
وعندما يتوجه شمش
نحوك وهو في الافق

20 وكما هو ملائم
انقص وتضاءل
وفي يوم التعتيم
اقترب من مسار شمش
لكي تتمكن من جديد في اليوم الثلاثين
ان تدخل في ـ اقتران معه
وباتباعك هذا المسار
عيّن المنذرات.
اقترنا (....)
للتعريف بالأحكام التكهنية

25 وليعمد شمش (...)
(...) الجرائم وأعمال السلب[45]

هنا ثمانية وثلاثين سطرا لا يمكن قراءتها...

45 عندما يكون قد عيّن
اليوم لشمش
وكلّف نانا
بحراسة الليل
قام بتجميع
رُوال تيامت
وبه شكّل مردوخ الغمام؟
الذي كلّف به أدد[46]

(44) شمش Chammash إله الشمس بالاكادية واوتو Utu بالسومرية.
(45) مما بقي من السطر 25 يمكن فهم دور شمش في السهر على العدالة.
(46) ادد (Add) او حدد او هدد اله الرعد والأمطار ومنه هدَت السماء اي ارعدت.

50 وكذلك هبوب الرياح
وسقوط زخّات المطر
ودخان الضباب
وتراكم زبد ـ تيامت[47]
هذا ما عينه لأدد شخصيا
وجعله يأخذ ذلك على عاتقه
ثم بعد ان أعدّ رأس تيامت
كوّم فوقه جبلاً
وأخرج منه ينبوعاً
يرتعش (فيه) سيل (دائم)

55 وفتح في عينيها
دجلة والفرات
كما سدّ منخريها
اللذين خصصهما لـ....
وعلى ضروعها،. كدس
الجبال البعيدة
وحفر فيها عيونا
لكي تسيل مياهها شلالات
وأخيراً قام بليّ ذيلها
وتوثيقه الى الكتلة ـ الشامخة»[48]

60 التي.... من تحتها
الابسو
كما أعد ردف تيامت(؟)
لسند السماء

(47) اي الثلوج التي هي زبد ريال تيامت.
(48) المرابط ـ الشامخ وهي البلاد المرتفعة حيث تلتقي السماء مع الأرض.

ثم سقّف نصفها الاخر (؟)
لتدعيم الارض
وبعد ان أنهى عمله على هذا الشكل
حقق توازنه؟ داخل تيامت
ثم نشر شبكته
ومدّها من كل جهة

65 لتشكّل بذلك غلافا (؟)
للسماء والارض
يؤمّن بشكل تام (؟)
... ارتباطهما (؟)
ثم بعد ذلك خطط لهما قواعد ـ حسن ـ السير
ونسّق انظمة حركتهما
وضع نظام السلطات ـ الموكلة الى الآلهة
وكلّف به إيا[49]
كما تناول لوحة الاقدار
التي صادرها من كينغو

70 وحملها بغية تقديمها الى آنو[50]
كهدية أولى ـ للتأهيل به
وفي شبكة المعركة
التي كان قد علّقها الى جانبه
استجلب أمام آبائه
آلهة عصابة تيامت
وكذلك جميع الكائنات الاحد عشر
التي هي صنيعتها والتي...

(49) إيا (Ea) ولقبه نوديمّود، أي المختص بالخلق والانجاب والصنع وهو والد مردوخ.
(50) آنو (Anu) الاله الذي خصصت له السماء، وهو والد إيا.

إذ ربطها عند رجليه
بعد ان حطّم أسلحتها

75 وجعل منها صورا[51]
وضعها على بوابات الابسو
«قائلاً لكي يكون في ذلك ذكرى
يجب ألاّ تنسى قط فيما بعد»

مبايعة مردوخ الاولى

عندما شاهد الالهة كل هذا ظهرت
عليهم تلقائياً علائم الفرح والابتهاج
وبينهم لحمو ولحامو وآباؤه
جميعهم.
قبّله أنشار[52]
وحياه بأبهة مثل ملك(؟)

80 آنو، انليل وإيا
غمروه بدروهم بالهدايا
ودامكينا[53] والدته
أطلقت ـ زغاريد ـ فرح أمامه
وبتمنياتها له بالسعادة
جعلت وجهه يتألق
والى الاله أوسمو[54] الذي حمل الى السرّ[55]

---

(51) يذكّر ذلك بنقوش الحيوانات الاسطورية المصنوعة من الصلصال المزجج والتي تزيّن جانبي بوابة عشتار في بابل.

(52) انشار هو الأب الأول في سلالة مردوخ. ان آنو هو الذي منح رئاسة مجلس الآلهة حين تلقى لوحة الاقدار هدية من مردوخ.

(53) دامكينا قرينة إيا ووالدة مردوخ.

(54) اوسمو (Usmu) اله ثانوي او كل اليه مردوخ حمل هدايا والدته الى السر وإدارة الابسو.

(55) هدايا الأم التي تحمل الى السر، هل تعني ان السلطة التي منحتها الأم الى ابنها مردوخ، والتي ترمز اليها الهدايا، هي المرة الأخيرة التي يتلقى فيها آله سلطته من إلهة ـ أم؟ ونذكر بأن دم تيامت في (٤: ٣٢) حمل الى السر وكذلك كان الامر بالنسبة لجناح الطائر انزو في النص رقم 62.

هدايا أمّه الترحيبية
عهد اليه بادارة الأبسو
لكي يقوم بمراقبة قاعات ـ الاحتفالات
85 وعندما ذلك سجد الايجيجي مجتمعين
سجدوا أمامه
وجميع الانوناكي
قبلوا رجليه:
وفي مؤتمرهم، قرروا بالاجماع
السجود ووجوههم الى الأرض
ثم بعد ان انتصبوا أمامه؟ إنحنوا
قائلين: «هو ذا مليكنا»
وبعد أن قام الآلهة آباؤه
بالتمتع حتى الارتواء من تألّقه

90 وكان مردوخ، لا يزال محمّلا
بغبار المعركة
....
.... في الماء،
ونعّم جسده
بدهون من زيت السرو و...
لبس
رداءه الاميري
وبريق الملكية الخارق للطبيعة
وكذلك التاج الرهيب
رفع كتلة ـ سلاحه
وثبتها بيمينه
وأمسك بيساره

سبعه أسطر ممحاة لا يمكن قراءتها سوى بعض كلمات

100 كما أحكم على جنبه تثبيت

صولجان النجاح والفلاح

وعندما (... تألّقه؟ الخارق للطبيعة)

....

واشعاعه؟ الرهيب

غمر الابسو الذي كان بمثابة حصيرة له(؟)

وهو مقيم مثل

....

في قاعة العرش

....

في قدس الاقداس

....

الآلهة جميعهم

....

لحمو ولحامو

....

حين فتحو أفواههم

أعلنوا الى الايجيجي

«لم يكن مردوك في السابق

سوى ابننا الحبيب

110 ومن الآن فصاعداً فهو ملككم

أطيعوا اذن أوامره

وباستئنافهم الكلام

أعلنوا بالاجماع

«اسمه هو لوجال ـ ديمّر ـ آن ـ كي ـ آ:[56]

---

(56) (Lugal Dimmer An. Ki. A) بمعنى ملك آلهة ما هو فوق وما هو تحت ويشمل هنا جميع الآلهة، الايجيجي والانوناكي.

اجعلوه أمينا عليكم
وبعد ان بايعو مردوخ
بالملكية على هذا الشكل
تلّفظوا أيضاً من أجله
عبارة السعادة والنجاح

115 «بدءاً من هذا اليوم
كن القيّم على أماكن - طقوسنا
وسوف ننفذ
كل ما تأمرنا به»

مردوخ يعرض مشروعه لإنشاء بابل

بعد ذلك فتح مردوخ فمه
وبدأ بالكلام
موجها هذاالخطاب
الى الآلهة آبائه:
«فوق الابسو
المقر الذي تشغلون

120 وكنسخة عن الايشارا[57]
الذي أقمته بنفسي من أجلكم
ولكن في مكان أكثر انخفاضا
قمت بدعم أسسه
سوف ابني لنفسي معبداً
ليكون مقرّي المختار
لأنني في وسطه
سأقيم حَرَمي
وأعيّن فيه أجنحة سكني

(57) (E. sharra) ورد في (4 :114) ومعناه بيت. الكون الذي حافظ على تسميته السومرية وهو نسخة عن ابسو إيا اقامه مردوخ في السماء.

وفيه سوف أمارس ملكيتي

125 وأنتم، عندما تغادرون الابسو
للصعود، بغية حضور المجمع
سوف تكون لكم هنا مرحلة
تمكنني من استقبالكم جميعا ـ معا
وكذلك عندما تغادرون السماء
نزولاً، بغية حضور (المجمع)
سوف تكون لكم هنا مرحلة
تمكنني من استقبال جميعكم ـ معاً
وهذا المكان سوف اسميه «بابل»
«معبد الآلهة ـ العظام»

130 وهنا هنا
سوف نقيم أعيادنا(؟) نحن»

خلق البشر

والآلهة آباؤه
لدى سماعهم حديثه هذا
تقدّموا من ولدهم مردوخ
بهذا المطلب (؟)
على كل
ما صنعت يداك
من أكثر منك
يمتلك السلطة؟

135 على هذه القاعدة
التي دَعَمتَهَا يداك
من أكثر منك

يمتلك السلطة
في بابل
التي تلفّظت باسمها
في هذا المكان بالذات، وإلى الابد
أقمْ لنا مقرّاً
حيث تقدّم لنا فيه
مخصصاتنا اليومية

140 ....
ولكن ليقم آخر (غيرنا)
بانجاز عملنا
وفي هذا المكان بالذات
فليجمعنا نستفيد من جهده
وبفرح (عظيم) تقدّم
مردوخ بالاجابة التالية؟
الى الالهة الذين....
....

145 والذين حرّرهم
بعد القضاء على تيامت
فتح عند ذلك فمه
ـ وكلمته كانت مجيدة
......
قال لهم:
إنهم.............
الذين سوف يُعهد اليهم بمخصصاتكم اليومية
عند ذلك وهم سجّد أمامه
تكلم الآلهة:

150 الى «لوچال. ديمّر ـ آن ـ كي ـ آ» سيدهم
قالوا:
لم يكن الإله في السابق
سوى ابننا الحبيب
ومن الآن فصاعداً فهو ملكنا
الحكيم و....
وهو الذي برقيته المقدّسة
أعاد لنا الحياة
وهو الذي يملك
التألق الخارق للطبيعة لكتلة ـ سلاحه وصولجانه
فليقم إيا الخبير بوسائل النصح
وبالفنون كلها
باعداد المخططات
ونحن سوف ننفّذها

اللوحة السادسة

1 لدى سماع مردوخ
ما أعلنه الآلهة
دفعه قلبه
من جديد ليخلق العجائب
ففتح عند ذلك فمه
متوجهاً لإيا
وأحاطه علما بالمشروع
الذي كان أنضجه في قلبه

5 «سوف أعمد الى تكثيف دم[58]
وتشكيل هيكل
وبذلك سوف أحدث نموذجاً ـ أولياً

(58) الدمَ المكثف بمعنى الجسد (اللحم) وفق مفهوم تلك الفترة.

سوف تطلق عليه تسمية ـ بشري»
هذا النموذج ـ الاولي، هذا البشري
أريد خلقه
لكي تُفرض عليه سخرة الآلهة
ولكي يتوقّفوا هم عن العمل للراح
ومن جديد،
أريد تحسين وجودهم

10 ولو كانوا مقسومين الى مجموعتين
لكي يتم تبجيلهم بدرجة واحدة»
وللاستجابة على هذه الرغبة
وجّه اليه إيا هذه الكلمات
مشتمله على مشروعه،
من أجل اراحة الآلهة:
«ليُسلم اليّ (اذن)
أحد اخوتهم:
وهذا سوف يهلك
لكي يتم تشكيل البشر

15 فليجتمع اذن
الآلهة ـ العظام
لكي يتمّ تسليم المذنب
ولا ضَير بعد ذلك على الباقين
قام مردوخ عند ذلك
بجمع الآلهة ـ العظام
وأمرهم برفق
موجهاً اليهم تعليماته
وعندما فتح فمه للكلام
استمع اليه جميع الالهة باحترام

20 وجّه اذن الملك
هذه الكلمات الى الانوناكي
«حتى الان لم تتلفظوا قطّ
وبكل تأكيد، الا بكلمة الحق
ولذلك، فعليكم مرة أخرى
الا تقولوا سوى الحق
من هو
الذي حرَّض على القتال
ودفع تيامت على الثورة
ونظم المعركة؟

25 فليسلّم إليّ
الذي حرّض على القتال
لكي يتلقى عقابه
ولكي تتوقفوا انتم على العمل
فأجابه الايجيجي
الالهة ـ العظام
أجابوا (لوجال ـ ديمّر ـ أن ـ كي ـ آ)[59]
ملك الالهة وسيدهم
«كينغو[60] وحده
هو الذي حرّض على القتال

30 ودفع تيامت الى الثورة
ونظّم المعركة
عند ذلك عُمد الى تقييده
وآتي به أمام إيا
ومن ثم، ولكي يتلّقى عقابه

(59) (Lugal - Dimmer. An. ki. A) لقب مردوك ومعناه: ملك آلهة ما فوق وما هو تحت.
(60) (Quingu) كينغو، هو قرين تيامت بعد القضاء على أبسو وقائد المعركة:

تمت إسالة دمه
وبدمه
انتج إيا البشر[61]
فارضا عليهم سخرات الالهة
ومحرراً جميع هؤلاء

35 بعد ان قام إيا ـ الحكيم
بانتاج البشر
فرض عليهم
سخرات الآلهة
ـ كان ذلك إذن، عملاً روائعا
يتجاوز الادراك
وإذا ما تمكن نوديمّود[62] من تنفيذ عمله
فالفضل في ذلك يعود الى موهبة مردوخ[63]
قام مردوخ الملك (بعد ذلك)
بتوزيع اللهة

40 الانوناكي بكاملهم
في السماء وعلى الارض[64]
وجعلهم تحت سلطة آنو
لكي ينفّذوا تعليماته
ونصّب منهم حراسا
ثلاثمائة في السماء

---

(61) قصيدة الاينوما ايليش تتبنى هنا ودون الدخول في التفاصيل نظرية خلق البشر المعروفة فيما بين النهرين وهي مزج الصلصال بدم إله.

(62) نوديمّود(Nudimmud) لقب الاله إيا. ورد سابقاً ومعناه: المختص بالخلق ومهارة الصنع وهو هنا منفذ عملية الخلق وانتاج البشر.

(63) أراد الشاعر ان يؤكد هنا من جديد ان الفضل في عملية الخلق يعود لمردوخ.

(64) يتضح من النص الانوناكي وزعوا وفق مجموعتين: نصفهم في السماء، والنصف الاخر على الارض التي تشمل الابسو حيث تطفو الارض وكذلك العالم السفلي.

وعدداً مماثلاً
للسهر على تنظيم عمل الارض
نصّب منهم اذن مجموع ستمائة
بين السماء والارض
وبعد ان وزّع عليهم
كامل السلطات ـ المنتدبة
وبعد ان عيّن لانوناكي المساء والأرض
اختصاصاتهم
هؤلاء الانوناكي بالذات
فتحوا فمهم
وتوجّهوا شخصياً
الى مردوخ، سيدهم:
«الان أيها السيّد (قالوا)
وقد قررت تحريرنا

50 ما الذي يمكننا تقديمه لك
اعترافا بجميلك؟

إقامة مدينة بابل تكريما لمردوخ

فلنبن إذن معبدك[65]
الذي تلفظت باسمه شفتاك
وأجنحة سكنك فيه سوف تكون لنا مرحلة
نأخذ خلالها قسطنا من الراحة
فليقم أسس هذاالمعبد
حيث تكون لنا فيه أريكة
تمكننا من الراحة
في كل مرة نحضر فيها اليك

---

(65) ابسو (Apsu) هو مقرّ الاله إيا الذي اقامه لنفسه بعد قضائه على ابوس قرين تيامت الأول. ونحن نعلم من النصوص السومرية ان مقر انكي في الابسو هو قصر الاريدو (Eridu) وسوف يرد نصّ بناء هذا المقر في قصيدة سومرية أخرى لا مجال لذكرها هنا.

55 لدى سماع مردوخ
هذا التصريح
تألقت الى أبعد حدّ، معالم وجهه
وأصبحت كالنهار ـ الساطع:
«أقيموا إذن بابل قال لهم:
على اعتبار انكم ترغبون بتأمين العمل
ولتعُد اذن جدرانه الاجرية
لكي ترفعوا سقفه بعد ذلك
حفر الانوناكي التربة
بفؤوسهم

60 وخلال سنة كاملة
عمدوا الي صبّ الآجر في قوالبه
ثم، بدءاً
من السنة الثانية
رفعوا رأس الايساج ـ إيل
وهو نسخة مطابقة للابسو(65)
وبنوا كذلك
البرج العالي ـ ذا ـ الطبقات لهذا الابسو الجديد
حيث أعدّوا فيه مسكنا
لكل من آنو وإنليل وإيا

65 عند ذلك شغل بكل وقار
مكانه أمام هؤلاء
ومنذ قاعدة الايشارا(66)
كان يمكن تأمل قمته
ولدى انجاز

(66) الايشارا (E. Shara) ومعناه بيت ـ الكون وهو المقرّ الذي اقامه مردوخ كمثيل للابسو في السماء. وكذلك سيكون بناء (الايساج ـ إيل) في بابل.

بناء الايساج ـ ايل

جميع الانوناكي

أعدّوا فيه أماكن ـ عبادتهم:

ثلاثمائة إيجيجي من السماء وستمائة بما في ذلك آلهة الأبسو

اجتمعوا فيه بعددهم الكامل

70 وفي المكان ـ الفائق ـ السمو الذي أقاموه

للاله مردوخ كمقر له،

الى وليمته دعا

الالهة آباءه

«هذه هي بابل (قال لهم)

مسكنكم، ومقراً لكم

امرحوا فيه

وتشبّعوا من بهجته»

أخذ الآلهة ـ العظام

عندئذ أماكنهم

75 وضعوا أقداح شرابهم

وشاركوا في المأدبة

مبايعة مردوخ الرسمية وتنصيبه النهائي

بعد ان نفّذ الآلهة

نَغَم العيد

وفي الايساج ـ ايل المهيب

عمدوا الى تقديم القرابين

وبعد ان تمّ تأكيد السلطات الموكلة اليهم

وكذلك جميع طقوسهم

وبعد ان وزّع مردوخ عليهم جميعاً

مراكز السماء والأرض

80 أخذ الآلهة ـ العظام وعددهم
خمسون، أماكنهم
ونقلوا قراراتهم الى آلهة تقرير ـ المصائر
وعددهم سبعة
عند ذلك عرض الاله مردوخ قوسه
ووضع أمامهم هذا السلاح
كما تأمل الآلهة، آباؤه
الشبكة التي صنعها
ولمسوا باعجاب، كم كانت رائعة
بُنية القوس

85 وأشادوا بالأعمال المجيدة
التي حققها
وعندما رفع آنو[67] القوس
قبّلها
وأعلن أمام مجمع الالهة:
نعم، هذا هو ولدي»
وهذه هي الاسماء
التي أطلقها على القوس:
«الاسم الاول، سوف يكون «الخشب ـ الفَرْع»؛
والثاني هو: «المظفّر»

90 والاسم الثالث هو:
«كوكبه ـ القوس ـ المتألقة ـ في السماء»
ـ والتي عيّن لها موضعها
بين أخواتها الكوكبات ـ الالهية[68]

(67) آنو (Anu) إله السماء وسيد مجمع الآلهة مع بقاء أبيه انشار في مركز الشرف.
(68) المجموعات الكوكبية والسيارات كانت تعتبر صورا ورموزا للآلهة.

بعد ان عيّن آنو
مصير القوس
أقام عرشا ملكيا
يفوق رفعة غروش بقية الالهة
وفي وسط مجمع الالهة
أجلس آنو عليه مردوخ:

95 وعمد الالهة ـ العظام،
وبالاجماع،
الى الاشاده بقدر مردوخ
وسجدوا أمامه
ثم تلفظوا من تلقاء أنفسهم
بقسم يُلعنُ الحانث به
أقسموا بالماء والزيت
وأيديهم على رقابهم
طالبين ان
يمارس سيادته على الآلهة

100 معترفين له بالسلطة المطلقة
على الهة السماء والارض

تمجيد مردوخ الاول

وأضاف انشار[69] الى اسماء مردوك
اسم الـ «اسَلّوحي»[70]
«عند التلفّظ بهذا الاسم، قال لهم،
فلنجعل الى الارض وجوهنا

---

(69) انشار (anshar) الجد الأول لمردوخ.

(70) إسم إله قديم لمدينة كوآر (Ku'ar) المجاور لإريدو (Erido) وهو موضع ولادة الإله دوموزي الراعي وسوف يرد النص المشير الى ذلك في قصيدة أخرى لا مجال لذكرها هنا. والتفسير اللغوي لهذا اللقب امكن اعادته الى: أسار ـ ري ـ لو ـ حي. اي اسارلوحي بمعنى مؤسس الزراعة وأعمال تحديد الأراضي.

وعندما يفتح مردوخ فمه
فلتنصت اليه الالهة باحترام
ولتكن أوامره نافذة
كما في السماء كذلك على الارض![71]

105 وليرفع الى أقصى درجة قَدْر
ولدنا المنتقم لنا،
وليسُد تفوقه
وليكن دون مثيل
وليمارس رعاية
خلائقه ذوي الرؤوس ـ السوداء[72]
من الآن فصاعداً ولكي لا ينسى قط
لتتل أخبار مآثره
وليؤمن لآبائه
تقدمات ـ غذائية وافرة!

110 وليمارس من أجلهم، مهمّة المموّن
وليأخذ على عاتقه أماكن ـ طقوسهم!
وليجعل طيب روائح تبخير المحارق يتصاعد
وليسهر على (فاعلية) الرقي ـ التعويذية
وليحقق على الارض
مثيل ما حققه في السماء
ويعلّم ذوي الرؤوس السوداء
وسائل تبجيله
وليجعل الشعوب
تهتم بآلهتها وتتضرع اليها؛

---

(71) تلتقي مع «الصلاة الربية: لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض».

(72) لقب سكان ما بين النهرين، وخاصة السومريون منهم. وأحياناً كان يستعمل لقباً لكهنة المعبد، والحكماء وحتى الاطباء.

115 وبكلمة منه،
ليعاملوا باحترام الاهاتهم
وليقدّموا الى الهتهم وإلاهاتهم
مخصصاتهم ـ الغذائية
وألا ينسوا
تقديمها لآلهتهم (الخاصة)[73]
وليعمموا النور في بلادهم
باشادة أماكن عبادة لهم
وإذا ما كان ذوو الرؤوس السوداء
منقسمين بالنسبة لآلهتهم الخاصة

120 اما نحن، فمهما عددنا اسماءه
فليكن هو إلهنا الاود

اسماء مردوخ: المجموعة الاولى:

ولنعدّد إذن
اسماء الخمسين
لكي نظهر شخصيته المجيدة
وكذلك مجيد اعماله
وقبل كل شيء: مردوخ، كما منذ ولادته
المزوّد أوه آنو[74]
المزوّد بالمراعي وبمآخذ المياه
الذي يجعل الزرائب تعجّ (بما فيها)

125 والذي غلب بسلاحه
«الطوفان» مثيري ـ الاضطرابات

(73) كان سكان ما بين النهرين يعتقدون ان لكل فرد إلهاً خاصاً أو شخصياً يتقرّب منه ليتوسط له زمام بقية الآلهة التي يقصدها وبقي هذا الاعتقاد في الملاك الحارس في الديانة المسيحية وفي ملائكة النصوص التوراتية.

(74) آنو جدّ مردوخ هو الذي يختار اسم حفيده.

وأنقذ من الخطر المحيق

بآبائه الالهة

وكذلك مار ـ اوتو[75]: الولد ـ شمس ـ الآلهة

لانه يتألق

ولأنهم مغمورون بنوره الوهاج

وهم في ذهاب وإياب ابدي

وعلى البشر، خلائقه

الكائنات الذين منحهم الروح[76]

130 فرض عليهم سخرات الآلهة

ليحرر هؤلاء من أعمالهم

الغلّة او المحق

العفو او العقاب

كل ذلك طوعاً لرغبته

وهم[77] لا يسعهم سوى التأمل (في عظمته)!

ماروكّا: وبتعبير آخر الاله

الذي خلقهم بارادة منه

من أجل سعادة الانوناكي

وتحرير الايجيجي

135 ماروتوكّو: او بتعبير آخر، سند

البلاد وسند المدينة وسكانها

فلتواصل الشعوب من الآن

فصاعدا الاحتفال به

مار ـ شا ـ كوش ـ أو: ينفعل ولكنه

يحتكم لنفسه، يتملكه الغضبب ولكنه يتمالك نفسه

(75) مار بالاكادية بمعنى ابن، واوتو (utu) السومرية الاله الشمس.

(76) حرفيا وردت: النفس.

(77) المقصدون هنا، هم البشر.

طويل الاناة
وهو يمسك بزمام نفسه
لوجال. ديمّر. ان. كي. ا: هو الاسم
هو الاسم الذي أطلقه عليه مجمعنا

140 مما يجعل كلمته أكثر - مهابه
من كلمة آبائه الالهة:
لأنه، هو حقاً سيد
جميع آلهة السماء والأرض
وهو الملك الذي يرهب
حضوره، آلهة ما هو فوق وما هو تحت
نادي. لوچال. ديمّر. آن. كي. آ: هو الاسم
الذي أعطيناه له بصفته مدير جميع الآلهة؛
وهو الذي في السماء وعلى الارض
أصلح أمورنا وأبعد عنا الخطر

145 وعيّن للايجيجي والانوناكي
مهامهم
فليضطرب الآلهة لسماع هذا الاسم
وليرتجفوا، أينما كانوا
أسلّوحي هو الاسم
الذي خصّه به أبوه أنشار
لانه حقا نور الآلهة
وزعيمهم المقتدر
وهو الذي، عملاً بهذا الاسم
حامي الآلهة وحامي العالم

150 وهو الذي بنتيجة مبارزة مذهلة
أنقذ من الخطر وضعنا

وسمي أيضا اسلّوحي ـ نامتيلا
الاله المحيي
وهو الذي بالتوافق مع طبيعته الخاصة
أعاد جميع الآلهة المهدّدة بالضياع الى مراكزها
وهو الاله الذي برقيته المقدسة
أعاد الى الحياة «الالهة ـ الاموات»
ودمّر خصومهم المتعنّدين
فلنحتفل اذن ببسالته

155 اسلّوحي. نامرو، وفق الاسم
الذي خصّ به في المرحلة الثالثة
الاله الطاهر
الذي يجعل سلوكنا نقيا
وانشار ولحمو ولحامو،
وهم الذين أطلق كل منهم أحد الأسماء الثلاثة الأخيرة:
أعلنو
أمام ابنائهم الآلهة:
«نحن الذين عيّن كل منا
أحد هذه الاسماء الثلاثة

160 والآن عليكم انتم مثلنا
التلفظ باسماء أخرى
عمّت البهجة الآلهة
لدى سماعهم هذا التوجيه
وفي قاعة المداولات
تبادلوا الآراء معلنين
«بخصوص ولدنا البطل
والمنتقم لنا
بخصوص ممّون (معابدنا)

لنقم بدورنا بالاشادة باسمائه

165 وفي مجلسهم المنعقد
عينوا له اسماء قَدَرِه
لكي يتمّ في جميع الاحتفالات
التوجه اليه تحت اسم مختلف

اللوحة السابعة

مجموعة الاسماء الثانية

1 أساري: المانح لهبة الزراعة
ومبتدع أصول مسح الحقول
وخالق الحبوب والقنّب
ومنتج كل خضرة
أسار. أليم: السائد في قاعة المجلس
حيث رأيه هو الراجح
الذي يحترمه الآلهة
ولا يعرف الخوف

5 أسار. أليم. نونّا: الموقر
نور آبائه ومولديه
الذي يوصل الى غايتها، توجيهات
آنو وانليل وإيا ـ الامير(؟)
انه القيّم عليهم
وهو الذي يعين لهم مخصصاتهم
وهو الذي من أجل مصلحة البلاد
يضاعف الوفر في الحقول
توتو
المنقذ الحقيقي لتجديد وجودهم

10 أجل، انه حرّر معابدهم
لكي يتوقفوا عن العمل
خلق الرقية
لكي تهدأ قلوب الآلهة
بحيث اذا ما اندفعوا بغضب
يتراجعون
انه يحتل المكانة الاسمى
في مجمع الالهة آبائه
ولا احد بينهم
يمكن ان يماثله أبدا

15 توتو: زي او كُنيّا
حياة رعاياه
هو الذي أسس من أجل الآلهة
السماء الصافية
وأخذ على عاتقه كيانهم
وعيّن لهم مناصبهم
فلتبق أعماله ـ المجيدة
ولتترسخ في ذاكرة الجموع
توتو. زي. كو، سمّوه ففي المرحلة الثالثة
المحافظ على الطهارة

20 الإله ذو النفس المُنّعم
سيد الاستجابة والرحمة
منتج الثروة والوفرة
ومدعّم أسس الرخاء
الذي يحوّل الى الكثرة
كل قِلّة
واثناء شدتنا الرهيبة

تتفسنا روحه ـ الخَيِّرة
فلنكرر ذلك محتفلين به
ولننشد مدائحه

25 وعلى البشر في المرحلة الرابعة
تمجيد توتو ـ آجا . كو
سيّد الرقية المقدسة،
ومحيي المحتضرين
وهو الذي تملكته الرحمة
تجاه الالهة ـ المغلوبين
فنزع عن الآلهة المعادين
القيود المفروضة عليهم
وهو الذي من أجل اراحتهم
خلق البشر!

30 انه الغفور وإليه يعود
أمر منح الحياة ـ من جديد
فلتبق سيرة اعماله
تُرَدَّد باستمرار
على شفاه ذوي الرؤوس ـ السوداء
الذين خلقهم بيديه
وحين سمّوه للمرة الخامسة توتو ـ تو ـ كو
صدر عن أفواههم سحر عجيب
فهو الذي برقيته المقدسة
استأصل كل شر

35 شا . زو: العارف بما في صدور الآلهة
وسابر دخائلهم
هو الذي لا يترك قط للاشرار

فرصة الافلات من يديه
المحافظ على مصالح مجمع الالهة
الذي يبهج قلوبهم
انه حمايتهم الشاملة
الذي يحني (رؤوس) المناهضين
هو الذي يُعلي كلمة الحق
ويستأصل لغة - الرياء

40 والذي يميّز في كل الاحوال
بين الكذب والصدق
وليمجد بعد ذلك كـ.. شا - زو - زي - سي
الذي فرض الصمت على الثوّار
وطرد الذهول من نفوس
الالهة آبائه
وثالثا تحت اسم شا - زو - سوح - ريم:
الذي اجتث بسلاحه جميع الاعداء
وكشف مؤامرتهم
وحوّلها الى الرياح

45 قضى على المجرمين برمتهم
على جميع من اتجهوا ضدّه
فلتستمر الآلهة وبصوت واحد
بالتهليل لمنجزاته
ورابعا تحت اسم شا - زو - چو - زيم
الذي عاد الخضوع لآبائه الآلهة
والذي اجتثّ جميع الاعداء
وقضى على نسلهم
وبدّد مناوريهم
ولم يبق على أحد منهم

50 فليلفظ اذن، وليُكرّر لفظ
اسمه هذا على الارض
خامساً ك شا - زو - زاح - ريم
وليتم تناقله في المستقبل هو ايضا
هو الذي أحال الى العدم جميع الخصوم
والمناهضين بكاملهم
هو الذي لمّ شمل جميع الآلهة الهاربين (خوفاً)
وأعادهم الى قاعات - الاحتفال
فلتدم تسميته هذه
الى الابد

55 سادسا، ليحتفل به في كل مكان
ك شا - زو - زاح - چو - ريم
وهو الذي شخصيا، ألقى بنفسه في المعركة
وأباد جميع خصومه
إين - بي - لولو: هو الإله
الجواد بطبيعته
راعي الآلهة القدير الذي
فرض نظام التقدمات
هو الذي اوجد على الارض المراعي
ومناهل المياه، وجعلها تنمو وتتكاثر

60 كما حفر (مجاري) الانهار
ووزّع مياهها المُخْصِبَة
وَلْيُسَمَّ ايضاً إين - بي - لولو - إي - پا - دون:
اله الفيض(؟) والبلاد - المسطحة
انه سيد ينابيع الكون
ومؤسس الأثلام
الذي أوجد الزراعة المقدسة

في قلب الصحراء
والذي راصف حواجز - التراب والاقنية
ورسم خطوط الحراثة
وليحتفل به ثالثاً كـ إين - بي - لولو - چو - چال
سيد ينابيع مجاري المياه الالهية

65 إله الرخاء والكثرة
والمواسم الضافية
الذي أوجد الثراء
وجعل المعمورة تطفح بارزاقها
وهو الذي منح الحنطة
وأنتج الحبوب
وأخيراً كـ إين - بي - لولو - حي - چال:
الذي يكدّس الوفر لجميع الناس
ويمطر على الارض الرخاء
ويجعل الخضرة تنمو كثيفة

70 سير. سير: هو الذي كوّم
الجبال فوق تيامت
والذي بقوه سلاحه
حمل كغنيمة جثتها
انه الساهر على الارض؛
راعي البشر الحقيقي
وليس شَعرُه سوى
مزارع وحقول محروثة وأثلام
هو الذي في غضبه، يجتاز
ذهابا وايابا تيامت المترامية الاطراف

75 يعبر ذهاباً وإياباً مثل جسر

مكان معركته معها
سمّوه ايضا سير ـ سير. مالاح
ليكن ذلك الى الأبد
تيامت سفينته الخاصة
وهو ملاّحها
جيليم: مجمّع الاكوام الضخمة
في العنابر
خالق الحبوب والماشية
الذي يؤمن البذور للبلاد

80 جيليم ـ ما: موثّق ـ الرباط بين الآلهة
وخالق الحق
الزمام الذي يكبح الاشرار
محققاً سيادة النظام
آ ـ جيليم ـ ما: الرفيع ـ المقام
الذي يبعد الفيضان ويراقب الثلوج
والذي، بعد ان دعّم المناطق ـ العلوية
خلق الارض فوق الماء
زو ـ لوم: الذي عيّن للالهة أريافهم
وقسّم فيما بينهم نتاجها

85 وزّع عليهم حصصا وتقدمات
ومونّ قاعات ـ احتفالاتهم
هو خالق الكون، وهو
الذي يشرف على سيره
وكإله مطهر للسماء والارض
سمّوه كذلك: زو ـ لوم ـ أوم ـ مو
الذي لا مثيل لقدرته
بين الآلهة

جيش نومون . اب: خالق جميع الشعوب
وصانع العالم

90 هو الذي بعد ان قضى على الهة تيامت
خلق الشعوب بشيء منهم،
لوجال ـ اب ـ دو ـ بور: الملك الذي شتّت
أعوان تيامت وجرّدها من أسلحتها
وهو الذي أسُسُ ملكه راسخة،
في المستقبل كما في الماضي!
ذو السلطة الفائقة
الاسمى بين الالهة اخوته
وسيد جميعهم

95 لوجال ـ دور ـ ماخ: الملك الذي يشكل
الرباط بين الآلهة، إله الرباط ـ العظيم(78)
هو الاكثر ـ سموا على العرش ـ الملكي
بين الالهة الفائقي ـ الرفعة
آ. را. نونّا: مستشار إيا، خالق
اباته الآلهة
الذي لا يضاهيه أي إله
بالنسبة لمشيئته الاميرية
دومو ـ دو ـ كو الذي يتجدد
مسكنه الطاهر، على «الجبل المقدس»

100 انه «ابن ـ الجبل المقدس» وبدونه
لا يتخذ إيا «ملك ـ الهيكل ـ المقدس» أي قرار
لوجال ـ شول ـ آنا: الملك ذو السلطة الرفعية

(78) المقصود، هو الرباط بين السماء والارض ودور. انكي هو لقب الاله إيا والد مردوخ.

بين الآلهة
اله قوة آنو، وهو أيضاً
يزيد سمّواً شخص انشار
او. اوج ـ چا، الذي في داخل تيامت
جعلهم جميعاً سجناء
والذي امتلك كل معرفة
ولاحدود لذكائه

105 إ ـ كين ـ غو، الذي أسر كينغو
في خضم المعركة
وهو الذي نظم في الكون، توكيل ـ السلطات
وأقام أسُس السيادة
كين ـ ما: حاكم جميع الآلهة
ومُسدي النصح لهم
هو الذي بمجرد ذكره، يرتجف الالهة
خشية وكأنهم في عاصفة
وبصفته إي ـ سيسكور، فانه
سوف يجلس بجلال في بيت ـ الصلوات

110 وأمامه سوف يعرض الآلهة
تقدماتهم
بينما يتلقى بدوره
جليل احترامهم
لا احد غيره
كان بامكانه خلق مثل تلك الروائع
والمجموعات الاربع لذوي الرؤوس ـ السوداء
هي خلائقه
وباستثنائه هو، لا اله غيره
يعرف ادارة شؤونهم

115 جيبيل[79]: الذي ضمن
نتيجة الحرب
وبنهاية الالتحام مع تيامت
عمد الى خلق العجائب
واسع ادراكه
هو القادر الحاد الذكاء
والآلهة جميعهم، غير قادرين
على فهم قلبه الذي لا يسبر غوره
آدّو[80]، سيكون ايضا اسمه
وهو بذلك يغطي كامل وجه السماء

120 فليجعل هديره الخيّر
يُدوّي فوق الارض
وليعرّف بالأمطار
مادّة الغيوم
بحيث يقوم على هذه الارض
بتزويد الشعوب بقوتها
أشارو هو الذي وفقاً لهذا الاسم
قرر مصائر الآلهة
وأخذ شخصيا على عاتقه
كليّة شعوب العالم جمعاء
نيبيرو: انه هو
الذي يشرف على الممرات سماء ـ أرض:

125 لا أحد يعبر الى ما هو فوق او ما هو تحت
دون التوجه اليه

(79) جيبيل، إله النار وهنا يطلق اسمه على مردوخ.
(80) أدّو، يحتل مردوخ هنا بامكانه إله الرعد والامطار ادد أو هدد ومنه هدد الرعد اي هدر.

ونيبيرو هي نجمته
التي تلمع في السما
محتلة فيها القطب
والآلهة ينظرون اليه فيها بإعجاب
قائلين: «انه دونما كللٍ يمر ويمر من جديد
في داخل تيامت
فليكن اسمه نيبيرو
لانه يسيطر على داخلها

130 ووفقاً لهذه الصفة، فانه ينظم
مسارات نجوم السماء
ويرعى، كمثل الخراف
جميع الالهة ـ الكوكبية[81]
فليتمكن من الاطاحة ، بتيامت
وليضعف نفسها حتى الانطفاء:
وبنهاية الامر
وعلى مدى استمرار الأيام
فلتعمد الى القرار دون ان يتم التمسك بها
وان تختفي الى الأبد»

اسمان آخران يضيفهما كل من انليل وإيا

135 ولأنه خلق السماء
وصنع العالم السفلي
فان اباه انليل[82] خصّه اضافة
بامس اين ـ كورا[83]

---

(81) المقصود بالآلهة الكوكبية، الآلهة التي ترمز اليها الكواكب، مثال القمر للاله سين والزهرة للإلهة عشتار.. والنصوص الاكادية تلقب النجوم بآلهة الليل.

(82) انليل ومعنى اسمه السومري سيد الهواء وهو أحد الهة الثلاثي الحاكم آنو، انليل، أنكي/إيا ومعبد انليل في نفر ـ نيبور) هو إيكور اي بيت الجبل.

(83) سيّد الجبل (إينكور En. Kur) يسمى مردوخ وهكذا يحتل مكان انليل.

تلك هي الاسماء التي عددها
الايجيجي طويلا
وعندما سمعها إيا
تهللّ قلبه (وقال):
«إن الذي عمد آباؤه
الى تمجيد اسمائه

140 ليكن اسمه هو كذلك، إيا[84]
مماثلا لأسمى
فليرفع من شأن
مجموع أنظمتي
وليطبّق شخصيا
شمولية مهامي

التمجيد الختامي:
بهذه الاسماء الخمسين
فإن الالهة ـ العظام
عندما خصّوا مردوخ باسمائه الخمسين
منحوه شخصية استثنائية

145 فليتمّ حفظ هذه الاسماء
وليقم بعرضها القدماء
وليتأمل بمدلولها على السواء
كل حكيم وعالم
وليرددها كل أب
ليعرّف بها ابناءه
وليعمد حامي وراعي الشعب[85]

(84) Ea إله الابسو والخلق ومهارة الصنع يتخلى لابنه مردوخ عن دوره الشمولي.
(85) المقصود هنا الملك الذي عليه نشر عظمة مردوخ بحرارة على شعبه لكي يزدهر ملكه ويطول عمره.

الى تفهم معناها
وإذ يستثنى بذلك كل فتور
تجاه مردوخ، انليل الآلهة[86]

150 يزدهر ملكه
ويبقى هو سالماً ومعافى
دائمة هي كلمة مردوخ
ولا تعديل لأوامره
لا يمكن لأي اله تبديل
ما يخرج من فمه
وإذا ما أصرّ على القاء
نظرة عدائية
في أثناء غضبه، فلا يستطيع
اي اله ان ـ يجابهه

155 قلبه لا يسبر غوره
وواسع ادراكه
المذنب والجانحة
يقفان أمامه[87]
تلك هي الظاهرة التي تمّ
عرضها أمام أحد القدماء
والتي حفظها ووضعها كتابة
لتعلم الى الأجيال القادمة
ومآثر مردوخ

(86) انليل الآلهة بمعنى سيد الالهة اصبحت هنا صفة لمردوخ.
(87) يقوم مردوخ هنا بورد اله العدالة شمس.

الذي خليق الايجيجي

160 فَلتُتلَ
وليلفظ اسمه
وليتمّ الترنّم
بنشيد مردوخ
الذي بعد ان أطاح بتيامت
تلقى السلطة العليا.

الخلاصة

ظلت التوراة الى عهد قريب تشكل لغزاً محيّراً لعلماء العصر الحديث. إذا لم يستطيعوا فهم كيف ان ما تحويه من نصوص دينية وأدبية وتاريخية وأسطورية. جاءت مقطوعة عمّ قبلها وكأنها أنزلت من الأزل (أزل وجودنا البشري على الأرض) من عالم السماء. وهذا ما يخالف رؤاهم الحديثة حول مفهوم الكون وتطور الحياة على هذا الكوكب.

ظل الأمر هكذا الى ان راحت معاول الآثاريين تضرب في الأرض بوادي الرافدين باحثة عن الماضي المخبأ. وانبثق الماضي من باطن الارض قوياً ومبهراً للعقول، وراح يُكسِفُ ضوء القاع الذي أعتقد انه بداية التكوين ليكشف بعد ذلك ان ثمة قاعا آخر أعمق بكثير وأبعد غوراً في مجاهيل تكوين الكون وانتظام النظام بانبثاق الشرائع والمراسيم.

وسرت حُمى حلّ اللغز وتسابق الدارسون على الاعلان ان التوراة ما هي الا مقتطفات من ابداعيات شعوب كثيرة سابقة، سواء أكان في اللاهوت أو الأساطير أو الآداب. وعلا نجم كلكامش وحمورابي وتراث أرض النهرين ببلاد سومر وبابل وأشور.

في هذا الكتاب (التوراة البابلية) عكفنا على دراسة الآلية التي تطورت فيها، ونتصد مرحلة التوراة وما أخذنا عنها من معتقدات (سماوية) ما زالت الى اليوم، يدرسها وفق المعطيات الجدية الباحثون والآثاريون، كيف تطورت وكم من الزمن استغرقت حتى وصلت الى ما استقرت عليه منذ ما يزيد عن **2500** عام. ينقب في نصوص التوراة شأن عالم الاثار متتبعاً مسار الفكر الديني التوراتي من مراحله الاولى التي كان فيها إله القبائل العبرية البدوية (يهوه) كأي إله من آلهة قبائل وشعوب منطقة (الهلال الخصيب) يهوه الذي كانوا يتخلّون عنه أحياناً ليتحولوا الى آلهة الشعوب

الأخرى لأنها أكثر مقدرة كإله البابليين والاشوريين والكنعانيين (إيل) و(بعل). وإذ كان أتباع التوراة قد تحولوا بعد زمن ليس بالقصير الى جعل إلههم يهوه أقوى الآلهة، فإنهم ظلوا أيضاً وقتاً آخر طويل حتى قاموا بالنقلة الاخيرة أي توصلهم الى أنه الاله الأوحد إله الكون كله، إله جميع الشعوب وما من اله آخر.

ونحن إذ درسنا التوراة وآلية تطورها، فإننا وجدنا بأن التوراة ـ بدراسات وبحوث أخرى سبق وان نشرناها[1] ـ بأن التوراة ليست سوى صورة مصغرة عن ملحمة كلكامش البابلية السابقة عليها بمئات السنين، وأيضاً قصة الخلق البابلية (اينوماايليش) وغيرهما من قصص العراق القديم الادبية مع حكمة حكمائه الكبار أمثال احيقار الاشوري.

كانت حضارة وادي الرافدين وأساطيرها وأفكارها وقوانينها تقوم على أرضية الاستقرار الاجتماعي المتمثلة في ان (الارض والماء ومستلزمات الريّ الاصطناعي بالاضافة الى العوامل المناخية، شكلت المسائل الأكثر حيوية في منظور سائر القوى الاجتماعية الفاعلة التي كان يتألف منها المجتمع، فهذه القوى على الرغم من تباين مواقعها من العملية الانتاجية، وعل الرغم من التفاوت فيما بينها على صعيد امتلاكها الثروة الاجتماعية وتمكنها من النفوذ المؤثر بنسقيه الديني والسياسي على الرغم من هذا وذاك. ارتبكت القوى المعينة الى الوضعية الاجتماعية القائمة نظراً لانسجام توجهاتها العامة مع الآفاق المصلحية لكل تلك القوى[2]. فقد كان لرجال المعابد مكانتهم المادية والسلطوية في المجتمع، كانوا على تواز مع السلطة السياسية ولقد كان هذا الاستقرار وراء حضارة الزراعة والعمران والقوانين وتنظيم الجيوش في بلاد الرافدين.

أما المجتمع التوراتي فلم يكن له الارضية المشابهة لأي من المثليين السابقين، فلا استقرار اذ لا أرض ولا مياه للري الاصطناعي ولا عوامل المناخ شكلت مسألة حيوية ولم يكن هناك ارتكان الى زي وضعية اجتماعية ثابتة، ولم يكن هناك توازن بين السلطة السياسية والسلطة الكهنوتية.

فنحن اذن، أمام حالة اجتماعية قبلية بدوية لم تكد تستقر على الارض التي اغتصبتها وتتعلم من جيرانها أساليب الحياة المدنية، حتى جاء من حطم غرورها

(1) منها: 1. الحكمة في وادي الرافدين (بغداد 1983).
2. المرأة في قانون حمورابي (المفصل 1986).
3. اثر حكمة احيقار في الكتاب المقدس (بيروت 1996).
4. اثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية (بيروت 1998).
5. مقتبسات شريعة موسى من شريعة حمورابي (بيروت 2002).

(2) انظر في هذا الصدد كتاب (من الوعي الاسطوري الى بدايات التفكير الفلسفي «بلاد الرافدين تحديدا»)، للدكتور عبد الباسط سيدا، دار الحصاد، سورية، دمشق.

وأبعدها بالقوة. وهنا تكوّنت أرضية جديدة أضيفت الى البدايات البدوية. انها الغربة والتشرّد. ومعروف الى الآن كيف ان الأقليات المهاجرة جماعياً نتيجة ظروف قاهرة تظل منطوية على نفسها وتتجاوب فيما بينها. وهنا يبرز دور الكهنوت الذين لم تكن لهم مصالح مادية وأعمالاً تدرّ عليهم أرباحاً كما لم يعد من سلطة سياسية في تجمعهم فتحرروا من كلا القيدين. وصاروا هم المرجع وعليهم تقع مسؤولية لمّ (العشير) فكان لا بد من البحث عن أسباب وحلول لهذه المآسي، وهل كان أمام تلك المجموعات الصغيرة (المجهرية) التي لا تستطيع التفكير بالحرب والقوة، هل كان أمامها سوى البحث في الغيبيات؟! ألسنا الى اليوم نجد شعوباً كثيرة تربط حين تعجز عن ادراك سرّ فشلها وبلواها، ذلك كله بالعلاقة غير المنضبطة بينها وبين القوى فوق طبيعة.

كان كهنة التوراة على عكس كهنة مصر وبلاد الرافدين الذين جعلوا آلهتهم تتناسب وواقعهم فتساعدهم على تنظيم حياتهم من ري وزراعة وسوى ذلك... ومن أجل ذلك أقاموا لها الطقوس كي تستمر المساعدة لكن كهنة التوراة التائهين في الصحاري والمشردين في المغتربات، بحثوا عن إله يتنقل معهم، يراقبهم، يعاقبهم، ينهرهم؛ بحثوا عن إله قوي ينقذهم ويعينهم على ضعفهم، إله يتمسكوا به ليعلقوا كل أحباطاتهم على مشجب عصيانه.

من هنا يأتي الفارق الجوهري بين هؤلاء المضغوطين بكابوس التشرد والخوف والألم وما توصلوا اليه، وبين اولئك المتأملين في نطاق المجتمع الرافدي المستقر، انطلاقاً من المعطيات التي كانت تتراكم فيه وأخذت مخيلتهم تنحو منحى معارضا للتوجه العام كما تشير الى ذلك نصوص ملحمة كلكامش في مناقشاتها لمسألة القدر الالهي والظلم الاجتماعي ونسبية القيم وقدرة الانسان ومدى امكانية تجاوزه للمصير الذي ينتظره.

ان الدراسات التاريخية عن تلك العصور القديمة عديدة ولم تنته بعد. وهي تخضع لتباين الدارسين وتو جهاتهم الفكرية وانتماءاتهم من جهة، ومن جهة أخرى للجديد مما تظهره الاكتشافات الاثارية في أرض الرافدين وغيرها من أراضي الحضارات القديمة.

* * *

بتاريخ الثالث من كانون الاول **1872** فقدت التوراة نهائياً الصفة التي كانت تتمتع بها، إذ كانوا يعتبرونها قبل ذلك التاريخ «أقدم كتاب معروف»، «كتاب يختلف عن بقية الكتب»، «كتاب أملاه الله أو كتبه بنفسه».

في ذلك اليوم أي **3** كانون الاول قبل مائة وثلاثين عاماً (**1872**) قام ج، سميث وهو من اوائل المختصين بالدراسات الاشورية، قام أمام جمعية الآثار التوراتية في لندن،

بالاعلان عن اكتشاف بالغ الاهمية في آثار بلاد ما بين النهرين (سومر وآكاد وبابل وآشور) وكان قبل ذلك قد عمل المختصون بالدراسات الاشورية خلال خمسين عاماً من العمل الشاق على فك رموز الكتابة المسمارية للرقم المكتشفة نتيجة الحفريات الاثارية في تلك البلاد. أما الاكتشاف الخطير فكان عبارة عن تاريخ مشابه حتى بالنسبة لأدق التفاصيل لرواية الطوفان التوراتية، غير أنه كان من عهد سابق لها، لا بل يبدو ان التوراة قد استوحته منه.

هكذا فجأة عادت التوراة الى سلسلة الآداب العالمية بين مؤلفات بني البشر مع هذا التشابك بين الابداع الاصيل وما يُستقى من الينابيع السابقة المتعثرة والبعيدة الغور، والتي تشير الى تقدم الفكر الانساني.

وعلى هذا أيضاً أصبحت التوراة قيمة شارك فيها الجميع ـ ولا سيما فكر ابناء الرافدين ـ ورسالة شاملة، تماماً مثل كل ما أنتجه بنو البشر، (سكان العالم القديم ابناء الهلال الخصيب ومصر) من الشعوب الموغلة بالقدم في حضارة الانسان.

بالطبع، ليس من المنطق او المعقول في شيء ان نعتبر ان أصول التوراة البشرية يشكل ذريعة ضد اولئك الذين يؤمنون انها كتاب الله. ان الايمان بطبيعته يضيف بالنسبة للعالم وللأشياء بعداً ميتافيزيقيا (فوطبيعيا) ينحصر بالادراك الحسي لملايين المؤمنين، كما ان الايمان يستطيع ربط هذا العالم بعالم آخر يدركه أيضا بالحس.

لكن بدءاً من اللحظة التي عُدّ فيها التوراة جزءاً من هذا الارث القديم والضخم الذي تركه لنا الاباء مثله مثل العديد من بنات أفكارهم وآدابهم وفنونهم، وجدنا أنفسنا ملزمين ليس فقط ان نبحث عما أرادوا قوله لهم ولكن أيضا البحث عنه بامكانتنا الخاصة تماماً كما نفعل لتفهم وادراك «الالياذة» و«الاوديسة» و«ملحمة كلكامش» و«اينوماايليش» وغيرها من كتابات الاولين في وادي الرافدين ووادي النيل منبت الحضارات الفكرية والدينية.

خلال الفراغ الادبي ـ منذ اختراع الكتابة قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد بأرض سومر وبابل، لا تشكل التوراة آداب اسرائيل ولكنها مجموعة نصوص مختارة مما كتبه بنو اسرائيل خلال الالف سنة الاولى من وجودهم بأرض كنعان كمجموعة دخيلة، وهذا الاختيار لهذه النصوص تم نتيجة تقييم موغل في القدم، على أساس اعتبارات دينية قبل كل شيء. فالآداب التوراتية، من أقدم الى أقرب نص، مرتبطة جميعها وقبل كل شيء بالفكر الديني للذين كتبوها او نقلوها.

وعلى ذلك فإن ما اسمته الرسالة الشاملة للتوراة ـ بحكم نوعية الوثائق التي نقلته الينا ـ لا يمكن اعتبارها خارج الاطار الديني.

بالطبع ليس الانسان روحا فقط وعلاقته مع آلهته لا يمكن فصلها عن حياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والعاطفية، وهذه كلها تتأثر بشكل عميق بالازمات التي تصيبها. لذلك فإن تاريخ بني اسرائيل يعكس على التوراة ويبقى على أي حال ان التوراة تحيطنا علما قبل أي شيء بتقدم شعب من شعوب الماضي بالنسبة لمشاعره الدينية لأيديولوجيته، لموقفه من الدين. وعلى هذا الاساس تأخذ التوراة موقفها من تاريخ الانسان الذي كان وما زال، شئنا أم أبينا، ينزع الى الدين ناسياً او متناسياً جذورها الأولى في الفكر الديني العراقي القديم.

ان القسم التاريخي في التوراة يتضمن الكثير من التكرار مما يشوّش الذهن فحكاية بداية العالم حتى سقوط اورشليم للمرة الاولى طويلة جداً كما جاءت في «سفر التكوين» وحتى «سفر الملوك الثاني»، ثم تكررت بشكل مكلف جداً مع تفاصيل جديدة او متناقض في «سفر الاخبار» نعثر على نفس الواقعة مع تعديل طفيف أحيانا، مكررة مرتين او أكثر في نفس النص: مثلاً كيف يمكن الاقتناع بصحة مغامرة ابراهيم الذي - تحاشيا للمتاعب من قبل ملك شغوف بالنساء كان عليه ان يجتاز مملكته - جعل زوجته تتظاهر بأنها اخته. فيبدو ان الواقعة، حدثت له مرتين الاولى في مصر «سفر التكوين 10:7 - 20» والثانية في جرار امام ابيمالك «سفر التكوين 20: 1 - 18» اما المرة الثالثة فحصلت مع ابنه اسحق في نفس المكان وامام نفس الملك (التكوين 26: 1، 7 - 11).

على ان مثل هذا التكرار غير واضح في أغلب الاحيان ويختبىء وراء سرد يبدو متجانساً لأول وهلة، غير ان النظرة الثاقبة لا تلبث ان تكتشف التفاصيل المتضاربة سيما اذا كانت القراءة تتم في اللغة الاصلية. فإذا تفحصنا رواية «حلم يعقوب» الشهير (تكوين 28: 10 - 22) نجد ان جزءا من الرواية (11 - 12، 16 - 17، 20 حتى نهاية 22) وهذا الاخير يحمل هنا بالعبرية اسم الوهيم العبراني - ولكن الجزء الاخر (10، 13، 14، 15، 16، 19 والكلمات الاولى من 22) وهو مختلط بالأول، نجد فيه ان الله يحمل اسم «يهوه» ولا يشير اطلاقا الى ألوهيم: نجد يهوه يقابل فجأة يعقوب الذي بدوره يستنتج ان الله يقيم في هذا المكان.

وهكذا نستطيع القول عن اسفار الانبياء والجامعة والأمثال والتي لا تخلو من التكرار، لا بل لا تكثر فيها العناصر المشكوك بأمرها وحتى غير المعقولة.

هل وجد موسى فعلا؟ بدون شك، ولكن ما هو دوره؟ هل نتصوره وقد شق البحر الاحمر باشارة منه لكي يعبره شعبه بانتظام، هل نتصوره وهو يتنقل خلال اربعين عاماً على رأس «ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين شخصا ما عدا اللاوبين» (سفر العدد 1 :46) في صحراء لا تستطيع ان تقيت الفا منهم؟

هل كان داود مؤلف جميع المزامير التي تحمل اسمه، علماً بأن العديد منها يشير الى وضع سياسي واقتصادي واجتماعي متدهور وبائس (9، 10، 12، 14، 25، 28...) مما يتعارض مع صموئيل (الاول والثاني) الذي يصف ولاية هذا الملك الكبير بطابع المجد والازدهار؟

هل كان سليمان أول من بني الهيكل لبني اسرائيل (الملوك الاول فصل 5:15)، أم هل نصدق سفر الخروج (فصل 25) الذي جاء فيه ان أتباع موسى الرّحل، كانوا ينقلون معهم قبل ذلك التاريخ بثلاثة قرون في صحراء سيناء، معبداً بنفس الحجم تقريباً، معبداً كاملاً وفخماً لكنه قابل للتفكيك؟

ان مثل هذه الشكوك تكثر في التوراة فيما اذا حاول القارىء الاطلاع فيها على الوجود الحقيقي لمن كتبوها: أما بالنسبة للقارىء العادي فتظل لغزاً. بعض المهووسين، بمنتهى الطيش لا يجدون في التوراة الا الخداع والمخاتلة.. محاولين بذلك حلّ الاشكال بحذق معطياته، لكن الواقع ان الكثير مما جاء في التوراة، الغث والسمين منه، تأكد بشكل مباشر او غير مباشر، بشكل صريح من خلال الحفريات الاثرية او تفكيك وثائق غير توراتية، مما لا يدع مجالاً للشك بالنسبة للعاقل بأنها تحتوي على عناصر قصة حقيقية.

لكنها عناصر متفرقة بلا ترتيب غير مصقولة.

في الواقع ان مؤلفي الكتب التوراتية المختلفة وجامعيها وناشريها، حاولوا ترتيبها نوعا قبل ادماجها في «القانون» لكن هدفهم كان نفعياً على المستوى الديني وهو موضع اهتمامهم الوحيد: لم يهتموا بتدوين واقع شعبهم في ماضيه ولا بالكشف عن هذا الماضي، كما كان، بل انصب اهتمامهم على تذكير القارىء بعالمهم الديني لا بل اثبات صحته: سلطان الله واختياره لشعبهم، قدم وقدسية التعاليم المعطاة اليهم وضرورة طاعته... منذ الفصل الاول في سفر التكوين، يظهر بين السطور مثل هذا الاهتمام التبريري: عمل الخالق يتم على ثماني دفعات ولكنه يصار الى ضغطه ليصبح ستة فقط وذلك ليكون اليوم السابع يوم راحةالاله. وذلك لان ديانة بني اسرائيل تقضي بستة أيام عمل ويوم سابع للراحة والعبادة (خروج 20: 8) وهكذا يبدو ان المؤلف أراد ان يطبق القاعدة على سلوك الله نفسه بغية اعطائها قيمة كونية ان صح القول.

إذن، فإن التوراة بترتيبها الحالي، تحمل تماما طابع ايمان مؤلفيها - لئلا نقول سذاجتهم - ذلك الايمان الذي يلقي بظلاله عليها. اما نحن فإننا في هذا الكتاب نبحث عما حصل فعلا في ماضي هؤلاء المؤلفين: فكيف يمكننا ان نقبل أقوالهم وكأنها معصومة عن الخطأ؟ في الحقيقة، لا تشكل التوراة تاريخ اسرائيل بل ان تاريخ اسرائيل يجب ان يُكتب بمساعدة التوراة التي تُشكل ملفه.

تبين لنا فيما سبق ان اسفار التوراة تحمل جميعا، بنسب مختلفة عند سرد الاحداث، الطابع النفعي لمؤلفيها او جامعيها. والاكتشاف التمهيدي الاكثر تخريبا، بالنسبة لمؤرخي التوراة كان تقصّي هذه المداخلات التي هي عبارة عن حشو يؤذي بصر ذلك الذي يبحث عن حقيقة الماضي، وتقليص هذا الركام الكثيف الى عناصره الوثائقية الاولى بغية استعمالها مباشرة لرواية التاريخ بشكل سليم من المقتبسات العديدة والطويلة من تراث الشعوب السابقة لاسرائيل بآلاف السنين، سيما من تراث سومر وبابل واشور الواضح الاثر في التوراة الحالية. فكان لا بد من رسم لوحة لتوراة «يعاد وضعها حسب الترتيب التاريخي» على ان يقوم بذلك ناشر ذكي وشجاع يوما، فتحلّ محل هذه الطبعات المتكررة الى ما لا نهاية من النص الكنائسي.

فاكتفينا نحن هنا بالنصوص التي دخلت بصورة عفوية او مقصودة، بصورة مباشرة او غير مباشرة من تراث الحضارة السومرية وبابل الاكادية ونينوى الاشورية وغيرها من نصوص وادي الرافدين الواضحة المعالم بين سطور اسفار التوراة الحالية.

ففي مجال الأسفار التاريخية، لم يكن من العسير بداية الكشف عن الاضافات والزيادات المنسوبة الى العقيدة التي أدخلها البعض على الوثائق السابقة اضافة الى المقتبسات الفكرية والعقيدية ثم التشريعية والحكمية التي وظفّها كتّاب التوراة لغاياتهم البعيدة المدى كما بينا في كتابنا هذا دون تحيز او تعصب او عنصرية، انما الحقيقة هي العليا والفضلى فقط لمجرد بيان دور الفكر العراقي القديم وتأثيراته في مجاوريه من الشعوب التي كانت خاضعة له في زمن ما من العهود والعصور. وهذا يعني ان جامعي التوراة تدخلوا في كافة الاسفار التاريخية والانبياء والحكمة والتشريع. وهكذا أصبح بالامكان - بفضل جهد المؤرخين الضخم والصامت - «كتابة التاريخ التوراتني بمساعده التوراة نفسها». وهذا ما ننتظره من الباحثين والمحققين في المستقبل القريب لوضع الحق في نصابه والحقيقة ترجع الى أصحابها.

والله وليّ التوفيق.

كلمة أخيرة

خمسة وعشرون عاما من استنطاق الكلمة الجامدة واستقراء النص المتحرك، واستجلاء الاخبار الصادقة مع تحقيق الرواية المرمية في زوايا التاريخ، ومن ثم المقارنة والمقابلة بين الاقتباسات الصيلة والثانوية، واستجلاء الواقع من الخيال في بطون المصادر، ومتون المراجع، حتى وصلنا الى هذه الحقيقة ـ ولا ادّعيها كاملة ـ فلله وحده الكمال.

أجل ربع قرن من الزمن، وأنا بين الكتب والصحف، بين أكوام المراجع والمصادر، غارق في بحر من الأوراق والأسطر، ومحيط من الجمل والكلمات كيما أكون أميناً دقيقاً، محققاً ومستفهماً. أتساءل وأجيب، لكيما أصل الى بغيتي التي أخذت من أفكاري كل مأخذ، أين الحق من الباطل وأين الأصيل وأين الدخيل؛ أين الواقع من السراب.

وأنا في موقفي هذا لست ادحض فكرة، ولا انقض نصاً ولا أنكر حقيقة وردت في العهد القديم، انما العكس هو الصحيح. فغايتي هو إثبات النص والفكرة، والتوافق بين ما ورد من نصوص بالعهد القديم والألواح العراقية القديمة، فكلاهما يحقق الآخر ويبرهن على صحته مع اختلاف في الطرح. حيث الجوهر واحد، والهدف واحد، ان الله الواحد الاحد هو الخالق الأعظم، ومدّبر الكون بعنايته.

فالكتاب المقدس، ليس كتاباً، كما يُفهم، او كما يُضمر في أحيان كثيرة. انه مجموعة كتب متباينة، ألفت عناصرها بين العام 1100 وقرن او قرنين قبل الميلاد، فليس كتاباً تاريخياً وإنما يمثل نخبة من الأدب الديني الاسرائيلي، وليست الديانة الاسرائيلية، مثل الديانة الرافدينية وكثير غيرها من النوع الذي اسميه «ديانة شعبية» وان ذهناً دينياً أسسها في فترة معطاة من الزمن وقابلة للتعيين. ذهناً كوّن لنفسه

تصوره الخاص لـ ما فوق الطبيعي، وللسلوك الذي يمليه في نظره، ثم نشر هدا التصوّر وفرضه من حوله، ربما عن طريق الكتابة، لكن هذا الطريق ليس ضرورياً في البداية، على الاقل عن طريق مريدين وخلفاء أيدوا مهمة معلّمهم، دافعوا عنها وعملوا على تأصيلها، واعتباراً من لحظة معينة، نجهل حتى بالضبط، كتب هذا البرنامج الديني، بطريقة او بأخرى في مناسبات عديدة، وأثريت هذه الكتابات بطرق شتى وشيئاً فشيئاً نقحت ورتبت وأعيد تنسيقها، كتب في هذا البرنامج أشخاص عديدون زعماء دينيون او مجرد مؤلفين اتقياء كتابة تمثلهم، وكل منهم قدم شهادة للخطة معينة من التاريخ ومن تطور الدين الاسرائيلي، وقد جمعت هذه الكتب في الحالة التي أوصلها اليها استعمال مديد، واعادة قراءة متعالية،، دون استبعاد المراجعات وعمليات التصويب، جمعت في «قانون» كما يقال، أي في لائحة رسمية وضعت وقبلت من قبل سلطات دينية: تحت معيار «المحافظة» لأن كل ديانة تاريخية سرعان ما تزدهر بالضرورة في المحافظة والتقليد أي في فرص التقيّد بفكر المؤسس والامتثال لارادته فكر وإرادة طُوّر من بعده عبر السلالة الطويلة لأولئك الذين إرتبطو بتعاليمه ودافعوا عنها. فالعهد القديم هو تلك المجموعة المعرّف بها والمقبولة من أب اسرائيل الديني.

وبالإجمال حاولنا ان نبيّن ان الكتاب المقدس (العهد القديم) قد اقتبس الكثير من الفكر والأدب الذي سبقه وبالذات من الفكر والأدب الرافديني. وبذلك لم يعد ذلك الكتاب الفريد والفوق طبيعي، كما لم يعد أقدم الكتب جميعاً الذي كتب من قبل الله شخصياً، او بإملاء او «الهام» منه كما كنا نراه يومياً. فقد تبيّن لنا انه في الواقع مغمور ضمن تيار هائل من الفكر والأدب الانسانيين - سيما الرافديني - فلم يعد يمكن اذن قراءته كما في السابق، عليّ انه مُنّزَل مباشرة من الله شخصياً. لقد تحوّل قبل كل شيء، الى كتاب كتبه - بشر - أيا كانت الغيمة فوق الطبيعة لرسالته التي لا يضيرها تاريخه او طريقة صنعه، او تأليفه في شيء».

فعلاقة قصة طوفان نوح التوراتية مع طوفان آتونابشتيم السومرية/ البابلية، قصة خلق الانسان وجنته التوراتية وقصة الخلق البابلية/إينومااليليش؛ قصة أيوب البار التوراتي مع قصة المتالم البرىء السومري، وقصيدة نشيد الاناشيد التوراتي مع قصيدة الزواج المقدس السومرية/ البابلية وغيرها من الحكايات والمناظرات واللوحات الفكرية التي لها تجاذب وتداخل فيما بينها وما ورد في العهد القديم والنصوص المسمارية السومرية منها والبابلية مروراً بالاكادية وانتهاء بالاشورية. وخاصة بين الامثال وأسفار الحكمة وايشوع بن سيراخ مع نصوص الامثال العراقية القديمة في سومر وآكاد وبابل ونينوى وبالاخص علاقة حكمة أحيقار الاشوري وما اقتبسه الكاتب التوراتي منه واضافته الى أسفار الحكمة التوراتية.

فاكتشاف الوثائق القديمة سيما الالواح الحجرية والفخارية من باطن أرض وادي الرافدين وخاصة في سهل شنعار/ بابل، وسهول نينوى/ مكتبة اشور بانيبال غير القابلة للتحوير والتزوير، او التزييف والانتحال هي التي أكدت لنا صحة هذا لتلاقح والتزاوج من الأفكار والممارسات، ومن ان كاتب التوراة او كتابها وما اقتبسوه او انتحلوه او وظفوه لخدمة مصالحهم وممارساتهم وتعميقاً في أذهان الناس كافة بان ما أوردوه في كتابهم هو أصيل أصيل، والحال انه مقتبس ومنتحل.

فسكان وادي الرافدين، أقدم أسلاف البشر، يمكن الرجوع اليهم لأول ثقافة عرفت تاريخياً. تلك التي ابتدعت الكتابة منذ خمسة الاف سنة، التي تؤكد لدينا ما اقتبسه كتّاب العهد القديم - كما أسلفنا قبل قليل - من كتاباتهم الدينية والادبية، وقصائدهم الروحية والبطولية، فتأثر به اليهود ووظفوه لخدمتهم أولاً، ومن ثم لخدمة البشرية كلها.

فحبثنا هذا الذي خصصناه لدراسة أقدم الاديان في بين النهرين، والعهد القديم والافكار والصور التوراتية اقتنعنا بأن وراء التوراة نفسها تاريخاً طويلاً وثرياً تشهد عليه عشرات الالوف من اللوحات الصلصالية التي كتب بالخط المسماري والتي ما زال الآلاف منها بعد في بطن ارض العراق الحبلى بكل عجيب ومفاجيء.

وها أنذا - وبكل تواضع - اضع حصيلة جهود ربع قرن من العمل الدؤوب عن هذا الامر الخطير والبحث الثمين لأوضح مدى عمق العلاقة الجوهرية والتأثيرات الفكرية والروحية بين التوراة (العهد القديم) وتراث وادي الرافدين العريق العريق منذ ان نشز الانسان الأول في سومر/ اوروك وبزغت فيه شمسُ الحضارة اراكي، وكتب أول جملة في سيبار ونيبور ودرب السماء بابل مقرّ الإله إيل.

فالعراق نور لا ينطفيء،

ومعين لا ينضب،

وحضارة لا تخمد،

وتراث لا ينتهي...

فهذا الكتاب «التوراة البابلية» ولد ليسلط الضوء عل «التوراة اليهودية» ويكشف النقاب عن ما اقتبسه الكاتب اليهودي من تراث السومريين والبابليين، مروراً بالاكاديين وانتهاء بالاشوريين وكيف شوّهوا هذا التراث الروحي السامي والتاريخي الثرّ الشريف، محاولة طمسه وتسفيهه. وكنا قد سبق ونشرنا كمقدمة لهذا الكتاب، كتاباً تحت عنوان «أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية» عام **1998**، وقامت بنشرة دار نشر بيسان في لبنان.

فـغـاية المؤلف هو اطلاع القـارىء العـربي على جـانب من تراث وادي الرافـدين الفكري الذي يجهله غالبية المثقفين، الا الفئة القليلة من المختصين مع ان عدداً كبيراً من الدراسات حوله متوافرة من اللغات الاخرى كالالمانية والانكليزية والفرنسية.

إن التعريف بهذه الجوانب وترجمة نصوصها سيساعدنا بلا شك في تعرّف جذور النزعة الصهيونية العنصرية واستغلالها، ومحاولة طمس تراث العراق القديم الروحي التاريخي ومصادرته، الحطّ من شأنه في محاولة بغرض الوصاية على العالم والبشرية جمعاء لاغية آلاف الاعوام من التراث الحضاري والروحي المبدع لأقوام الاقليم، السومريون والاكديون والبابليون والاشوريون، لتسفر عن وجهها في آخر الامر ملتمسة مسوغات لاحتلال فلسطين وبقية اقاليم المشرق العربي وطرد سكانها الاصيليين الاصليين، من المسيحيين والمسلمين.

وفي الوقت ذاته فانا لا أطرح برنامجاً سياسياً او عقائدياً وانما هو محاولة لإماطة اللثام عن ما كشفته لنا لتنقيبات الاثارية من حقائق التي صاغها الكاتب اليهودي ثانية بما يخدم غاياته ويحقق أهدافه. إلا أنه تبقى الحقيقة الدامغة «الشمس لا يمكن اخفاءها بالغربال».

دير يسوع الملك
25 نيسان 2002



جريدة المصادر والمراجع

أولاً: الكتب العربية

1 ـ **الكتاب المقدس (العهد القديم)** ترجمة، المطران اقليميس يوسف داود، مطبعة الاباء الدومنيكان، (الموصل، 1871). سفر التكوين * سفر الخروج * سفر العدد * سفر الاحبار * سفر تثنية الاشتراع * سفر المزامير * سفر الامثال * سفر الجامعة * سفر يشوع بن سيراخ *، سفر طوبيا* سفر الجامعة * سفر يشوع بن سيراخ * سفر طوبيا* سفر أيوب * سفر نشيد الاناشيد* سفر الحكمة* اسفار الانبياء الكبار: اشعيا، ارميا، حزقيال، دانيال.

2 ـ الدكتور محمود الامين، **قوانين حمورابي**، مستل من مجلة كلية الاداب، عدد 3 كانون الثاني، (بغداد، 1961).

3 ـ المطران مارغريغوريوس بولس بهنام، **احيقار الحكيم**، منشورات مجمع اللغة السريانية، مطبعة التايمس، (بغداد، 1976).

4 ـ الدكتورة، ألفت محمد جلال، **العقيدة الدينية والنظم التشريعية عند اليهود**، مكتبة سعيد رأفت، المطبعة الفنية الحديثة، (1974).

5 ـ الدكتور فوزي رشيد، **الشرائع العراقية القديمة**، منشورات وزارة الاعلام الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة والنشر، (بغداد، 1973).

6 ـ ايليا أبو الروس، **اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية**، دار الاتحاد، (بيروت، 1964).

7 ـ صالح حسين الرويح، **العبيد في العراق القديم**، مطبعة اوفسيت الميناء، (بغداد، 1977).

8 ـ الدكتور احمد سوسة، **العرب واليهود في التاريخ**، الطبعة الثانية، دون ذكر المكان والتاريخ للطبع.

9 ـ الدكتور احمد سوسة، **ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق**، الطبعة الثانية، (بيروت 2001).

10 ـ الدكتور عبد الرضا الطعان، **الفكر السياسي في العراق القديم**، منشورات وزارة الاعلام،

الجمهورية العراقية، دار الخلود للطباعة والنشر، (بيروت 1981).

11 ـ تلماستيان عقراوي، المرأة، **دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين**، منشورات وزارة الاعلام، دار الحرية للطباعة والنشر، (بغداد 1978).

12 ـ كمال احمد عون، **اليهود في كتابهم المقدس**، مطبعة الشعب، (مصر، 1969).

13 ـ الدكتور فؤاد حسنين علي، **التوراة الهيروغليفية**، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، (القاهرة بلا تاريخ).

14 ـ الاب سهيل قاشا، **الحكمة في وادي الرافدين**، مطبعة شفيق، (بغداد، 1983).

15 ـ الاب سهيل قاشا، **المرأة في شريعة حمورابي**، مطبعة الجامعة، (الموصل، 1986).

16 ـ الأب سهيل قاشا، **حكمة احيقار واثرها في الكتاب المقدس**، دار المشرق (بيروت 1996).

17 ـ الأب سهيل قاشا، **مقتبسات شريعة موسى من شريعة حمورابي**، (بيروت 2002).

18 ـ حسن النجفي، **الشيقل**، مطبعة البنك المركزي، (بغداد، 1981).

19 ـ رضا جواد الهاشمي، **نظام العائلة في العهد البابلي القديم**، مطبعة الآداب، (النجف الاشرف، 1971).

20 فراس السوّاح، **مغامرة العقل الاولى**، دار الكلمة، ط 4 (بيروت، 1985).

21 فراس السوّاح، **قراءة في ملحمة كلكامش**، طبعة اولى، (دمشق، 1987).

22 ـ عباس العبودي، **شريعة حمورابي**، دراسة قانونية ـ مقارنة مع التشريعات الحديثة، جامعة الموصل، (الموصل، 1990).

23 ـ مفيد عرنوق، **التوراة والتراث السوري**، دار النضال للطباعة والنشر، (بيروت 1986).

24 ـ الدكتور انيس فريحة ، **دراسات في التاريخ**، طرابلس، (جروس برس، 1991).

25 ـ الدكتور عبد الهادي عبد الرحمن، **التاريخ والاسطورة**، دار الطليعة، (بيروت، 1994).

26 ـ الدكتور عبد الباسط سيدا، **من الوعي الاسطوري الى بدايات الفكر الفلسفي النظري، (بلاد الرافدين)**، (دمشق، 1995).

27 ـ تركي علي الربيعو، **من العين الى الحجر**، المركز الثقافي العربي، (بيروت، 1996).

28 ـ الأب سهيل قاشا، **اثر الكتابات البابلية في المدوّنات التوراتية**، (بيروت، 1998).

29 ـ يوسف الحوراني، **جماليات الحكمة، في التراث الثقافي البابلي**، دار النهار للنشر، (بيروت، 1994).

30 ـ علي الشوك، **الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة**، دار اللام (لندن، 1987).

31 ـ فرج الله صالح ديب، **التوراة العربية واورشليم اليمنية**، دار نوفل، (بيروت، 1994).

32 ـ الدكتور كمال صليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، مؤسسة الابحاث العربية، ط 4، (بيروت ـ 1991).

33 ـ الدكتور فاضل عبد الواحد علي، **الطوفان**، مطبعة الاخلاص، (بغداد، 1975).

34 ـ حسن الكرياسي، **مطالعات في الكتب القديمة**، (بيروت 1997).

35 ـ الدكتور احمد حجازي، **التوراة السامرية**، دار الانصار، (مصر، 1977).

36 ـ الدكتور وديع بشّور، **الميثولوجيا السومرية، اساطير آرام**، ط 2، (دمشق بلا تاريخ).

37 ـ شفيق مقار، **قراءة سياسية للتوراة**، ط 1، (قبرص، 1991).

38 ـ الدكتور فاضل عبد الواحد علي، **سومر اسطورة وملحمة**، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، (بغداد، 1997).

39 ـ فؤاد حسين مزنَّر، **هكذا حرّفوا التوراة**، دار الخلود (بيروت، 1991).

40 ـ الدكتور صلاح سلمان رميض الجبوري، ادب **الحكمة في وادي الرافدين**، دار الشؤون الثقافية العا،ة، (بغداد، 2000).

41 ـ الدكتور عبد الرحمن الكيالي، **شريعة حمورابي**، مطبعة الضاد (1958).

42 ـ الدكتور حسن فاضل جواد، **حكمة الكلدانيين**، القسم الاول، مقدمات ونصوص، (بغداد 2000).

43 ـ ناجح العموري، **موسى وأساطير الشرق**، ط 1 (الاهلية، 2001).

44 ـ الدكتور نائل حنون، **عقائد الحياة والخلود في الحضارة العراقية القديمة**، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، 2001).

45 ـ خزعل الماجدي، **ميثولوجيا الخلود**، الاهلية للنشر والتوزيع (ط 1، 2002).

46 ـ زياد منى، **تلفيق صورة الاخر في التلمود**، شركة قدمس للنشر والتوزيع، (بيروت 2002).

47 ـ خزعل الماجدي، **اديان ومعتقدات ما قبل التاريخ**، دار الشروق، رام الله: المنارة ـ 1997.

48 ـ خزعل الماجدي، **بخور الآلهة**، ط 1، طبع في لبنان على مطابع شركة الطبع والنشر اللبنانية (الاهلية، 1998).

49 ـ خزعل الماجدي، **انجيل سومر**، ط 1، (طبع في لبنان) (الاهلية للنشر والتوزيع، 1998).

50 ـ خزعل الماجدي **انجيل بابل**، ط 1، منشورات الاهلية لعام 1998،

51 ـ خزعل الماجدي، **متون سومر**، ط، (الاهلية، 1998).

52 ـ الدكتور فاضل عبد الواحد علي، **من سومر الى التوراة**، ط 2، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، 1997).

53 ـ قاسم الشواف، ديوان الاساطير: **سومر وآكاد وآشور**، الكتاب الاول، اناشيد الحب السومرية، (دار الساقي، 1996).

54 ـ قاسم الشواف، ديوان الاساطير: **سومر وآكاد وآشور**، الكتاب الثاني، الآلهة البشر، (دار الساقي، 1997).

55 ـ قاسم الشواف، **ديوان الاساطير**، الكتاب الثالث، الحضارة والسلطة، (دار الساقي، 1999).

56 ـ قاسم الشواف، **ديوان الاساطير**، الكتاب الرابع، الموت والبعث والحياة الابدية، (دار الساقي، 2001).

57 ـ الدكتور سامي سعيد الاحمد، **ملحمة كلكامش**، دار الجيل (بيروت، 1984).

58 ـ خزعل الماجدي، **الدين السومري**، سلسلة التراث الروحي للانسان (2)، (دار الشروق، 1998).

59 ـ نواف حردان، **التوراة باطل وخطر**، دار الحداثة، ط 3، (بيروت 1996).
60 ـ الدكتور فاضل عبد الواحد علي، **عشتار ومأساة تموز**، ط 1، الاهالي للطباعة والنشر والتوزيع (1999).
61 ـ الدكتور كمال الصليبي، **خفايا التوراة وأسرار شعب اسرائيل**، (دار الساقي، 1998).
62 ـ فراس السوّاح، **الحدث التوراتي والشرق الادنى القديم**، دار علاء الدين، بلا تاريخ.
63 ـ فراس السوّاح، **لغز عشتار**، (الطبعة السورية، ط 2 (1986).
64 ـ الدكتور خضر الحموي، **التفاعل القانوني**، ط 1، طبع على مطابع زين الدين، القرية، بلا تاريخ.
65 ـ رفيق واكيم، **اساطير توراتية**، طبعة اولى، (انطلياس، 1998).
66 ـ سيد القمني، **اسرائيل التوراة.. التاريخ والتضليل**، دار قباء للطباعة والنشر، (الاقهرة، 1998).
67 ـ علي حسين خلف، **الحضارة الكنعانية والتوراة**، ط 1، (بيروت 1999).
68 ـ اكرم ابراهيم، **التوراة في ميزان الحقائق المسيحية**، دار جفرا للدراسات والنشر، ط 1 (دمشقو 1997).
69 ـ الدكتور كمال الصليبي، **حروب داود**، دار الشروق للنشر والتوزيع، (عمان، 1990).
70 ـ الدكتور عبد الهادي عبد الرحمن، **التاريخ والاسطورة**، دار الطليعة (بيروت، 1994).

ثانيا: الكتب الاجنبية المعرّبة:

1 ـ الأب ديلي، **تاريخ شعب العهد القديم**، تعريب الاب جرجس المارديني، المطبعة الكاثوليكية (بيروت، 1962).
2 ـ دانيال روبس، ما هو الكتاب المقدس، تعريب مخايل الرّجي دار المكشوف، (بيروت، 1959).
3 ـ جان إمل ريك، مركزه **المراة في قانون حمورابي وفي القانون الموسوي**، تعريب سليم العقاد، المطبعة العصرية، (مصر، 1926).
4 ـ جورج بوبييه سمار، **المسؤولية الجزائية في الاداب الاشورية والبابلية**، ترجمة سليم الصويص، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، دار الحرية، (بغداد، 1981).
5 ـ شوستر وماي، **تاريخ الكتاب المقدس**، ترجمة الابوان فرنسيس دونيكل ويوسف علوان، مطبعة بطريركية اللاتين، (القدس، 1962).
6 ـ صموئيل نوح كريمر، **من الواح سومر**، ترجمة طه باقر، نشر الكتاب بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة (بلا تاريخ).
7 ـ مؤلف مجهول، **الاسفار المقدسة**، الجزء الاول، تعريب الاب يوسف قوزي، المطبعة العصرية، (الموصل، 1965).
8 ـ مؤلف مجهول، **التوراة والتاريخ**، تعريب الاب عمانوئيل رئيس المطبعة العصرية، (الموصل، 1965).
10 ـ ادوار كييرا، **كتبوا على الطين**، ترجمة الدكتور محمود حسين الامين، نشر بالمشاركة مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد ـ نيويورك، مكتبة دار المثنى، (بغداد، **1964**).

11 ـ جيمس فريزر، **الفولكلور في العهد القديم**، ترجمة الدكتورة نبيلة ابراهيم، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة لكتاب (القاهرة، **1974**).

12 ـ ج.ك. كوربيتون، **اقرأ طوبيا**، ترجمة الأب يوحنا عيسى، (بيروت، **1975**).

13 ـ صموئيل نوح كريمر، **طقوس الجنس المقدس عند السومريين**، ترجمة نهاد خياطة، (دمشق، **1986**).

14ـ ك. ماتييف وا. سازونوف، **حضارة ما بين النهرين العريقة**، ترجمة د. حنا آدم، (دمشق **1991**).

15 ـ الدكتورة ايفلين كلينكل ـ برانرت، **رحلة الى بابل القديمة**، ترجمة الدكتور زهدي الداوودي، (دمشق، **1884**).

16 ـ فريد ريك دبليتش، **بابل والكتاب المقدس**، ترجمة ايرنيا داود، ط 1 (دمشق، **1987**).

17 ـ د. اذزارد، م. هـ. بوب، ف. رولينغ، **قاموس الآلهة والاساطير**، ترجمة محمد وحيد خياطة، (حلب، **1987**).

18 ـ زنون كومسيروفسكي، **الأسطورة والحقيقة في التوراة**، ترجمة الدكتور محمد مخلوف، (دمشق **1996**).

19 ـ هنري ساغبس، **جبروت آوشر الذي كان**، ترجمة الدكتور آحو يوسف، دار الفارابي، (بيروت، **1995**).

20 ـ هـ. ا. ديل ميريكو، **التوراة الكنعانية**، ترجمة جهاد هوّاش وعبد الهادي عباس، (دمشق، **1988**).

21 ـ مارغريت روتن، **تاريخ بابل**، ترجمة زينة عازار وميشال ابي فاضل، منشورات عويدات، (بيروت، **1984**).

22 ـ مؤلف مجهول، **التوراة تاريخها وغاياتها**، دار النفائس، (بيروت، ط 2، **1992**). **ترجمة وتعليق سهيل ديب**.

23 ـ م. ريجسكي، **انبياء التوراة والنبوات التوراتية**، ترجمة الدكتور آحو يوسف، ط 1 (دمشق، **1993**).

24 ـ الزة زايبرت، **رمز الراعي في بلاد الرافدين**، ترجمة محمد وحيد خياطة، ط 1، (دمشق **1988**).

25 ـ علي حسين خلف، **الحضارة الكنعانية والتوراة**، ط 1، (بيروت، **1999**).

26 ـ الدكتور كارم محمود عزيز، اساطير التوراة **الكبرى** وتراث الشرق الادنى القديم، ط، دار الحصاد (دمشق، **1999**).

27 ـ جان بوتيرو، **بابل والكتاب** المقدس، ترجمة روز **مخلوف**، دار **كنعان**، ط 1 (دمشق، **1994**).

28 ـ اسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي، الديانة **اليهودية**، **ترجمة** صالح لعي سوداح، بيسان، (بيروت، **1995**).

29 ـ ستيفاني دالي، **اساطير من بلاد ما بين النهرين**، نقلتها الى العربية نجوى نصر، بيسان، (بيروت، 1991).

30 ـ جان كلود مارغرون، **السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية**، ترجمة سالم سليمان العيسى، منشورات دار علاء الدين، (دمشق، 1999).

31 ـ توماس ل. طومسون، **التاريخ القديم للشعب الاسرائيلي**، ترجمة صالح علي سوداح، بيسان (بيروت، 1995).

32 ـ هورست كلينجل، **العصر البابلي القديم ودولة حمورابي**، تعريب، الدكتور عبدالله الحلو، دار شمال (بلا تاريخ)

33 ـ هاري ساكز، **عظمة بابل**، ترجمة الدكتور عامر سليمان، جامعة الموصل، (الموصل 1980).

34 ـ هاري ساكز، **قوّة اشور**، ترجمة الدكتور عامر سليمان، منشورات المجمع العلمي، (بغداد، 1999).

35 ـ هاري و. ف، ساكز، **الحياة اليومية في العراق القديم (بلا بابل واشور)** ترجمة كاظم سعد الدين، (بغداد، 2000).

36 ـ كلشكوف، **الحياة الروحية في بابل**، ترجمة عدنان عاكف حمودي، دار المدى، ط 1، (بيروت 1995).

37 ـ ك.ب. ماتييف وا.ا. سازانوف، **الالواح تتكلم**، ترجمة بنيامين. م. بنيامين. (1985).

38 ـ ادون بفن، **ارض النهرين**، ترجمة الاب انستاس ماري الكرملي، مطبعة المعارف، (بغداد، 1961).

39 ـ مرغريت روتن، **علوم البابليين**، تعريب الاب يوسف جي، (بغداد، بلا تاريخ).

42 ـ شفيق مقار، **الجنس والتوراة**، الكتاب الأول. دار يعرب للدراسات والنشر، دمشق 1998.

43 ـ زياد منى، **جغرافية التوراة**، دار الريس، ط 1 (بيروت، 1994).

44 ـ جان بوتيرو، **ولادة اله التوراة والمؤرخ** ترجمة جهاد الهوش وعبد الهادي عباس، (دمشق 1999).

45 ـ السير وليم برسي ولكوكس، **جنة عدن**، ط 1، (بغداد، 1956).

46 ـ توماس، طمسن، **الماضي الخرافي التوراة والتاريخ**، ترجمة عدنان حسن، ط 1 (دار قدس، 2001).

47 ـ الأب يوسف حبي، **انسان كلكامش**، (بغداد 1981).

48 ـ خزعل الماجدي، **المعتقدات الآرامية**، دار الشروق، ط 1 (2000).

49 ـ تابوي، **نبوخذ نصر**، ترجمة، فيليب عطاالله، دار الجيل، بيروت، 1994).

50 ـ الاب اسطفان شرينتييه، **دليل الى قراءة الكتاب المقدس**، نقله الى العربية الأب صبحي حموي اليسوعي، دار المشرق، (بيروت، 1983).

51 ـ الدكتور لطيف الياس لطيف، **لبنان التوراتي في اليمن**، دار الجنوب للطباعة (صيدا، 2000).

52 ـ مجموعة من الباحثين، **خلق الانسان والعالم**، نقله الى العربية، الأب سليم دكاش اليسوعي، دار المشرق، (بيروت، 1990).

53 ـ الأب بيار غرولو، **من انت أيها الإنسان**، نقله الى العربية الاب صبحي حموي اليسوعي، دار المشرق، (بيروت 1990).

ثالثاً: المقالات

1 ـ حكمت بشير الاسود، **التوراة وتأثرها بحضارة وادي الرافدين**، مجلة بين النهرين، (الموصل) العدد 30 ـ 31، السنة الثامنة (1980) ص 139 ـ 144، 267 ـ 272.

2 ـ حكمت بشير الاسود، **الموت والخلود بين حضارة وادي الرافدين والتوراة**، مجلة بين النهرين (الموصل) العدد 36، السنة التاسعة (1981) ص 321 ـ 324.

3 ـ الاب يوحنا عيسى، **بابل**، مجلة الفكر المسيحي، (الموصل) العدد، 14 نيسان 1972، ص 268 ـ 271.

4 ـ الاب عمانوئيل حنا سمعان، **العراق القديم والتوراة**، مجلة الفكر المسيحي (الموصل) العدد 84، حزيران 1979 ص 266 ـ 270.

5 ـ حكمت بشير الاسود، **الوصايا العشر في التووراة وشريعة حمورابي**، مجلة الفكر المسيحي، (الموصل)، العدد 92، حزيران 1980، ص 268 ـ 271.

6 ـ الدكتور فاضل عبد الواحد علي، **بين سومر وسفر التكوين**، مجلة كلية الاداب (بغداد) العدد 23 (91978.

7 ـ الدكتور فاضل عبد الواحد علي، **جنة عدن والفردوس المفقود**. مجلة كلية الآداب، العدد 22 (1978).

8 ـ الاستاذ فراس السوّاح، **معتقدات الشرق القديم**، وثنيه ام توحيد، مجلة الاتجاه، العدد 7 (بيروت 1997).

9 ـ الأب سهيل قاشا، **مقارنوة بين قصة الخلق البابلية وقصة الخلق التوراتية**، مجلة الاتجاه، (بيروت، 1998).

10 ـ الأب سهيل قاشا، **سفر التكوين وملحمة كلكامش**، مجلة المنارة، العدد، (جونية، 2001).

11 ـ الأب سهيل قاشا، **الحكمة الاشورية**، مجلة المنارة، العدد، (جونية، 2000).

فهرس الكتاب

الاهداء 5

المقدمة 7

تمهيد تاريخي 9

اثر أدب وادي الرافدين في الاداب القديمة 12

التوراة والتاريخ: 16–27

التاريخ والنص التوراتي، انعكاسات على التوراة، الالواح والاسفار،

توراة ما قبل التوراة: 28 ـ 32

الاسلوب اليهوي، الاسلوب الايلوهيمي، الاسلوب الكهنوتي،

تاريخ البدايات في التراث والتوراة: 33 ـ 43

التراث الانساني والتراث الكتابي، رواية الخلق، رواية الخلق والتراث الكهنوتي، ملحمة الخلق البابلية والتامل القصص الكهنوتي، اعادة تأويل المواضيع الاسطورية في النص الكهنوتي،

خلق السماء والارض 44

ملحمة الخلق (اينوما إيليش) 46

اينوما ايليش لأنبو شمامو 49

جنة عدن في أرض الرافدين 75

الواح الخليقة والطوفان 84

قصة آدم وحواء 96

قاين وهابيل 97

التكوين وخلق الانسان: 109 ـ 129

التكوين السومري، فصل السماء عن الارض، تنظيم الكون، انكي ينظم العالم، خلق الانسان، استراحة الخالق التكوين البابلي،

قصة الطوفان: 130 ـ 158

الطوفان السومري، الطوفان البابلي، الطوفان في ملحمة كلكامش، خلق الانسان وزلته، البستان او جنة عدن، كلكامش ونبات الحياة، خلق المراة من ضلع الرجل، موضوع الحية، الطوفان التوراتي، بين النص التوراتي والنصوص السومرية والبابلية

قانون حمورابي وشريعة موسى 159

شريعة موسى وعلاقتها بشريعة حمورابي 176

حكمة احيقار وأثرها في الكتاب المقدس 199

اثر حكمة احيقار في الادب العبري 227

الاصول السومرية لنشيد الاناشيد 262

نص نشيد الاناشيد السومري 275

سفر نشيد الاناشيد التوراتي 316

انبياء عراقيون 323

الاينومايليش: قصيدة التكوين والخلق البابلية 330

الخلاصة 419

كلمة اخيرة 426

جريدة المصادر والمراجع 431

فهرس الكتاب 438

منشورات المؤلف

1	أنت من أنت؟	بغداد	1963
2	سيرة الشهيد مار زينا	الموصل	1965
3	عبير الخزام في ذكرى الخوري أفرام	الموصل	1966
4	صور من المجتمع (مجموعة قصصية)	الموصل	1969
5	سيرة الشهيدة شموني وكنيستها في قره قوش	بغداد	1980
6	لمحات من تاريخ نصارى العراق	بغداد	1982
7	كنائس باخديدا	بغداد	1982
8	الحكمة في وادي الرافدين	بغداد	1983
10	تاريخ ابرشية الموصل للسريان الكاثوليك	بغداد	1985
11	المرأة في شريعة حمورابي	الموصل	1986
12	القيثارة النارية (ديوان المطران بولس بهنام)	بيروت	1994
13	خواطر من لبنان (شعر)	بيروت	1994
14	تكريت حاضرة الكنيسة السريانية	بيروت	1994
15	اثر حكمة احيقار في الكتاب المقدس	بيروت	1996
16	رؤية جديدة في المعتزلة	بيروت	1997
17	اثر الكتابات البابلية في المدوّنات التوراتية	بيروت	1998
19	الصهيونية تحرّف الانجيل	بيروت	1999
20	كيفك انت والمسيح	بيروت	2000
21	الاكليل الاثيل في ذكرى المطران النبيل	بيروت	2000
22	مذكرات المطران قورلس بولس دانيال	بيرورت	2001
23	النفاقة والحجر (شعر)	بيروت	2001
24	قديس من باخديدا	بيروت	2001
26	المسيحون في الدولة الاسلامية	بيروت	2002
27	من اعلام الموصل الدكتور محمد صديق بك الجليلي	بيروت	2002
28	مقتبسات شريعة موسى في شريعة حمورابي	بيروت	2002
29	الصحافة العربية في البلاد الغربية	بيروت	2002



هذا الكتاب

يأتي هذا الكتاب لينشر اضاءات جديدة على واقع العلاقات الدينية بين اسفار التوراة وألواح وادي الرافدين، خلال مرحلة مهمة من تاريخ الحضارة البشرية. فيبين الوجه المشرق لهذه العلاقة منطلقاً من جوهر اقتباسات التوراة وتأثر كتابها بأفكار العراق القديم الروحية في سومر وبابل ونينوى.

ولا شك ان الاقتراب من النظرة الموضوعية الى واقع شديد الحساسية والتعقيد، يؤكد ماعرف عن الكاتب الأب سهيل قاشا من حرص على الالتزام بمنهجية علمية ترمز هامزايا روحية وانسانية يتمتع بها، ويدعو وفقاًلها الى التحقيق والتدقيق في كل ماجاء بأسفار التوراة ورقوم سومر وبابل.

ان هذا الكتاب، وان يطرق بمطرقة النحات النبيه على صخرة الاصولية الجامدة ليشكل منها تمثالاً واضح المعالم والصورة الجليلة، وقد تولد لدى البعض منهم شكوك لما قد وصل به الباحث من وقائع ونتائج، لجدير بالقراءة لأنه يسلط الاضواء على تجربة انسانية غنية وهامة يفترض أخذ العبر منها والاستفادة من نتائجها بما يخدم الفكر العلمي، والبحث الرصين، والتراث الأصيل، بعيداً عن التعصب الاعمى والأحقاد الذميمة.

Jubran H. MOSTAFA T.: 961 3 88 26 40

ISBN 9953-417-25-3

